ذو القرنين وسد الصين

من هو... وأين هو...

تأليف

محمد راغب الطباخ

(ت ١٣٧٠هـ)

قدم له وعلق عليه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان



الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

غراس للنشر و التوزيع
الكويت - شارع الصحافة - مقابل مطابع الرأي العام التجارية
هاتف : ٤٨١٩٠٣٧ - فاكس : ٤٨٣٨٤٩٥ - هاتف و فاكس : ٤٥٧٨٨٦٨
الجهراء : ص.ب : ٢٨٨٨ - الرمز البريدي : ٠١٠٣٠
website : www.gheras.com
E-Mail : info@gheras.com

ذو القرنين وسد الصين

مَنْ هُوَ... وأيْنَ هُوَ...

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إنّ الحمدَ لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله مِن شرور أنفسنا، ومِن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِل فلا هادِيَ له.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له.

وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيْماً﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فهذه هي الطبعة الثانية من الكتاب الماتع النافع «ذو القرنين، وسد الصين: مَن هو وأين هو» لشيخ شيوخنا العلاّمة المحدث محمد راغب الطباخ -رحمه الله تعالى-، ننشره عن الطبعة الأولى التي نُشرت في حياة المؤلف على نفقة جمعية البر والأخلاق الإسلامية، وطبع في المطبعة العلمية العصرية بحلب، سنة (١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م).

وقمت بضبط نص الكتاب، وتعديل الأخطاء الموجودة في جدول آخره (ص ١٠١-١٠٢ - ط. الأولى)، وتوثيق نقولاته، والتعليق عليه، وتخريج نصوصه، والعمل على فهرسته، وأثبتُّ الهوامشَ التي وضعها المؤلِّفُ عليه، ووضعتُ عقبها: (منه).

وسبب نشري لهذا الكتاب؛ أنه في موضوع مهم، كثرت الأقاويل فيه، وله صلة بمستقبل البشرية، ولعل له أثراً -في نظر المصنِّف- فيما يجري اليوم على الساحة العالمية، حيث توقع مؤلِّفُه -رحمه الله تعالى- أن (الصين) -على الرغم من أنها كانت في زمانه[1] ضعيفة، وأن قتالاً عنيفاً ضارياً كان فيها مع الشيوعيين، وأنَّ مَلِكَها -آنذاك- استنجد بالولايات المتحدة الأمريكية- في آخر الأمر ستكون «في قوة كافية، واستعداد تام»[2]؛ بحيث «تتطلع إلى ما يليها من بلاد آسيا الغربية»[3]، ويجري بعد ذلك من الشُّرور في أمور لا يعلم خطورتها إلاّ الله -عزَّ وجلَّ-.

وهذا الكتاب نعته صاحبه في ديباجته، بقوله: «**فهذه تحريرات رائقة، وتحريرات فائقة**، تكشف النقاب عن ذي القرنين المذكور في كتاب الله -تعالى-، وبنائه لذلك السد العظيم، ومكان وجوده، وبيان أمّة يأجوج ومأجوج، وأحوالهم، وما كان منهم في سالف العصور، وما سيكون منهم في مستقبل الزمان»[4]، قال:

«أرجو أن تزول بها كلُّ شبهة علقت في بعض أفكار المؤرِّخين من العرب

(١) إذ صرّح (ص ٣١٨) أنه ألفه في أوائل سنة ١٣٦٨هـ ومطلع عام ١٩٤٩م.

(٢) انظر: (ص ٣١٩).

(٣) انظر: (ص ٣١٩)، ودراسة «المكانة المستقبلية للصين في النظام الدولي، ١٩٧٨-٢٠١٠م» لوليد سليم عبدالحي، الصادرة عن مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، سنة ٢٠٠م، في (٢٧٩) صفحة.

(٤) انظر: (ص ٢١).

والغربيين، ويرتفع بها الشَّكُّ والرَّينُ عن كلِّ ذي قلب وعين، ويقول بعد قراءته لما حررناه، وتدبُّره لما سطرناه: إن هذا لهو الحق اليقين، وما بعد الحق إلا الضلال المبين»(١).

ولما قرأت الكتاب؛ رأيت فيه نقولات مدهشة مستوعبة، ولمصنفه -رحمه الله تعالى- عناية فائقة في الموضوع الذي طرقه(٢)، ووقع في خلدي ضرورة استفادة طلبة العلم منه، فعملت على العناية به على استعجال من غير إمهال، وزاد ذلك عندي: ندرتُه؛ إذ لا أعلم للكتاب نشرة غير النشرة التي ظهرت في زمن مؤلفه، فتضافرت الدَّواعي واجتمعتْ، فكانت هذه السطور، مع غيرها في التعليق عليه؛ عسى أن أكون قد شاركت في الأجر والخير، وأوقفت طلبة العلم على أثر مهم في موضوع قلّت فيه المؤلّفات، لعالمٍ ومحدِّثٍ وإمامٍ لم ينشر له إلاّ النَّزْر اليسير، والله من وراء القصد.

وجعله المؤلف في أحد عشر فصلاً؛ هي:

الفصل الأول: في بيان من هو ذو القرنين.

الفصل الثاني: في مسير ذي القرنين إلى منتهى المغرب الأقصى.

الفصل الثالث: في عودته من الغرب وسيره إلى أقصى الشرق.

الفصل الرابع: في بيان من هم يأجوج ومأجوج، وصفاتهم.

الفصل الخامس: في بناء ذي القرنين لسدّ الصين.

الفصل السادس: في معرفة العرب بهذا السد في عهد عمر -رضي الله عنه-.

الفصل السابع: بعد بناء السد.

---

(١) انظر: (ص ٢١).

(٢) ذكر فيه مجموعة من الصُّور والخرائط لسور الصين، أبقيتُها في محالها على وضعها، فاقتضى التنويه.

الفصل الثامن: في أقوال الغربيين عن هذا السد.

الفصل التاسع: في مبدأ فتح السد.

الفصل العاشر: في الفتح الثاني للسد -وهو الويل العظيم الأول للعرب من يأجوج ومأجوج-.

الفصل الحادي عشر: في الويل العظيم الأخير للعرب والإسلام من يأجوج ومأجوج، والأحاديث الواردة في ذلك.

والعجيب أنّ المصنف -رحمه الله- كان يتكلّم عن الأحداث التي وقعت في زمنه، ويربطها بما أورده من أحاديث وآثار، وتراه فيها يقرر أنَّ حرباً مدمرة ستقع، وأن قيام الساعة أوشك قريباً، والحق -الذي لا محيد عنه- أنّ المتبقي من عمر الدنيا أقل بكثير مما مضى، وأن علم الساعة غيب لا يعلمه إلا الله -تعالى-.

قال الآلوسي:

«ومن وقف على الكتب المؤلفة في هذا الشأن واطّلع على أحوال الزمان، رأى أنَّ أكثر هذه العلامات قد بَرزت للعيان، وامتلأت منها البلدان، ومع هذا كلّه؛ فأمْرُ الساعة مجهول، ورداء الخفاء عليها مسدول، ما ينبغي أنْ يُقال: إنَّ ما بقي من عمر الدنيا أقلُّ بالنسبة إلى ما مضى».

وتتلخص عنايتي بهذا الكتاب: بضبط نصّه، وتفقيره، والتَّعليق اللازم عليه، مِن توثيق نصوصه، وتخريج أحاديثه، وتوضيح الغريب منه، وتعقّب المصنّف[1] فيما ذهب إليه، عسى أن أكون قد وفقت فيه، ونلت -من ربّي -عزَّ وجلَّ-

---

(١) جهدت-ولله الحمد والمنّة- في بيان كلام العلماء عن قوم (يأجوج) و(مأجوج)، ومكان سدّهم، واعتنيتُ بالجهود المبذولة بهذا الخصوص، ولم أنسَ كلام المعاصرين وبحوثهم، وأطلتُ في بيان ذلك على وجه لا تكاد تراه مجموعاً في غير هذا الكتاب، والله الموفّق للصواب.

أجرين فيما صنعت، وإلاّ؛ فأستغفر الله من زلل القلم، ومن الخطأ والوهم، وصلى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتب

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

١١/ ذو الحجة/ ١٤٢٢هـ

الأردن - عمّان

■ المؤلِّف[(١)]:

هو محمد راغب الطباخ بن محمود بن هاشم بن السيد أحمد بن السيد محمد الشهير بالطباخ، وقد ذكر المؤلف في تحقيق نسب عائلته، أنّ الأسرة -على غالب ظنه- منسوبة إلى الرسول ﷺ، وأن الجد هو الشيخ حسن بن علي الحنبلي الشافعي الشريف المتوفى سنة ١١٤٠هـ.

ويروي الأستاذ محمد يحيى الطباخ ابن المؤلف -وهو من المختصين بالتاريخ[(٢)]- أن والده قد ولد في الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٢٩٣هـ - ١٨٧٧م، وذلك في حي «باب قنسرين» في حلب قريباً من البيمارستان الأرغوني، وكانت أسرته قد جمعَت بين التجارة والعلم والتصوف، فقد عُرض على جده الشيخ هاشم منصب القضاء على الآستانة، فأبى معتذراً بأنّ لهم صنعةً أغناهم الله بها عن الوظائف؛ وهي صناعةُ بُصْم الشاش الأبيض بألوان ونقوش لتتَّخذ منه العصائب والمناديل والملافع في بلاد كثيرة من الشرقين الأدنى والأوسط.

وكان عمه عبدالسلام مكبّاً على مطالعة الكتب، يتنقل بين علوم اللغة والفقه والحديث والفرائض.

أما والد المؤلف فقد نشأ -أيضاً- في صناعة البُصم وتجارتها أسوة بأبيه،

---

(١) انظر ترجمته في: مجلة «الرسالة» (١٩/ ٢٦٥) مقالة لعبداللطيف الطباخ، و(١٩/ ١١١٤) مقالة لمحمد عبدالغني حسن، «الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر» لعائشة الدباغ (ص ١١٠، ٢٥٣)، «الأعلام» (٦/ ١٢٣)، مقدمة «إعلام النبلاء» (١/ ١٠ وما بعد)، «ذكريات علي الطنطاوي» (٧/ ٩٢ و٨/ ١٤٥).

(٢) «محمد راغب الطباخ: حياته - آثاره» تأليف محمد يحيى الطباخ؛ وهي رسالة جامعية تقدم بها إلى (قسم التاريخ) في الجامعة السورية عام ١٩٥٧.

وذلك في خان العلبية وخان البرغل، جامعاً بين العلم والتجارة، إلا أن مسائل العلم انحصرت عنده في الأمور الفقهية التي تتعلق بأحكام المعاملات في الشريعة الإسلامية.

وتطالعنا في أسرة الطباخ نزعة إلى التصوف هي من ميراث القرون الماضية، ولكنها ظلت قائمة فيهم إلى عهد غير بعيد، فجده الشيخ هاشم -وهو من رجال القرن الثالث عشر الهجري- اتخذ لنفسه الطريقة الخَلْوَتيّة القادرية على يد الشيخ إبراهيم الدارعزاني الهلالي، وصار يختلي (الخلوة الأربعينية)!! في كل سنة، كما جرت عادة أهل هذه الطريقة!! أما أبوه الحاج محمود الطباخ فكان يختلف إلى الشيخ محمد الهلالي ابن العالم الزاهد الشيخ إبراهيم الهلالي شيخ الزاوية الهلالية بحلب، وهكذا كان المؤلف -رحمه الله- يصحب والده في حداثته إلى حلقات الذكر ومجالس أهل المعرفة، فيصغي إلى الأناشيد الدينية الصوفية (!!) حتى تكوَّن لديه حس مرهف وشعور رقيق، مما دفعه إلى حب الموسيقا وتعرف أصولها وأصواتها (!!).

وكان -رحمه الله- قد أتم تلاوة القرآن الكريم في الثامنة من عمره في أحد الكتاتيب المعروفة آنذاك، ثم بدأ يتلقى أصول الكتابة والخط على يد الخطاط الشيخ محمد العريف المعروف بشيخ الأشرفية (الشرفية)، ثم دخل المدرسة المنصورية، وفيها تعلم مبادئ اللغة التركية والفارسية والإفرنسية، بالإضافة إلى العربية.

وقد أتيح له أن يزور الحجاز وهو في الرابعة عشرة من عمره بصحبة والده وعمه الشيخ عبدالسلام، فالتقى معهما بأهل العلم والفضل هناك، وأصغى إلى ما كان يدور في تلك المجالس من مناظرات علمية ومناقشات فكرية، ولما تم شبابه وتفتحت مواهبه أخذ يطوف البلدان طواف المستطلع الظامئ إلى ينابيع المعرفة، فكان أن اجتمع بالشيخ عبدالقادر المغربي والشيخ بهجة البيطار والشيخ كامل القصّاب والشيخ مكي الكتاني، فإذا تعذر اللقاء وعَزَّ السفر عمد إلى مراسلة العلماء في الشرق والغرب؛ أمثال: داود جلبي، وعيسى إسكندر المعلوف، وأحمد تيمور

باشا، والأمير شكيب أرسلان، زد عليهم عدداً من المستشرقين الذين سحرهم التراث العربي الإسلامي، فتفرغوا له، وعملوا على كشف كنوزه؛ أمثال: كرنكو ورايتر ومرجليوث وماير، فأفاد منهم وأفادوا منه في كثير من الشؤون المتعلقة بالمخطوطات العربية.

ومع ذلك؛ فإن إقباله -رحمه الله- على الكتب والمصنفات، وشغفه بالمطالعة والبحث، وولعه بالعلم والعلماء لم يكن مما يستغرق منه جلَّ وقته ويصرفه عن الحياة التي تحيط به، فقد كان له نشاط بارز في ميادين الصحافة والتدريس والتوجيه والإصلاح، مع ما يقتضي ذلك من تكوين العلاقات الاجتماعية الواسعة على الصعيدين الرسمي والشعبي، وقد حظيت بمقالاته العلمية وتحقيقاته التاريخية صحفٌ عربيةٌ كثيرةٌ، كان من أهمها: «جريدة ثمرات الفنون»، ثم «جريدة الاتحاد العثماني»، كما راسل «جريدة الحقيقة» و«البلاغ» و«المفيد» في بيروت، ومجلة «الفتح» و«المكتبة» و«الزهراء» في مصر، و«الحقائق» و«المجمع العلمي» في دمشق، و«الاعتصام» و«الجامعة الإسلامية» و«العاديات» في حلب.

ولقد عُيِّن في مجلس معارف ولاية حلب، فانصرف إلى تدريس اللغة العربية والإنشاء والعلوم الدينية في مدرسة شمس المعارف، ثم لما افتتحت المدرسة الخسروية عام ١٩٢١، انتُدب لتدريس السيرة النبوية والحديث ثم التاريخ والثقافة الإسلامية، وقد سعى إلى تعديل برامج هذه المدرسة الدينية بشكل يوافق روح العصر وعلومه الحديثة، فقرر تدريس التاريخ الإسلامي والجغرافية وقانون الحقوق الطبيعية وقانون الأراضي وأحكام الأوقاف وعلم الحساب والعلوم الطبيعية واللغوية، وانطلاقاً من إيمانه بضرورة التوفيق بين علوم الدين والدنيا أخذ على عاتقه -وقد عيِّن مديراً للمدارس العلمية الدينية عام ١٩٣٧م- أن يتولى إصلاح هذه المدارس الشرعية، فراح يضع المشاريع ويقدم المقترحات لوضع المناهج الكفيلة بتوحيد خطة هذه المدارس، وتخريج طلاب تمكنوا من علوم الدين، وتفتحوا على العلوم العصرية والمكتشفات الحديثة.

ولعل قارئ كتابه «إعلام النبلاء» يتبين مدى إقباله على الآثار العمرانية وشغفه بالأوابد التاريخية في مدينة حلب، وذلك بما يبسطه المؤلف في أثناء كتابه من وصف تفصيلي دقيق للكثير من المساجد والأحياء المتبقية والمنشآت الغابرة والمدارس العامرة أو الدائرة، وصفاً يعتمد على استعراض هذا الأثر تاريخاً وتطوراً، واستقصاء أبعاده ومحتوياته استقصاءَ الواقف المعاين والأثري الخبير، فكانت له بذلك يد بيضاء على النشاط الأثري الذي لا يزال ينمو ويزداد في هذه المدينة يوماً بعد يوم.

ولقد اجتمعت في هذا الرجل روافد عديدة، كوّنت شخصيته وأنزلته في قلوب أهل عصره منزلة المحب المكرم، من علم غزير، وخلق فاضل، وهمة بالغة، فكانت المؤسسات العلمية والأدبية والاجتماعية تتخطفه وتستفيد من سعة اطلاعه وغنى نفسه، فانتُخب عام ١٩٢٣ عضواً في (المجمع العلمي العربي) في دمشق، وعضواً في (جمعية الآثار القديمة) عام ١٩٣٠، وعضواً في (اللجنة الإدارية للمتحف الوطني) بحلب عام ١٩٣١، وعضواً في (جمعية المعارف النعمانية) بحيدر آباد الدكن عام ١٩٣٥، ورئيساً (لجمعية البر والأخلاق الإسلامية) عام ١٩٣٨، وأخيراً قام برئاسة (رابطة العلماء) بحلب إلى أن وافته المنية في الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٠هـ - ٢٩ حزيران سنة ١٩٥١م.

■ أساتذته:

يقول الأستاذ محمد عبدالغني حسن في مقال نشره في مجلة «الرسالة»[١]: ولكن الذي أعرفه أن المترجَم له تتلمذ على أستاذين من أكبر علماء الشام؛ وهما: الشيخ محمد الزرقا والشيخ بشير الغزي، أما الشيخ الزرقا فقد كان حجة في فقه الإمام أبي حنيفة، وكان كما يقول تلميذه: لو شاء إملاء مذهب أبي حنيفة من حفظه لأملاه بنصوصه وحروفه، وقد تولى التدريس في المدرسة الشعبانية أولاً، ثم اشتغل

(١) عدد (٩٥٢)، سنة (١٩٥١)، (م ١٩ ص ١١١٤-١١١٧).

بالقضاء أو رياسة كتّاب المحكمة الشرعية بحلب، وظل أكثر حياتـه الطويلـة معلمـاً يلتف حوله التلاميذ ويَرِدون أصفى موارده، إلى أن توفي سنة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م.

أما الشـيخ بشـير الغـزي فقـد كـان أمينـاً للفتـوى بحلـب، فعضـواً بمحكمـة الحقوق، فرئيساً لها، فمدرساً بالمدرسة الرضائية فقاضياً، إلى أن عيّن في آخـر أيامـه قاضياً لقضاة حلب، وظل في المنصب إلى أن توفي سنة ١٣٣٩هـ.

وعلى قدر ما كان الشيخ محمد الزرقا متمكناً في الفقه الإسلامي ضالعاً فيـه، كان الشيخ بشير الغزّي متمكناً من اللغة العربية وشعرها وأدبها، وكان حاضر الذهـن في الاستشهاد باللغة أو بالشعر، وأعجب من ذلك أن كتب «الأغاني» لأبـي الفـرج، و«الحماسة» لأبي تمام، و«الأمالي» للقالي، و«الكامل» للمبرِّد، و«دواوين أبـي تمـام والبحتري والمتنبي والمعرّي» كانت كلها على مناط الطلب، يحفظهـا ويـروي عنهـا ويعيها في صدره، فلا يكاد يخطئ الرواية عنها أو يعز عليه الاستشهاد منها.

■ آثـاره:

كان الشيخ الطباخ -رحمه الله- واحداً من أعلامنـا المعـاصرين الذيـن كـان لهم أثر واضح في إثراء الثقافة الحديثة وإحياء المآثر الفكرية السالفة، وتحقيقاً لهـذه الغاية النبيلة قام بتأسيس مطبعة خاصة أسماها (المطبعة العلمية)، فطبع فيها مؤلفاتـه ومؤلفات غيره من نفائس كتب الحديـث ونـوادر كتـب اللغـة والأدب، علـى نفقتـه الخاصة، فكان له من وراء ذلك فضيلة نشر العلم، وتسهيل وصوله إلى أيدي القرّاء، وإسداء الخير إلى المكتبة العربية.

ولقد أثبت الأستاذ محمـد يحيـى الطبـاخ فـي رسـالته آثـار والـده المطبوعـة والمخطوطة، فجاءت كما يلي:

الآثار المطبوعة:

١- «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» في سبعة مجلدات كبار.

٢- «ذو القرنين وسد الصين من هو وأين هو»؛ وهو: بحث عن شخصية ذي

القرنين الوارد ذكرها في القرآن الكريم، وسدّ الصين وما ورد فيهما من أحاديث نبوية، وما قام به العرب من بعثات لاكتشاف معالم السد (كتابنا هذا).

٣- «الأنوار الجلية من مختصر الأثبات الحلبية»؛ وهي:

* الثبت المسمّى «كفاية الراوي والسامع وهداية الرائي والسامع» للعلامة المحدث الشيخ يوسف الحسيني الحنفي الحلبي المتوفى سنة ١١٥٣هـ.

* والثبت المسمّى «إنالة الطالبين لعوالي المحدثين» للعلامة المحدث الشيخ عبدالكريم ابن الشيخ أحمد الشراباتي الحلبي المتوفى سنة ١٩٧٨هـ.

* والثبت المسمّى «منار الإسعاد في طرق الإسناد» للعلامة المحدث الشيخ عبدالرحمن عبدالله الحنبلي الحلبي المتوفى سنة ١١٩٢هـ، وهو مجلد في (٤٤٧) صحيفة.

٤- «المصباح على مقدمة ابن الصلاح»؛ وهي تعليقات على «علوم الحديث» لابن الصلاح، طبعت مع الأصل وشرحه المسمّى «التقييد والإيضاح لما أطلق أو أغلق من مقدمة ابن الصلاح» للحافظ العراقي.

٥- «الروضيات»؛ وهي ما جمعه من أمهات المخطوطات والكتب القديمة والحديثة من شعر الشاعر المجيد أبي بكر الصنوبري الحلبي أحد شعراء سيف الدولة الحمداني، المتوفى سنة ٣٣٤هـ، مع ترجمة حافلة لحياته.

٦- «الثقافة الإسلامية»[١]؛ وهو بحث في الثقافة الإسلامية والعلوم التي تفرعت عن القرآن الكريم والحديث النبوي كالتجويد والتفسير، مع بيان طبقات المفسرين وأشهر تآليفهم، والحديث النبوي ومصطلحه، وأشهر شرّاح الكتب الحديثية، وعلوم الفقه والمذاهب الفقهية، مع بيان انتشار المذاهب الأربعة في الأقطار الإسلامية، والتصوف، ثم العلوم الأدبية والتاريخ، وبحث في النهضة

(١) فرغتُ من التعليق عليه، وهو مفيد غاية للمبتدئ.

الفكرية أيام الدولة الأموية والعباسية، ويختم الكتاب ببحث عن رقود الحركة الفكرية ويقظتها الأخيرة في البلاد العربية.

ولما انتخب لمجلس (معارف حلب) شارك في تبسيط العلوم فوضع الكتب المدرسية التالية:

٧- «المطالب العلية في الدروس الدينية»؛ وهو في ثلاثة أجزاء.

٨- «عظة الأبناء بتاريخ الأنبياء» في (٦٠) صحيفة.

٩- «تمرين الطلاب في صناعة الإعراب»؛ رسالة في (١٦) صحيفة تسهل على المبتدئين كيفية الإعراب.

١٠- «ترجمة كمال الدين بن العديم» المتوفى سنة ٦٦٠هـ، مع بيان تاريخه العظيم «بغية الطلب من تاريخ حلب»[١] وأين توجد أجزاؤه المخطوطة، مع الكلام عليها في (٨٠) صحيفة، نشر منها (٦٠) صحيفة في مجلة «الجامعة الإسلامية».

١١- «المدارس في الإسلام»؛ نشر في (٩) أعداد في مجلة «الجامعة الإسلامية» في حلب، عدَّد في آخر البحث (٤٤) مدرسة دينية في حلب هي الآن موجودة بين عامرة وخربة، ولم يذكر ما دثر من تلك المدارس.

١٢- «ما جمعه من شعر الأديب عمر بن حبيب الحلبي» من أعيان القرن الثامن؛ نشر في مجلة «الاعتصام» الحلبية.

١٣- «شرح حديث: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»؛ رسالة نشرت في مجلة «التمدن الإسلامي» الدمشقية.

١٤- «السياسة في القرآن»؛ رسالة شرح فيها قوله -تعالى-: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾** [البقرة: ٢٤٦]، يبيّن فيها الناحية السياسية في القرآن، وما هي عوامل نهوض الأمة، وقد ألقيت في محاضرة

---

(١) طبع عن دار الفكر، بتحقيق سهيل زكار، في (١٢) مجلداً.

أيام الاحتلال الفرنسي، ونشرت في مجلة «الفتح» المصرية.

الآثار المخطوطة:

١- «الفتح المبين على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»؛ وهو: حاشية على «نور اليقين» وضعها أثناء تدريسه لتاريخ السيرة في الخسروية في (٤٠٠) صحيفة.

٢- «ترجمة مسهبة للحافظ الكبير أحمد بن حجر العسقلاني» المتوفى سنة ٨٥٢ هـ، في (٥٠) صحيفة كبيرة يبين فيها أنه كان أديباً كبيراً كما كان محدثاً كذلك.

٣- «رسالة عن البلاد والقرى الملحقة بولاية حلب في عهد الدولة العثمانية»، التقطها من «معجم البلدان»، ولم يضع لها اسماً.

٤- «رسالة في شرح حديث طول آدم -عليه السلام- المذكور في «صحيحي البخاري ومسلم»، والجواب عن الإشكال الذي ذكره الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث»، وهي في (٢١) صحيفة.

٥- «ديوان أبي فراس»؛ إذ إنه قام بتصحيح النسخة المطبوعة من هذا الديوان في بيروت؛ لأنها مملوءة بالأغلاط، وذلك على نسختين خطيتين محفوظتين في مكتبة المدرسة الأحمدية في حلب، ثم التقط ما في هاتين النسختين الخطيتين من الزوائد، وأبياتاً من بعض كتب التاريخ والأدب مما لا وجود له في المخطوطتين، ورتب الجميع على نسق الحروف الهجائية، ولم يُقدَّر له طبعه، وهذه النسخة كانت موجودة لدى السيد أحمد عبيد المكتبي في دمشق.

٦- «ما لعلماء حلب من المؤلفات والدواوين»؛ ملتقط من «كشف الظنون» وغيره.

٧- رسائل حديثية؛ هي:

* «كشف الغم عن حديث السم»؛ وهو حديث ذكره الإمام الترمذي في «شمائله»، أزال فيها وهم بعض الشرّاح لهذا الحديث.

* «القول الفصل في مقر العقل، في القلب أو في الدماغ».

❊ «حسن الفهم لحديث الشؤم».

❊ «شرح حديث: الفخِذ عَورة».

بالإضافة إلى رسالة مقتضبة في العَروض.

أما مقالاته التي تناثرت في (المجلات السورية) و(العربية) فكثيرة؛ أهمها:

❊ «تحقيقات هامة عن قبر أبي العلاء».

❊ «رسالة الكنز المظهر من استخراج المضمر» للعلامة رضي الدين محمد بن يوسف الحنبلي الحلبي المؤرِّخ المتوفى سنة ٩٧١هـ.

❊ «مقالة عن رحلته إلى طرابلس الشام».

■ وفاته [(١)]:

انتقل إلى رحمة الله في أواخر رمضان المبارك (سنة ١٣٧٠) فضيلة الأستاذ الكبير العلاّمة، عالم الديار الحلبية ومؤرخها، البارع الشيخ «محمد راغب الطباخ» بعد أن قضى (٧٨) سنة من عمره العامر بالصلاح والتقوى وخدمة العلم تدريساً وإلقاءً، وتأليفاً وإملاءً، وقد حزن حزناً عميقاً عارفو فضله من رجال الأمة في شتى الأقطار، فندعوا الله -عز وجل- أن يتغمده برضوانه ويسكنه فسيح جنانه، ويلهم ذويه وتلامذته وإخوانه هنا وهناك الصبر والسلوان، ويعوّض عنه من يقوم مقامه في خدمة الدين والعلم بكل إتقان.

وكان -رحمه الله- من أركان (المجمع العلمي العربي) بدمشق، وممن يؤازر (جمعية إحياء المعارف النعمانية) في حيدر آباد الدكن.

ومؤلفاته في غاية الكثرة، ومن أهمها: «إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء» في سبعة مجلدات، قد جمع وأوعى ما يتعلق بتلك البلاد فأجاد وأفاد، وكتب

---

(١) ما تحته من «مقالات الكوثري» (ص ٥٠٤).

«الثقافة الإسلامية» من أواخر مؤلفاته، وهو -أيضاً- بالغ النفع، واختصاره لـ«الأثبات الحلبية» نافع في بابه، وأغلب مؤلفاته مطبوع، وأما ما أحياه من مفاخر السلف بالطبع والنشر ففي غاية الكثرة، وقد أصدرت بعض المجلات في حلب عدداً خاصاً بمناسبة وفاته، أعلى الله -سبحانه- مقامه في الجنّة وسامحه وإيانا بمنه وكرمه.

* * *



[مقدمة المؤلف]

الحمد لله القوي القدير العليِّ الكبير، قيّوم السّماوات والأرض، مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، فلا مُلْكَ إلا مُلْكُه، ولا عظمة لأحد سواه، ولا ديمومة إلا له: و﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وبعد؛ **فهذه تحريرات رائقة، وتحريرات فائقة**، تكشف النقاب عن ذي القرنين المذكور في كتاب الله -تعالى-، وبنائه لذلك السَّدِّ العظيم، ومكان وجوده، وبيان أمّة يأجوج ومأجوج وأحوالهم، وما كان منهم في سالف العصور، وما سيكون منهم في مستقبل الزّمان.

أرجو أن تزولَ بها كلُّ شُبهة علقت في بعض أفكار المؤرِّخين من العرب والغربيين، ويرتفع بها الشَّكُّ والرَّينُ عن كلِّ ذي قلبٍ وعين، ويقول بعد قراءَتِه لما حررناه، وتدبُّرِه لما سطرناه: إنَّ هذا لهو الحقُّ اليقين، وما بعد الحقِّ إلا الضَّلال المبين.

وقسمت ذلك إلى أحد عشر فصلاً...



الفصل الأول

في بيان من هو ذو القرنين

قال الله في كتابه المبين: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٣-٨٤]، وفيه ستة أسئلة:

الأول: مَنْ هم السائلون؟

الثاني: مَنْ هو ذو القرنين؟

الثالث: ولم دعي ذا القرنين؟

الرابع: وما هو تمكُّنه في الأرض؟

الخامس: وما هي الأسباب التي أوتيها؟

السادس: وما هو إتباعه السَّبب؟

[من هم السَّائلون؟]

قال الفخر الرازي[١]:

ذكر محمد بن إسحاق سبب [نزول][٢] هذه القصة [قصة أصحاب الكهف][٣]، فقال:

---

(١) في «تفسيره الكبير» (٢١/ ٦٩-٧٠ - ط. دار الكتب العلمية).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) بدل ما بين المعقوفتين في مطبوع «التفسير»: «مشروحاً».

كان النَّضر بن الحارث من شياطين قريش، وكان يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلَّم بها أحاديث (رستم) و(أسفنديار)، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً، ذكر فيه الله وحدّث قومه ما أصاب مَن كان قبلهم من الأمم، وكان النَّضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلمّوا فأنا أحدِّثكم بأحسن من حديثه، ثم يحدِّثهم عن ملوك فارس، ثم إنَّ قريشاً بعثوه وبعثوا معه عُتبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهما: سَلوهم عن محمد وصفته، وأخبرُوهم بقوله، فإنّهم أهلُ الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى قدما إلى المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد، فقال أحبار اليهود: سَلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في الدّهر الأول، ما كان من أمرهم، فإنَّ حديثهم عجيب[1]، وعن رجلٍ طوّافٍ قد بلغ مشارق الأرض ومغاربَها، ما كان نبأه؟ وسَلوه عن الرّوح ما[2] هو؟ فإن أخبركم فهو نبيٌّ، وإلا فهو مقتول[3].

فلما قدم النَّضرُ وصاحبُه مكةَ، قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد، وأخبروا بما قاله اليهود، فجاؤوا رسول الله ﷺ فسألوه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غداً»، ولم يَستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة، حتى أرجف أهلُ مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة، فَشقَّ عليه ذلك، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف، وفيها معاتبة الله إيّاه على حُزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرَّجُل الطّواف[4].

---

(١) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير» وسائر مصادر التخريج الآتية: «عجب».

(٢) في مطبوع «التفسير»: «وما».

(٣) كذا في الأصل! وصوابه: «مُتَقوِّل»؛ كما في مطبوع «التفسير» وغيره.

(٤) رواه محمد بن إسحاق في «السيرة» (ص ١٨٢-١٨٣)، قال: ثني رجل من أهل مكة قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: بعثت قريش النضر بن الحارث...=

....

=بنحو القصة المذكورة.

وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٥/ ١٩١-١٩٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٩-٢٧١)، وابن أبي حاتم -وهو ليس في القسم المطبوع من «تفسيره»-، وابن المنذر، وأبو نعيم في «الدلائل» -كذا في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٧)-، وعزاه المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٧٩٤ رقم ٦٨١) لابن المنذر -أيضاً-، وإسناده ضعيف؛ للمبهم الذي فيه، والخبر في «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢١-٣٢٣)، وسند ابن جرير: عن ابن إسحاق، عن رجل من أهل مصر، عن سعيد بن جبير، به. وصحَّ من حديث ابن عباس بعض أجزاء منه، وهذا البيان:

أخرج أحمد (١/ ٢٥٥) -واللفظ له- وأبو يعلى (٢٥٠١) كلاهما في «المسند»، والترمذي في «الجامع» (رقم ٣١٤٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (رقم ١١٣١٤)، وابن حبان في «الصحيح» (رقم ٩٩ - «الإحسان»)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٣١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٩) من طرق عن يحيى بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال:

«قالت قُريش لليهود: أعطُونا شيئاً نسألُ عنه هذا الرجلَ، فقالوا: سَلُوهُ عن الرُّوح، فَسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالوا: أوتينا عِلماً كثيراً، أوتينا التَّوراة، ومَن أوتي التوراة، فقد أوتي خيراً كثيراً، قال: فأنزل الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ﴾ [الكهف: ١٠٩]، وإسناده صحيح.

وقد ورد أن اليهود هم الذين سألوه. انظر: ما سنعلّقه قَريباً، والله المستعان لا رب سواه.

(تنبيهات مهمات):

أولاً: ساق بعض المفسرين؛ كالزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٠٠)، والبيضاوي في «أنوار التنزيل» (٣٨٢) [الإسراء: ٨٥] -مثلاً- القصة بسياق عجيب، قال عنه ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٠٢ رقم ٣٠٩): «لم أجده هكذا»، وذكر سياق ابن إسحاق لها، وكذلك فعل المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٧٨٤ رقم ٦٦٨).

ثانياً: سيأتي قريباً في حديث ابن مسعود ما يدل على أن سؤال اليهود عن الروح كان بالمدينة، وهذا يخالف ما في هذا الخبر، قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (ص ٢١٣ - السيرة النبوية): «ولعله ﷺ سئل مرتين»!!

ثالثاً: الاحتمال الذي ذكره الذهبي يُلجأ إليه في حال صحة هذه القصة، أما وهي غير ثابتة فلا داعي له، ومن العجب أن محمد عزة دروزة -رحمه الله- ذهب في تفسيره «التفسير الحديث» (٦/ ٤٢) إلى تصحيح وقوع السؤال بمكة، وشكك في ورودها بالمدينة!

رابعاً: مما يضعف القصة؛ أن اليهود ليس في «توراتهم» ما يدل على معرفة أيِّ معرفة بـ(ذي القرنين).=

وفي «أسباب النزول»(١) للواحدي في قوله -تعالى-: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ

= خامساً: ومما يضعِّف القصة -أيضاً-: أنه وقع فيه على لسان أحبار يهود: أنهم أمروا قريشاً بأن تؤمن بنبيها إن ثبت بعد الامتحان أنه نبي!! فهذا لا يدخل قطّ في السلوك اليهودي الذي يُصرُّ على نفي النبوة عن كل غير يهودي من أي جنس كان، وعداوتهم للإسلام ولرسوله بعد الهجرة وقبلها معروفة لا تدع مجالاً لتقديم فكرة كهذه الفكرة إلى قريش لتؤمن، ولقد أجاب النّبي عن الأسئلة الإجابة التي لا تدع مجالاً لتردد قريش في الإيمان به، لو صح أنهم أعطوا الرأي بهذا، فلم يؤمنوا!!

سادساً: ذهب بعض المعاصرين من الباحثين، وهو نجيب محمد البهبيتي في (القسم الأول) من كتابه «المعلقة العربية الأولى» أو «عند جذور التاريخ» (ص ٥٨-٥٩) إلى رد هذه القصة، وطول في تقرير سعة علم وثقافة (النَّضر بن الحارث)، وأنه كان يعتمد في ذلك على (قصيدة جيلجاميش) -وهي المرادة هنا بـ(أحاديث رستم) و(أسفنديار)!-، وبناء عليه؛ استنكر أن يلجأ لليهود في مثل هذه المسائل التي تخلو منها «توراتهم»! وهذا نص كلامه (ص ٥٩):

«إن النضر بن الحارث كان بحكم ثقافته، وسعة علمه، واعتمادها في جانب كبير على البيئة التي أخرجت «قصيدة جيلجاميش»، كان أكثر أصالة في انتحال هذا السؤال، وأولى بالالتفات إليه من اليهود الذين تَخْلو «توراتهم» منه خلُوّاً تاماً، ومرتميات الجدال المحتَدم بين النّبي ﷺ والنضر هي الأوْلَى بأن تقذف به إلى مثل هذه الأسئلة.

أمّا ابتعاث النَّضر وعُتبة بن أبي معيط إلى اليهود فلعله كان، ولكن لسبب آخر لم تصرح الظروف عنه حتى اليوم، فهؤلاء المؤرِّخون على ما قُلتُ لا يخترعون، والغالب أنه كان لتبادل الرأي مع طائفة يهددها الدين الجديد بقدر ما يهدد قريشاً، فهو سعي إلى التحالف!! بين دينين يهددهما «الإسلام»!

وأعود مرة ثانية إلى القصيدة فأقول: إنني كنت دائماً مطمئناً تمام الاطمئنان إلى أنها كانت المحور الذي أدار حوله النَّضرُ مناقشاتِهِ مع الرسول في المسجد حول طواف «ذي القرنين»، ولا بد أنها كانت حامية، ولكن هل كان استشهاد النضر بما كان يستشهد به منها في لغتها الأصلية، وبصيغتها الشِّعرية؟ أعتقد هذا، وأعتقد أنه هو السبب الذي أيقظ في نفوس المشركين نسبة النبي إلى «الشعر» ووصفه «بالشاعر». انتهى.

قال أبو عبيدة: أصلُ هذه الواقعة لم يثبت، ونحن في غنى عن نسبة شيء في هذا الباب إلى رسول الله ﷺ، وأما (النَّضر) وحاله، وثقافته، فهذا ليس من شأننا في هذا الصدد، والله الموفق، لا رب سواه.

وانظره -إن أردت الاستزادة- في: كتاب «التلقّي والسياقات الثقافية» (ص ١٠٨-١١٠) لعبدالله إبراهيم، نشر عن دار الكتاب الجديد، ليبيا، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٠م.

(١) (ص ١٩٧-١٩٨ - ط. المصرية)، قاله بعد أن أورد طرفاً من خبر عكرمة عن ابن عباس=

الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، قال المفسرون:

«إن اليهود اجتمعوا، فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن مُحمَّدٍ وحالِهِ: سلوا محمداً عن الرُّوح، وعن فتيةٍ فُقدوا في أول الزَّمان، وعن رجل بلغ شَرق الأرض وغربها؛ فإن أجاب في ذلك كلّه فليس بنبيّ، وإنْ لم يُجب في ذلك فليس نبيّاً، وإنْ أجاب في بعض ذلك، وأمسك عن بعضه فهو نبيٌّ، فسألوه عنها؟ فأنزل الله -تعالى- في شأن الفتية: ﴿أم حَسِبْتَ أنَّ أصْحَابَ الكَهْفِ﴾ [الكهف: ٩] إلى آخر القصة، ونزل في الروح قوله -تعالى-: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عنْ الرُّوحِ﴾[1] [الإسراء: ٨٥] .

وقال[2] في قوله -تعالى-: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرنَينِ﴾ [الكهف: ٨٣]

=الذي سقناه في التَّخريج السَّابق.

(١) ثبت سؤال اليهود للنَّبي ﷺ عن الروح.

أخرج البخاري (١٢٥، ٤٧٢١، ٧٢٩٧، ٧٤٥٦، ٧٤٦٢) ومسلم (٢٧٩٤) وابن حبان (٩٨ - «الإحسان») في «صحاحهم»، وأحمد (١/ ٣٨٩، ٤٤٥) وأبو يعلى (٥٣٩٠) والشاشي (٣٦٩) في «مسانيدهم»، والترمذي في «جامعه» (رقم ٣١٤١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (رقم ١١٢٩٩) في كتاب التفسير: حديث (رقم ٣١٩) منه، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٥٥)، والطبراني في «الصغير» (رقم ١٠٠٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٩٧)، والبغوي في «الأنوار في شمائل النّبي المختار» (٢/ ٥٨٠ رقم ٨٧٢)؛ جميعهم من طريق الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود، قال:

«بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خِرَب المَدينة وهُوَ يَتوكأً عَلى عَسيبٍ مَعهُ، فمَرَّ بنَفَر مِن اليَهود، فقال بَعضُهُم لِبَعض: سَلُوه عَن الروح؟ وَقال بَعضُهُم: لا تَسألوهُ، لا يَجيءُ بشَيءٍ تَكرَهونَهُ، فَقال بَعضُهم: لَنسألَنَّهُ، فقامَ رَجُلٌ منهُم، فقَالَ: يا أبا القاسِم! مَا الرُّوحُ؟ فَسكَتَ، فَقُلتُ: إنّه يُوحى إليهِ، فَقُمت، فَلمّا انجلى عنه، قال: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُل الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبّي وَما أوتُوا مِن العِلمِ إلاّ قَليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، قال الأعمش: هكذا في قراءَتنا.

وانظر: «العلل» للدارقطني (٥/ ٢٥١-٢٥٢).

وورد السؤال عن ذي القرنين في حديث ابن عباس عند البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٠٠)، وسنده ضعيف، وفي حديث عقبة بن عامر، عند ابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٨ - ط. الحلبي)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٩٦)، وسنده ضعيف -أيضاً-.

(٢) أي: الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٠٢).

الآية، قال قتادة: إن اليهود سألوا نبي الله ﷺ عن ذي القرنين؟ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية.

[من هو ذو القَرنين؟]

قال الفخر[١]:

اختُلِف[٢] في أن ذا القرنين من هو؟ وذكروا فيه أقوالاً:

الأول:

أنه هو الإسكندر بن فيلقوس[٣] اليوناني، قالوا: والدَّليل عليه: أنَّ القرآن دلَّ على أن الرَّجلَ المسمَّى بذي القرنين بلغ مُلكُه أقصى المغرب؛ بدليل قوله: ﴿حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]، وأيضاً: بلغ ملكه أقصى المشرق؛ بدليل قوله: ﴿حَتَّى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٩٠]، وأيضاً: بلغ ملكه أقصى الشَّمال؛ بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشَّمال، وبدليل أنَّ السَّدَّ المذكور في القرآن يقال في كتب التَّواريخ أنَّه مبنيٌّ في أقصى الشَّمال، فهذا الإنسان المسمى بذي القرنين في القرآن؛ قد دل القرآن على أنَّ ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال، وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض، ومثل هذا الملك البسيط[٤] لا شكَّ أنَّه على خلاف

---

(١) في «تفسيره الكبير» (٢١/ ١٣٩). وانظر: «اللباب» لابن عادل (١٢/ ٥٥٣-٥٥٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٥٨) لأبي حيان، و«تفسير الآلوسي» (١٦/ ٢٥-٢٨).

(٢) بعدها في مطبوع «التفسير»: «الناس».

(٣) كذا في الأصل!! وفي مطبوع «التفسير» وغيره: «فيلبوس»، وهو الصواب؛ لأن القاف لا توجد في لغة اليونان والروم.

(٤) أي: الكبير الواسع الممتد، واستخدام كثير من الناس لها بخلاف هذا المعنى، وهو استخدام غير صحيح، كما بينتُه في تعليقي على «النقد والبيان» للعلامة المجاهد السلفي عز الدين القسّام -رحمه الله- (ص ٢٦).

العادات[١]، وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكرُه مخلّداً على وجه الدَّهر، وأن لا يبقى مخفيّاً مُستتراً، والملِكُ الذي اشتهر في كتب التَّواريخ أنه بلغ ملكُه إلى هذا الحدِّ ليس إلا الإسكندر[٢]؛ وذلك لأنه لما مات أبوه جمع ملوكَ الرُّومِ بعد أن كانوا

---

(١) مما ينبغي التفطن له ههنا: إنَّ المقررَ في علم الاجتماع والعمران، أنه لم يكن آنذاك دولٌ ووحداتٌ سكنيةٌ كبرى، يحتاج احتلالها إلى جيوش وقادة، كما هو الحال اليوم.

(٢) قال ابن سينا في «الشفا»: «إن الإسكندر الأكبر المقدوني كان ممن دانت لهم أصقاع الدنيا، ولم تكن الشمس تغرب عن جزء في إمبرطوريته حتى تشرق على الجزء الآخر»، ونقله أبو الكلام آزاد في كتابه «ويسألونك عن ذي القرنين» (ص ٨٥)، وعدَّه المأمون من أجل ملوك الأرض الثلاثة، ومن الذين قالوا بنقل الدول، كذا في «تمثال الأمثال» (١/ ١٠٩) لأبي المحاسن محمد العبدري الشيبي (ت ٨٣٧هـ - ١٤٣٣م).

وانظر عن فتوحاته وانتصاراته: «دراسات في تاريخ الشرق القديم» لأحمد فخري (٢٣٥)، «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم» (٢٩٢) لمحمد عزة دروزة، «بحث حول الإيرانيين القدماء» لعبدالمنعم حسنين (ص ٦١)، «دائرة معارف القرن العشرين» (ص ٣١١-٣٢٠) لمحمد فريد وجدي، «تاريخ اليونان» (٢١٢)، «تاريخ إيران القديم» (ص ٢٩٩)، «إيران في عهد الساسانيين» (ص ١٩٨).

وقد طول الأستاذ عبدالعليم خضر في كتابه «مفاهيم جغرافية في القصص القرآني» (ص ٥٣-٧٩) إثبات أن الإسكندر هذا لم يتجه نحو مغرب الشمس على الإطلاق، ويُبنَى على ذلك أنه لم يتوقف عند عين حمئة بالقرب منها قوم أشدّاء، وإنما كان اتجاهه دائماً صَوب الشّرق، وبذا استبعد أن يكون (ذا القرنين) المذكور في القرآن، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

وقد أفرد غير واحد -قديماً وحديثاً- ترجمته، وهذا الذي وقفت عليه منها، وبالله التوفيق:

* «الجواب المحرر في حال الخضر والإسكندر» للسفاريني، ذكره صاحب «إيضاح المكنون» (١/ ٣٧٢).

* «صوت النفير في أعمال الإسكندر الكبير» لإبراهيم بن خطار سركيس، مطبوع، كما في«معجم المطبوعات العربية والمعربة» (١٠١٩)

* «الدرر المضيّة في تاريخ الإسكندر» لحازم القرطاجني، ذكره المكناسي في «درة الحجال» (٢/ ٢٥٥).

* «الإسكندر الأكبر» لعزيز خانكي، مطبوع في مصر في (٢٤٨) صفحة، سنة ١٣٥٠هـ.

* «تاريخ الإسكندر المكدوني» لغوتا، مطبوع.

* «سيرة الملك الإسكندر ذي القرنين» لأبي إسحاق الصبوري، منه نسخة خطية في جامعة=

....

=برنستون، كما في «تاريخ بروكلمان» (٩/ ٢١٨).

* «قصة الإسكندر» للحمزوي، ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (٢/ ١٣٢٧)، وقال: «في أربعة وعشرين مجلداً» و«تركي، متداول بين القصاص».

* «الإسكندر الكبير المقدوني» لمحمد أسد الله صفا، مطبوع عن دار النفائس، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ.

* «التوسع العسكري المقدوني من خلال حملة الإسكندر الأكبر» لإبراهيم بشي، مطبوع.

* «خطابات الإسكندر» لفيصل زريقات، مطبوع.

* «الإسكندر الأكبر» لفوكس، مطبوع.

* «الإسكندر الكبير» لسيف الدين الخطيب.

* «الإسكندر الكبير المقدوني» لباسم العسلي.

* «الإسكندر فاتح العالم».

* «مصر في قيصرية الإسكندر المقدوني» لإسماعيل مظهر، مطبوع.

* «الإسكندر المقدوني أو قصة مغامرة» لراتيحان تيرانس، مطبوع.

* «الإسكندر المقدوني» للاحب هارولد، مطبوع.

* «الإسكندر الأكبر» لنارن وليم وود تروب، مطبوع.

* «مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي» لبل هارولد إيدرس، مطبوع.

* «الإسكندر الأكبر» لجون جنتر، مطبوع.

* «مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي» لمصطفى العبادي، طبع سنة ١٩٦٦م في (٣٥٨) صفحة بمصر، عن مكتبة الإنجلو المصرية.

* «الإسكندر الأكبر: مسرحية من أربعة فصول» لمصطفى محمود، طبع سنة ١٩٧٢م عن دار العودة، بيروت، في (١٠١) صفحة.

* «دراسات في تاريخ مصر والعراق منذ أقدم العصور وحتى مجيء الإسكندر الأكبر» لأحمد أمين سليم، طبع سنة ١٩٦٤ عن دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، في (٣٥٨) صفحة.

ومن الجدير بالذكر أنه قد تَبَنَّى القول بأن الإسكندر هو ذو القرنين جمع من المفسرين؛ مثل: الثعلبي، والرازي، وأبو حيان، والنسفي، وأبو السعود، وبه قال المسعودي والمقريزي ومحمد فريد وجدي.

وممن تبنى هذا الرأي حديثاً: عبدالله يوسف علي صاحب أشهر ترجمة لمعاني القرآن باللغة=

....

=الإنجليزية، ويستشهد على هذا بأُسطورة نصرانية منسوبة إلى (كالستين)، وهو فيلسوف صاحب الإسكندر في رحلاته!

وادعى سيد يرسكي في كتابه «أصول الأساطير الإسلامية في القرآن»!! أن رسول الله ﷺ قد اقتبس هذه القصة (يأجوج ومأجوج) من (بسيدو كالستين)، وهذا كذب وزور، والفرق كبير بين تفاصيل أخبار (يأجوج ومأجوج) في القرآن الكريم والحديث الشريف ورواية (كالستين)، وهذا يدحض مزاعم (سيد يرسكي)! والقرآن يُبين للناس عامة، ولأهل الكتاب خاصة أكثر الذي يختلفون فيه.

وننوه هنا بأنَّ جمعاً من المحققين الأقدمين -ستأتي نقولاتهم- والمحدَثين ردوا اعتماد كون (الإسكندر) هو (ذو القرنين)! وممن فصل في ذلك: الدكتور عبدالعليم خضر في كتابه «مفاهيم جغرافية في القرآن الكريم» (ص ٦١-١٣١)، وتبعه محمد خير رمضان في كتابه «ذو القرنين»، والدكتور محمد إبراهيم هلال في كتابه «يأجوج ومأجوج» (ص ٣٣-٣٤)، والدكتور صلاح الخالدي في كتابه «مع قصص السابقين في القرآن» (٢/ ٢٥٩-٢٦٠).

وأوردُ هنا اقتباساً من مجلة «المنار» لمحمد رشيد رضا (م ٢/ عدد ٣٤/ السبت/ ٣٠ جمادى الآخرة/ سنة ١٣١٧هـ الموافق ٤/ نوفمبر/ سنة ١٨٩٩م) جاء فيه تحت عنوان: (إزالة وهم تاريخي) ما نصه:

«توهم بعض مؤرخي المسلمين وعلمائهم أن ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم هو إسكندر المكدوني، وهذا غلطٌ فاحشٌ ووهمٌ لا شبهة عليه، فذو القرنين من كنى ملوك اليمن العرب المعروفين بالأذواء؛ كذي يزن، وذي نواس، وذي الكلاع، والإسكندر رجل يوناني، وذو القرنين مختلف في نبوته، وإسكندر مقطوع بكفره وضلالته، وذو القرنين كان في زمن أحوال العمران فيه مخالفة لأحواله في زمن إسكندر المكدوني كما يُعلَمُ مما قصه الله علينا من أخباره، فإنه طاف مشارق الأرض ومغاربها بأسباب طبيعية كانت متبعة في ذلك العصر، فإنه يقول: فأتبع سبباً حتى إذا بلغ كذا، ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ كذا، والراجح أنه كان قبل إسكندر المكدوني بآلاف من السنين بحيث طمسَ أثر ذلك العمران، فعسى أن لا يغتر الناس بما يرونه في كتب التفسير والتاريخ وفي الجرائد من هذا الوهم.

وإننا نتعجب من مثل أصحاب «المقتطف» و«الهلال» كيف يكنون إسكندر المكدوني بذي القرنين، مع رسوخ أقدامهم في علم التاريخ، ولعلهم فعلوا ذلك لمجرد مجاراة بعض مؤرخي الإسلام، أو لرأي لهم آخر في المسألة، والله عليم بذات الصدور».

وهذا يلتقي مع ما قرره ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (١٥/ ١٢٣)، قال بعد أن رشح ثلاثة احتمالات: الإسكندر المقدوني، أو ملك من ملوك حِمْيَر هو تبّع أبو كرب، أو أنه ملك من ملوك الفرس (أفريدون بن آثفيان بن جمشيد)، وقال عن سائر هذه الاحتمالات: «وما دونها لا ينبغي التعويل عليه، ولا تصحيح روايته».

ثم أخذ بتفنيد هذه الاحتمالات، والذي يهمنا هنا قوله عن الأول منها: =

طوائف، ثم جمع ملوك المغرب وقهرهم، وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر، ثم عاد إلى مصر، فبنى الإسكندرية وسمّاها باسم نفسه(١)، ثم دخل الشام(٢) وقصد بني إسرائيل، وورد بيت المقدس، وذبح في مذبحه، ثم انعطف إلى أرمينية، وباب الأبواب، ودانت له العراقيون والقبط والبربر، ثم توجه نحو دارا ابن دارا، وهزمه مرات إلى أن قتله صاحب حرسه، فاستولى الإسكندر على ممالك الفرس، ثم قصد الهند والصين، وغزا الأمم البعيدة، ورجع إلى خراسان، وبنى المدن الكثيرة، ورجع إلى العراق ومرض بشَهْرَزور ومات بها.

فلمَّا ثَبَتَ بالقرآن أنَّ ذا القرنين كان رجلاً ملك الأرض بالكليَّة، أو ما يقرب منها، وثبَت بعلم التَّواريخ أنَّ الذي هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر؛ وجب القَطع بأنّ المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلقوس(٣) اليوناني».

ثم قال(٤) بعد ورقة:

«إلاّ أنّ فيه إشكالاً قوياً؛ وهو: أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم، وكان على مذهبه(٥)، ....

= «وأنتَ إذا تدبَّرت جميعَ هذه الأحوال -أي: أحوال وصفات ذي القرنين الواردة في القرآن- نفيتَ أن يكونَ ذو القرنين إسكندر المقدوني؛ لأنه لم يكن ملكاً صالحاً، بل كان وثنياً، فلم يكن أهلاً لتلقي الوحي من الله، وإنْ كانت له كمالات على الجملة، وأيضاً؛ فلا يعرف في تاريخه أنه أقام سداً بين بلدين...» في كلام طويل له، فلْينظر ولْيتدبَّر، فإنَّ فيه سبب شهرة هذا الأمر الذي ليس له نصيب من الحقيقة عند البحث والتمحيص والتدقيق والتحرير، والله الموفق.

(١) انظر: ما سيأتي (ص ٧٩-٨٠، ٨٨، ٩٣) حول دخوله مصر.

(٢) ولذا ترجمه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٠-٣٦١ - ط. دار الفكر)، ونقل ابن فضل الله العمراني في «المسالك والممالك» (٣/ ق ٢٥٥)، والقرماني في «أخبار الدول» (٣/ ٣٦٦-٣٦٧) عن «عيون التواريخ» أنه هو الذي بنى دمشق.

(٣) كذا في الأصل، وصوابه: «فليبوس» -بالباء بدل القاف-، وهو الصواب كما قدمناه.

(٤) أي: الرازي في «تفسيره» (٢١/ ١٤٠).

(٥) انظر: وصية كتبها له في «المنازل والديار» (ص ١٩٥) لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ)، ثم=

فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حَق[١]، وذلك ما لا سبيل إليه[٢].

=وجدت -ولله الحمد- في مكتبتي وصية أرسطاطاليس للإسكندر، ورسالة «أرسطاطاليس للإسكندر في السياسة» ضمن كتاب «مقالات فلسفية لمشاهير فلاسفة العرب» (ص ٣٦-٤٩) للويس شيخو، وأورد عبدالرحمن بدوي في كتابه «أرسطو عند العرب» (٢٥٠ وما بعد) مقالات عديدة للإسكندر الإفرديوسي في مسائل من فلسفة أرسطو، وحدد عبداللطيف البغدادي في كتابه «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» (ص ١١٧) (دارَ العِلْمِ) التي كان يدرِّس فيها أرسطاطاليسُ الإسكندر، قال: «وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر -رضي الله عنه-».

قال أبو عبيدة: وتحريق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية خرافة، كشفها غير واحد، ولا مجال لبيان ذلك في هذا المقام، والله الموفق.

وذكر الشهرستاني في «الملل والنِحل» (٢/ ١١٧) (الإسكندر الرومي)، وقال عنه: «وهو ذو القرنين الملك، وليس هو المذكور في القرآن، بل هو ابن فيلبوس الملك»، وذكر مكاتبة أرسطاطاليس له، وذكر -أيضاً- فيه (٢/ ١٣٢): (الإسكندر الأفْروديسي)، وقال عنه: «وهو من كبار الحكماء رأياً وعلماً، وكلامه أمتن، ومقالته أرصن، وافق أرسطاطاليس في جميع آرائه، وزاد عليه...»، قال: «ومما انفرد به...» وذكر أشياء.

(١) بعدها في مطبوع «التفسير»: «وصدق».

(٢) وافقه على هذا الإشكال جمع؛ ففرقوا بين (الإسكندر) و(ذي القرنين)، وتحمّس إليه المصنف، وأورد كلام جمع من العلماء، كما سيأتي قريباً، وفاته كلام جمع، وعلى رأسهم محققون محررون مدققون؛ من أمثال ابن تيمية، وتلميذه ابن القيّم، وسيأتي طرف منه في التعليق على (١٢٠، ١٣١).

والذي يهمّنا هنا: أن الشيخَ العلامةَ محمد جمال الدين القاسمي -رحمه الله تعالى- نقل في تفسيره «محاسن التأويل» (١١/ ٩٠-٩٢) كلام ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٧٧ - ط. محمد عفيفي)، الذي فيه التفرقة بين (الإسكندر) و(ذي القرنين)، ورده باستطراد، ثم عرَّجَ على كلام الرازي هذا، ونقَضَهُ، وهذا نصُّ كلامه:

«اتفق المحققون على أن اسمه الإسكندر بن فيليس، وقال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» في الكلام على الفلاسفة: «ومن ملوكهم الإسكندر المقدوني -وهو: ابن فيلبس-، وليس بالإسكندر ذي القرنين الذي قص الله -تعالى- نبأه في القرآن، بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين، فذو القرنين كان رجلاً صالحاً موحِّداً لله -تعالى-، يؤمن بالله -تعالى- وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكان يغزو عبّاد الأصنام، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، وأما هذا=

....

=المقدونيّ، فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وست مئة سنة، والنصارى تؤرِّخ له، كان أرسطاطاليس وزيره، وكان مشركاً يعبد الأصنام» انتهى كلامه.

وفيه نظر؛ فإنّ المرجع في ذلك هم أئمة التاريخ، وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر ابن فيلبس باني الإسكندرية بتسع مئة وأربع وخمسين سنة قبل الهجرة، وثلاث مئة واثنين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى -عليه السلام-، وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا، وأما دعوى أنه كان مشركاً يعبد الأصنام فغير مسلَّم، وإن كان قومه وثنيّين؛ لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس، وقد جاء في ترجمته -كما في «طبقات الأطباء» وغيرها- أنه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد في ذلك الوقت، وأنه بسببِ ذلك نُسبَ إلى الكفر وأريد للسعاية به إلى الملك، فلما أحسَّ بذلك شخص عن أثينا؛ لأنه كره أن يبتلى أهلها بمثل ما ابتلَوْا به سقراطيس معلم أفلاطون، فإنه كان من عُبَّادهم ومتألِّهيهم، وجاهَرَهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام، وقابل رؤساءَهُم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها، فثوّروا عليه العامة، واضطروا الملك إلى قتله، فأودعه السجن ليكفهم عنه، ثم لم يرض المشركون إلا بقتله، فسقاه السمَّ خوفاً من شرِّهم، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم، كما في «طبقات الأطباء» و(تراجم الفلاسفة)، فالوثنيةُ وإن كانت دينَ اليونانيين واعتقادَ شعبهم، إلا أنه لا ينافي أن يكون الملك وخاصتُه على اعتقادٍ آخرَ يجاهرون به أو يكتمونه؛ كالنجاشيّ ملك الحبشة، فإنه جاهر بالإيمان بالنّبي ﷺ، وشعبُه وأهل مملكته كلُّهم نصارى، وهكذا كان الإسكندر وأستاذه والحكماء قبله، فإن الممعن في تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد، قال القاضي صاعد: كان فيثاغورس -أستاذ سقراط- يقول ببقاء النفس وكونها فيما بعد في ثواب أو عقاب، على رأي الحكماء الإلهيين، فتأمل قوله: (على رأي الحكماء الإلهيين) يتحقق ما ذكرنا».

ثم تعرض بعد ذلك لقول الرازي السابقِ نقلُه من قِبَل المصنِّف، فقال:

«وأما قول الفخر الرازيّ: «إن في كون الإسكندر ذا القرنين إشكالاً قوياً، وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه، فتعظيمُ الله إياهُ يوجبُ الحكم بأنَّ مذهبَ أرسطاطاليس حقٌّ وصدقٌ، وذلك مما لا سبيل إليه» فلا يخفى دفع هذا اللزوم، فإن من كان تابعاً لمذهب فمُدح لأمرٍ ما يوجب مدحه لأجله، فلا يلزمُ أنْ يكون المدحُ لأجلِ مذهبِهِ ومتبوعِهِ؛ إذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجدُ في متبوعِهِ، وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكونُ في مذهبه الذي نشأ عليه مقلداً، أفلا يمكن أن يكونَ حراً في فكره ينبذ التقليد الأعمى ويعتنق الحق، ومن آتاه الله من الملك ما آتاه، أفيمتنعُ أن يؤتيَه من تنوّرِ الفكر وحريةِ الضمير ونفوذِ البصيرة ما يخالف به متبوعَه؟ هذا على فرَضِ أن متبوعَه مذمومٌ، وقد عرفت أنَّ متبوعَهُ (أعني: أرسطاطاليس) كان موحِّداً، وهو معروف في التّاريخ لا سترة فيه، على أنه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك في الأصول التي هي المقصودة بالذات، وكفى بها كمالاً، وللرازيِّ فرص يغتنم بها التّنوية بالحكماء والتّعريفَ لمذهبهم، وهذه منها، وإن صبغها -سامحه الله- في هذا الأسلوب، عرف ذلك مَنْ عرف» انتهى. =

= قال أبو عُبيدة: نصَّ غير واحد ممن ألّف في تاريخ الحكماء على أن (أرسطاطاليس) تتلمذ على (إسكندر بن فلبس)، بل قال ابن جلجل (ت ٣٧٧هـ) في كتابه «طبقات الأطباء والحكماء» (ص ٢٦): «وله -أي: للإسكندر- إليه -أي: أرسطاطاليس- رسائلُ عجيبةٌ...» وساق شيئاً منها، وكذلك فعل ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (١/ ١٠٥-١٠٦)، والقفطي في «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (ص ٢٦)، وابن فضل الله العمراني في «المسالك والممالك» (٣/ ق ١١٩ و ٩/ ق ١٣-١٤، ٣٥)، وغيرهم.

وتوجيه القاسمي لتلمَذتِه -على ما فيه- محتمل، ولكن (ذو القرنين) -كما سيأتي في جملة من الأخبار يشهد ويشد بعضها بعضاً- عاصر إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وعليه؛ فمن المستحيل أن يكون الإسكندر الأكبر الذي عاش فيما بين عامي (٣٥٥-٣٢٣) قبل الميلاد، قد عاصر الخليل إبراهيم -عليه السلام- الذي عاش وجاء إلى مصر فيما بين عَامَيْ (١٦٧٥-١٥٨٠) قبل الميلاد، وستأتي من المصنف ومضةٌ حول ذلك.

وللعلاّمة الفقيه محمد أبو اليسر عابدين -رحمه الله تعالى- كلمةٌ رزينةٌ في كتابه الماتع «أغاليط المؤرخين» (ص ٢٨٧-٣٠٠) بعنوان: (في الكلام على ذي القرنين المذكور في الكتاب العزيز، أنه عربي أو فارسيّ أو روميّ أو يُونانيّ، وأنه هل يُسمّى الإسكندر أم لا؟ وغلط من قال أنه غير عربيّ)، حقق فيها أنه عربيّ مسلِم صالح، من حِمير، من أذواء اليمن، وهذا الذي توصل إليه المصنِّفُ فيما سيأتي -إن شاء الله تعالى- قريباً، ولا يبعد عندي أن تكون رسالتُنا هذه وقعت له، والله أعلم.

قال محمد أبو اليسر بعد أن أورد استشكال الرازي القويّ:

«وذكر ابن كثير في «تفسيره» [(٩/ ١٨٢-١٨٣ - ط. أولاد الشيخ)]، قال: وأورد ابن جرير [(١٦/ ٨)]، وابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص ٥٧-٥٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٦٨-١٤٦٩ رقم ٩٦٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٩٥-٢٩٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٨-٣٣٩)] هنا، والأموي في «مغازيه» حديثاً أسنده، وهو ضعيف عن عقبة بن عامر:

«أن نفراً من اليهود جاؤوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاؤوا إليه ابتداءً، فكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم، وأنه في الإسكندرية، وأنه علا به مَلَكٌ في السَّماء وذهب به إلى السَّدِّ، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب».

[قال أبو عبيدة: فيه عبدالرحمن بن زياد الإفريقي، ضعيف، والراوي عن عقبة شيخان من تجيب، وهما مبهمان، وعزاه في «الدر» (٥/ ٤٣٧) إلى ابن أبي حاتم -أيضاً-، وعزاه في «الفتح» (٦/ ٣٨٣) إلى محمد بن ربيع الجيزي في كتاب «الصحابة الذين نزلوا مصر»، وقال: «وهذا لو صح لرفع النزاع، ولكنه ضعيف»، وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٨): «وهو حديث واهي السند»، ونقله عنه وارتضاه القرطبي المفسر في «جامعه» (١١/ ٤٧)]. =

= وفيه طول ونكارة، ورفعه لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل، والعجب أن أبا زرعة الرازي مع جلالةِ قدرِهِ ساقَهُ بتمامه في كتابه «دلائل النبوة»، وذلك غريب منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني، وهو ابن فيلبس المقدوني الذي تؤرخ به الروم.

فأما الأول فقد ذكر الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل -عليه السلام- أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان وزيره الخضر -عليه السلام-.

وأما الثاني وهو إسكندر بن فيلبس المقدوني اليوناني، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور والله أعلم، وهو الذي تؤرخ من مملكته الروم، وقد كان قبل المسيح -عليه السلام- بنحو من ثلاث مئة سنة، وأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل كما ذكره الأَزرقيّ وغيره، وأنه طاف مع الخليل -عليه السلام- بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم -عليه السلام- وقرَّب إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في أخباره في كتابنا «البداية والنهاية» بما فيه كفاية ولله الحمد. اهـ ما في ابن كثير.

ولقد وفّق طنطاوي جوهري -رحمه الله- في «تفسيره» بتلخيصه سيرة ذي القرنين على غير ما اعتاده من إطالة الكلام في كل موضوع، فقال:

«اعلم أن كثيراً من العلماء يقول أنه إسكندر الرومي بن فيلبس، وهو تلميذ أرسطاطاليس الفيلسوف، ويسمى المعلّم الأول، وهو الذي انتشرت فلسفتُهُ في الأمّة الإسلامية، وقد كان هذا الملك قبل الميلاد بنحو (٣٣٠) سنة، وقد تولى الْمُلْكَ بعد أبيه، وهو من أهل مقدونية، وحارب الفرس وتولى على ملك دارا، وتزوج ابنته، وقتل الرَّجلَ الفارسيَّ الذي قتل دارا، وجاء ليأخذ الجائزة منه، وأظهر كرماً وشجاعة، والناس اليوم يدرسون رسائل بينه وبين أستاذه في السياسة.

ذلك أنه لما دخل بلاد فارس، رأى هناك رجالاً ذوي وجاهة وبهجة وجمال وأُبّهة من أبناء الملوك والأمراء، فأراد قتلهم، فاستشار أستاذه، فأرسل إليه: أن لا فضل في قتلهم، وأنَّ قتل الرؤساء تتأججُ نارُهُ في قلوب الأمّة ولا تخمد، وأمره أن ينعم عليهم ويعطي كلاً منهم مِلك أبيه، ويوقد بينهم العداوة والبغضاء دائماً، ويكون هو الحكم بينهم فيكون محبوباً، فمشى على تلك السياسة، ولما مات قامت بعده ملوك الطوائف التي أسسها، ثم إنه سافر إلى الهند وحارب هناك في البنغال وغيرها، ثم إنه بنى الإسكندرية لما حكم مصر؛ لأنَّ مصر كانت تحت حكم الفرس، فلما غلب الفرس حكم مصر وبنى الإسكندرية المسماة باسمه للآن، وعاش ثلاثاً وثلاثين سنة، ومات عند رجوعه من الهند قبل أن يصل لبلاده؛ هذا رأي.

وهناك رأي آخر، قاله أبو الريحان البيروني المنجّم في كتابه المسمّى بـ«الآثار الباقية عن القرون الخالية» أنه من حمير، واسمه أبو كرب بن أفريقش، وأفريقش هذا قد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض، فمنها إلى تونس، فسمِّيت القارة كلها باسمه (إفريقيا الحميري)، وهو الذي افتخر به أحد شعراء حمير، حيث يقول:

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ... إلى آخر الأبيات. =

....

= هذا ملخص ما قاله العلماء مع ذكر الحقائق الأصلية في التاريخ بدون تخليط. اهـ».

ثم أورد محمد أبو اليسر كلام القاسمي السابق بطوله، وعقَّب عليه بقوله:

«ورحم الله الشيخ جمال الدين باعتراضه على الفخر الرازي الذي لا يصل علمه إلى شعرة من علم الفخر وابن القيم، وليته اقتصر على متابعته للمحقق الآلوسي بأن الإسكندر الروميَّ وشيخَه كانا مؤمِنَين فقط، ولكن أورَدَ المحقق الآلوسي إشكالاً -أيضاً-، هو أن ذا القرنين كان بزمن إبراهيم -عليه السلام-، ونمروذ كان بزمن إبراهيم -أيضاً-، وقد روي خبرٌ أنه مَلَكَ الأرض أربعةٌ: مؤمنان وكافران، أما المؤمنان: فذو القرنين وسليمان، وأما الكافران: فنمروذ وبختنصر، قال: ولا مخلص من ذلك على تقدير صحة الخبر إلاّ بأن يقال: كان زمان إبراهيم -عليه السلام- ممتداً، ووقع ملكهما الدنيا متعاقباً، وهو كما ترى، ورأيتُ في بعض الكتب بأن ذا القرنين مَلَك بعد نمروذ، وينحَلُّ به الإشكال.

وقال بعضهم: الذي تقتضيه كتب التَّواريخ: عدم صحة الخبر أو تأويله، إذ ليس في شيء منها عموم ملك سليمان -عليه السلام- أو ملك نمروذ أو بختنصر، والظاهر عدم الصحة. اهـ كلام الآلوسي.

أقول: والذي حررته في كتابي المسمّى «إغاثة البررة في الأحاديث المشتهرة» عدم صحة الحديث، وأنه منقول من قول مجاهد، والله أعلم.

أما المدد والأعمار؛ ففي «الخازن»: عمر ذي القرنين كان ألفاً وثلاثين سنة، وفي الآلوسي: كان ملكه على ما قال ابن قتيبة: مئة وسبعة وثلاثين سنة، وعلى ما قاله المسعودي: ثلاثاً وخمسين سنة، وعلى ما قاله غيرهما: سبعاً وثمانين سنة. اهـ.

وأما الإسكندر الرومي، فقيل: كان عمره ستاً وثلاثين سنة، وملكه ثلاث عشرة سنة، وكان قبل المسيح بنحو ثلاث مئة سنة، وبينه وبين ذي القرنين وإبراهيم -عليه السلام- نحوٌ من ألفٍ وسبعِ مئةِ سنة، وهذا التباُينُ بالأعمار وجهٌ من وجوه التَّرجيح بأنّ ذا القرنين غير الإسكندر الرومي كما لا يخفى، فإن الأعمار المتطاولة كانت من زمن إبراهيم وما قبله إلاّ نادراً».

ثم قال: « ثم ذكر الآلوسي [(١٦/ ٢٧)] عن أبي الريحان البيروني المنجِّم في كتابه المذكور ما نقله غيره: «أن ذا القرنين هو أبو كرب سمي بن عمير بن أفريقيس، وهو الذي افتخر به تبّع اليماني، حيث قال:

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً... إلخ.

قال المنجِّم: ويشبه أن يكون هذا القول أقرب؛ لأن الأذواء كانوا من اليمن؛ كذي المنار، وذي نواس، وذي رعين، وذي يزن، وذي جدن، واختار هذا القول كاتب جلبي، وذكر أنه كان في عصر إبراهيم -عليه السلام-، وأنه اجتمع معه في مكة المكرمة وتعانقا، وأن شهرة بلوغ ملك الإسكندر اليوناني تلميذ أرسطو الغاية القصوى في كتب التواريخ كما ذكر الإمام دون هذا، إنما هي لقرب زمان اليوناني بالنسبة إليه، فإنَّ بينهما نحو ألفي سنة، وتواريخ هاتيك الأعصار قد أصابها إعصار، ولم يبقَ ما يُعوَّلُ عليه ويُرجَعُ في=

....

=حلِّ المشكلاتِ إليه، وربما يقالُ: عدم شهرة من ذكرِ تقوّي كَونه المسؤولَ عنْه، إذ غرضُ اليهود من السؤال الامتحان، وذلك إنما يحسن فيما خفي أمره ولم يشهر، إذ الشُّهرة إذا كانت تامةً مظنّةُ العلم، وإلى كون ذي القرنين في زمان إبراهيم -عليه السلام- وطاف معه بالكعبة، وكان ثالثهما إسماعيل -عليه السلام-.

وروي أنه حج ماشياً، فلما سمع إبراهيمُ -عليه السلام- بقدومه تلقاه، ودعا له، وأوصاه بوصايا، وقيل: أتي بفرس ليركب، فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل، فعند ذلك سُخِّر له السَّحابُ، ومُدَّ له في الأسباب، وبَشَّره إبراهيمُ -عليه السلام- بذلك، فكانت السَّحابة تحمِلهُ وعساكِرَه وجميع آلاتِهم إذا أرادوا غَزْوَ قوم، وهؤلاء لم يصرِّحوا بأنَّ ذا القرنين هذا هو الحميري الذي ذكر، لكنَّ مقتضى كلام كاتب جلبي أنه هو، وذكر أنه يمكن أن يكون إسكندرُ لقباً لمن ذكر معرباً عن الكسندر، ومعناه في اللغة اليونانية: آدمي جيد، وربما يقال: أن من قال اسمه الإسكندر صعب بن عبدالله بن عبيد قينان بن منصور إلى آخر النسب السابق المنتهي إلى قحطان عن هذا الرجل الحميري لا الرومي، ولا اليوناني، لكن وهم الناقل؛ لأنه لم يقل أحد بأن الروم من أبناء قحطان وكذا اليونان.

إلى أن قال: والمذكورُ في كتب التواريخ أن ملوك اليمن إلى أن غلبت الحبشة عليها من أبناء قحطان، وأنه لما سمِّي بذي القرنين لذؤابتين كانتا له، وكان مُلْكه على ما قال ابن قتيبة: مئة وسبعاً وثلاثين سنة، وعلى ما قال المسعودي: ثلاثاً وخمسين سنة، وعلى ما قال غيرُهُما: سبعاً وثمانين سنة.

وبعد أن استبعد الآلوسي سائر أقوال المؤرخين الواردةَ بهذا الصَّدد، وأورد عليها احتمالات توهنها، تعرض لحديث: «مَلَكَ الدُّنيا مُؤمِنان وكافِران» كما ذكرنا، ثم قال: وبالجملة لا يكاد يَسْلَم في أمر ذي القرنين شيءٌ من الأقوال من قيل وقال، وكأنّي بك بعد الاطِّلاع على الأقوال وما لها وما عليها تختارُ أنّه الإسكندرَ بن فيلقوس غالبَ دارا، وتدَّعي أنه يقال له اليوناني كما يقال له الرومي، وأنّه كان مؤمناً بالله -تعالى-، لم يرتكب مكفِّراً من عَقَدٍ أو قول أو فعل، وتقول: أن تلمذته على أرسطو لا تمنع من ذلك، وأطال بترجيح قوله إلى أن قال:

ومــا عَلَــيَّ إذا مــا قُلــتُ مُعتقَــدِي دعِ الجَهُــول يَظـــنُّ الجَهْـــلَ عُدْوانـــاً»

اهـ ما من الآلوسي.

ونحن لو سلمنا لِمَا قاله شيخُنا الجمال من احتمال إيمان المقدوني اليوناني، وكونه تلميذاً لأرسطاطاليس، وأنه لا يمنعُ منه، ولكنّ هذا لا دليلَ عليه يؤيدهُ، بل نقْلُ المفسرين والمؤرخين على خلافِهِ، وقد سبقه إلى ذلك الآلوسي كما وقفت عليه من كلامه، ولكن حيث أن هذه الأخبارَ والآراءَ متضاربةٌ، والعصور قديمةٌ وليس في الأمر قاطعٌ، وإنما شأنُ الباحث أن يؤيد ما يترجحُ عنده من الأقوال.

فالذي أراه أن المذكور في القرآن هو الحميريُّ العربيُّ اليمانيُّ، لا الرومي ولا اليوناني ولا=

....

=الفارسي؛ وذلك لأمور:

أولاً: أنّ (ذو) من خواص أذواء اليمن المشتهرين به في كتب التاريخ؛ كذي الكلاع، وذي أصبح، وذي فايش، وذي شناتر، وذي المنار، وذي نواس، وذي رعين، وذي يزن، وذي جدن، وذي سعد، وغيرهم، وما وجد لغيرهم من هذه التسمية فعلى سبيل النُّدْرة التي لم تشتهر، أو من تسمية العرب منهم لسبب من الأسباب؛ كذي الأكتاف الذي سمته به العرب لتوغُّلِه بقتلِهم، ينزعُ أكتافَهم بدون أن يشتهر بهذا اللقب في مُلكِه.

ثانياً: ما ذكره المؤرخون أنه اجتمع بإبراهيم -عليه السلام- وكان ثالثَهُما إسماعيلُ، وطاف بالبيت وقرّب القرابين ودعا له إبراهيمُ وسخِّرَ له السحابُ ومُدَّ له في الأسبابِ، والرومي والمقدوني والفارسي بعيدون عن إبراهيم والبيت وإن كان مجيئهم إليه محتمَلاً بطريقهم، لكن للعربي مناسبة وأي مناسبة بذلك.

ثالثاً: ما ذكر أن الخضر -عليه السلام- كان وزيره وابن خالته، ومن أين للروم واليونان والفرس نسبة مع العرب وبني إسرائيل وإن كان الاحتمال جائزاً ببعد العهد.

رابعاً: انتصاراته العظيمة التي لا يمكن أن تكون بغير قوة إلهية من دعاء إبراهيم ووزارة الخضر -عليهما السلام-، كما كانت انتصارات النبي -صلى الله عليه وعلى أصحابه وسلم- في مشارق الأرض ومغاربها بمدة قليلة، فلقد عم الصين والهند والمغرب وإفريقيا وأوربا ووجدت آثاره التاريخية بأمريكا، في حين أنا لم نسمع بدين ولا مذهب سياسي ولا حزب انتشر انتشارَ الإسلام في أول ظهوره، إلا بعد أحقاب طويلة عليه، وبعد تغيير وتبديل يطرأ على أصله ومنبعه، فلو لم تكن قوةٌ ربانية لَمَا انتشر فتحُ ذي القرنين ما انتشر، ولم يصلْ إلى ما وصل، وكان -رضي الله عنه- عبداً صالحاً، وسمي بذي القرنين لأسباب داعية لتسميته مما ذكروه، وإنّا إذ نؤيد ذلك نكون تابعين لا مبتدعين، فقد أيد هذا القول ابنُ كثير وكاتب جلبي كما نقله عنه الآلوسي، وأيده الأزرقي كما نقله عنه الآلوسي -أيضاً-، وأيده المنجم البيروتي كما نقله عنه أكثر المفسرين، وأيده ابن قتيبة كما نقله عنه الشيخ جمال الدين القاسمي.

خامساً: تطاولُ المدَدِ والأعمار التي ذكِرت في ذي القرنين الذي كان بزمن إبراهيم مما لا يتأتَّى مثلُهَا فيمن كان في زمن المسيح وما قبله بقليل.

سادساً: إنا لا نُسَلِّمُ أن اسمه الإسكندر؛ فإنه ذكر تاريخي لا يستند إلى دليل، وفي اسمه اختلاف كثير، والذي أوقع المؤرخين في الخطأ هو قولهم أن اسمه الإسكندر، فقالوا: إنه اليوناني الذي كان قبل المسيح بقليل، والذي وحّد ممالك الروم، وكسر الفرس، وتوغل في الفتوحات، وبنى الإسكندرية، أما إذا أبعدنا عنه اسم الإسكندر فلا يلتبس بالرومي أصلاً... فقد ذكر أبو الفداء ملك حماة في «تاريخه» الشهير في (ذكْرِ الطبقةِ الثانية من الفرس)، أن الإسكندر بن فيليبس اليوناني باني الإسكندرية وتلميذ أرسطو الذي وحّد ممالك الروم واليونان، ثم غزا الفرس واستولى عليهما وقتل دارا ملكها وفرق ممالكه، وكان عمره ستاً=

وهذا الإشكال لا يُدفَع البتة؛ فإن الإسكندر وأستاذه أرسطاطاليس لـم يكونـا مؤمنَين، وهذا مما لا خلاف فيه، وذو القرنين المذكور في القرآن كان مؤمناً؛ بدليـل

=وثلاثين سنة وملك ثلاثة عشرة سنة، قيل أنه بنى السد على يـأجوج ومـأجوج، والصحيح أن الإسكندر المذكور لم يكن ذلك، بل ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن، وهو مَلِكٌ قديم كان على زمن الخليل إبراهيم -عليه السلام-، قيل أنه أفريدون، وقيل غيره، وقد استفاض على ألسنة الناس أن لقب الإسكندر المذكور: ذو القرنين، وهو -أيضاً- غلط، فإن لفظة (ذو) عربية محضة، وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن، وكان منهم ذو جدن وذو كلاع وذو شناتر وذو القرنين الصعب بن الرائش، واسم الرائش: الحارث بن ذي سدد بن عاد بن الماطاط بن سبأ، وقد قيل: إن ذا القرنين الصعب المذكور هو الذي مكّن الله له في الأرض، وعظم ملكه، وبنى السد على يأجوج ومأجوج، ومما نقله ابن سعيد المغربي أن ابن عباس -رضي الله عنهما- سئل عن ذي القرنين الذي ذكره الله في كتابه، فقال: هو من حمير، وهذا مما يقوي أنه الصعب المذكور. اهـ.

وذكر الفخر في «تفسيره» القول الثاني فمن هو... قال: قال أبو الريحان الهروي المنجم في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»: قيل: إن ذا القرنين هو أبو كرب شمس بن عبير بن أفريقش الحميري، فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها، وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حِمير حيث قال:

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ... ملكاً علا في الأرض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يبتغي ... أسباب ملك من كريم سيد

ثم قال أبو الريحان: ويشبه أن يكون هذا القول أقرب؛ لأن الأذواء كانوا من اليمن، وهم الذين لا تخلوا أساميهم من ذي كذا؛ كذي المنار، وذي نواس، وذي النون، وغير ذلك. اهـ كلام الفخر.

وقد رأيت في مجلة «الإخاء» التي تصدر في طهران في (عدد ٣٢ من السنة الثالثة في ١ جمادى الثانية سنة ١٣٨٢ و١ تشرين أول سنة ١٩٦٢) مقالاً للأستاذ محمد جميل بيهم على مقال المرحوم أبي الكلام آزاد في مجلة «الإخاء» -أيضاً- أول آب سنة ١٩٦٢... قال صاحب المقال:

كنت كتبت مقالاً نشرَتْه مجلة «العرفان» في أيار سنة ١٩٥٥، برهنت فيه على أن السور الصيني الكبير إنما هو سد يأجوج ومأجوج الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وحاك حوله القصاصون من المفسرين الخرافات والخزعبلات، ولما أتيح لي الوصول إلى الصين وزرت هذا السور ازددت وثوقاً بما ذهبت إليه في ذلك المقال، خصوصاً وأني رأيت بأم عيني الصدفين؛ أي: رأسي الجبل المتقابلين، الذي ساوى بينهما ذو القرنين، حسبما ورد في القرآن الكريم في سياق الحديث عن سد يأجوج ومأجوج، ورأيت -أيضاً- زبر الحديد في الأنقاض، حيث يقوم عمال الحكومة بالترميم، .... إلى آخر ما ذكره!! والله أعلم.

قوله -تعالى- فيما بعد: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى وَسَنَقُول لَهُ مِن أَمْرِنا يُسْراً﴾ [الكهف: ٨٨]، بل بالغ بعض المفسرين فقال -كما نقله الفخر[١]، وجعله (القول الرابع)-: أنَّ ذا القرنين مَلَكٌ من الملائكة[٢]، فكيف يكون المرادُ بذي القرنين الإسكندرَ اليوناني؟! هذا خلاف الصواب، وبعيد عن الحقيقة بُعد الأرض عن السماء، وإن قال به بعض المفسرين»[٣]، وذهب إليه العلاّمة راغب باشا في «سفينته»[٤].

---

(١) في «تفسيره» (٢١/ ١٤٠).

(٢) سيأتي في التعليق على (ص ١٠٧-١٠٨) أن هذا غير صحيح، فراجعه.

(٣) قاله وهب من الأقدمين، وسيأتي كلامه في كتابه «التيجان»، ونقله عنه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ١٨٣)، وجزم به الزمخشري والبيضاوي وجماعة، وهو الذي استفاض على ألسنة الناس، كما سيأتي قريباً من كلام أبي الفداء، وانظر التعليق عليه، والله الموفق، لا ربّ سواه.

(٤) المسماة «سفينة الراغب ودفينة الطالب»؛ (وهو مجموعة أدب وأبحاث)، وكلامه فيها (ص ٦٢٥-٦٢٦)، وعنون له (في تحقيق أن ذا القرنين هل هو الإسكندر الرومي أو غيره؟)، وقال بعد أن نقل طرفاً من كلام الثعالبي -وسيأتي بتمامه عند المصنف-: «انتهى ما هو المقصود، وعلى ذلك الإمام الرازي (!)، والبيضاوي، والزمخشري، وصاحب «القاموس»، وغيرهم من أهل التحقيق، فلا تلتفت إلى ما تراه في بعض التفاسير والتواريخ، والله أعلم بالصواب».

وكتابه هذا مطبوع في مطبعة بولاق، سنة ١٢٨٢هـ عرَّفه المصنِّف لما ترجم لمؤلفه محمد راغب باشا (ت ١١٧٦هـ) في كتابه «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» (٣/ ٢٦٨-٢٧٠) بقوله: «أودع فيه أنواعاً من العلوم والفنون، وقد طبع في أوروبا».

ومما قال عنه في (حوادث سنة ١١٦٨هـ) تحت عنوان (تولية حلب للوزير راغب باشا صاحب «السفينة» المشهورة به): «في هذه السنة ولي حلب محمد راغب باشا، قال في «قاموس الأعلام»: ولد سنة (١١١٠) في الآستانة، ووالده كان من كتبة الدفتر خانه فيها، فداوم ثمة مع والده في ابتداء أمره، وبالنظر لما اكتسبه من المعلومات وللاستعداد الفطري الذي فيه، عيِّن سنة (١١٣٥) لتحرير الأماكن التي ضبطت من دولة إيران، مرافقاً لعارفي أحمد باشا والي وان، ولعبدالرحمن باشا الكوبريلي، ولعلي باشا والي تبريز، وفي سنة (١١٤١) عاد إلى دار الخلافة، وفي سنة (١١٤٢) أرسل لبغداد وكيلاً للرئاسة، وفي هذه السنة صار دفتردار الولاية، وفي سنة (١١٤٦) بعد محاصرة بغداد عاد إلى الآستانة فعيّن في دائرة المالية، وفي سنة (١١٤٨) عين والي بغداد أحمدَ باشا سر عسكراً لولاية أرضروم فعين المترجم مرافقاً له ووكيلاً لرئاسة=

....

=الكتاب، وفي هذه السنة عاد إلى الآستانة، وفي سنة (١١٤٩) عين محاسباً للخزينة، وأرسِل مع الجيش الذي أرسِل إلى إيساقجي، وعَقِب ذلك استُدعي إلى الآستانة للمذاكرة مع سفراء دولة إيران وعُيِّن (مكتوبجياً) للصدارة، وفي خلال هذه المدة قام بعدة أمور سياسية هامّة، وفي سنة (١١٥٣) صار رئيس الكتاب، وبعد أن بقي في هذا المنصب ثلاث سنين عُيِّن والياً لمصر، وأنعِم عليه برتبة الوزارة، وبقي فيها خمس سنين، وفي سنة (١١٦١) عُين محصلاً لآيدين، وفي سنة (١١٦٤) عيّن والياً للرقة، وفي سنة (١١٦٨) عيّن والياً لحلب، وفي سنة (١١٧٠) صار أمير الحاج ووالي الشام، وقبل وصوله إليها استدعي إلى الآستانة وولي منصب الصدارة العظمى وبقي فيه ست سنوات وثلاثة أشهر ونصف على عهد سلطنة السلطان عثمان الثالث، وعهد السلطان مصطفى الثالث، وقام بأمور هذا المنصب قياماً حسناً، وأمضيتِ هذه المدة خالية من الحروب، وتزوج بصالحة سلطان أخت السلطان مصطفى، فحاز شرف المصاهرة بالعائلة السلطانية، وفي سنة (١١٧٦) في رمضان توفي إلى رحمة الله، ودفن في محلة فوسقة في جوار مكتبته التي أنشأها هناك.

وكان وزيراً عالماً عاقلاً عادلاً، يعرف الألسنة الثلاثة (التركية والعربية والفارسية)، وكان شاعراً ومنشئاً في هذه الألسنة، وله من المؤلفات: «سفينة العلوم»، أودع فيها أنواعاً من العلوم والفنون، وقد طبع في أوربا، وفي زمن صدارته كانت حضرته مجمعاً للعلماء والأدباء، وكان حسن المعاشرة يميل للممازحة، وله مع شعراء عصره مطارحاتٌ ومساجلاتٌ مدونةٌ، وبالأخص مع الشاعرة الشهيرة فِطْنَتْ خانم (صاحبة الديوان)، وجمع شِعره في «ديوان»، وجمع في مكتبته نوادر الكتب وجعل في بنايتها مكتباً وسبيلاً، وله في نواحي حلب والأناضول آثارٌ حسنةٌ من بناء الجسور وغيرها، وقد تضمن شعره ضروباً من الأمثال والحكم» انتهى.

وانظر -غير مأمور- ترجمته في: «تاريخ الجبرتي» (١/ ٢٦٠)، و«الأعلام» للزركلي (٦/ ١٣٣)، وللعلامة نصر الهوريني ترجمة للمصنف مثبتة في أول الكتاب (ص ٩-١٠ - ط. بولاق سنة ١٢٨٢هـ).

(تذنيب منهجي مهم):

(السفينة): مصطلح أكثرَ الحضارمةُ مِن استخدامه، وهي شبيهة بـ(الكنّاشة) عند غيرهم، وعرفها الأستاذ عبدالرحمن بن عبدالله بكير في تقديمه لتحقيق «مختصر تشييد البنيان» (ص ٩) بأنها فوائد متعددة «غير مرتبة، ولا منسَّقة، ولا مترابطة، إلا أنها تستهوي من يقرأها لمتابعتها؛ لأنها تعايشه يومياً، أو لأنه يعايشها هو يومياً، ولذلك فإنه بإحساس وبغير إحساس يسير معها، وفيها، وبها إلى غايتها.

هذا المنهج معروف ومألوف عند جامعي الفوائد الفقهية، ولا سيما في البلاد الحضرمية وهو ما يسمونه: السفن، واحدتها سفينة...». وانظر: «منهج البحث في الفقه الإسلامي» (ص ٢٤٠).

ثم رأيت كتاباً مفرداً مطبوعاً في الإمارات المتحدة عن هذا المصطلح.

قال العلامة أبو الفدا في «تاريخه»[(١)] في الكلام على الإسكندر اليوناني:

«وقد قيل عنه: إنه انصرف من المشرق إلى جهة الشَّمال، وبنى السَّدَّ على يأجوج ومأجوج، والصحيح أن الإسكندر المذكور لم يكن منه ذلك، بل ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن هو[(٢)] ملك قديم كان على زمن إبراهيم الخليل -عليه السلام-، قيل: إنه أفريدون، وقيل: غيره، وقد غلط مَن ظَنَّ أنَّ باني السَّدَّ هو الإسكندر الرومي، وكذلك قد استفاض على ألسنة الناس[(٣)] أن لقب الإسكندر

(١) المسمّى «المختصر في أخبار البشر» (١/ ٧٩ - ط. دار الكتب العلمية).

(٢) كذا في الأصل، وفي مطبوع «تاريخ أبي الفداء»: «وهو».

(٣) نعم؛ استفاضت على ألسنة القُصّاص -قديماً وحديثاً- أخبار عن (ذي القرنين)، حكيت بأسلوب قصصي مدهش، فهي لا تختلف في هذا كثيراً عن بقية قصص الأنبياء والأمم السالفة التي نعرفها في الروايات القصصية على جهة فيها إمتاع وغرابة -إذا ما نظرنا إليها عن قرب- تتأتى من عناصرها المكونة لها عبر عصور التأريخ المختلفة؛ لأن أمماً كثيرة تعاونت على تكوينها القصصي، ففيها شيء من عناصر التأريخ الروماني، ثم أضيفت إليها عناصرُ من الإسرائيليات، وشيءٌ من الأدب الفارسي والهندي، وأخيراً إضافاتٌ كوّنها القصّاص المسلمون، فتكونت من مجموع ذلك قصة عجيبة في تكوينها، هذا فضلاً عن قيمتها في التعبير عن النظرات التأريخيّة والجغرافيّة والأسطورية والأدبية عند المسلمين، فالكتب التأريخية تعنى بالإسكندر وبشخصيته وفتوحاته، أمّا كتب القصص الإسلامية فلا تكتفي بالعناصر التأريخية المكوّنة لهذه الشخصية؛ لأنها تقصد إلى الإمتاع وإلى الإثارة، فلا تكتفي بنقل الوقائع التأريخية، بل تستعين على وضع القصة بمصادر قد تَمُتُّ إلى الأدب الشعبي المفعم بالخيال، وقد تستعين بالأساطير القديمة، وفي الأساطير القديمة انتقلت شخصيّة الإسكندر إلى عالم الآلهة وأشباه الآلهة، وظلّت كل أمّة تحوك حولها من نسج خيالها شيئاً، حتى إذا وصلت إلى المسلمين وجدناها وقد اجتمعت فيها تلك العناصر المختلفة، يأخذها الرواة المسلمون ليجعلوها ذات علاقة بالمعاني الإسلامية.

لقد ساعد ذكر ذي القرنين في القرآن الكريم أكثر القُصَّاص المسلمين على التَّطرُّق إلى حديثه والتفصيل في أخباره، ولذلك لا يكاد فصل من الفصول التي كتبت عنه -في كتب التاريخ أو في كتب القصص والأخبار- يخلو من الاستشهاد أو التصدير بالآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر ذي القرنين.

تختلف المصادر الإسلامية في شخصيّة ذي القرنين، فلم تجزم أن ذا القرنين هو الإسكندر، فالثعلبي في «قصصه» (ص ٣٢٢) يقول: «قال أكثر أهل السِّير: هو الإسكندر»، والمسعودي يقول في «مروج الذهب» (١/ ٣٨٨): «وقد تنازع الناس فيه؛ فمنهم من رأى أنه ذو القرنين، ومنهم من رأى أنه=

....

=غيره»، والمقدسي يقول في «البدء والتاريخ» (٣/ ١٥٥) في حديثه عن الإسكندر: «وكثير من الناس يرون هذا ذا القرنين».

أما المصادر المتأخرة فقد جاء في بعضها أن الإسكندر المقدوني هو المعروف بذي القرنين صراحةً، وإن كان شيء من الخلط قد ظهر عند بعضها؛ كقول صاعد الأندلسي في «طبقات الأمم» (ص ٣٠) الذي جعل الإسكندر المقدوني جَدّاً للإسكندر ذي القرنين...

أما الجاحظ فقد عبّر عن شكّه بصورة أوكد وأوضح؛ إذ يقول في كتابه «الحيوان» (٧/ ٢٤٥) عند حديثه عن الحيوان المعروف بذي القرن: «... فمن خصال ذي القرن: أن منه وإليه ينسب ذو القرنين، الملك المذكورُ في القرآن، ويزعم بعضهم أنه الإسكندر»، وما يلبث الجاحظ أن يزيد في هذا التشكيك في رسالته «التربيع والتدوير» التي ترد فيها شكوكه بصورة أسئلة متوالية متحدّية، [وسيأتي ذكر كلامه مع التعليق عليه عند المصنف].

إنّ السبب في التساؤل؛ هو: إنّ بعض الروايات قد زعمت أنّ ذا القرنين كان من نتاج ما بين الإنس والجن، كما كانت الملكة بلقيس، وقد ذكر الجاحظ نفسه شيئاً من هذه الروايات في «الحيوان» -أيضاً-، كما قال البيروني في «الآثار الباقية» (ص ٤٠) عن ذي القرنين فيما بعد بأنه يعتقد فيه اعتقادات عجيبة: «بأن أمّه كانت من الجنّ، كما يعتقد ذلك -أيضاً- في بلقيس، فإنه يقال: إنّ أمّها كانت من الجنّ...»، [وسيأتي ذلك -إن شاء الله تعالى-].

إن هذه المزاعم التي ترددها المصادر الإسلامية في نسب ذي القرنين وفي شخصه وأحاديثه، ليست هي في الواقع إلاّ تلك الأقاصيص الشعبيّة التي كانت تدور على ألسن الأمم المختلفة، لكن رغم هذه الشكوك التي تتردد على ألسن الكتّاب المسلمين، فإن حديث ذي القرنين لا يَرِد إلاّ متصلاً بحديث الإسكندر وفتوحاته، وهما في كثير من المصادر التي رأيتها شخصيةٌ واحدةٌ، سواءٌ كانت هذه المصادر تأخذ بالعناصر التأريخية وحسب، مكتفيةً بها، أو تضيف إليها أحاديث القصّاص وخيال الروايات الشعبية، ففي كتاب «ألف ليلة وليلة» (٣/ ١٥٣ - ط. سنة ١٩٢٧م) ليس هناك شك أبداً في أن ذا القرنين هو الإسكندر؛ إذ تصدّر القصّة بالعبارة التالية: (حتى أن إسكندر ذا القرنين)، وهذه هي التسمية التي عرف بها الإسكندر عند العامّة.

ترى! ما هو السبب في التسمية بذي القرنين ما دام اسم الإسكندر مشهوراً شهرة تكفيه عن أي لقب آخر؟

هنا يتجلّى الخيال الإسلامي بأجلى مظاهره، والقابليّة العجيبة عند القصّاص المسلمين على الإضافة والتأويل والتبرير، فتحاول الروايات القصصيّة أن تزوّدنا بشتى الأسباب لتسميته، [وستأتي بتفصيل في (ص ١٣٣)، وانظر التعليق عليه]. =

....

= ولعل مِن أذكى التحقيقات التي قام بها أي كاتب إسلامي في هذا الصدد، هو ذلك الفصل الرائع الذي يقدّمه لنا القاضي أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني في موضوع ذي القرنين، ويبدو أنّ الرجل قد تهيأت له المصادر اللازمة لمعلوماته، ولذلك فهو يرفض الروايات الشائعة، [ويتابعه المصنف في ترجيحه، وسيأتي كلامه بطوله (ص ٩٥) وما بعد].

ومن الطريف أن هناك اتجاهاً في المصادر الإسلاميّة نلمحه لمحاً من خلال الروايات الكثيرة، هو أنّ شخصية ذي القرنين عند المسلمين هي أقرب إلى الإسلام من شخصيّة الإسكندر، ولذلك فهم حينما يتحدثون عن ذي القرنين -بهذا الاسم- يطلقون لخيالهم العنان، لكنهم قد لا يجرؤون على الكثير من التصرّف في شخصيّة الإسكندر، فكأن شخصيّة ذي القرنين أقرب إلى المجال القصصي من شخصية الإسكندر، وكأنّ شخصيّة الإسكندر تصبح مِلْكاً للقصاص المسلمين حين يطلقون عليه اسم ذي القرنين، فذو القرنين في القصة الإسلاميّة -كما عند الثعلبي في «عرائس المجالس» (ص ٣٢٥) مثلاً- يأمرهم أن يبنوا له مسجداً، وأن يجعلوا طول المسجد أربع مئة ذراع، وعرضه مئتي ذراع، وهو يدعو إلى التوحيد... إلخ، وهو -على ما في «مسالك الأبصار» (٣/ ق ٢٢)-: «يدقّ له في فتوحاته مئتا جمل نقارات، وأربعون حِملاً من الكوسات الكبار، وعشرون بوقاً، وعشرة صنوج، وتدق له النوب الخمس -أيضاً-، ويحمل معه ما لا يحصى من الخزائن، وغير ذلك»، وفيه (٣/ ق ٢٣): «ما يحمله على رأسه من المرصّعات وغيرها مما هو إلى الخيال أقرب منه إلى الحقيقة»، ونقل ابن قتيبة في «المعارف» (ص ٥٤) عن وهب بن منبه، أن ذا القرنين رجل من الإسكندرية اسمه الإسكندروس، ويخطىء ابن قتيبة إذ يجعله في الفترة بعد عيسى -عليه السلام-، على حين تُجمع المصادر على أنه قبل المسيح.

وهكذا اختلطت الروايات التأريخية بروايات القصّاص؛ ممّا جعل القاضي الجرجاني يعلق على هذه الروايات قائلاً:

«...، وقد روى المفسّرون والقصّاص في تأويل هذه الآيات أخباراً لم نجد في نقلها طائلاً، إذ كانت النفس لا تثق بخبرهم ولا تسكن إلى صحّة نقلهم، وكان اختلافهم يدل على اختلاطهم...» [وسيسوق المصنف تمام كلامه -إن شاء الله تعالى-].

والقرآن الكريم لا يتطرق إلى مثل هذه التفاصيل التي تذكرها المصادر التاريخية، فجاءَت هذه الإضافات من اجتهاد القصّاص والرواة المتأخرين الذين صاروا يستعينون بمصادر غير إسلاميّة، إلاّ أننا حين نلتفت إلى ما يقوله العلماء المسلمون المحققون، نجد الشك عظيماً في هذه القصص التي يتداولها القصّاص والمفسّرون، وقد تنقلها كتبُ التاريخ الإسلاميُّ نفسها مصدّقةً أو شاكّة، فشخصية الإسكندر عند المحققين أو المطّلعين على شيء من الأصول اليونانية تظهر بصورة هي إلى الواقع التأريخي أقرب منها إلى الخيال القصصي الذي تلاعبت به أيدي القصّاص، ولذلك نجد هنا إنكاراً شديداً لما يرد على ألسن القصاص من روايات، وإعراضاً تاماً عن نقل شيء منها، فأوّل ما يلفِتُ نظرَنا في حديث أبي حيّانَ=

....

=التوحيدي مثلاً عن الإسكندر أنه لا يذكره في أية مناسبة باسم (ذي القرنين)، ولا يلتفت إلى الروايات الشائعة حول شخصه، فلا يشير إليه إلاّ إشارات تاريخية موثوقاً بها، أو -في أقل تقدير- هي أقرب إلى الواقع التاريخي منها إلى الخيال القصصي.

ولذلك نجد التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» (٢/ ٢٢ - ط. أحمد أمين) يتجه إلى أبي سليمان السجستاني المنطقي -وهو رجل يوناني الأصل، ذو صلة بالفلسفة والعلوم العقلية، يأخذ التوحيدي عنه الشيء الكثير في المنطق والفلسفة-، فيسأله التوحيدي في شيء من هذا الأمر، فيأتيه الجواب، جواب رجل مطلع على شرائع اليونانيين وأحكامهم، فيقول:

«وليس ليونان نبيٌّ يعرف، ولا رسول من قبل الله صادق، وإنما كانوا يفزعون إلى حكمائهم في وضع ناموس يجمع مصالح حياتهم ونظام عيشهم ومنافع أحوالهم في عاجلتهم، وكانت ملوكهم تحب الحكمة وتؤثر أهلها وتقدّم من تحلّى بجزء من أجزائها، وكان ذلك الناموس يُعمل به ويرجع إليه، حتى إذا أبلاه الزمان وأخلقه الليل والنهار؛ عادوا فوضعوا ناموساً آخر جديداً بزيادة شيء على ما تقدم، أو نقصان على حسب الأحوال الغالبة على الناس، والمغلوبة بين الناس، ولهذا لا يقال: إن الإسكندر في أيام مُلكه حين سار من المغرب إلى المشرق كانت شريعتُه كذا وكذا، وكان يذكر نبياً يقال له: فلان، أو قال: أنا نبي، ولقد واقع دارا وغيره من الملوك على طريق الغلبة في طلب الملك وحيازة الديار وجباية الأموال والسبي والغارة، ولو كان للنبوّة ذكر وللنّبي حديث لكان ذلك مشهوراً مذكوراً ومؤرّخاً معروفاً...».

ويقوم التوحيدي بنقل أحاديث عن الإسكندر، كلّها تدلّ على حكمة رجل سياسيّ يزن الأمور، ولذلك يضع التوحيدي أقوال الإسكندر إلى جانب أقوال الحكماء والفلاسفة، [وعلى هذا جرى من ألف في أسماء الحكماء، فتكاد لا تجد واحداً منهم أهمله، وستأتيك كلمة مطوّلة عن نبوة (ذي القرنين) -إن شاء الله تعالى-].

ولعل هذا الجانب من شخصية الإسكندر هو الذي حمل القصّاص المسلمين على وصفه بالنبوّة والاختلاف في أمره؛ على أنّ بعضهم اكتفى بأن جعله في مرتبة سليمان بن داود في الحكمة والعلم والملك، ولذلك ينسب حديث إلى النّبي ﷺ يقول فيه: **«مَلَكَ الأرض أربعة: مُؤمنان وكافِران؛ فأمّا المؤمِنان: فسُليمانُ وذو القَرنين، وأما الكافِران: فنمرود وبختنصر»**، [وهو كذب لا أصل له، وإنما ورد من قول بعض التابعين، وسيأتيك توثيق ذلك].

لقد أوشكت شخصية الإسكندر أن تصبح أسطورة من الأساطير العجيبة، التي تعرض لها كلّ أمّة من الأمم بالتحوير والتبديل بما يناسب أدبها وطبيعة تفكير أبنائها، وقد امتدت أسطورة الإسكندر عبر البلاد التي قام الإسكندر المقدوني بفتحها من المحيط الهندي إلى شرقي البحر المتوسط، ولقد كانت العناصر الأولى المكونة لهذه الشخصية ذات أصول يونانية، لكن ما لبثت هذه الأصول وهي تنتقل من جيل إلى جيل ومن أرض إلى أرض، حتى اختلطت بعناصر: بعضُها من أصول بابليّة قديمة، وبعضها الآخر من=

....

=إضافات نصرانيّة، وأخرى إسلاميّة، فالأصل اليوناني لسيرة الإسكندر لم يصل إلى المسلمين مباشرة، بل عن طريق الروايات التي جاءَت بنتيجة الاحتكاك بحضارات الأمم المختلفة، وقد وصل هذا الأصل إلى أوروبا وآدابها عن طريق نقول ترجع إلى القرن الثاني الميلادي، ظهرت لأوّل مرّة في مصر، إلاّ أنّ هذه المنقولات ليست إلاّ خليطاً من عناصر بعضها تاريخي أصيل، والبعض الآخر وقع تحت تأثير الأساطير البابليّة عن (سيرة كَلكامش) وغيره من الأبطال.

أما وصولها إلى المسلمين؛ فقد كان بالدرجة الأولى عن طريق الأدب الفارسي، الذي كان في أحيان كثيرة واسطةً مهمّةً بين الأدب اليوناني والحضارة الإسلاميّة، فقد قامت الدولة الساسانية على أعقاب دولة الطوائف التي خلفها الإسكندر في بلاد الرافدين وغيرها، فنقلت الأصول اليونانية إلى اللغة الفارسية عند قيام الدولة الساسانية التي عملت -أيضاً- على إحياء التراث الفارسي، وبذلك اختلطت الأصول اليونانية بالفارسية، وحينما انتقلت إلى العرب المسلمين -شفاهاً أو كتابةً- كانت قد تطعمت بالعناصر الفارسيّة، ولذلك ليس بغريب مثلاً أن تنسب إلى ابن المقفع -وهو المثقف بالثقافة الفارسيّة، إلى جانب إتقانه اللغة العربيّة- ترجمة بعض كتب المنطق الأرسطوطالي، أو تنسب إلى سالم مولى هشام بن عبدالملك ترجمة «رسائل أرسطو إلى الإسكندر» [كما في «الفهرست» (ص ١٧٧) للنديم]، فلا بد أن هذه الأصول قد وجدت في اللغة الفارسية، فاستعان بها هؤلاء الكتّاب على نقل التراث اليوناني، وليس هناك تأيدات كافية بأنّ هؤلاء الكتّاب الديوانيين كانوا على شيء من العلم باليونانية، بل هناك ما يدلّ على أنّ كتباً في تاريخ الإسكندر أو قصته قد ترجمت من الفارسية إلى العربية، [فقد ذكر بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي» (٢/ ١٠٤) مخطوطة في «قصة الإسكندر» ترجمت من الفارسية إلى العربية، منها نسخة في مكتبة آياصوفيا (٣٠٠٣-٣٠٠٤).

وقال الدكتور شاكر مصطفى في كتابه «التاريخ العربي والمؤرخون» (٢/ ٤١٥): «رواية الإسكندر الأكبر، وهي القصة الخرافية لهذا الرجل التي يعود أصلها إلى مصر وتنسب لكاليثينوس الإغريقي، وهذه القصة عرفت البهلوية، ثم عرفت السريانية، وقد اختلط بأصلها الوثني بعض القصص المسيحي، وقصص يأجوج ومأجوج والسد الفولاذي الذي بناه الإسكندر دون هؤلاء...»].

وهكذا انتقلت قصّة الإسكندر إلى المسلمين، ثم قامت كلّ أمّة بقسطها من التحريف والإضافة، فظهرت قصّة الإسكندر عند كلّ أمّة بصورة تتناسب والقصص الدائر عندها؛ فالإسكندر في القصص النصرانية: رسول، أو هو أحدُ القدّيسين، وأبوه عُدَّ في بعض الأساطير النصرانية من الشهداء النصارى، بل كثيراً ما يُستَشْهد على قصته بأقوال من «الإنجيل».

أمّا في الأدب الفارسي؛ فهو ابن الملك دارا، وحين نأتي إلى القصص الإسلامية يصبح الإسكندر شخصيّة إسلامية، بل هو في الجزيرة العربية سابق على الإسلام، وتورد شيئاً من هذا كتبُ التاريخ الإسلامي نفسُها؛ فأبو حنيفة الدينوري في «أخباره الطوال» [(ص ٣٣-٣٤)] جعل الإسكندر يفتح=

....

=الجزيرة العربيّة ويوغل فيها، حتى يبلغ مكة فيتدخل في إعادة تنظيم القبائل فيها، ويحجّ البيت الحرام، والمسعودي [في «مروج الذهب» (١/ ٢٨٨)] -في إحدى رواياته- يجعله عربيّ الأصل؛ لأنّ «بعض التبابعة غزا مدينة روميّة، وأسكنها خلقاً من اليمن، وأنّ ذا القرنين -الذي هو الإسكندر- من أولئك العرب المتخلفين بها...».

[والأعجب من ذلك كله، ما نسجه خيال القصّاص من التقاء ذي القرنين بالخضر، وماذا جرى بينهما من أمور، وسيأتيك -أخي القارئ- تفصيل ذلك، والله المستعان]، وهكذا يصبح المؤرّخُ الإسلاميُّ حاطبَ ليلٍ، يأخذ دون أن ينظر فيرى.

والطريف في القصص الإسلاميّة التي وصلتنا عن الإسكندر، أن الروايات -على اختلافها وتناقضها- تكاد تَجمع لنا شيئاً من كل أصلٍ من هذه الأصول، سواء كانت يونانيّة، أو بابليّة قديمة، أو فارسيّة، أو إسلاميّة، أو سوى ذلك، نلمحها رغم محاولة القصّاص المسلمين إسباغ الطابع الإسلامي عليها وعلى شخصيّاتها، وأهم هذه النواحي التي يتجلّى فيها هذا (التجميع) هي قصّة أصل الإسكندر ومولده، ذلك المولد العجيب الذي اختلفت فيه الروايات أيما اختلاف:

فالإسكندر عند بعض القصّاص المسلمين، هوأخو دارا بن دارا، وذلك أنّ دارا الأكبر بن بهمن بن أسفنديار بن يستاسف كان تزوّج أمّ الإسكندر، وكانت بنت ملك الروم، وكان اسمها هيلانة، وأنها حملت إلى زوجها دارا الأكبر فوجد منها رائحة كريهة، فأمر أن يحتال في زوال ذلك منها، فاجتمع رأي أهل المعرفة في مداواتها على شجرة يقال لها (سندروس)، فطبخت لها وغسلت بمائها، فأذهب ذلك كثيراً من نتنها ومن عرقها، ولم يذهب ذلك كلّه، فانتهت نفسه عنها لبقيّة نتنها وعافها فردّها على أهلها، وقد علقت منه، فولدت له في أهلها غلاماً فسمّته باسمه واسم الشجرة التي غسلت بمائها (سكندروس)، فهذا أصل اسمه»، [على ما ذكر الثعلبي (ت ٤٢٧ هـ) في «عرائس المجالس» (ص ٣٢٢)، والثعالبي في «تاريخ غرر السير» (ص ٤٠٠ وما بعد - ط. سنة ١٩٦٣م)]، على أن المسعودي يقول بأنّ الإسكندر نفسه قد تزوج بابنة دارا بعد أن فتح بلاد فارس وقتل ملكها دارا، ثم سار إلى أرض السند والهند.

إن أثر النقل عن المصادر الفارسيّة حول أصل الإسكندر لا يحتاج إلى جهدٍ كبير لإظهاره، إذ أنّ القصص الفارسيّة تحاول أن تجعل الإسكندر فارسيّاً، ولقد ظهرت روايات كهذه حتى عند الطبري في «تأريخه».

والجدير بالذكر أن الطبري [في «تاريخ الأمم والملوك»] يوجِّه اهتماماً كبيراً إلى تاريخ ملوك فارس، ولا يحظى بهذا الاهتمام الكبير تاريخ الروم، ويبدو أنه ينقل عن مصادر فارسيّة، ولذلك يجيء حديث الإسكندر عنده (١/ ٥٧٢ - ط. المعارف) ضمن (خبر دارا الأكبر وابنه دارا الأصغر بن دارا الأكبر، وكيف كان هلاكه مع خبر ذي القرنين)، وينقل أن الإسكندر هو أخو دارا الأصغر، هذا فضلاً عن أن المصادر الإسلامية ربما اختلطت فيها الشخصيّات الفارسيّة بشخصيّة الإسكندر وقصّته، فقد جاء في=

....

=[بعض] المصادر [كـ«البيان والتبيين» للجاحظ (١/ ٨١)]، أنّ أحد الخطباء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميّت قال: «الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس»، هذا القول نفسه ينسب في مصادر عربيّة [كـ«الكامل» للمبرد (٢/ ١١)] أخرى -أيضاً- إلى الموبذ حين قام يرثي قباذ الملك، وينقل المبرّد قوله: «كان الملك أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس»، ولست أدري إن كان هذا الاختلاف كان في الأصل من المصادر الفارسيّة أو هو من عمل المصادر العربيّة التي نقلت هذه الأقوال، فقد نقل المسعودي وغيره عدداً ضخماً من الحكم والأقوال التي ألقيت عند قبر الإسكندر، دون أن يشير إلى أصلها الذي نقلها عنه، أما الثعالبي [في «تاريخ غرر السِّير» (ص ٤٥٠-٤٥١)] فيتبرع بذكر أسماء الحكماء الذين رثوا الإسكندر على قبره بإلقاء مواعظهم وحكمهم السائرة، فيعدّد من بينهم أسماء عجيبة في امتزاجها؛ بينهم أرسطوطاليس، أفلاطون، بطليموس، طوبيقا (كذا) ديمقراطيس، سقراط (!)... إلخ.

ويظهر في الروايات الإسلامية عنصر آخر، ربما استطعنا أن نرجعه إلى أصول بابليّة تأثرت بها قصّة الإسكندر قبل وصولها إلى المسلمين، فقد تردد أن الإسكندر كان من نتاج ما بين الملائكة والإنس، وذلك أنّ أمّه كانت آدمية، وكان أبوه من الملائكة -كما تقدم ذكره-، إنّ الاعتقاد بعلاقة الجنّ والإنس يرد في الأخبار المنسوبة إلى العرب قبل الإسلام؛ كحديث السعلاة التي نزلت بني تميم حتى ولدت منهم، ومن هذا الباب حديث الملكة بلقيس والقول في نسبها في الجن والإنس، وقد وردت في القصص الإسلامية أقاصيص يبدو أنها من أصل بابلي؛ كقصّة هاروت وماروت اللذين كانا مَلَكين مطيعين أهبطا إلى الأرض ليجرّبا فيها الغواية والفتنة، ولبثا في الأرض فترة حتى عرضت لهما الزهرة (وهي: أناهيد بالفارسيّة) ففتنتهما، فشربا الخمرة وقتلا، وكانت لهما صلة بالإنسيّة، فمسخت الزهرة كوكباً -وهي النجم المعروف-، والمصادر القصصيّة الإسلامية تجعل القصّة ذات هدف وعظيّ، وتنسب بعض رواياتها إلى المصدر الأول من الإسلام، بل إلى النّبي ﷺ نفسه، [وهذا لم يثبت عنه، كما سيأتي بيانه].

لقد رويت عن أصل الإسكندر ومولده روايات تُسوّغ الادعاء بأن الإسكندر ولد من نتاج الإنس والجنّ، ولقد روت المصادر الإسلاميّة روايات أشبه أن تكون ذاتَ أصل لاتيني، والسبب في ظني هذا هو التقارب العظيم بين ما روته المصادر الإسلاميّة -القصصيّة أو التاريخية- في هذا الشأن، وما تورده مصادر سيرة الإسكندر اللاتينية التي انتقلت محرّفة ومزيدةً إلى الآداب الأوروبية، وسأنقل فيما يلي ما كتبه البيروني (المتوفّى سنة ٤٤٠ هـ) -وهو ممّن اتصل بمصادر الثقافات القديمة وكتب في موضوعات شتى من العلوم والتاريخ والعقائد... إلخ- يصف البيروني [في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة»] (ص ٧٤ - ط. الهند) مولد الإسكندر قائلاً:

«إن نقطينابوس ملك مصر هرب من أردشير الأسود واختفى في مدينة ماقيدونيا يتنجّم ويتكهّن، احتال على (أولمفيدا) امرأة (بيلبس) ملكها وهو غائب، حتى كان يغشاها خداعاً، ويري نفسه على صورة (أمون) الإله في شبه حيّة ذات قرنين كقرني الكبش، إلى أن حبلت بالإسكندر، وكاد بيلبس عند رجوعه=

....

=أن ينتفي منه وينفيه، فرأى في المنام أنه نسل الإله أمون فقبله وقال: لا معاندة مع الآلهة».

وبعد النظر إلى ما تقدم من حديث البيروني، لننظر إلى ما تقوله المصادر الأوروبيّة عن سيرة الإسكندر، وقد وصلت هذه السيرة إلى الآداب الأوروبيّة بروايات مختلفة عن مولده، نشأته، وفتوحاته، جاء في الكتاب الأوّل:

«إنّ أبا الإسكندر الحقيقي هو نيكتانيوس، وهو أحد ملوك مصر الهاربين منها، وقد كان هذا الأب ساحراً عظيماً له قدرة عجيبة على تطبيق أعماله السحريّة على نماذجَ مصنوعةٍ من الشمع لسفُن وجيوش أعدائه، فيسيطر سيطرة تامّة على حركاتها الحقيقية، على أن هذا الرجل يلجأ إلى مقدونيا، وهناك يشتهر كمنجّم، وتتعرف عليه أوليمبياس بهذه الصفة لتستشيرَه إذ لم ترزق بولدٍ، فيعدها هذا بأنّ (زيوس أمون) سيزورها في هيئة تنين... ثم يقوم هو نفسُه باتخاذ هذا المظهر، ويولد الإسكندر في الوقت الملائم، وتثور شكوك (فيليب)، لكنّ ظهور التنين من جديد يؤيد ألوهيّة أبوّته، وكان الطفل في أوّل أمره قميئاً مشوّهاً، وإنه كان على حظ عظيم من الشجاعة والذكاء...».

ومما يذكر عن الإسكندر المقدوني أنه طلب إلى جميع المدن اليونانية أن تعامله معاملة إله، وكان ذلك سنة (٣٢٤ ق.م)، ولعلّ هذا من العوامل التي ساعدت على القصص التي تُنسَج حول شخصه، ولا حاجة بنا إلى القول بأنّ التطابقَ بين القصتَين يكادُ يكونُ تامّاً.

أمّا الإضافات التي أضافها القُصّاص المسلمون؛ فكثيراً ما كانت ساذجة في ظاهرها، تنصبّ بالدرجة الأولى على إظهار الإسكندر بمظهر المؤيد للإسلام، أو تجعله من أصل عربيّ، كما ذكِر سالفاً...

ولعلّ من أطرف ما يختم به حديث الإسكندر، ما رواه القاضي الجرجاني من تحقيق في أصله يستعين عليه بما ينقله عن مصادر تأريخيّة فارسيّة أو يونانيّة، وهو في الحقّ أقرب الكتّاب إلى الواقع التأريخي، [وسيسوق المصنف كلامه بطوله].

فخلاصة ما تقدّم، أن قصّة ذي القرنين يمكن أن تعدّ نموذجاً للقصص الإسلامي الذي يجمع بين العناصر التأريخية والعناصر الخيالية التي تعاونت على تكوينه، فالمؤرخ والقاصّ يستعين أحدهما بالآخر؛ وفي كثير من الأحيان يصعب علينا أن نميّز بينهما: بين من يقصد إلى الحقيقة التأريخيّة لذاتها، ومن يتخذ الحدث التاريخي وسيلة للخلق والإبداع في مجال أوسع دون الارتباط بالواقع.

فقصة ذي القرنين التي جاءت ملخصة جدّاً في القرآن الكريم شغلت أذهان المؤرِّخين والمفسّرين والقُصّاص، ولعلّ السبب في اختلاف المسلمين في شخصه: هو أنّ الاختلاف قد وقع قَبْلَ المسلمين في المصادر اليونانية والفارسيّة، فنقلته المصادر الإسلامية نفسُها، ولم يخلُ تاريخ القصّة من تأثيراتٍ بابليّةٍ أو مصريّةٍ قديمةٍ، فلم تلبث هذه التأثيرات أن ظهرت في القصّة الإسلامية -أيضاً-، فالقصص الإسلامي كان من أرحب المجالات التي اختلطت فيها عناصر الحضارات القديمة باتجاهاتها المختلفة، تأريخيّة كانت=

المذكور ذو القرنين، وهو -أيضاً- غلط؛ فإن لفظةَ (ذو) لفظةٌ عربية محضة، وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن[١]: وكان منهم ذو جدن، وذو الكلاع، وذو نواس، وذو شناتر، وذو القرنين الصعب بن الرائش، واسم الرائش: الحارث بن ذي سدد بن عاد بن الماطاط بن سبأ، وقد قيل: إن ذا القرنين -الصعب المذكور- هو الذي مكّن الله له في الأرض، وعظَّم مُلْكَه وبنى السَّدَّ على يأجوج ومأجوج.

ومما نقله ابن سعيد المغربي[٢]: أن ابن عبّاس -رضي الله عنهما- سئل عن ذي القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز؟ فقال: هو من حِمير[٣]. وهذا مما يقوّي

=أو أسطورية، رغم أن الرواة المسلمين جهدوا في أن يسبغوا على الروايات الطابع الديني الذي يجعلها مقبولة لدى المجتمع الإسلامي.

أفادته الباحثة وديعة طه النجم في مقال لها بعنوان «شخصية ذي القرنين في القصص الإسلاميّة والأساطير القديمة»، وهو منشور في مجلة «مجمع اللغة العربية بدمشق» (م ٤٣ - ص ٣٨٢-٤٠٠)، وقد تصرَّفت فيه وزدت عليه، فاقتضى التنويه.

(١) للأستاذ إسماعيل بن علي الأكوع مقالة منشورة في مجلة «مجمع اللغة العربية» (٥٣/ ٣٩٥-٤٠١) بعنوان (الكنى والألقاب والأسماء عند العرب، وما انفردت به اليمن) عمّق فيه ما ذكره المؤرِّخون، أمثال أبي الفداء في كلامه السابق وغيره. وانظر: «المرصع» لابن الأثير (ص ٢٧١)، «الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار» (ص ٢٩٣-٣٠٠) لحسن الباشا، ذكر فيه جميع الألقاب التي تبتدأ بـ(ذو...)، وفصَّل في تعريفها، وبيَّن على من أطلقت.

(٢) ابن سعيد اسمه علي بن موسى، وله كتابان في التاريخ هما من جملة مصادر أبي الفدا ذكرهما في خطبة «تاريخه»؛ أحدهما: «لذة الأحلام في تاريخ أمم الأعجام» في مجلدين، ويظهر أن هذه العبارة منقولة منه، والثاني: «المغرب في أخبار أهل المغرب» في نحو خمسة عشر مجلداً. (منه).

قلت: طبع الثاني منهما، وعرف برنارد مورتيز بالقسم الذي يخص صقلية منه، ونشره في باليرمو بإيطاليا سنة ١٩١٠م، وعنه ملخص في «دراسات في المخطوطات العربية» لسماء المحاسني (ص ١٣٠-١٣١)، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية.

(٣) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (١/ ٣٩٤ رقم ٨٣٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣١) بسند ضعيف، وعزاه في «البداية والنهاية» (٢/ ١٠٤) للزبير بن بكار.

أنه الصعب المذكور؛ لأنه كان مَلِكاً عظيماً، وكان من ولد حِمير» اهـ.

وأعاد أبو الفدا العبارة الأخيرة في الكلام على ملوك العرب قبل الإسلام، فقال[١]: «بعد تُبَّع الأول مَلَك ابنه ذو القرنين الصعب بن الرائش، وقد نقل أن ابن عباس[٢] سُئِل عن ذي القرنين -الذي ذكره الله في كتابه العزيز-، فقال: هو من حمير[٣]، وهو الصعب المذكور، فيكون ذو القرنين المذكور في الكتاب العزيز هو الصعب بن الرائش المذكور، لا الإسكندر الرومي» اهـ.

وقال الفخر الرازي[٤]: (القول الثاني):

قال أبو الريحان الهروي المنجم في كتابه الذي سماه بـ«الآثار الباقية عن القرون الخالية»[٥]:

قيل: إن ذا القرنين هو أبو كَرِب شمس بن عبير بن أفريقش[٦] الحِمَيري، فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها، وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حِمير[٧]

---

(١) في كتابه «المختصر في أخبار البشر» (١/ ١١ - ط. دار الكتب العلمية).

(٢) كذا في الأصل، وفي مطبوع «تاريخ أبي الفداء»: «وقد نقل ابن سعيد أنّ ابن عباس...».

(٣) مضى تخريجه قريباً.

(٤) (٢١/ ١٤٠ - ط. دار الكتب العلمية).

(٥) (ص ٤٠ - ط. ليدن).

(٦) كذا في الأصل! وهو خطأ، صوابه ما في «الآثار الباقية»: «أبو كَرِب شمّر يُرعِش (في نسخة: ابن عش) بن إفريقيس...».

(٧) نسبه أبو الريحان الهروي إلى سعد بن عمرو بن ربيعة بن مالك بن صُبَيح بن عبدالله بن زيد بن ياسر بن نَنعم الحميري، وهو أحد مَقاول اليمن.

و(مقاول): جمع (قَيْل)؛ وهو: اسم لملوك اليمن، كل ملك منهم يسمى (قَيل). قاله الدارقطني في «المؤتلف» (١٨٥٢)، وأفاد النووي في «شرح صحيح مسلم» (٧/ ٣٣): أن هذا اللقب في ملوك (حِمير)، وأنه أقل درجة من الملك.

حيث قال:

قَـد كَـانَ ذُو القُرنيـن قَبلـي[١] مُسـلِماً مَلِكـاً عَـلا فـي الأرض غَـير مفنـدِ[٢]
بلـغ المشـارق والمغـارِبَ يَبْتغـي أسـبابَ مُلـكٍ مـن كَريـمٍ سَـيّدِ[٣]

ثم قال أبو الريحان: «ويشبه أن يكون هذا القول أقرب؛ لأن الأذواء كانوا من اليمن، وهم الذين لا تخلوا أساميهم من ذي؛ كذي المنار، وذي الأذعار، وذي الشّناتر، وذي نُواس، وذي جدن، وذي يزن[٤]، وغير ذلك»[٥].

وقال العلاّمة المقريزي في «الخطط»[٦] تحت عنوان (ذكر الفرق بين الإسكندر وذي القرنين، وأنهما رجلان):

«اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار، أنَّ ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز فقال: ﴿وَيَسأَلونَكَ عَن ذِي القَرْنَينِ قُل سَأَتْلُوا عَلَيكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾ [الكهف: ٨٣] الآية، عربيٌّ قد كثُر ذكره في أشعار العرب، وأن اسمه: الصعب بن ذي مراثد بن الحارث الرائش بن الهمال ذي سدد بن عاد ذي منح بن عامر الملطاط بن سكسك

(١) في رواية -كما في «تفسير أبي السعود» (٥/ ٧٣٧)-: «جدي». (منه).

(٢) في مطبوع «الآثار الباقية»: «مُعَبّد»، وفي مطبوع «الكشف والبيان» (٦/ ١٩١) للثعلبي: «مَلِكاً تدين له الملوك وتسجد»، ومثله في «تفسير عبدالرزاق» (٢/ ٤١١)، إلا أن فيه: «عمي»، بدل: «قبلي»، و: «تفتدي»، بدل: «وتسجد».

(٣) في رواية كما في [-«الكشف والبيان» للثعلبي (٤/ ١٩١)، و«تاريخ ابن عساكر» (١٧/ ٣٣٢)، وفي] «تفسير أبي السعود» (٥/ ٧١٧)-: «أسباب أمر من حكيم مرشد». (منه).

قال أبو عبيدة: وأورد أبو الريحان بعدهما بيتين آخرين، وذكرهما ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٩) كما عند أبي السعود، ومعهما بيت ثالث.

(٤) في الأصل: «من ذي كذا؛ كذي الناد، وذي نواس، وذي النون، وغير ذلك»، والمثبت عبارة أبي الريحان.

(٥) «الآثار الباقية» (ص ٤١).

(٦) (ص ١/ ١٥٣ - ط. بولاق)، ونقله عنه الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٤٩).

ابن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح -عليه السلام-، وأنه ملكٌ من ملوك حمير، وهم العرب العاربة، ويقال لهم [-أيضاً-][(١)]: العرب العرباء[(٢)]، وكان ذو القرنين تبَّعاً متوَّجاً، ولما ولي الملك تجبّر ثم تواضع لله واجتمع بالخضر[(٣)]، وقد غلط مَن ظَنَّ

---

(١) سقط من الأصل.

(٢) في الأصل: «العارباء»!! والمثبت من «الخطط».

(٣) خبر اجتماع (ذي القرنين) مع (الخضر) -عليه السلام- طويل طويل ولم يثبت، وفيه نكرة واضحة، وروي على ألوان وضروب، وهو مختلق، مداره على واهين ومتروكين، وكلٌّ منهم يروي منه ما يستهويه، وتجرّأ بعضهم فرفع قطعة منه إلى النبي ﷺ، وجعله آخر عن ابن عباس قوله، وهو -على التحقيق- من تلفيق متروك.

ونبدأ بالمرفوع، ثم الموقوف، وإن لم يكن فيهما ذكر للاجتماع المزعوم، ثم نختم بذكر أصل الخبر وفيه الشاهد، فنقول والله المستعان:

أولاً: أخرج زاهر بن طاهر الشّحامي في «سداسيّاته» (رقم ٢٥ - بتحقيقي)، قال: أخبرنا أبو الحسين عبدالغافر بن محمد بن عبدالغافر الفارسي إذناً -وكتب بخطه-، أنبأ أبو سعد عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب القرشي، أنبأ أبو عبدالله محمد بن أيوب بن يحيى بن ضريس البجلي الرازي، أنا عثمان بن مطيع السلمي، ثنا العلاء بن زيدل، عن أنس بن مالك، عن النّبي ﷺ أنه قال:

«لما أمر الله -تعالى- ذا القَرنين بالسيرورة إلى المشرق والمغرب سار، وكان لا ينزل منزلاً إلاّ أخبر أهلَه بأمر الدنيا والآخرة، فنزل على ملك من ملوك بني إسرائيل، فسائله ذلك الملك: أنْ يا ذا القرنين: إنّي سائلك عن خصال أربع، فخبّرني بهنَّ وعلّمنيهنّ: ما اثنان قائمان، واثنان مختلفان، واثنان مشتركان، واثنان متباغضان؟

قال: قد سألتني عن عجب، فسأخبرك بهنّ فأعلمكهُنّ: أما الاثنان القائمان: فالسماء والأرض، ثم لم يزولا منذ أقامهما الله -عزَّ وجلَّ-، وأما الاثنان المختلفان: فالشمس والقمر متفرقان، وأما المشتركان: فالليل والنهار، وأما الاثنان المتباغضان: فالموت والحياة لا يتناسبان.

ثم سار ذو القرنين حتى تخوم السّماء والأرض، ثم نزل وعسكر، فقال: يا أيها النّاس! إنّي مجاوزُ السّماء والأرض، فلا أعرفنَّ أحداً يحمل معه شيخاً ولا امرأةً ولا صبيّاً، ومعه شابٌ له والدٌ شيخٌ كبيرٌ، فقرع الفتى لأبيه أن يخلفه بين السّماء والأرض، فأتى أباه، فقال: يا أبت! إنّ مَلكنا قد أمرنا أن لا نحمل شيخاً ولا امرأةً ولا صبياً، فكيف أصنع بك؟ قال: يا بنيّ! احملني، فإنك ستحتاج إليّ، اشتر لنا أتاناً لها جحيش،=

....

=قال: فطلب له حتى أصاب له أتاناً لها جحيش، فاشتراها له، ونادى ذو القرنين بالرحيل، فقال الشيخ لابنه: شدّ قماط الجحيش ودعه مكانه.

فسار الناس حتى خرجو من نجوم السّماء والأرض، فساروا اثني عشر يوماً في ظلمةٍ شديدة، لا يصر بعضُهم بعضاً، ليس فوقهم شيءٌ في رضراض وحجر، حتى انتهى إلى البحر الأسود قائمٍ لا يجري ليس له قعر، فعسكر على شفير البحر، فنظر في لُجّة البحر في سوادها، فإذا هو بجبل في لجة البحر، ذاهب في الهواء عليه مَلَكٌ من الملائكة موكّل بذلك الجبل، نصف خَلْقه ثلج، ونصف خلقه نار، آخذٌ بعروة الجبل، ومشى ذو القرنين على وجه الماء وخلف العسكر، فناداه الملك: يا ذا القرنين! يا خاطئ ابن الخاطئ! على ما مشيت، على وجه بحر ليس له قعر.

قال: فارتسب فزعاً، فقبض عليه الملك آخذ بذراعيه، قال: قم يا ضعيف! أين تريد؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا مَلَكٌ من الملائكة، وكّلني الله بهذا الجبل، وإنّ جبال الأرض كلها عرق هذا الجبل إذا أراد الله -تعالى- خسف الأرض أو زلزلها حركت -في هامش المخطوط: كذا فيه- عرقاً منها فأقلبها، فارجع كما جئت، ليس خلفك شيء، ولا أمامك شيء، فرجع، فنادى في أصحابه: هل أحد حمل معه شيخاً؟

قال: فجاء الفتى ابنُ الشيخ يسعى، قال: ما كنتَ تُعدُّ لمن عصاك؟ فأنا ذلك، قال: وما صنعتَ؟ قال: إنك نهيت أن نحمل معنا شيخاً أو امرأة أو صبيّاً، وإني حملتُ والدي شيخاً كبيراً، كرهت أن أخلفه؛ فيهلك، قال: هل أوصى بشيء؟ قال: أوصاني أن أشتري له أتاناً لها جحيشة.

ثم أمرني فأوثقت الجحيش، فوضع العسكر، فقال: إنه لم يخرجنا من هذه الظلمة إلاّ هذه الأتان تحنّ إلى جحيشها، فقال: صدق الشيخ، فقدّمه، فقدّموه، فانسلت الأتان مثل الحية تحنّ إلى ولدها، والجنود خلفه، ومرّوا برضراض وحجارة كثيرة، ونادى ذو القرنين: أيها الناس! خذوا من هذه الحجارة، فإنّه من أخذ يندم، ومن لم يأخذ يندم، فتناول الناس، فمنهم من أخذ وأكثر، ومنهم من لم يأخذ إلا قليلاً، قال: فضرب الفتى ابنُ الشيخ يده إلى حجر ضخم، فأخذه فأثقل يديه، ثم انتهوا إلى العسكر الذي كان فيه الجحيش، فنظروا فإذا الذي أخذوا ياقوتة حمراء، وزبرجدة خضراء، فندم الذي لم يأخذ، وندم الذي أخذ قليلاً.

قال: فنظر الفتى إلى الحجر الذي كان أخذه، فناوله أباه، فقال: يا أبت إنّي أخذت هذا الحجر، فأثقلني، فلم أزد عليه شيئاً، فما ذا الحجر؟ قال: زنه فانظر ما ترى، فوضعه في كِفّة الميزان، فكلما وضع الوزن كان الحجرُ أثقلَ من ذلك الوزن! وكلما زاد في الوزن، زاد ذلك ثقلاً، قال: يا بني! قد أعياني هذا الحجر، لا أدري ما هو؟ انطلق به إلى المِلِك يخبرْك ما هو، فجاء به إلى ذي القرنين، فنظر إليه، فدعى بالميزان، فوضعه في كفة الميزان، ثم وضع عليه كفاً من التراب، ثم وضع الوزن، فقام، فقال: هذا عين ابن آدم لا يملأ به إلا التراب».

قال الشّحامي: «هذا حديث غريب عجيب». =

....

= قال أبو عبيدة: وإسناده واهٍ بمرَّة، فيه العلاء بن زيدل -وقيل: ابن زيد-، قال ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٨٦٢): «يحدث عن أنس بأحاديثَ عدادٍ مناكيرٍ»، وقال البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٥٢٠ رقم ٣١٨٣): «منكر الحديث».

وله شاهد لا يُفرَح به، فأخرج نحوه مختصَراً مقتصِراً على أوله: «ما اثنان قائمان...» إلى «واثنان متباغضان» مع الجواب: أبو محمد عبدالله بن يوسف الجرجاني في «المعجم في مشتبه أسامي المحدثين» (ص ٢٢١) من طريق عمر بن علي عن سعيد بن سالم القدّاح، عن محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن عبدالله بن عباس قوله.

وقال: «محمد بن زياد الميموني الأعور، وأكثر روايته عن ميمون بن مهران، تكلّموا فيه».

قلت: انظر ترجمته في: «التاريخ الكبير» (١/ ٨٣)، و«الجرح والتعديل» (٤/ ٦٧)، و«الضعفاء الكبير» (٤/ ٦٧)، و«الكامل» (٦/ ٢١٤٣)، و«المجروحين» (٤/ ٢٥٠)، و«الميزان» (٣/ ٥٥٢)، و«التهذيب» (٩/ ١٧٢).

وسعيد بن سالم صدوق يهم، كما في «التقريب» (٢٣٧).

وأخرجه أبو الشيخ مُقطّعاً في «العظمة» (٤/ ١٤٨٨ رقم ٩٧٩ و٤/ ١٤٦٥-١٤٦٧ تحت رقم ٩٦٦) من طرق بنحوه.

(تنبيه): لم يعرف محقق «المعجم في مشتبه أسامي المحدثين» مؤلفه، واضطرب في تعيينه، وهو الذي ذكرت، وكنت قد حققت الكتاب وفرغت منه، وجهدت في تعيين مؤلفه، فطبع الكتاب بتحقيق الشيخ نظر الفريابي، فعدلت عنه، ولعلي أنشط إلى طباعته فيما بعد.

قال أبو عبيدة: وهذان الخبران مأخوذان من خبر لفَّقه سفيان بن وكيع، وهذا البيان:

أخرج أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٦١-١٤٦٧ رقم ٩٦٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» -كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٤٤)-، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١/ ٣٤٦-٣٥٠) من طريق سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن معمر بن سام، عن أبي جعفر، عن أبيه أنه: سئل عن ذي القرنين؟ قال:

«كان ذو القرنين عبداً من عباد الله -عزَّ وجلَّ- صالحاً، وكان من الله بمنزلةٍ ضخم، وكان قد ملك ما بين المشرق والمغرب، وكان له خليل من الملائكة يقال له: «زيافيل»، وكان يأتي ذا القرنين يزوره، فبينا هما ذات يوم يتحدثان، إذ قال له ذو القرنين: حدثني كيف كانت عبادتكم في السماء؟ قال: فبكى، ثم قال: يا ذا القرنين! وما عبادتكم عند عبادتنا في السماء، ملائكة قيام لا يجلسون أبداً، ومنهم ساجد لا يرفع رأسه أبداً، وراكع لا يستوي قائماً أبداً، ورافع وجهه لا يطرق، شاخص أبداً، يقول: سبحان الملك القدوس، رب الملائكة والروح، رب! ما عبدناك حق عبادتك.

قال: فبكى ذو القرنين بكاءً شديداً، ثم قال: يا زيافيل! إني أحب أن أعيش حتى أبلغ من عبادة ربي=

....

=حق طاعته، قال: وتحب ذلك؟ يا ذا القرنين! قال: نعم، قال زيافيل: فإن لله -تبارك وتعالى- عيناً تسمَّى عين الحياة، من شرب منها شربة لم يمت أبداً، حتى يكون هو الذي يسأل ربه الموت.

قال ذو القرنين: فهل تعلمون أنتم موضع تلك العين؟ قال زيافيل: لا، غير أنا نتحدث في السماء أن لله ظُلْمَة في الأرض لم يطأها إنس ولا جن، ونحن نظن أن تلك العين في تلك الظلمة.

قال: فجمع ذو القرنين علماء أهل الأرض، وأهل دراسة الكتب وآثار النبوة، فقال: أخبروني هل وجدتم في كتاب الله، وفيما عندكم من الأحاديث عن الأنبياء والعلماء قبلكم: أن الله -تبارك وتعالى- وضع على الأرض عيناً سمّاها عين الحياة؟ قالوا: لا، قال ذو القرنين: فهل وجدتم فيها أن الله -تعالى- وضع في الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جن، قالوا: لا، فقال عالم منهم: أيها الملك! لم تسأل عن هذا؟ فأخبره بما قاله زيافيل، فقال: أيها الملك! إني قرأت وصية آدم -عليه السلام-، فوجدت فيها: أن الله -تبارك وتعالى- وضع في الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جان، قال ذو القرنين: فأين وجدتها في الأرض؟ قال: وجدتها على قرن الشمس.

فبعث ذو القرنين، فحشر الناس والفقهاء والأشراف والملوك، ثم سار يطلب مطلع الشمس، فسار إلى أن بلغ طرف الظلمة اثنتي عشرة سنة، فإذا الظلمة ليست بليل، وهي ظلمة تفور مثل الدخان، فعسكر، ثم جمع علماء أهل عسكره، فقال: إني أريد أن أسلك هذه الظلمة، فقالوا: أيها الملك! إنه قد كان قبلك من الأنبياء والملوك لم يطلبوا هذه الظلمة فلا تطلبها، فإنا نخاف أن يتشعّب علينا منها أمر نكرهه، ويكون فيه فساد أهل الأرض، فقال ذو القرنين: لا بد أن أسلكها، فخرّت العلماء سجوداً.

ثم قالوا: أيها الملك! كف عن هذه، ولا تطلبها، فإنا لو كنا نعلم أنك إذا طلبتها ظفرت بما تريد، ولم يسخط الله علينا لكان، ولكنّا نخاف المقت من الله -تعالى-، وأن يتشعّبَ علينا منها أمر يكون فيه فساد أهل الأرض ومن عليها.

فقال ذو القرنين: إنه لا بد من أن أسلكها، قالوا: فشأنك، قال: أخبروني أيّ الدواب بالليل أبصر؟ قالوا: البكارة.

فأرسل فجمع له ستة آلاف فرس أنثى بكارة، فانتخب من عسكره ستة آلاف رجل من أهل العقل والعلم، فدفع إلى كل رجل فرساً، وعقد للخضر ﷺ على مقدمته في ألفي رجل، وبقي هو في أربعة آلاف رجل، وقال لمن بقي من النّاس في العسكر: لا تبرحوا عسكري اثنتي عشرة سنة، فإن نحن رجعنا إليكم، وإلا فارجعوا إلى بلادكم.

فقال الخضر: أيها الملك! إنك تسلك ظلمة لا تدري كم مسيرتها، ولا يبصر بعضُنا بعضاً، فكيف نصنع بالظلل إذا أصابتنا؟

فدفع ذو القرنين إلى الخضر خرزة حمراء، فقال: إذا أصابكم الظلل، فاطرح هذه الخرزة إلى=

....

=الأرض، فإذا صاحت فليرجع أهل الظلال.

فسار الخضر بين يدي ذي القرنين، يرتحل الخضر، وينزل ذو القرنين، وقد عرف الخضر ما يطلب ذو القرنين، وذو القرنين يكتم ذلك.

فبينا الخضر يسير إذ عارضه وادٍ، فظن أن العين في ذلك الوادي، فلما أتى شفير الوادي قال لأصحابه: قفوا، ولا يبرحن رجلٌ منكم من موقفه، ورمى الخضر بالخرزة، فإذا هي على حافة العين، فنزع الخضر ثيابه، ثم دخل العين، فإذا ماءٌ أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من الشهد، فشرب منه وتوضأ واغتسل، ثم خرج فلبس ثيابه، ثم رمى بالخرزة نحو أصحابه، فوقعت الخرزة، فصاحت، فرجع الخضر إلى صوت الخرزة، وإلى أصحابه، فركب، وقال لأصحابه: سيروا بسم الله.

قال: ومر ذو القرنين فأخطأ الوادي، فسلكوا تلك الظلمة أربعين يوماً، ثم خرجوا إلى ضوءٍ ليس بضوء شمسٍ ولا قمرٍ، أرض خضراء حشاشة، وإذا في تلك الأرض قصر مبنيٌّ طوله فرسخ في فرسخ، مبوبٌ ليس عليه أبوابٌ، فنزل ذو القرنين بعسكره، ثم خرج وحده حتى نزل ذلك القصر، فإذا حديدة قد وضع طرفاها على حافتي القصر من ها هنا وها هنا، فإذا طائر أسود كأنه الخطّاف مزموم بأنفه إلى الحديد معلق بين السماء والأرض.

قال: فلما سمع الطائر خشخشة ذي القرنين، قال: من هذا؟ قال: أنا ذو القرنين، قال الطائر: ما كفاك ما وراءك حتى وصلت إليّ.

ثم قال: يا ذا القرنين! حدثني، قال: سل ما شئت، قال: هل كثر بناء الجص والآجر؟ قال: نعم، قال: فانتفض الطائر انتفاضة، انتفخ، ثم انتفض حتى بلغ ثلث الحديدة، ثم قال: يا ذا القرنين! أخبرني، قال: سل، قال: كثر شهادات الزور في الأرض؟ قال: نعم، فانتفض الطائر، ثم انتفخ حتى بلغ ثلثي الحديدة، قال: يا ذا القرنين! حدثني: هل كثر المعازف في الأرض؟ قال: نعم، فانتفض الطائر حتى ملأ الحديدة، سد ما بين جداري القصر.

قال: ففرق ذو القرنين فرقاً شديداً.

قال الطائر: يا ذا القرنين! لا تخف حدثني، قال: سل، قال: هل ترك الناس شهادة أن لا إله إلا الله بعد؟ قال: لا، قال: فانتفض الطائر ثلاثاً، ثم قال: حدثني يا ذا القرنين! قال: سل، قال: هل ترك الناس الصلاة المكتوبة بعد؟ قال: لا، فانتفض ثلاثاً، ثم قال: حدثني يا ذا القرنين! قال: سل، قال: هل ترك الناس الغسل من الجنابة بعد؟ قال: لا، فعاد الطائر كما كان، ثم قال: يا ذا القرنين! اسلك هذه الدرجة التي في أعلى القصر.

قال: فسلكها ذو القرنين وهو خائف، حتى إذا استوى على صدر الدرجة، إذا سطح ممدود في واد، عليه رجل قائم أو متشبه بالرجل، شاب عليه ثياب بيض، رافع وجهه إلى السماء واضع يده على فيه، فلما=

....

=سمع حسّ ذي القرنين، قال: من هذا؟ قال: أنا ذو القرنين، فمن أنت؟ قال: أنا صاحب الصور، قـال: فما بالي أراك واضع يدك على فيك، رافع وجهك إلى السماء؟ قال: إن الساعة قد اقتربت، فأنا أنتظر من ربي أن يأمرني أن أنفخ.

ثم أخذ صاحب الصور شيئاً من بين يديه كأنه حجر، فقال: خذ هذا يـا ذا القرنيـن! فـإن شبع هـذا الحجر شبعت، وإن جاع جعت، فأخذ ذو القرنين الحجر، ثم رجع إلى أصحابه، فحدّثهم بالطير، ومـا قـال له، وما رد عليه، فجمع ذو القرنين أهل عسكره، فقال: أخبروني عن هذا الحجر، ما أمره؟

فأخذ العلماء كِفّتي الميزان فوضعوا الحجر في إحدى الكفتين، ثم أخذوا حجراً مثله فوضعـوه فـي الكفة الأخرى، فإذا الحجر الذي جاء به ذو القرنين مثلُ جميع ما وُضِع معه، حتى وضعوا معه ألف حجـر، قال العلماء: أيها الملك! انقطع علمُنا دون ذلك، أسحر هذا أم علم؟ ما ندري هذا؟

قال: والخضر ينظر ما يصنعون وهو ساكت.

فقال ذو القرنين للخضر: هل عندك من هذا علم؟ قال: نعم، فأخذ الميزان بيـده، ثـم أخـذ الحجـر الذي جاء به ذو القرنين فوضعه في إحدى الكفتين، ثم أخذ حجراً من تلك الأحجار مثلَه فوضعه في الكفـة الأخرى، ثم أخذ كفاً من تراب فوضعه مع الحجر الذي جاء به ذو القرنين، ثم رفع الميزان فاسـتوى، قـال: فخرّ العلماء سجّداً، وقالوا: سبحان الله! إن هذا العلمَ ما نبلغه.

قال ذو القرنين للخضر: فأخبرني ما هذا؟ قال الخضر: أيها الملـك! إن سـلطان اللـه قـاهر لخلقـه، وأمره نافذ فيهم، وإن الله -تعالى- ابتلـى خلقـه بعضَهـم ببعـض، فـابتلى العـالم بالعـالم، وابتلى الجاهل بالجاهل، وابتلى الجاهل بالعالم، والعالم بالجاهل، وأنه ابتلاني بك، وابتلاك بي.

قال ذو القرنين: حسبك، قد قلت، فأخبرني، قال: أيها الملك! هذا مثلٌ ضربه لك صاحب الصـور، إنّ الله -عزّ وجلّ- سبّب لك البلاد وأعطاك منها ما لم يعط أحداً، وأوطأك منها مـا لـم يوطـئ أحـداً، فلـم تشبع، فأبت نفسك إلا شَرَهاً، حتى بلغت من سلطان الله -عزّ وجلّ- ما لم يبلغْه أحدٌ، وما لم يطلبـه إنـس ولا جان، فهذا مثلٌ ضربه لك صاحب الصور، فإن ابن آدم لا يشبع أبداً دون أن يحثـى عليـه التـراب، قـال: فهنا يا ذا القرنين! ثم قال: صدقت يا خضر في ضرب هذا المثل، لا جرم لا أطلـبُ أثـراً فـي البـلاد، وبعـد مسيري هذا حتى أموت.

ثم ارتحل ذو القرنين راجعاً، حتى إذا كان في وسط الظلمات وطئ الوادي الذي كان فيـه زبرجـد، فقال الذين معه: أيها الملك! ما هذا الذي تحتك؟ وسمعوا خشخشة تحتهم، قال ذو القرنين: خذوا فإنه من أخذ ندم، ومن ترك ندم، فأخذ منه الرجل الشيء بعد الشيء، وترك عامتهم لم يـأخذوا شـيئاً، فلمـا خرجـوا فإذا هو زبرجد، فندم الآخذ والتارك.

ثم رجع ذو القرنين إلى دومة الجندل، وكان منزله بها، فأقام بها حتى مات. =

....

= قال أبو جعفر: إن رسول الله ﷺ قال: «**رحم الله أخي ذا القرنين، لو ظفر بالزبرجد في مبدئه، ما ترك منه شيئاً حتى يخرجه إلى الناس؛ لأنه كان راغباً في الدنيا، ولكنه ظفر به وهو زاهد في الدنيا، لا حاجة له فيها**».

قال أبو عبيدة: أورد السيوطي في «الحبائك» (ص ٧٨ رقم ٢٧٥) أوله، وعزاه لأبي الشيخ فقط، ولم يعزه في «الدر» إلى ابن عساكر، **وإسناده ضعيف جداً**، وهو منكر، فيه سفيان بن وكيع متروك، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٩٨): «ومن زعم من القصّاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس، وصار يمشي بجيوشه في ظلماتٍ مُدَداً طويلةً فقد أخطأ وأبعد النجعة، وقال ما يخالف العقل والنقل».

قال أبو عبيدة: صدق والله!

وأخرج الحنائي في «فوائده» (رقم ٣٠٤ - بتحقيقي) -واللفظ له، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤١٨-٤١٩)-:

أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد القادر بن بزيغ بن الحسن بن بزيغ الطَّرسوسي قراءةً عليه، قال: وحدثنا أبو حفص الصائغ عمر بن أحمد، قثنا أبو ذر، قال: قرأنا على أحمد بن سلمة الرازي: حدثكم أبو عبدالله محمد بن عثمان بن يزيد الرفاعي، قثنا عبدالكريم بن هارون الجُرجاني، قال: حدثني أبي هارونُ، عن أبيه.

وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٥٥-٣٥٦) من طريق إبراهيم بن أحمد الخواص؛ كلاهما عن سليمان الأشج -وكان صاحب كعب الأحبار-، قال:

«إن ذا القرنين كان رجلاً طوّافاً صالحاً، فلما وقف على جبل آدم ﷺ الذي هبط عليه، ونظر إلى موضع آدم هاله ذلك، وفزع، فوقف، فقال له الخضير -عليه السلام-وكان صاحب لوائه الأكبر-: ما لك -أيها الملك- وقفتَ وفزعتَ؟ قال: ما لي لا أقف ولا أفزع، وهذا أثر الآدميين، أرى موضع الكفين والقدمين، وهذه الفرجة، وأرى هذه الأشجار حوله قائمة، ما رأيت في طوافي أطول من هذه الأشجار، يابسة، يسيل منها ماء أحمر، إنّ لها شأناً، فقال له الخضر -عليه السلام-وكان أعطي العلوم والفهم-: أيها الملك! ألا ترى الورقة المعلّقة من النخلة الكبيرة؟ قال ذو القرنين: بلى، قال: فهي تخبرك بنبأ هذا الموضع -وكان الخضر -عليه السلام- يقرأ كل كتاب-، فقال: أيها الملك! أرى كتاباً فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب آدم أبي البشر، أوصيكم ذريتي وبناتي أن تحذروا عدوّي وعدوكم إبليس الذي كان بلين كلامه وفجور أمنيته، أنزلني من الفردوس إلى تربة الدنيا، فألقيتُ على موضعي هذا، لا يُلتَفَتُ إليّ متي سنةٍ بخطيئةٍ واحدةٍ، حتى رسَتْ بيَ الأرضُ، وهذا أثري، وهذه الأشجارُ من دموع عَينيَّ، فعليّ في هذه التربة أنزلت التوبة، فتوبوا من قبل أن تندموا، وبادروا من قبل أن يُبادَرَ بكم، وقدّموا من قبل أن يُقدَم بكم، قال: فنزل ذو القرنين، فمسح موضع جلوس آدم، فإذا هو ثمانين ومئة ميل موضع جلوسه فقط، قال: ثم أحصى الأشجار، فإذا هي سبع مئة شجرة كلها من دموع آدم نبتت، فلما قتل=

....

=قابيل هابيل تحولت يابسة وهي تبكي دماً أحمَر، فقال ذو القرنين للخضر: ارجع بنا يا خضـر! فـلا طَلبتُ الدنيا بعدها أبداً».

قال ابن عساكر (٧/ ٤١٩): «هذا حديث منكر، وفـي إسناده جماعـة مجهولـون»، ولـم يعـزه فـي «الدر» (٥/ ٤٣٨) إلاّ إلى ابن عساكر!

قال أبو عبيدة: وخرافة الالتقاء ذكرها غير واحد، وعلى رأسهم إسحاق بن بشر فـي كتابـه «المبتـدأ» -وسيأتي كلامه قريباً-، والثعلبي في قصصـه المسـمى «عرائـس المجـالس» (ص ٣٢٩-٣٣٢)، وظـن أن صاحب الخبر الطويل السابق هو عَليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- بسبب الإسناد الذي فيـه: «عـن أبـي جعفر عن أبيه»؛ إذ ساقه بلفظه، ولم يتنبه إلى أن أبا جعفر هو الصادق محمد بن علي بن الحسـين، وأن أبـاه علي بن الحسين، زين العابدين، وليس علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وهذا الخبر شهير فـي تفاسـير الرافضة، انظر منها-علـى سـبيل المثـال-: «تفسـير القمـي» (٢/ ٤٠-٤١)، و«البرهـان فـي تفسـير القـرآن» (٥/ ٦٩-٧٧)، و«تفسير العياشي» (٢/ ٣٦٧)، بل ذكر البحراني (٥/ ٨٢-٨٧) نحوه مع علـي نفسـه! وأنـه زار وزوّر بعضَ شيعته (يأجوجَ ومأجوجَ)، وأراهم إيـاهم، وقـال قبـل سـرد الخـبر: «وروى بعـضُ علمائنـا الإماميةِ في كتابٍ له سمّاه: «منهج التحقيق إلى سواء الطريق»... وساقه»، وفيه ما يؤذن بربوبيته! والعياذ بالله -تعالى-.

وسيورد المصنف نقلاً عن «التيجان»: (ص ٩٤-١٠٩) خبراً فيه -أيضاً- لقـاء (الخضـر) مـع (ذي القرنين) وهي أحدوثة وقصة، وفيها من خيال القُصَّاص ما الله به عليم!

وذكـر ابـن فضـل اللـه العمرانـي فـي «مسـالك الأبصـار» (٣/ ق ١٩٠-١٩١) عنـد كلامـه علـى (قسطنطينة) ما نصه: «ويقال: إن فيها أثـراً مـن علـوم الخضـر والإسـكندر ذي القرنيـن، تفتـح بـه المغـالق، وتتسلم المعاقلُ، وتملك النواصي، وتهزم الأعداءُ...» إلخ الهراء.

(تنبيه):

مما ينبغي أن يتُنبَّه له، أن هذا الكتـاب «عرائـس المجـالس»: كتـاب يشـتمل علـى قصـص الأنبيـاء المذكورة في القرآن بالشرح والبيان، وقد طُبع غيرَ مـرة، وفيـه كثير مـن الإسـرائيليات والأخبـار الواهيـات والغرائب، وفيه -أيضاً- بلايا ورزايا.

انظر: التعليق على «سير أعـلام النبـلاء» (١٧/ ٤٣٦)، و«الأجوبـة الفاضلـة» للكنـوي (ص ١٠١)، وكتبنا: «من قصص الماضين» (ص ٨)، و« الهجر فـي الكتـاب والسـنة» (ص ١٨٣)، و«كتـب حـذر منهـا العلماء» (٢/ ٢٠-٢١).

وذكره علويٌّ السقاف المالكي في آخـر جزئـه «المنهـل اللطيـف فـي أحكـام الحديـث الضعيـف» (ص ٢٩٠) تحت: (فائدة: ذكر العلماءُ كتباً لا ينبغي للإنسان أن ينقل منها حديثاً إلا بعد المراجعة والتنقيب، بل بعضها يغلب فيه ذكر الأحاديث الموضوعة)، ثم قال: «فقد نص على حرمتها الجلال السـيوطي»، ثـم=

أن الإسكندر بن فيليبس هو ذو القرنين الذي بنى السّد، فإن لفظة (ذو) عربية، وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن، وذاك رومي يوناني.

قال أبو جعفر الطبري[(١)]:

وكان الخضر في أيام[(٢)] أفريدون الملك بن الضحاك[(٣)] في قول عامة علماء أهل الكتاب الأُول، وقبل موسى بن عمران -عليه السلام-، وقيل: إنه كان على مقدّمة ذي القرنين الأكبر، الذي كان على أيام إبراهيم الخليل -عليه السلام-، وإن الخضر بلغ مع ذي القرنين أيام مسيره في البلاد نهرَ الحياة، فشرب من مائهِ، وهو لا يعلم به ذو القرنين، ولا من معه، فخلد وهو حيٌّ، عندهم إلى الآن[(٤)].

=قال: «فكم من مؤلف حاطب ليل، وجارف سيل، وناقدٍ لا يفرّق بين الصحيح والضعيف، ويظن أنّ كل مدوّر رغيف، ويأتي ببعض الحجج الواهية التي تؤديه إلى الهاوية، والله أعلم».

(١) من قوله: «وكان الخضر...» إلى قوله: «... إلى الآن» في «تاريخ ابن جرير» في (١/ ١٨٨) في قصة الخضر مع موسى -عليه السلام-. (منه).

قلت: وهو فيه (١/ ٣٦٥ - ط. دار المعارف).

(٢) في مطبوع «تاريخ ابن جرير»: «ممن كان في أيام...».

(٣) في مطبوع «التاريخ»: «ابن أثفيان».

(٤) ليس كذلك، فالخضر -عليه السلام- عند المحققين ليس بحيّ، وقد نقل ابن القيّم -رحمه الله- في كتابه «فوائد حديثية» (ص ٨١ - بتحقيقي) عن ابن المنادي: أن (ماء الحياة) التي شرب منها الخضر من كلام أهل الكتاب! وسيأتي سَوْقُهُ.

قال أبو عبيدة: جاء ذكرٌ لماء الحياة في حديث أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب التفسير (باب ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣]) (رقم ٤٧٢٧)، قال: حدثني قتيبة بن سعيد، حدثني سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس... وساق الحديث بطوله، وفيه: «حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام، قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عينٌ يقال لها (الحياة)، لا يصيب من مائها شيءٌ إلا حييَ، فأصاب الحوتُ من ماء تلك العين، قال: فتحرك، وانسلَّ من المِكتل، فدخل البحر...».

وليس فيه أن (الخضر) -عليه السلام- أصاب من مائها، ومع هذا قال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٤١٥): «وهذه الزيادة التي ذكر سفيان: أنها في حديث غير عمرو، قد أخرجها ابن مردويه من رواية=

....

=إبراهيم بن يسار عن سفيان مدرجةً في حديث عمرو» وساق لفظها، وقال: «وأظن أن ابن عيينة أخذ ذلك عن قتادة، فقد أخرج ابن أبي حاتم [في «تفسيره» (٧/ ٢٣٧٧ رقم ١٢٨٩٧)] من طريقه، قال:

«فأتى على عين في البحر يقال لها عين الحياة، فلما أصاب تلك العين، رد الله روح الحوت إليه».

وقد أنكر الداوودي -فيما حكاه ابن التين- هذه الزيادة، فقال: لا أرى هذا يثبت، فإن كان محفوظاً فهو من خلق الله وقدرته، قال: لكن في دخول الحوت العين دلالة على أنه كان حيّاً قبل دخوله، فلو كان كما في هذا الخبر لم يحتَج إلى العين، قال: واللهُ قادرٌ على أن يحيِيَه بغير العين. انتهى. قال: ولا يخفى ضعف كلامه دعوىً واستدلالاً، وكأنه ظن أن الماء الذي دخل فيه الحوت هو ماء العين، وليس كذلك، بل الأخبار صريحةٌ في أنَّ العينَ عند الصخرة، وهي غير البحر، وكأن الذي أصاب الحوتَ من الماء كان شيئاً من رشاش، ولعل هذا العين -إن ثبت النقل- فيها مستندُ مَنْ زعمَ أنَّ الخضر شرب من عين الحياة فخلد، وذلك مذكورٌ عن وهب بن منبهٍ، وغيره، ممن كان ينقل الإسرائيليات، وقد صنف أبو جعفر بن المنادي في ذلك كتاباً، وقرر أنه لا يوثق بالنقل فيما يوجد من الإسرائيليات» انتهى.

قال أبو عبيدة: ووهم بعض الرواة فجعلها من متن الحديث؛ كما تراه -مثلاً- في «تاريخ ابن جرير» (١/ ٣٧٢-٣٧٣) من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف جداً، فيه الحسن بن عُمارة.

وفي جامعة (برنستون) مخطوط بعنوان: «تحقيق ماء الحياة» للقيصري، ينظر فيه، وأهمله محمود شكري الآلوسي في كتابه «الماء وما ورد في شربه من الآداب» وهو على شرطه!، والذي نقله الحافظ عن ابن المنادي في آخر كلامه السابق، أقره ابن القيم في كلام طويل بديع، حقق فيه موت الخضر، نسوقه من كتابه «فوائد حديثية» (ص ٨١ وما بعد)، وهذا نصه:

«وأما حديث حياة الخضر: فقد ورد فيه عدةُ أحاديث، لا يصحُّ منها عن رسول الله ﷺ حديثٌ واحدٌ، ولولا الإطالة؛ لسقناها وذكرنا أحوال رواتها، وقد ذكر تلك الأحاديث أبو الحسين بن المنادي أحد أئمّة الإسلام، وبيّن بطلانها، ثم قال: «والخضر وإلياس مضيا لسبيلهما، وقد روي عن أهل الكتاب أنه شرب من ماء الحياة، ولا يوثق بقولهم».

قال: «وجميع الأخبار في ذكر الخضر واهية الصُّدور والأعْجَاز، ولا تخلو من أمرين:

* إما أن تكون أدخِلت من حديث بعض الرواة المتأخرين استغفالاً.

* وإما أن يكون القوم عرفوا حالها فرووها على جهة التعجب؛ فنُسِبَت إليهم على جهة التحقيق»، قال: «وأكثر المغفّلين مغرورون بأن الخضر باقٍ والتخليد لا يكون لبشر، قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ثم ذكر عن إبراهيم الحربي: أنه سئل عن تعمير الخضر؛ فأنكر ذلك، وقال: هو متقادم الموت، قال: وسئل غيرُه عن تعميره وأن طائفة من أهل زماننا يرونه ويروون عنه، فقال: من أحال على غائب لم ينتصف منه، وما ألقى ذكر هذا بين الناس إلا الشيطان. =

....

= وقد سئل محمد بن إسماعيل البخاري عن الخضر وإلياس: هل هما في الأحياء؟ فقال: «وكيف يكون هذا وقد قال النّبي ﷺ: «**لا يبقى على رأس مئة سنة ممن هو على ظهر الأرض أحد**» [أخرجه البخاري في «الصحيح» (رقم ١١٦، ٥٦٤، ٦٠١)].

حكاه أبو الفرج بن الجوزي عنه [في كتابه «الموضوعات» (١/ ١٩٧-١٩٨)].

قال أبو الفرج [في «الموضوعات» (١/ ١٩٧-١٩٨)]: «وقد اغتر خلق كثير من المهوسين أن الخضر حيّ إلى اليوم، وروي أنه التقى بعلي بن أبي طالب وبعمر بن عبدالعزيز، وأن خلقاً كثيراً من الصالحين رأوه، وصنّف بعضُ من سمع الحديث ولم يعرف عِلله كتاباً جمع فيه ذلك، ولم يسأل عن أسانيد ما نقل، وانتشر الأمر إلى أن جماعة من المتصفين بالزهد، يقولون: رأيناه وكلمناه، فوا عجباً؛ أَلَهُمْ فيه علامة يعرفونه بها (!!)، وهل يجوز لعاقل أن يلقى شخصاً فيقول له الشخص: أنا الخضر، فيصدّقه؟!».

ثم ساق الأحاديث [١/ ١٩٣-١٩٩] المرويّة في ذلك، وبيّن أنها باطلة موضوعة.

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يحتج على أنه مات وليس في الأحياء، بقول النّبي ﷺ يوم بدر في دعائه: «**اللهم إن تهلك هٰذه العِصابة لا تُعبد في الأرض**» [أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٢/ ٨٤ - مع «شرح النووي»)]، ولم يكن الخضر فيهم، إنما كانوا ثلاث مئةٍ وثلاثة عشر كلهم أصحابه، قال: وقد قال الخضر لموسى: ﴿**هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**﴾ [الكهف: ٨٧]؛ ففارق موسى كليم الرحمن، ثم أصبح يطوف على كل مجهول وكل جاهل لا يعرف دين الإسلام، ويصاحبهم ويجتمع بهم، ويترك المساجد والجُمع والجماعات والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!

قال: ومن قال: رأيت الخضر؛ فإمّا كاذبٌ، وإمّا ملبوس بأن يرى جنيّاً يقول له: أنا الخضر؛ فيصدّقه بجهله».

قلت: وقد يكون اسم ذلك الجنّي الخضر كما يتسمى به الإنس كثيراً، وقد يرى شخصاً مجهولاً فيقول له ذلك الشخص: أنا الخضر؛ فيصدّقه، وهذا كلّه سببه الجهل وقلّة العلم، وقد ثبت في «الصحيح» عن النّبي ﷺ أنه قال: «**أرأيتكم ليلتكم هذه؛ فإنه على رأس مئةِ سنةٍ لا يبقى على الأرض ممن هو اليوم على ظهر الأرض**»؛ يريد النّبي ﷺ: انخرامَ ذلك القرن.

قال شيخ الإسلام:

لو كان الخضر حيّاً؛ لوجب عليه أن يتّبع النّبي ﷺ ويكون معه ويجاهد الكفار معه ولا يتخلف عنه، كما أن موسى وعيسى وسائر الأنبياء لو كانوا أحياء؛ لوجب عليهم اتباعُه والجهادُ معه.

ويدل على ما قال شيخنا: قولُه -تعالى-: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران: ٨١]، قال ابن عباس: =

....

= «ما بعث الله نبياً إلاّ أخذ عليه العهد لئن بُعث محمدٌ وهو حيٌّ ليؤمنُن بـه، وأمره أن يـأخذ الميثـاق على أمته لئن بُعث محمد وهم أحياء؛ ليؤمننَّ به وليتبعنَّه» [أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١/ ٣٣١)، وابـن أبي حاتم في «التفسير» (ص ٣٧٠ - تفسير آل عمران)، وابن المنذر (١/ ٢٧٠-٢٧١ رقـم ٦٥٣) -وكما في «الدر المنثور» (٢/ ٤٧)- عن ابن عباس بنحوه، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٨٦) عن علي وابـن عباس، ولم يعزه لأحد].

فالخضر إن كان نبيّاً؛ وجب عليه أن يتبع محمداً ﷺ ويكون معه وينصره، وإن كان وليّـاً؛ فكذلـك، قال شيخنا: ولو كان الخضر حيّاً كما يقول من يزعم ذلك؛ لم يجز لنا أن نأخذ عنه شيئاً مـن الديـن؛ لأن مـا يقوله إن كان مخالفاً لما جاء به محمد ﷺ؛ لم يجز لنا قبوله، وإن كان موافقاً له؛ فإنما قبلنا ما جاء به محمـد ﷺ، فأيّ حاجة بنا إلى الخضر؟!» انتهى كلام ابن القيّم.

قال أبو عبيدة: آخر قولَي شيخ الإسلام ما نقله تلميذه عنه هنـا، ولـذا قـال فـي «مجمـوع الفتـاوى» (٢٧/ ١٠٠): «والصواب الذي عليه المحققون أنه ميّت، وأنه لم يدرك الإسلام»، وهذا يخالف ما قرره فـي «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٣٧)، وفي كتاب «الزيارة» (ص ٤٢)!

وله -أيضاً- تفصيلٌ بديعٌ على بواطيل من يتمسك بقصة الخضر من المبتدعة والصوفيـة، تـراه فـي «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٢٠ وما بعدها)، وكذا فَعَل الإمام القرطبي في «تفسـيره» (١١/ ٤٠، ٤١ و٧/ ٣٩ و١١/ ٣٥)، وأتيتُ على ذكرها بتفصيلٍ وتأصيلٍ في كتابي «من قصص الماضين» (ص ٣٣-٤٤)، والحمـد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وهنالك قصص في اجتماع (الخضر) مع (علي) -رضي الله عنه-، ومع (عمر بن عبدالعزيـز)، لـم يثبت منها شيء، بيَّنتُ وَهاء بعضها في تعليقي على «المجالسة» للدينوري (رقم ١٠٢، ١٠٤٦، ١٨٨٦).

ومسألة حياة الخضر وعدمها تكلم فيهـا العلمـاءُ والأئمـةُ قديمـاً، ولبعضهـم تصنيفـاتٌ مسـتقلةٌ حولها؛ مثـل: ابـن المنـادي، والذهبـي؛ كمـا فـي «الذهبي ومنهجـه فـي تـاريخ الإسـلام» لبشّـار عـوّاد (ص ٢٠٥)، ومثل: عبدالمغيث بن زهير الحربي (ت ٥٨٣هـ)، وقد جنح فيـه إلـى إثبـات حياتـه، ولشـيخ الإسلام ابن تيمية رسالة مفردة في حياته؛ كما في «أسماء مؤلفات ابن تيمية» (رقم ٥٢)، وذكرهـا لـه ابن عبدالهادي في «العقود الدرية» (٥٤)، ولابن الجوزي «عجالة المنتظر في شرح حـال الخضـر»، منـه مختصر في المكتبة الظاهرية (رقم ٣٣، ٦٣). وانظر: «مؤلفات ابن الجوزي» (ص ١٥٤، ٢٠٤، ٢٤١).

ولعبدالرحمن البسطامي «قصة الخضر» وسمّاها بـ«فرائد الملوك وفرائد السلوك»؛ كما في «كشـف الظنون» (٢/ ١٣٢٧)، ولإمام الكمالية (ت ٨٧٤هـ) رسالة في الخضـر -عليـه السـلام- وحياتـه؛ كمـا فـي «كشف الظنون» (١/ ٦٨٢)، و«تاريخ بروكلمان» (٦/ ٢٩٩)، وللخيضري (ت ٨٩٤هـ) «الروض النضر فـي حال الخضر»؛ كما في «الكشف» -أيضاً- (١/ ٩٢١)، وله -أيضاً- «افتراض دفع الاعتراض»، وللسـيوطي (ت ٩١١هـ) «الوجه النضر في ترجيح نبوّة الخضر» كما فيه (٢/ ٢٠٠١)، ومنه نسـخة فـي مكتبـة برليـن؛=

....

=كما في «دليل مؤلفات السيوطي» (١٤٩).

وللسفاريني «الجواب المحرر في الكشف عن حال الخضر والإسكندر»؛ كما في «إيضاح المكنون» (١/ ٣٧٢)، ولعبدالأحد النوري «رسالة الأولياء وحياة الخضر وإلياس» كما فيه (١/ ٥٦٠)، وللشيخ مرعي الكرمي «الروض النضر في الكلام على الخضر» كما فيه (١/ ٥٩١)، ومنه نسخة في مكتبة خدابخش، ولمحمد عارف الدمشقي «شذا العطر في سيدنا إلياس والخضر» كما فيه (٢/ ٤٢)، ولنوح الرملي «القول الدال على حياة الخضر ووجود الأبدال» كما فيه (٢/ ٢٤٨)، ولابن الأهدل اليمني «القول المنتصر على الدّعاوى الفارغة بحياة أبي العباس الخضر» كما فيه (٢/ ٢٥٥) وهو مخطوط؛ كما في «الأعلام» (٧/ ٥٣).

وللحافظ ابن حجر العسقلاني تأليف مستقل بعنوان «الزهر النضر في نبأ الخضر» مطبوع ضمن «الرسائل المنيرية» (٢/ ٢٣٤)، وحققه الشيخ صلاح مقبول، وفي تقديمه له فوائد جليلة، وأدرجه مؤلّفه في «الإصابة» (١/ ٤٢٨-٤٤٨).

ولمحمد بن عون الموصلي «الزهر النضر في إثبات حياة الخضر» منه نسخة في مكتبة المتحف البريطاني، كذا في «تاريخ بروكلمان» (٨/ ٣٩٠)، ولمحمد بن طولون كتابان: «المسك العطر في حال الخضر» و«مثير الغرام في أحوال الخضر -عليه السلام-» كذا في «الفلك المشحون» (ص ١٣٢)، ولهمات زاده «الروض النضر وما قيل في الخضر» منه نسخة خطية في مكتبة سراييفو، ولفرج الحديدي «القول النضر في حياة الخضر»؛ كما في «مصادر الفكر الإسلامي في اليمن» (٣٠٥)، ولملاّ يوسف «الروض العطر فيما يتعلق بالخضر» منه نسخة خطية في مكتبة الموصل، وللسرمري «رفع الباس في حياة الخضر وإلياس» كذا في «السحب الوابلة» (٧٨٣)، ولعلي القاري «كشف الخدر عن أمر الخضر» مطبوع في روسيا قديماً، وطبع حديثاً.

ولعبدالله بن أسعد اليافعي «نشر الروض العطر في حياة سيدنا الخضر» كذا في «التاريخ والمؤرخون بمكة» للهيلة (٧٠)، ولأحمد الغنيمي «القول المقبول في أن الخضر -عليه السلام- ليس بنبي ولا ملك ولا رسول» له نسخ في دار الكتب المصرية، والأزهرية، وأسعد أفندي، وللمعصومي «رفع الالتباس في أمر الخضر وإلياس»؛ كما في مقدمة «هداية السلطان»، ولبعض الجزائريين «أنفع العصر في تعريف الخضر»؛ كما في «تعريف الخلف» (ص ٥٢٧)، ولابن ماء العينين «السيف والموسى في قضية الخضر وموسى» وهو مطبوع، ولعبدالله بن علي الفراء «التعليق النضر في حال الخضر» مخطوط في الظاهرية، ومنه نقل في «شذرات من كتب مفقودة» لإحسان عبّاس (١٨٨)، ولكوبرلي «رسالة العدل في بيان حال الخضر» مخطوط في مكتبة كوبرلي، وذكره كحّالة في «معجم المؤلفين» (١٣/ ١٠٨)، ولمحمود شلبي «حياة الخضر» و«بين الخضر وموسى»، ولمحيي الدين الطعمي «الجواهر فيمن رأى الخضر من الأكابر» مطبوع بمصر، ولإبراهيم عبدالمقتدر «كشف الإلباس عما صح وما لم يصح في قصة الخضر أبي=

وقال آخرون: إن ذا القرنين الذي كان على عهد إبراهيم الخليل -عليه السلام- هو أفريدون بن الضَّحَّاك، وعلى مقدمته الخضر».

ثم قال[١] بعد أسطر:

«وقال الهمداني في كتاب «الأنساب»[٢]:

وولد كهلان بن سبأ: زيداً، فولد زيد: عُريباً، ومالكاً، وغالباً، وعمكيرب -وقال الهثيم: عميكرب بن سبأ أخو حمير وكهلان-، فولد عميكرب: أبا مالك مذرحا[٣]، ومهيليل، ابني عميكيرب، وولد غالبٌ: جنادة بن غالب، وقد ملك بعد

=العباس»، ولمحمد خير يوسف «الخضر بين الواقع والتهويل»، ولعبدالرحمن عبدالخالق «الخضر في الفكر الصوفي»، وكلها مطبوعة، وانظر: «الإعلان بالتوبيخ» (ص ٧٣٠)، و«المنار المنيف» (٦٨).

ومما له صلة بهذا: ما أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٢/ ٨٦٦ رقم ٥٢٦ - «بغية الباحث»): ثنا عبدالرحيم بن واقد، ثنا القاسم بن بهرام، ثنا أبان، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الخضر في البحر واليَسَع في البرِّ يجتمعان كُل ليلةٍ عند الردم الذي بَناه ذو القَرنين بين النَّاس وبين يأجوجَ ومأجوجَ، ويحجَّان، أو يجتمِعانِ كلَّ عامٍ ويشرَبان مِن زَمزم شَربة تكفيهما إلى قابل».

قال البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٩/ ١٨٧ رقم ٨٧٩٥): «هذا إسناد ضعيف لجهالة بعض رواته».

قلت: وعزاه ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ٢٧٨ - ط. الأعظمي و ١٤/ ٢٧٨ رقم ٣٤٦٣ - ط. العاصمة) للحارث، وقال: «ضعيف جدّاً» وفصّل السبب في «الإصابة» (٢/ ٤٣٢) بقوله: «وعبدالرحيم وأبان متروكان»، وكذا قال السيوطي في «جمع الجوامع» (١/ ١٩٤)، وقال شيخنا الألباني في «ضعيف الجامع» (رقم ٢٩٣٩) عنه: «ضعيف جدّاً».

قال أبو عبيدة: وفيه القاسم بن بهرام، كذاب، ولم يعزه في «الكنز» (١٢/ ٧٢) إلاّ للحارث.

(١) أي: المقريزي في «الخطط» (١/ ١٥٣-١٥٤ - ط. بولاق).

(٢) المسمى «الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير»، والمذكور في أول القسم المطبوع منه (الكتاب العاشر: في معارف همدان وأنسابها وعيون أخبارها) (ص ٢٧-٢٨).

(٣) كذا في «الإكليل» وفي «الخطط»: «فدرحاً» بفاء أوله بعدها دال مهملة!!

مهيليل بن عمكيرب بن سبأ، وولد عُريب: عمـراً، فولـد عمـرو: زيـداً، والهميسـع، ويكنى أبا الصَّعب، وهـو ذو القرنيـن الأول[١]، وهـو المسَّـاح، والبنّـاء، وفيـه يقـول النعمان بن بشير[٢]:

فمَـنْ ذا يُعادينـا مـنَ النّـاس معشـر كـرام[٣] وذو القرنيـن منّـا وحـاتمُ

---

(١)هذا أحد قولين في نسب الصعب ذي القرنين السيار، ونقل الهمداني -فيما بعد- قولاً لهمـدان والأزد وأنمار: بأن الصعب ذا القرنين هو ابن مالك بن الحارث الأعلى بن الخيـار بـن مـالك بـن زيـد بـن كهلان، وأكثر ما ينشأ مثل هذا الاختلاف في أنساب السلف، من أجداد العـرب قبـل الإسـلام، عـن مـوت الرجل من إحدى القبائل عن ولد صغير، تتزوج أمه برجـل مـن قبيلـة أو أسـرة غـير قبيلـة زوجهـا الأول أو أسرته، فيكبر ابنُها من زوجها الأول في بيت زوجها الثاني، فينسبه عـارفوه إلـى أبيـه الحقيقـي، وينسبه مـن يجهلون الحقيقة إلى زوج أمه الثاني؛ لأنهم رأوه نشأ في بيته وقبيلته، وهذا هو سـبب اختلافهـم فـي نسـب قضاعة -مثلاً-، فاتصل نسبه في حمير عند من يعرفون أنه ابن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مـالك بـن حمير، ونسبه آخرون إلى معد -الزوج الثاني لأم قضاعة بعد موت زوجها الأول مـالك-، فنشـأ الاختـلاف من هنا.

وقد يقع الاختلاف في الأنساب بسبب نزوح قبيلة عن ديار القبائل التي تجمعها بهن صلـة النسب، إلى ديار قبائل أخرى غريبة عنها، فتنسـجم بهـا، وتتحـالف معهـا، وتشـاركها فـي سـلمها وحربها، فينشأ أبناء المتحالفين ممتزجين كامتزاج المتسلسلين من أصل واحد، فينسبهم من يعـرف نسبهم إلى أصلهم الأول، ويلحقهم من يجهـل ذلـك بالقبـائل التـي طـرأوا عليهـا والتحقـوا بهـا، والمحققون من علماء الأنساب يجدون من القرائن للحالتين ما يستأنسون بـه فـي ترجيـح النسـب الحقيقي على النسب المشتبه أو المشتهر.

وقد تعصّب الأستاذ أحمد موسى في كتابه «القصص القرآني في مواجهـة أدب الروايـة والمسـرح» المنشور عن دار الجيل، بيروت، إلى ما سيذكره المصنِّف!

والحق أن العرب -قبـل الإسـلام- لـم يخرجـوا مـن رقعتهـم، ولـم يُدوِّخـوا الفرسَ والـرومَ إلاّ بالإسـلام، والثـابت أن حكّـام اليمـن لـم يتعـدَّ حكمُهـم جنـوبَ الجزيـرةِ العربيـة، والأخبـارُ بخروجهـم وانتصاراتهم وهميةٌ، أو مظنونةٌ، وليست يقينية، وسيأتيك مزيد تفصيل، والله الهادي.

(٢) الصحابي ابن الصحابي، وعزاه له ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٨٥).

(٣) كذا في الأصل، وفي مطبوع «الخطط»: «معشراً... كراماً».

وفيه يقول الحارثي[١]:

سَمُّوا لنا واحداً منكم فنَعرفَه ... في الجاهلية لاسمِ الملكِ مُحتملا

كالتُّبَّعَين وذي القرنين يقبَلُه ... أهلُ الحِجَا فأحقُّ القولِ ما قُبلا

وفيه يقول ابن أبي ذئب الخزاعي:

ومنّا الذي بالخافقين تَغرَّبا ... وأصعد في كلِّ البلاد وصَوَّبا

فقد نَال قَرنَ الشَّمس شَرْقا ومَغْرباً ... وفي رَدْمِ يأجوجَ بنى ثمَّ نَصَبا

وذلك ذو القرنين تَفْخَر حِميرُ ... بعسكرٍ قيلَ ليسَ يُحصى فيُحسَبَا

قال الهمداني[٢]: وعلماء هَمدان تقول: ذو القرنين الصَّعب بن مالك بن الحارث الأعلى بن ربيعة بن الجبار بن مالك، وفي ذي القرنين أقاويلُ كثيرةٌ»[٣] اهـ.

قال وهب بن منبه[٤] في كتاب «التيجان»[٥]: حدثنا أسد، عن أبي إدريس،

---

(١) ذكر البيتين ابنُ حجر في «الفتح» (٦/ ٣٨٥)، وقال قبلهما: «وقال بعض الحارثيين، يفتخر بكون ذي القرنين من اليمن، مخاطباً قوماً من مصر».

(٢) في «الإكليل» (ص ٣٠)، وما زال النقل عنه بواسطة «الخطط» للمقريزي.

(٣) انظر: «التيجان» لوهب بن منبه (٩١)، و«تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٠)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٧٧)، و«الكامل» لابن الأثير (١/ ٢٨٥)، و«الإكمال» (١/ ٥٥٩-٥٦٠) لابن ماكولا، و«فتح الباري» (٦/ ٣٨٤)، و«تفسير الآلوسي» (١٦/ ٢٦-٢٨).

(٤) هو وهب بن منبه اليماني، صاحب الأخبار (توفي سنة ١١٤)، ترجمته في «ابن خلكان»، وفي «ميزان الاعتدال» للذهبي (٣/ ٢٧٨). (منه).

(٥) (ص ١١٩ - ط. مركز الدراسات والأبحاث اليمنية)، وأول طبعة ظهرت لكتاب «التيجان» عن دائرة المعارف بالهند، وصفها الأستاذ العلاّمة عبدالعزيز الميمني في مقالته (ماذا رأيت بخزائن البلاد الإسلامية) المنشور ضمن «المباحث العلمية من المقالات السنية» (ص ١-١٤) وضمن «بحوث وتحقيقات» جمع محمد عزير شمس (١/ ١٣٧-١٣٨) بقوله:

«كتاب «التيجان» لابن هشام، نسخة بعضها أردأ من بعض، على أنها سقيت بماء واحد، وإنما الأم والإمام بإستانبول، كتبت بفاس سنة ٦٣١هـ». =

عن وهب، عن عبدالله بن عباس:

«أنه سئل عن ذي القرنين: ممن كان؟ قال: هو من حمير؛ وهو: الصعب بن ذي مراثد[١]، وهو الذي مكّن الله له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً، فبلغ قرني

= قال أبو عبيدة: نشر العلامة عبدالعزيز الميمني في مجلة «الزهراء» عدد جمادى الأولى/ سنة ١٣٤٥هـ مقالة بعنوان (التعريف بكتاب «التيجان»)، جاء في أولها:

«كتاب «التيجان» لأبي محمد عبدالملك بن هشام صاحب «السيرة»، منه نسخة في بعض الخزائن الخصوصية بحيدر آباد -فيما يغلب على ظني-، انتسخ منه بعض المتأدبين لنفسه نسخة، واستكتب عدة نسخ أخر، باعها بأيدي خزائن حيدر آباد ورامبور وبانكي بور، ولكنها كلّها مصحّفة غاية في التصحيف؛ إلا أن نسخة المتأدّب الورّاق أمثل من صاحباتها بكثير، زد على ذلك أن عنده مع «التيجان»: «أخبار الملوك المتوّجة من حمير» لعبيد بن شَرْيَة الجُرهمي -مخضرم- في مجلّد، فأحببت أن أنسخ من نسخته لنفسي، فأبى وبخل به عليّ -على عادته الجارية-، فاستنسخته من نسخة خزانة حيدر آباد على عِلاّتها.

ضَنَّ علينا أبو حفصٍ بنائلهِ ... وكل مختبطٍ يوماً له وَرَق

فجاءت نسختنا في (٥٢٢) صفحة، كل صفحة (١٤) سطراً.

وهذا الكتاب جُل مادته كتاب التابعيّ الجليل وهب بن منبه الإخباري المتوفى سنة (١١٠هـ)، الذي ترجمه بـ«ذكر الملوك المتوّجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم» في مجلد، قال ابن خِلِكّان: وهو من الكتب المفيدة.

وقد أحال على «التيجان»: ابن حجر في «الإصابة» في ترجمة (الربيع بن ضَبُع الفزاريّ)، وعبارته توجد في نسختنا، وكذلك السُّهيلي في «الرُّوض الأُنف» و«المشرع الروى» في قول أبي كرِب تَبان أسعد:

ما بال عينك لا تنام كأنما ... كُحلت مآقيها بسُمّ سودِ

أن ابن هشام أورده بتمامه في «التيجان»، والأسف أنه لا يوجد في نسختنا، إني أحمد الله على الحصول على هذا الكتاب بعدما حكم المستشرق جويدي الإيطالي في محاضراته الجغرافية المطبوعة في مصر بفنائه، فالحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

وهذا أول الكتاب بعد التسمية: ....» إلخ ما قال.

قال أبو عبيدة: وعزى ابن حجر في «الفتح» (١/ ٤٠ و٦/ ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٩٤، ٤٠٩ و٧/ ٢٥٢ و١٠/ ٥٣٠ و١٣/ ٧٨) هذا الكتاب لابن هشام، خلافاً لصنيع المصنف في عزوه له لوهب!

(١) أخرجه وهب بن منبه في «التيجان» (ص ١١٩)، والفاكهي في «أخبار مكة» (١/ ٣٩٤ رقم=

الشمس، وداس الأرض، وبنى السّد على يأجوج ومأجوج، فقيل له: فالإسكندر الرومي؟ قال: كان الإسكندر الرومي رجلاً صالحاً[١] حكيماً، بنى على بحر إفريقش منارتين: واحدة بأرض بإيليون، وأخرى في غربها بأرض روميّة»[٢].

ثم قال: وسئل كعبٌ عن ذي القرنين؟ فقال:

«الصحيح عندنا من علوم أحبارنا وأسلافنا أنه من حمير، وأنه الصعب بن ذي مراثد، والإسكندر رجل من بني يونان بن عيص بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، ورجاله أدركوا عيسى ابن مريم -صلوات الله عليه-؛ منهم: جالينوس، وأرسطاطاليس، ودانيال، وجالينوس، وأرسطاطاليس من الروم من بني يونان، ودانيال من بني إسرائيل نبيٌّ من أنبياء الله»[٣].

ثم قال وهب: رفع الحديث إلى عبدالله بن عمرو بن العاص، أنه قال:

«كان ذو القرنين من حمير من أعظم تبابعتهم، وهو الصعب بن ذي مراثد الحميري»[٤].

فهذه روايات ونقول متعددة يؤيدُ بعضُها بعضاً أن ذا القرنين هو الصعب بن ذي مراثد الحميري، فإذاً هو رجلٌ عربي من صميم جزيرة العرب، ومَلِك من أعاظم ملوك حمير الأقدمين، وإليك زيادة في الأدلة على ذلك:

=٨٣٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣١) بسند ضعيف جداً، وعزاه في «البداية والنهاية» (٢/ ١٠٤) للزبير بن بكار، والخبر بتفصيل طويل في «العظمة» لأبي الشيخ (٤/ ١٤٥١-١٤٦٠)، وينظر التعليق عليه.

(١) يستبعد جداً أن يقول ابن عباس أنه كان رجلاً صالحاً وهو مشرك منكر للصانع، وعلى فرض صحته فهو مؤول بالعقل والحكمة. (منه).

(٢) في مطبوع «التيجان»: «بأرض إرمينية»، وفي الهامش: «في الأصل: رومية»!

(٣) «التيجان» (ص ١٢٠).

(٤) «التيجان» (ص ١٢٠)، والأثر المذكور من الإسرائيليات، وفي ثبوته عن عبدالله بن عمرو نظر.

قال الحافظ ابن حجر في «شـرحه لصحيح البخاري»[١] في شرحه لقوله -تعالى-: ﴿وَيَسألونَكَ عَن ذِي القَرنَين﴾ [الكهف: ٨٣]:

«في إيراد المصنف ترجمةَ ذي القرنين قبل إبراهيم إشارةٌ إلى توهين من زعم أنه الإسكندر اليوناني؛ لأن الإسكندر كان قريباً من زمن عيسى -عليه السلام-، وبين زمن إبراهيم وعيسى أكثر من ألفي سنة، والذي يظهر أن الإسكندر المتأخر لُقّب بذي القرنين تشبيهاً بالمتقدّم؛ لسعة ملكه، وغلبته على البلاد الكثيرة، أو لأنه لما غلب على الفرس، وقتل مَلِكهم، انتظم له ملك المملكتين الواسعتين: الروم والفرس، فلقّب ذا القرنين لذلك، والحق أن الذي قصّ الله نبأه في القرآن هو المتقدم، والفرق بينهما من أوجه:

أحدها: ما ذكرته، والذي يدل على تقدّم ذي القرنين: ما روى الفاكهي[٢] من طريق عُبيد بن عُمير -أحد كبار التَّابعين- أن ذا القرنين حجَّ ماشياً فسمع به إبراهيم؛ فتلقّاه.

ومن طريق عطاء عن ابن عباس:

«أن ذا القرنين دخل المسجد الحرام، فسلم على إبراهيم وصافحه[٣]، ويقال: إنه أول من صافح»[٤].

---

(١) (٦/ ٣٨٢ - ط. السلفية)، وعنه الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٤٩).

(٢) في «أخبار مكة» (١/ ٣٩٣-٣٩٤ رقم ٨٣٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٤٠) عن عبدالله بن عبيد بن عمير، به. **وإسناده حسن.**

وأسنده ابن عساكر (١٧/ ٣٤٠)، وأبو الشيخ في «العَظَمة» (٤/ ١٤٧٨-١٤٧٩ رقم ٩٧٤) عن أبيه عبيد بن عمير -كما عند المصنف-، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٠٨) قال: «روي عن عبيد ابن عمير وابنه عبدالله وغيرهما»، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ٢٤٢) لابن مردويه -أيضاً-.

(٣) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (١/ ٣٩٤ رقم ٣٨٦)، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه إسحاق بن إبراهيم الطبري، منكر الحديث. انظر: «لسان الميزان» (١/ ٣٤٤).

(٤) انظر: «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٤٠)، «أخبار مكة» (٣/ ٢٢١) للفاكهي، «البداية والنهاية» (٢/ ١٢٣)، و«الأوائل» للطبراني (ص ٤١)، وفيه: «أول من حيا بالمصافحة أهل اليمن».

ومن طريق عثمان بن ساج:

«أن ذا القرنين سأل إبراهيم أن يدعو له؟ فقال: وكيف وقد أفسدتم بئري؟ فقال: لم يكن ذلك عن أمري[١]؛ يعني: أنّ بعض الجند فعل ذلك بغير علمه».

وذكر وهب[٢] في «التيجان»:

«أن إبراهيم تحاكم إلى ذي القرنين في شيء فحكم له».

وروى ابن أبي حاتم من طريق علباء بن أحمر[٣]:

«أن ذا القرنين قدم مكة، فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة، فاستفهمهما عن ذلك؟ فقالا: نحن عبدان مأموران، فقال: من يشهد لكما؟ فقامت خمسة أكبش فشهدت، فقال: قد صدقتما»[٤]، قال: وأظنّ الأكبش المذكورة حجارة، ويحتمل أن تكون غنماً.

فهذه الآثار[٥] يشد بعضها بعضاً، ويدل على قدم عهد ذي القرنين:

ثاني الأوجه: قال الفخر الرازي في «تفسيره»[٦]: «كان ذو القرنين نبيّاً، وكان الإسكندر كافراً، وكان معلّمه أرسطاطاليس، وكان يأتمر بأمره، وهو من الكفار بلا

---

(١) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (٢/ ٩ رقم ١٠٥٥) عن عثمان بن ساج، قال: بلغنا في الحديث المأثور عن وهب بن منبه، قال: وذكره ضمن خبر طويل، وإسناده منقطع، وذكره الفاسي -أيضاً- في «شفاء الغرام» (١/ ٢٤٧).

(٢) في مطبوع «الفتح»: «ابن هشام».

(٣) تحرف في مطبوع «الفتح» وفي أصل المصنف إلى (علي بن أحمد)! وهو خطأ، صوابه من مصادر التخريج.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (البقرة: ١٢٧) (رقم ١٢٤١، ١٢٤٨) بسند ضعيف، وفيه نكارة، وعزاه له السيوطي في «الدر» (١/ ١٢٧)، والصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (١/ ٢١٢ و١٠/ ٢٦٧ - ط. دار الكتب العلمية)، وفي مطبوع «الفتح»: «صدقتم».

(٥) وغيرها، كما سيأتي في التعليق على (ص ١١٨).

(٦) (٢١/ ١٤٠ - ط. دار الكتب العلمية).

شك»، وسأذكر[١] ما جاء في أنه كان نبيّاً أم لا؟

ثالثها: كان ذو القرنين من العرب -كما سنذكر بعد-، وأما الإسكندر فهو من اليونان، والعرب كلها من ولد سام بن نوح بالاتفاق، وإنْ وقع الاختلاف: هل هم كلهم من بني إسماعيل أو لا؟ واليونان من ولد يافث بن نوح على الراجح، فافترقا».

ثم قال الحافظ ابن حجر: «قال السهيلي[٢]: والظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان:

أحدهما: كان على عهد إبراهيم، ويقال: إن إبراهيم تحاكم إليه في بئر السبع بالشّام[٣]، فقضى لإبراهيم.

والآخر: كان قريباً من عهد عيسى»[٤].

قال الحافظ ابن حجر[٥]:

«الأشبه أن المذكور في القرآن هو الأول؛ بدليل ما ذكر في ترجمة الخضر حيث جرى ذِكرُه في قصة موسى -قريباً- أنه كان على مقدمة ذي القرنين، وقد ثبتت قصة الخضر مع موسى[٦]، وموسى كان قبل زمن عيسى قطعاً».

ثم قال: «والذي يقوّي أن ذا القرنين من العرب: كثرةُ[٧] ما ذكروه في أشعارهم.

---

(١) ما زال الكلام للحافظ ابن حجر، وسيأتيك في التعليق على (ص ٩٩، ١٠٥) تحقيق في نبوته!

(٢) في «الروض الأُنف» (٢/ ٦٠ - ط. دار الفكر).

(٣) ورد ذلك في خبر عثمان بن ساج المتقدم تخريجه، وهو منقطع.

(٤) وكذا في «الجامع اللطيف في أخبار فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف» (ص٥١-٥٢).

(٥) في «فتح الباري» (٦/ ٣٨٤).

(٦) أخرجها البخاري (١٢٢، ٣٢٧٨، ٣٤٠١، ٤٧٢٥، ٤٧٢٧)، ومسلم برقم (٢٣٨٠ بعد ١٧١، ١٧٢) من حديث أبيّ، وأسهبت في تخريجها والكلام على طرقها في تعليقي على «الحنائيات» (رقم ١١٤ - بتحقيقي)، وكتابي «من قصص الماضين» (ص ٢١-٢٦).

(٧) في الأصل: «لكثرة»، والمثبت من «الفتح».

قال أعشى ثعلبة[١]:

والصّعب ذو القرنين أمسى ثاوياً ... بالحِنْو في جَدَثٍ هناك مقيمُ

والحِنْو -بكسر المهملة وسكون النون- في ناحية المشرق.

وقال الربيع بن ضبيع[٢]:

والصّعبُ ذو القرنين عُمِّر ملْكُه ... ألفين أمسى بعد ذاك رَميما

وقال قِس بن سَاعِدة:

والصّعب ذو القرنين أمسى ثاوياً ... باللحد بين ملاعب الأرياح[٣]

وقال تُبَّع الحميري[٤]:

قَد كان ذو القرنيْن قَبلي مُسلِماً ... مَلِكاً تدينُ له الملوكُ وتحشدُ

مِنْ بَعده بَلقيسُ كانَتْ عَمَّتي ... مَلَكتْهُم حتّى أتَاها الهدهُدُ

وقال بعض الحارثيين، يفتخر بكون ذي القرنين من اليمن يخاطب قوماً من مضر:

---

(١) أنشده ابن هشام للأعشى -أيضاً-. انظر: «الروض الأنف» (٢/ ٥٩)، و«البداية والنهاية» (٢/ ١٥٦).

(٢) الربيع وضبع: يرويان مكبرين ومصغرين، ولكن المشهور الربيع مصغراً وضبيع مكبراً، والبيت في «بلوغ الأرب» (١/ ١٧٧ و٣/ ٢١١)، وهو ضمن قصيدة طويلة في «التيجان» (١٣٢).

وجمع الدكتور عادل البياتي شعره في مقالة منشورة في مجلة «الآداب المستنصرية» (العدد العاشر/ سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م) (ص ٣١-٥٢)، والبيت المذكور فيه (ص ٤٩).

(٣) أورده في قصيدة له في كتاب «التيجان»، وقال فيها: «بالحنو»، بدل: باللحد، ويظهر أنه الأصح؛ لأنه مات بحنو قراقر موضع بالعراق، كما سيأتيك قريباً. (منه).

قال أبو عبيدة: والقصيدة في كتاب «التيجان» (ص ١٢٧-١٢٨) في عشرين بيتاً، والمذكور هو التاسع منها، وآخره: «الأرواح»، بدل: «الأرياح».

(٤) تقدم البيت الأول، وآخرُ معه، غير المذكور هنا.

سَــمّوا لنــا واحــداً منكــم فنعرفَـــه ... إلخ البيتين المتقدمين.

ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد: أن الراجح في اسمه الصَّعب، ووقع ذكـر (ذي القرنين) -أيضــاً- فـي شـعر امـرئ القيـس، وأوس بـن حجـر، وطَرَفـة بـن العبـد، وغيرهم»[١] اهـ.

وفي «شرح العيني على البخاري»[٢] فـي كتـاب الأنبيـاء (ج ١٥ ص ٢٣٣ - الطبعة المنيرية) عند قوله: (باب قصة يأجوج ومأجوج، وقول الله -تعالى-: ﴿قَالُوا يَـا ذا القَرْنَيـنِ إنَّ يَـأْجُوجَ وَمَـأْجُوجَ مُفْسِـدُونَ فِـي الأرْضِ﴾) [الكهــف: ٩٤] مـا خلاصته:

«وذو القرنين المذكور في القرآن، المذكور في ألسنة الناس بالإسكندر، ليـس الإسكندر اليوناني فإنه مشرك، ووزيره أرسطاطاليس، والمؤمن الذي ذكـره اللـه فـي القرآن: اسمه عبدالله بن الضحاك بن معدّ. قاله ابـن عبـاس[٣]، ونسِـب هـذا القـول -أيضاً- إلى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

وقيل: مصعب بن عبدالله بن قنان -وساق نسبه إلى قحطان-، وقد جـاءَ فـي حديث: إنه من حمير، وأمّه روميَّة[٤]، وأنه كان يقـال لـه: (ابـن الفيلسـوف)؛ لعقلـه، وذكر ابن هشام[٥] أن اسمه: الصَّعب بن مرائد، وهو أول التبابعة.

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٨٤-٣٨٥).

(٢) (١٥/ ٢٣٣ - مصورة دار الفكر).

(٣) عزاه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٥٦)، وابن حجر في «الفتـح» (٦/ ٣٨٤) للزبير فـي «النسب» -وهو ليس في القسم المطبوع منه-، وقال: «وإسناده ضعيف جدّاً»، وأخرجه الفاكهي في «أخبـار مكة» (١/ ٣٩٤ رقم ٨٣٧) بسند ضعيف، فيه إبراهيم بن إسماعيل.

(٤) وإسناده واهٍ بمرّة، وهو حديث عقبة بن عامر المومأ إليه في التعليق على (ص ٢٧، ٣٥).

(٥) قال السهيلي في «الروض الأُنف» (٢/ ٥٩): «وقـال ابـن هشـام فـي غيـر هـذا الكتـاب -أي: «السيرة»-: اسمه الصعب بن ذي مرائد».

قلت: يريد: «التيجان» (٩١)، وهو يرويه عن وهب بن منبه.

وقال مقاتل: من حمير، وفد أبوه إلى الرّوم، فتزوج امرأةً من غسانَ، فولدت له ذا القرنين عبداً صالحاً.

وقال وهب بن منبه[١]: اسمه الإسكندر.

قلت: ومن هنا يشارك الإسكندرَ اليونانيَّ في الاسم، وكثيرٌ من النّاس يخطئون في هذا، ويزعمون أن الإسكندر المذكور في القرآن هو الإسكندر اليوناني، وهذا زعم فاسد؛ لأن الإسكندرَ اليونانيَّ الذي بنى الإسكندرية[٢] كافرٌ مشركٌ، وذو القرنين عبدٌ صالح، مَلَك الأرض شرقاً وغرباً، حتى ذهب جماعةٌ إلى نبوَّته[٣]؛ منهم: الضحاك، وعبدالله بن عمر[٤]، وقيل: كان رسولاً.

وقال الثعلبي[٥]: «والصحيح -إن شاء الله-: كان نبيّاً غيرَ مرسل[٦]، ووزيره الخضر، فأنى يتساويان، واختلفوا في زمانه، فقيل: في القرن الأول من ولد يافث بن نوح -عليه السلام-».

ثم قال بعد تعداد الأقوال: «والأصح أنه كان في أيام إبراهيم الخليل -عليه

(١) أسنده عنه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٧٣-١٤٧٨ رقم ٩٧٣) ضمن خبر طويل جدّاً، وإسناده واهٍ بمرّة، فيه عبدالمنعم بن إدريس، متروك، وقد اتهم.

(٢) هذا مشهور جدّاً في كتب التاريخ والجغرافية، ورأيت في «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل العمراني (سفر ٣/ ق ٢٤٢ - نسخة أحمد الثالث) ذكر ذلك، ثم قال: (ق ٢٤٤): «تنبيه: قد ذكرنا فيما تقدم، أن الإسكندر هو الذي بنى الإسكندرية، وذلك صحيح بمعنى أنه جدّدها، وجدد بناءَها، وأما سبب بنائها القديم فقد ذكر التيفاشي في كتاب «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس»: ....، وذكر خبراً طويلاً، فيه: «أن الذي بناها أول مرة هو جبير المؤتفكي». وانظر: «معجم البلدان» (١/ ١٨٢-١٨٩)، و«أخبار الدول» (٣/ ٣١٠).

(٣) انظر: تعليقي على (ص ٩٩، ١٠٥).

(٤) كذا في الأصل تبَعاً لما عند العيني: «ابن عمر» بضم العين، وصوابه بالفتح.

(٥) في قصصه: «عرائس المجالس» (٣٢٤)! وتقدم التحذير منها.

(٦) انظر تحقيقاً بهذا الخصوص في التعليق على (ص ٩٩).

السلام-، واجتمع به في الشام، وقيل: بمكة» اهـ[1] ما في «شرح العيني» ملخّصاً.

وفي «البداية والنهاية»[2] للحافظ ابن كثير (ج ٢ ص ١٠٩): «قال ابن عساكر[3]:

ويلغني من وجه آخر، أنه عاش ستّاً وثلاثين سنة، وقيل: كان عمره اثنين وثلاثين سنة[4]، وكان بعد داود بسبع مئة[5] وأربعين سنة، وكان بعد آدم بخمسة

---

(١) «عمدة القاري» (١٥/ ٢٣٣).

(٢) (٢/ ١٦٠-١٦١ - ط. دار أبي حيان).

(٣) في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٦١ - ط. دار الفكر).

(٤) انظر: تعليق ياقوت في «معجم البلدان» (١/ ١٨٢) على هذا، وسيسوقه المصنف قريباً.

(٥) درج الناسخون والطابعون على وصل العدد بالمئة، هكذا «سبعمائة»! والصواب الفصل؛ إذ هما كلمتان؛ مثل: (سبعة آلاف)، لا فرق.

وترسم كلمة (مئة) من أول عهد الطباعة بالألف، هكذا: (مائة)، وترتب على هذا لفظ قبيح بالنُّطق، نبَّه عليه الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الراعي الأندلسي (المتوفى ٨٥٣ هـ)، فقال في كتابه «انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك» (ص ٣٣٨-٣٤٠): «من اللحن القبيح الواقع لأكثر الخاصّة في هذه البلاد المصرية، من الموثقين والقضاة والشهود وغيرهم، وذلك أنهم يقرؤون لفظ (مئة) على صورةِ كَتْبها في صناعة الرسم -يفتحون الميم-، فينشأ عن فتحها مدّ الألف المكتتبة المثبتة في الرسم لا في اللفظ، ويقلبون همزة الرسم ياءً على صورة الرسم، فيقولون: (ماية) في قراءاتهم تواريخَ المكاتيبِ وغيرِها.

وهو خطأ قبيح، ولحن فاحش، وكأنهم لم يقرؤوا كتاب الله -عزَّ وجلَّ-، قال -تعالى-: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ [الكهف: ٢٥]، ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، والصواب أن يُقرأ لفظ (مِائة) بميم مكسورة، بعدها همزة مفتوحة، وتاء مربوطة، ولا يجوز مد الألف بوجه، ويجوز تسهيل الهمزة بقلبها ياء.

قال ابن مالك:

.... وَيَاءً إِثْرَ كَسْرٍ يَنقَلِب

فإنْ قلتَ: فإذا كانت ألفاً لا تُمد؛ فلم كُتبت في الخط بألفٍ بعد كسرة، ولا حاجة إلى الألف؟

قلت: قال أهل الرّسم: إنما كُتبت بالألف؛ لِيفرّقوا بين (ماية) و(مِنهُ)؛ لأنك إذا قلت في التاريخ مثلاً: «وخمس مئة»، وكتبت (ماية) بغير ألف؛ كانت تُشبه لفظ (منه)، فكان يلتبس في الخط قوله:=

آلاف ومئة وإحدى وثمانين سنة، وكان ملكه ست عشرة سنة».

وهذا الذي ذكره -أي: ابن عساكر- إنما ينطبق على إسكندر الثاني لا الأول، وقد خلط في أول الترجمة وآخرها بينهما، والصواب التفرقة كما ذكرنا؛ اقتداءً بجماعة من الحفاظ، وممن جعلهما واحداً: الإمام عبدالملك بن هشام راوي «السيرة»[١]، وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السهيلي[٢] -رحمه الله- إنكاراً بليغاً، وردّ قوله ردّاً شنيعاً، وفرق بينهما تفريقاً جيداً، كما قدمنا، قال: ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسموا بذي القرنين؛ تشبُّهاً بالأول، والله أعلم» اهـ.

وعبارة ابن هشام في «السيرة»[٣] (ج ١ ص ١٩٥) هكذا:

«قال ابن إسحاق: فحدَّثني مَنْ يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علمه، أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر، اسمه: مرزبان ابن مرذبة[٤] اليوناني، من ولد يونان بن يافث بن نوح، قال ابن هشام -يعني: نفسه-: واسمه الإسكندر،

=«وخمس مئة» بقوله: «وخمس منه»؛ لأن صورة. (منه) و(مئة) لو كُتبت في الخط بغير ألف؛ لكانت في الخط واحدة، ففرّقوا بينهما بالألف، كما فرّقوا بين (عَمرو) و(عمر) بالواو، والله أعلم بالصواب».

قال أبو عبيدة: رسمَ المؤلفُ لفظَ (مئة) بزيادة ألف! كما يفعل الأقدمون؛ خوفاً من اشتباهها مع. (منه)، كما تقدم فيما نقلناه عن الراعي، ولكنَّ كثيراً من الناس الآن صاروا يقرؤونها بلفظ الألف، فرسمناها (مئة) في جميع مواطن ورودها في الكتاب؛ لزوال العلّة المذكورة بظهور الطباعة الحديثة، والله الهادي.

وانظر: «ابن درستويه كتاب الكتاب» (ص ٨٤)، ومجلة «المورد» (م ٢ ع ١-٢، سنة ١٩٧٣م) (ص ١١٣).

(١) ستأتي عبارته قريباً.

(٢) في «الروض الأُنف» (٢/ ٥٩-٦٠). وانظر: «تاريخ الخميس» (١/ ١٠٠).

(٣) (٢/ ٣٤ - مع «الروض»)، ونقله عنه عبدالملك بن حبيب في كتابه «التاريخ» (٥٨).

(٤) قال في «الفتح» (٦/ ٣٨٤): «بدال مهملة، وقيل: بزاي، وقال السهيلي في «الروض» (٢/ ٩٥): «بذال مفتوحة في اسم أبيه، وزاي في اسمه».

وهو الذي بنى الإسكندرية[١]، فنسبت إليه» اهـ.

قال شارحها الإمام السُّهيلي[٢]:

«وأما اسمه: فقال ابن هشام في هذا الكتاب: اسمه مرزبان بن مرذبة، وقيل فيه: هُروس[٣]، وقيل: هرديس، وقال ابن هشام في غير هذا الكتاب: اسمه الصعب بن ذي مراثد، وهو أول التَّبابعة، وهو الذي حكم لإبراهيم -عليه السلام- في بئر السَّبع[٤]، حين حاكم إليه فيها».

إلى أن قال:

«وقول ابن هشام في «السيرة»: إنه من أهل مصر، وأنه الإسكندر الذي بنى الإسكندرية فعرفت به، قولٌ بعيدٌ، ويحتمل أن يكون الإسكندر سمي ذا القرنين تشبيهاً له بالأول؛ لأنه ملك ما بين المشرق والمغرب فيما ذكروا -أيضاً-، وأذل ملوك فارس، وقتل دارا [بن][٥] دارا، وأذلَّ ملوك الرُّوم وغيرهم»[٦] اهـ.

فهنا ترى أن الإمام السهيلي في شرحه المسمّى «روض الأُنف» ممن فرّق بينهما، وجعل قول ابن هشام قولاً بعيداً، وقال: «ويحتمل أنْ يكون الإسكندرُ سُمّيَ ذا القرنين تشبيهاً له بالأول»[٧]، ولا تنس أن ابن هشام هنا يروي ذلك عن ابن إسحاق عن بعض الأعاجم.

---

(١) انظر: ما قدمناه قريباً.

(٢) في «الروض الأُنف» (٢/ ٥٩)، ونقله عنه وارتضاه القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٦، ٤٧) وغيره.

(٣) في الأصل: «هرس»، والمثبت من «الروض».

(٤) تقدم ذكر ذلك مع تخريجه.

(٥) سقط من الأصل، وأثبتّه من كلام السُّهيلي.

(٦) «الروض الأُنف» (٢/ ٥٩).

(٧) «الروض الأُنف» (٢/ ٥٩).

وفي كتاب «التيجان» في الكلام على الصعب ذي القرنين شعر كثير لعدةٍ من شعراء العرب القدماء، وهذا يؤيِّد، بل يوجبُ الجزمَ بأنّ ذا القرنين هو من العرب، ومن ملوك حمير.

قال[١] (في ص ١٨٠): لما نَزل الصّعب بن ذي مراثد بالحِنو، حنو قراقر من أرض العراق، مرض ثماني ليال، [ثم مات][٢]، ثم غاب الخضر، فلم يظهر إلى أحد بعده إلاّ إلى موسى بن عمران النّبي ﷺ وعلى جميع النبيين، ودفن ذو القرنين بحنو قراقر، فقال النعمان بن الأسود بن المعترف بن عمرو بن يعفر بن سكسك المقعقع الحميري يرثي ذا القرنين الحميري:

بحنوِ قراقر أمسْى رهيناً[٣]	أخو الأيام والدّهرِ الهِجانِ
لئن أمسَتْ وجوهُ الدّهر سُوداً	جلين بذاك للمَلِك اليماني
لقد صحب الردى ألفين عاماً[٤]	ولاقاه الحِمام على ثمانِ

---

(١) (ص ١١٨ - ط. مركز الدراسات والأبحاث اليمنيّة).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في الأصل: «رهياً»! والتصويب من «التيجان» وغيره.

(٤) قال في «البداية والنهاية» (٢/ ١٠٣): «وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستَ مئةِ سنةٍ يجوبُ في الأرض، ويدعو أهلها لعبادة الله -تعالى- وحده لا شريك له؛ وفي كل هذه المدة نظر».

وقال قبل ذلك بأسطر: «وقال الزبير بن بكار: حدثني إبراهيم بن المنذر، عن محمد بن الضحاك، عن أبيه، عن سفيان الثوري، قال: بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة: «مؤمنان وكافران: سليمان النّبي وذو القرنين، ونمرود وبخت نصر»، وهكذا قال سعيد بن بشير سواء، [وسيأتي تخريج ذلك عنهما].

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن البصري، قال: كان ذو القرنين ملك بعد النمرود، وكان من قصته أنه كان رجلاً مسلماً صالحاً، أتى المشرق والمغرب، مد الله له في الأجل، ونصره حتى قهر البلاد، واحتوى على الأموال، وفتح المدائن، وقتل الرجال، وجال في البلاد والقلاع، فسار حتى أتى المشرق والمغرب، فذلك قول الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِنهُ ذِكْراً﴾ -خبراً- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٣-٨٤]؛ أي: علماً بطلب أسباب المنازل».

=

إذا جـاوزت مـن شـرفات جـو ... وسـرت بـأيك برقـة رحرحـان
وجـاوزت العقيـق بـأرض هنـد ... إلـى الصوبـات والنخـل الدوانـي
هنـاك الصّعـب ذو القرنيـن ثـاو ... ببطـن تنوفـة الحنويـن عـاني

وبعدها خمسة أبيات.

وقال المحمود بن زيد [بن غالب][1] بن المنتاب بن زيد بن عملاق يرثي ذا القرنين بن الحارث بن مراثد الملك الحميري:

اسـمع ذا القرنيـن لمـا عـلا ... عـن المغـاني النبـأة الشـاملهْ
فيـا لهـا مِـن نَبـأة لَـمْ تكـن ... مَصْروفـةً عنْـه ولا حائِلَـهْ
فـأصْبحَ الصّعـبُ ذليـلاً لمـا ... صَبّحـه مِـن صيلـم نازلـهْ

وبعدها ستة أبيات.

وقال تُبّع أبو كَرِب قصيدة طويلة[2] مطلعها:

= [وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٩) من طريق إسحاق بن بشر به]، فهذه العبارة التي رواها الزبير بن بكار تفيد أنه عمّر كثيراً، ومدَّ الله له في الأجل، ولا يضرنا بعد ذلك، إن صحّ أنه بلغ ألفي سنة أو كان هناك شيء من المبالغة».

كما قال الحافظ ابن كثير: «وفي كل هذه المدة نظر، ولكِنْ مما لا ريب فيه: أنهم في تلك الأزمنة كانوا يعمّرون، وقد أثبت القرآن ذلك حيث قال في حق نوح -عليه السلام-: ﴿**فَلَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ** إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ [العنكبوت: ١٤]». (منه).

قال أبو عبيدة: إسحاق بن بشر له كتاب «المبتدأ»، قال عنه الذهبي في «السير» (٩/ ٤٧٧): «الشيخ، العالم، القصاص، الضعيف، التالف»، وقال عن كتابه: «هو كتاب مشهور، في مجلدتين، ينقل منه ابن جرير، فمَنْ دونه، حدّث فيه ببلايا وموضوعات».

قلت: منه جزءان في المكتبة الظاهرية. انظر: «فهرس مخطوطات الظاهرية» (٣٠٥ - بعنايتي)، و«تاريخ التراث العربي» (١/ ٤٦٩).

(١) سقطت من الأصل، وأثبتها من «التيجان» (ص ١١٩).

(٢) هي في «التيجان» (١٢١-١٢٤) بطولها.

نحنُ الملُوكُ ذوُو العُلا والسُّؤددِ ... نحنُ الحماةُ بنو الهمامِ الأمجدِ

إلى أن يقول فيها ذاكراً مجيء ذي القرنين إلى مكة وحجّه[١]:

وأقام ذو القرنين جدي مسلماً ... فمتى تراه له المقاول تسجدِ[٢]

طافَ المشارقَ والمغارب عالِماً ... يبغي علوماً من كريم مرشد

ورأى مسيرَ الشّمس عند غروبها ... في عين ذي خلُبٍ وَثأطٍ حَرمدِ[٣]

فلقد أذلّ الصّعبُ صعبَ زمانه ... وأناط قُوةَ عِزّه بالفَرْقدِ

إلى أن قال:

قطع الزَّواخِرَ لُجّةً عن لُجّة ... وعَلا المهامة فدفداً عن فَدفدِ

فهدى القبائل أمّةً عن أمّةٍ ... وأباد قَتلاً مُفْسداً عن مفسدِ

وهي طويلة، اكتفينا بموضع الشواهد منها، والبيتان المتقدمان اللذان في أولهما: (قد كان ذو القرنين) إلى آخرهما، هما من هذه القصيدة، إلاّ أن الأول فيه مغايرة لما هنا[٤]، والثاني لا وجود له في كتاب «التيجان»[٥]، وهو موجود في غيره، ثم ذكر[٦] في

---

(١) هذه الأبيات في: «الآثار الباقية» (ص ٤١)، و«تفسير الرازي» (٢١/ ١٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ٤٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٥٩)، و«الكشف والبيان» (٤/ ١٩١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٩)، و«تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٢-٣٣٣)، و«عرائس المجالس» (٣٢٦) منسوبة لتبع، وله أو لغيره في «اللسان» (١/ ٣٥٢)، وفيه (٤/ ١٢٥) نسبة بعضها لأمية بن أبي الصلت.

(٢) البيت هكذا في «التيجان» (١٢٣):

وأقام ذو القرنين فيها حجه ... خوفاً يطوف على اللظى المتوقّد

(٣) هذا البيت عند ابن قتيبة في «تفسير غريب القرآن» (٢٧٠) ولم ينسبه لأحد، وصدره هكذا: (فأتى مغيب الشمس عند مآبها).

وقال على إثره: «والخُلُب: الطين في بعض اللغات، والثّأط: الحمْأة، والحَرَمَد: الأسود».

(٤) انظر لفظه في تعليقنا عليه.

(٥) هو موجود فيه (ص ١٢٣ - ط. مركز الدراسات والأبحاث اليمنية).

(٦) (ص ١٢٦).

(ص ١١٥) قصة قس بن ساعدة، وقولَ رجل سمعه يقول: «أيـن الصّعـب ذو القرنيـن؟ جمع الثقلين، وأداخ الخافقين، وعمّر ألفين، لم تكن الدنيا عنده إلا كلحظة عين...» إلـخ ما قال[١].

وممن ذكره في شعره الرّبيع بن ضبيع[٢]، وذكر خبره فـي «التيجـان»[٣]، وأنـه قال بعد أن جمع بني ذبيان كما في (ص ١٢٠):

لقـد عَزَفـتْ نَفسي عـن اللَّهـو جمـةً ... وإنْ نهلـت مـن لهوهـا ثـم عَلّـتِ

رأيـتُ قرونـاً بعـد قـرن تقدَّمـت ... فلـم يبـق إلا ذكرُهـا حيـنَ ولّـتِ

ألا أيـن ذو القَرنيـن؟ أيـن جُموعـه؟ ... لقـد كَـثُرَتْ أسـبابُه ثـم قَلّـتِ

إلى أبيات بعدها.

وقال أيضاً[٤]:

ألا يـا لَقَومـي قـد تبـدد إخوانـي ... نداماي فـي شُرب الخمـر وأخداني

إلى أن قال:

وألـوي بـذي القرنيـن بعـد بلوغـه ... مطالع قَرنِ الشـمس بـالإنسِ والجـان

إلى أبيات بعدها.

وقال أيضاً[٥]:

---

(١) خرّجتُ قصته بتطويل في تعليقي على «فنون العجائب» (رقم ٢٨، ٢٩، ٣٠)، وهو مطبوع ضمن «مجموعة أجزاء حديثية» (المجموعة الأولى)، ولابن درستويه جزء مطبوع بعنوان: «حديث قس بن ساعدة».

(٢) كذا في الأصل، والأصح: «ابن ضُبَيع»؛ كما في «التيجان»، ومصادر ترجمته، وأوردت له هـذه الأبيات. انظر: «سمط اللآلي» (٨٠٢)، و«خزانة الأدب» (٣/ ٣٠٨). وانظر: (ص ٧٥).

(٣) (ص ١٣٠ - ط. مركز الدراسات والأبحاث اليمنية).

(٤) كما في «التيجان» (١٣٠-١٣١)، والبيت في «حماسة البحتري».

(٥) كما في «التيجان» (ص ١٣١).

قـل للـذي راح عـن أخيـه وقـد أودعـه حيـن ودّع الحَجَـرا

إلى أن قال:

والصَّعبُ لما عتت أرومَتُه وخان رَيب الزَّمان فادّكَرا

لم يدفع الموت بالجنود ولا رَدَّ بأسباب عِلْمه القَدرا

وهي طويلة.

وقال في مطلع قصيدة[١]:

طال الثَّواءُ عن السِّنين أمَيما ألقى عذاباً للزَّمانِ أليما

إلى أن قال:

والصَّعب ذو القرنين عَمَّرَ مُلْكَه ألفين أمسى بعد ذاك رميما

وهذا البيت تقدم[٢] فيما نقلناه عن «شرح البخاري» للحافظ ابن حجر، وبعده أبيات.

وقال في مطلع قصيدة[٣] يخاطب قبيلة عبس:

على حرج يا عبسُ أضحى أخوكُم وَبتٌ على أمرٍ بغير جَناحِ

إلى أن قال:

لنا عظةٌ في الذَّاهبين وعِبرةٌ تفيد ذوي الألبابِ أمرَ صلاحِ

ألم تعلموا ما حاول الصَّعبُ مُدةً ما صبَّح السَّاعي وآلَ رِزاحِ

فهل بعد ذي القرنين مُلكٌ مُخلّدٌ؟ وهل بعد ذي المُلكين يوم فلاح؟[٤]

---

(١) هي في «التيجان» (ص ١٣٢) في عشر أبيات.

(٢) (ص ٧٥).

(٣) هي في «التيجان» (١٣٤-١٣٥) في ثمانية أبيات.

(٤) جمع عبدالعزيز الميمني الراجكوتي (شعر وأخبار الربيع بن ضبع) في مجلة «الزهراء» عدد جمادى الثانية سنة ١٣٤٦هـ وعنها في «بحوث وتحقيقات» جمع محمد عزير شمس (٢/ ٢٢٢-٢٢٩)،=

وقال أوس بن حجر السَّعدي[١]:

حنانيك يا أوس بن حجر، فإنّه سيفقد من جارى الأمورَ ويهلكُ
وتجري الليالي بانتقاصٍ وفُرقةٍ وإنَّ سبيلَ الصَّعبِ لا شكَّ يسلكُ

وقال طرَفة بن العبد[٢]:

وكيفَ يُرجي المرءُ دهراً مخلّداً وأيامه عمَّا قليل تحاسبُهْ
ألم ترَ لقمانَ بنَ عادٍ تتابعتْ عليه نسورٌ ثم غارَتْ كواكبُهْ
وللصّعب أسبابٌ تحلّ خطُوبها أقامَ زماناً ثم بادَتْ مطالبُهْ
إذا الصَّعب ذو القرنين أزجى لواءَه إلى مَلِكِ سَاسانَ فقامتْ نوادِبُهْ
يسيرُ بوجهِ الحتْفِ والعيش جمعه وتمضي على وجهِ البلادِ كَتائبُهْ

وفي كتاب «الإكليل في أنساب ملوك حمير وأيام ملوكها»[٣] للحسن بن أحمد الهمداني -وهو المطبوع[٤] من هذا الكتاب الكبير الذي يتم، كما قال في «كشف الظنون»[٥] في عشر مجلدات-:

وقال امرؤ القيس بن حجر المقصور بن الحارث آكل المرار الكندي يذكر ذا القرنين الصَّعب بن مراثد:

أَلَمْ يخبْركَ أن الدّهرَ غُولٌ خَتور العهدِ يلتَهِمُ الرِّجَالا

=وجميع الأبيات السابقة فيها؛ إذ ساق شعره من كتاب «التيجان».

(١) البيتان في «التيجان» ص ١٣٦) منسوبان لأوس بن حجر.

(٢) الأبيات في «التيجان» (ص ١٣٥-١٣٦) منسوبة لطرفة بن العبد.

(٣) (٨/ ٣٢٨ - ط. العراقية).

(٤) نشر محب الدين الخطيب فيما بعد (الجزء العاشر) منه، وهو في (معارف همدان وأنسابها وعيون أخبارها)، ثم وقفتُ على قطعة منه في (نسب حمِّير) مطبوعة سنة (١٩٣٥م) بمطبعة أباسيلا.

(٥) (١/ ١٤٤)، وقال عنه: «وهو كتاب كبير، عظيم الفائدة».

أزالَ عــنِ المصَــانِعِ ذا ريَــاشٍ ... وقــدْ مَلــكَ الســهولَةَ والجبَــالا
وأنشَــبَ فــي المخَــالب ذا مَنــار ... وللــزرادِ قَــدْ نصــبَ الحبَــالا
همــامٌ طحْطَــحَ الآفــاقَ وحْيــاً ... وقــادَ إلــى مشــارقِها الرَّعَــالا
وسدّ بحيث ترقــي الشّــمس سـدّاً ... ليَــأجُوجَ ومــأجُوجَ الجبَــالا

وقال علقمة بن ذي جدن وقد رثاه في جملة من ذكر من ملوك قحطان:

أيــن الــذي بلــغَ المشــارقَ كلَّهــا ... ومغــاربَ الأرْضَ التــي لــم تعْمَـر؟
وبَنَــى علــى يــأجُوجَ رَدْمــاً رصَّــهُ ... بــالقِطْرِ يثبتُــه ولمــا يَظْهـــر
فتناوَلَتْــهُ منيّــةٌ قَصَــدتْ لَــــه ... فأجابَهــا ومضَــى كــأنْ لــم يُذكَــرِ

وفي «الإصابة»[1] للحافظ ابن حجر في ترجمة (ذي دجن):

«روى ابن شاهين من طريق ابن الكلبي عن وحشي بن حرب بن وحشي بن حرب، عن أبيه، عن جده، قال: «قدم ذو منادح، وذو دجن، وذو مِهدَم على النّبي ﷺ، فقال لهم: «انتسبوا»، فقال ذو مِهدَم:

على عَهدِ ذِي القَرنيـن كـانتْ سُيوفُنا ... صَوَارمَ يفلَقْنَ الحَديدَ المذكّـرا[2]».

فمجموع هذه الأشعار يفيد القطعَ بأنَّ ذا القرنين هو ملك عربي، وأنه الباني للسَّدِّ المذكور في القرآن، ويؤيِّد ذلك -أيضاً- ما في «البداية والنهاية»[3] للحافظ ابن كثير:

---

(١) (٢/ ٤١٣ - ط. الجيل).

(٢) أخرجه أبو نُعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ١٠٣٩ رقم ٢٦٣٥)، وابن شاهين، وابن منده -كما في «الإصابة» (٢/ ٤١٣)- من طريق إسحاق بن حرب بن وحشي بن حرب، عن أبيه، عن جده، وإسناده ضعيف، قال ابن عبدالبر في «الاستيعاب» (٢/ ٦٤٥): «وحشي بن حرب عن أبيه عن جده، إسناده ليس بالقوي، يأتي بمناكير». وانظر: «أسد الغابة» (٢/ ١٧٩)، و«من روى عن أبيه عن جده» (ص ٥٥٧/ رقم ١٥٤).

(٣) (٢/ ١٥٦-١٥٧).

«إنَّ ذا القرنين الثاني هو الإسكندر المقدوني اليوناني المصري، باني الإسكندرية[١]، الذي يؤرخ بأيامه الروم[٢]، وكان متأخّراً عن الأول بدهر طويل، كان هذا قبل المسيح بنحوٍ من ثلاث مئة سنة، وكان أرسطاطاليس الفيلسوف وزيره، وهو الذي قتل دارا بن دارا، وأذلَّ ملوكَ الفُرس وأوطأ أرضهم؛ وإنما نبّهنا عليه؛ لأنَّ كثيراً من النّاس يعتقد أنهما واحد، وأنَّ المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطاطاليس وزيره، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير، وفساد طويل[٣] كثير، فإنَّ الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً، ومَلِكاً عادلاً، وكان وزيرُه الخضر[٤] وقد كان نبيّاً[٥] على ما قررناه قبل هذا، وأما الثّاني فكان مشركاً، وكان وزيرُه فيلسوفاً، وقد كان بين زمانيهما أزيدَ من ألفي سنة، فأين هذا من هذا، لا يستويان ولا يشتبهان إلاّ على غبيٍّ لا يعرف حقائق الأمور» اهـ.

ويؤيّد ذلك -أيضاً- ما جاء في «معجم البلدان»[٦] لياقوت في الكلام على

---

(١) بل مجددها، كما قدّمناه عن ابن فضل الله العمراني، وذكر بيبرس المنصوري في «مختار الأخبار» (ص ٢٨) أن الإسكندر حفر خليج الإسكندرية. وانظر: «السلوك» (١/ ٢/ ٥١٠).

(٢) ترى أمثلة من ذلك التأريخ في «البدء والتاريخ» (١/ ٢٤ و٢/ ١٥٢ و٣/ ٧٩، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥، ١٧٨، ٢٠٩ ...)، وظفرت بتأريخ لذي القرنين في «المنتخب من تاريخ المنبجي» (٢٥، ٢٦، ٣٠، ٣٢، ٤٠، ٤٦، ٥٣، ٥٤، ٧١، ٧٣، ٧٨، ٧٩، ٨٧، ٩٣). وانظر عن هذا التأريخ: «أخبار الدول وآثار الأول» للقرماني (١/ ٧ - ط. عالم الكتب).

(فائدة): قال المصنف في كتابه «الثقافة الإسلامية» (ص ٣٣٨): «وأما الرُّوم، فأرَّخت بقتل دارا بن دارا، إلى ظهور الفرس عليهم (أي: من الإسكندر المكدوني)».

(٣) في مطبوع «البداية»: «عريض طويل».

(٤) أسند ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٩) بسند ضعيف جداً عن ابن عباس، قال: «كان ذو القرنين ملكاً صالحاً، أرضى اللهُ -عزَّ وجلَّ- عملَه، وأثنى عليه في كتابه، وكان منصوراً، وكان الخضر وزيره».

(٥) انظر لِزاماً: التعليق على (ص ٩٩، ١٠٥).

(٦) (١/ ١٨٤).

الإسكَندرية، بعد أن ذكر أقوالاً فيمن بناها، قال:

«وذكر آخرون أنّ الذي بناها هو الإسكندر الأول ذو القرنين الرُّومـي، واسمه: أسك[١] بن سَلوكُوس، وليس هو الإسكندر بن فيلفوس، وأنَّ الإسكندر الأول هو الذي جال الأرضَ، وبلغ الظُّلمات، وهو صاحب موسى والخضر -عليهما السلام-، وهو الذي بنى السَّدَّ، وهو الذي بلغ إلى موضع لا ينفُذه أحد، صوَّر فَرساً من نحاس، وعليه فارس من نحاس مُمسكٌ يُسرى يَديه على عنان الفرس، وقد مدّ يده اليمنى[٢]، وفيها مكتوب: ليس ورائي مذهب[٣]. وزعموا أنّ بينه وبين الإسكندر الأخير صاحب دارا المستولي على أرض فارس، وصاحب أرسطاطاليس الحكيم، الذي زعموا أنه عاش ثنتين وثلاثين سنة[٤] دهراً طويلاً، وأن الأول كان مؤمناً -كما قصّ الله عنه في كتابه- وعُمِّر عُمُراً طويلاً، ومَلَك الأرض، وأما الأخير فكان يرى رأيَ الفلاسفة، ويذهب إلى قِدم العالم، كما هو رأي أستاذه أرسطاطاليس، وقتل دارا، ولم يتعدَّ مُلكُهُ الرّومَ وفارسَ» اهـ.

ثم ساق أقوالاً أخَر في أوّل من أنشأ الإسكندرية[٥]، وهذا صريح في أنَّ الإسكندر الرُّوميَّ المكدونيَّ تلميذ أرسطاطاليس، ليس باني السَّدّ، وأن بانيه هو الإسكندر الأول الملقب ذا القرنين، ويظهر أنّ مثير الشّبهةِ على بعض مؤرخي العرب والإفرنج: هو تسمية كلٍّ منهما بالإسكندر، أو تسمية كلٍّ منهما بذي القرنين؛ لتشابه أعمالهما في تطواف الأرض.

وفي «تاريخ الطبري»[٦] (ج ٢ ص ٦) فصلٌ طويلٌ لخَبر الإسكندر المقدوني

(١) كذا في الأصل بالمهملة، وفي مطبوع «المعجم» بالمعجمة.

(٢) في مطبوع «المعجم»: «مد يمناه».

(٣) انظر عن سبب قولته هذه: «أخبار الدول» (٣/ ٢٨٤) للقرماني.

(٤) انظر بخصوص هذا: ما سيأتي من كلام لياقوت -أيضاً-.

(٥) وتجد ذلك مبسوطاً في «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمراني (٣/ ق ٢٤٢/ ٢٤٤).

(٦) (١/ ٥٧٢-٥٧٩ - ط. دار المعارف).

وقتْلِه لدارا بن دارا، واستيلائهِ على مُلكِه وقد جاء في آخره[١]، وذكر أنه قال يوم جلس على سريره -سرير دارا-:

«قد أدا لنا الله من دارا بن دارا، ورزقنا خلاف ما كان يتوعّدنا به، وأنه هدم ما كان في بلاد الفرس من المدن والحصون وبيوت النار، وقَتل الهرابذة، وأحرق كتبهم و«دواوين دارا»، واستعمل على مملكة دارا رجالاً من أصحابه، وسار قُدماً إلى أرض الهند، فقتل مَلكها، وفتح مدينتها، ثم سار منها إلى الصّين [فصنع بها كصنيعه][٢] بأرض الهند، ودانت له عامة الأَرَضِين، وملك التُّبت والصّين، ودخل الظلمات مما يلي القطبَ الشّمالي، والشّمس جنوبيّة في أربع مئة رجل يطلب عين الخلد، فسار فيها ثمانية عشر يوماً، ثم خرج ورجع إلى العراق، ومَلّك ملوكَ الطوائف، ومات في طريقه بشَهرَزُور، وكان عمره ستّاً وثلاثين سنة -في قولِ بعضهم-، وحمِل إلى أمّه بالإسكندرية» اهـ.

فهذا كما ترى لم يذكر أنّ الإسكندر الرُّومي لما بلغ بلاد الصين بنى السَّد على عظم هذا الخبر، واقتصر على توغّله في بلاد الصين، وبلوغه إلى ما يقرب من القطب الشمالي، ورجوعه إلى بلاد العراق، وموته فيها، لكنّ هذا التوغلَ في المشرق الأقصى، كان مثيراً للشبهة في أنه الباني للسّد، وليس الأمرُ كذلك، كما أنه في هذا الفصل الطويل وفي غيره، لم يسمِّ الإسكندر المقدوني ذا القرنين، فجرى فيه على الصّواب[٣].

---

(١) (١/ ٥٧٧).

(٢) سقط من الأصل، وأثبته من «تاريخ ابن جرير».

(٣) ذكر الجمل في «الفتوحات الإلهية» (٣/ ١٠٠-١٠٤) التفرقة بينهما، كما قدمها المصنف عن جمع، وظفرت بها عن آخرين، ولا فائدة من كثرة السرد، وقد تبرهن مرادُ المصنّف، ومَنْ بنى السَّدّ، والله والموفق.

وسيأتيك قريباً كلام قيّم لشيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع، وسقت نحوه بعده، وستأتي الإشارة إليه من كلام الذهبي -أيضاً-، وأن بعض المعاصرين رده بتطويل وتأصيل.

وفي «معجم البلدان»[١] لياقوت في أول كلامه على الإسكندرية:

«قال أهل السِّير: إنّ الإسكندر بن فيلقوس الرّومي قتل كثيراً من الملوك وقهرهم، ووطِئَ البلدان إلى أقصى الصّين، وبنى السّد، وفعل الأفاعيل، ومات وعمره اثنتان وثلاثون سنةً وسبعةَ أشهر، لم يسترح في شيءٍ منها».

قال مؤلف الكتاب -يعني: ياقوت-:

«وهذا -إن صَح- فهو عجيبٌ، مفارقٌ للعادات، والذي أظنّه -والله أعلم- أنّ مدّة ملكِه أو حِدةَ سَعدِه هذا المقدار، ولم تحسب العلماءُ غيرَ ذلك من عمره، فإن تطواف الأرضِ بسيرِ الجنودِ مع ثقلِ حركَتِها، لاحتياجها في كل منزل إلى تحصيل الأقواتِ، والعلوفة، ومصابرةِ مَنْ يمتنعُ عليه من أصحاب الحصون يفتقر إلى زمان غير زمان السير، ومن المحال أن تكون له همةٌ يقاوم بها الملوكَ والعظماء، وعمره دون عشرين سنة، وإلى أنَ يتّسقَ مُلكُه، ويجتمعُ له الجند، وتثبتَ له هيبةٌ في النفوس، وتحصل له رئاسةٌ وتجربةٌ وعقلٌ يقبلُ الحكمةَ التي تحكَى عنه يفتقرُ إلى مدةٍ أخرى مديدة، ففي أيّ زمان كان سيرُهُ في البلاد، وملكُه لها، ثم إحداثه[٢] ما أحدث من المدن في كل قُطْر منها، واستخلافُه الخلفاءَ عليها، على أنه قد جرى في أيامنا هذه وعصرنا الذي نحن فيه في سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة وست مئة، من التتر الواردين من أرض الصين ما لو استمرَّ لملكوا الدُّنيا كلَّها في أعوام يسيرة؛ فإنهم ساروا من أوائل الصين إلى أن خرجوا من باب الأبواب، وقد ملكوا وخرّبوا من البلاد الإسلامية ما يقارب نصفها؛ لأنّهم ملكوا ما وراء النهر، وخراسان، وخوارزم، وبلاد سِجستان، ونواحي غزنة، وقطعة من السند وقومس من الجبل[٣] بأسره، غير أصبهان وطبرستان وأذربيجان وأرّان، وبعض أرمينية، وخرجوا

(١) (١/ ١٨٢).

(٢) في الأصل: «إحداث»، والمثبت من «معجم البلدان».

(٣) كذا في الأصل، وفي مطبوع «المعجم»: «وقومس وأرض الجبل».

من الدربند، كل ذلك في أقلّ من عامين، وقتلوا أهلَ كلِ مدينة مَلَكوها، ثـم خذلهـم اللهُ وردّهم من حيث جاؤوا، ثم إنهم بعد خروجهم من الدربند، ملكوا بـلاد الخـزر واللان وروس وسقسين، وقتلوا القبجاق في بواديهم، حتى انتهوا إلى بُلغار في نحو عام آخر، فكأن هذا عَضَد قصّة الإسكندر، على أنّ الإسـكندر كـان إذا ملـك البـلاد عمرها، واستخلفَ عليها، وهذا يفتقر إلى زمان غير زمان الخـراب فقـط، قـال أهـل السِّير: بنى الإسكندر ثلاث عشرة مدينة وسمّاها كلهـا باسـمه، ثـم تغيرت أسـاميها بعده» اهـ.

فهنا ترى أن ياقوت قد تعجّب أن يكـون الإسـكندر المقدونـي قـد قـام بهـذه الأعمال العظيمة في هذه المدة القصيرة، وهو قد عمّر اثنتين وثلاثين سـنة، أو (٣٦) سنة على ما جاء في رواية أخرى، حتى اضطر أن يقول:

«والذي أظنّه -والله أعلم- أن مـدة مُلكِـه كـانت هـذا المقـدار، لـم تحسـب العلماءُ غير ذلك من عمره»، مع أن هذا الظنَّ لم يوافقْهُ عليـه مـن المؤرخيـن أحدٌ، وكلّهم أجمعوا أن جميع عمره كان (٣٢) أو (٣٦) سنة، ومدة مُلْكه كانت -كما فـي «أبي الفدا» (ص ٥٩)- نحو ثلاثَ عشْرة سنة، فكيف يتمكن في هذه المدة أن يفتح بلاد آسيا مـن الآسـتانة إلـى أن يصـل إلـى أقصـى الصيـن، مـع وعـورة المسـالك، وصعوبة نقل الجنود، وما يحتاجون إليه وما يلاقيــه مـن المقاومـة أمامـه، ويبنـي مـا تخرب من البلاد في هذه المدة، ويؤسّس مدناً أخرى، ويصل بعد ذلـك إلـى محـل السد، ويبنيه، وبناؤه وحده -كما سيأتي- يحتاج إلى سنين طويلة، إذ لا يمكن بنـاؤه إلاّ وهو هناك مع عسكره الجرار، ليحولَ دون هجمات يأجوجَ ومأجوجَ، ودخولهم من بين الصّدفين إلى الصين الجنوبية[1]، ولهـذا تـرى أن صـاحب «المعجـم» قـال: «ومن المحال أن تكون له همّة يقاوم بها الملوك العظماء وعمره دون عشـرين سـنة» إلى آخر كلامه، وهو نَقد وجيه معقول لا يدفع.

---

(١) تحمس المصنف إلى هذا، وللعلماء مؤاخذات عليه، ستأتي، والله الموفق.

على أن قياسَه عملَ الإسكندر على عمل التتر، وأنهم خربوا من بـلاد الصّيـن إلى أواخر آسيا في مدة عامَيْن، قياسٌ مع الفارق، فإن عمـل التـتر تخريـبٌ محـضٌ، وهذا سهل، وأما عملُ الإسكندر فإنه فَتحٌ وتخريبٌ، وتعميرُ وتأسيسُ بلاد لم تكـن، مع ما يحتاجه بناء السّد من المدّة الطويلة، لذلك تراه أشار إلى ردّ هذا بقوله في آخر العبارة: «على أن الإسكندر كان إذا ملـك البـلاد عمّرهـا، واسـتخلف عليهـا، وهـذا يفتقر إلى زمان غير زمان الخراب فقط».

والحق أنه لم يصل إلى أقصى الصّين إلـى موضـع السّـد[١]، بـل وصـل إلـى أطرافه، وعبارة أبي الفدا صريحة في ذلك، وهي كمـا فـي الكـلام علـى الإسـكندر (ج١ ص٤٥):

«كان أبو الإسكندر أحد ملوك اليونان، وكانوا طوائف، فلمَّا مَلـك الإسـكندر غزاهم، واجتمع له ملكهم، ثم غزا دارا[٢] ملك الفرس، وقتله، ثم غزا الهند، وتناول أطراف الصّين، ثم انصرف الإسكندر يريد الإسكندرية -وهو الـذي بناهـا-، فهلـك في ناحية السّواد، وقيل: بشَهْرَزَوْر[٣]، وكـان عُمُـره سـتّاً وثلاثيـن سـنة، فحُمِـل فـي

---

(١) هنالك خرافات وردت في بعض كتب الأخبار والأدب، وقـع فيهـا التصريـح ببنـاء الإسـكندر للسّد، ولكنْ لا وزن لها، انظر -مثلاً-: «أخبار الدول» للقرماني (٣/ ٢٥٩).

(٢) من أعاجيب الأغاليط: ما ذهب إليه محمد علي اللاهوري في ترجمته لتفسير معاني القرآن، أن ذا القرنين هو (دارا الأول) أو (داريوس)، (٥٤٩-٤٨٥ ق.م)، وكان زرادشتيّاً!! ونقله عن العلامـة الهنـدي شبلي النعماني في كتابه «عصر السعادة»! ولليونـان ملحمـة «جلجـامش»، فيهـا أحـداث شـبيهة بمـا نسـجه القصاص حول قصة (ذي القرنين)، وعمل على تحليل ما في هـذه الملحمـة، وردهـا إلـى أصـول فينيقيـة، وعرضها على ما ورد في القرآن الكريم: الأستاذ نجيب البهبيتي في كتابه «المعلقة العربية الأولـى» أو «عنـد جذور التاريخ». وانظر: ما سيأتي في التعليق على (ص ١٦٢، ٢٦٨).

(٣) (شَهْرَزَوْر) -بالفتح، ثم السكون، وراء مفتوحة بعدها زاي وواو ساكنة وراء- قاله يـاقوت فـي «معجم البلدان» (٣/ ٣٧٥)، وزاد (٣/ ٣٧٦-٣٧٧) بعد كلام بيّن فيه أن (الأكراد) يسـكنون هـذه المحلـة، قال:

«إن الأكراد في جبال تلك النواحي على عادتهم في إخافة أبناء السـبيل وأخـذ الأمـوال والسـرقة،=

تابوت ذهبٍ إلى أمّه، وكان مُلْكه نحو ثلاث عشرة سنة»[١] اهـ.

وهنا ترى، أن أول عمل قام به أنه غزا الملوك الذين حوله، حتى وحّد كلمتهم، واجتمع له ملكهم، ولا ريب أن هذا ليس بالعمل السهل، وهو يحتاج إلى مدة ليست بالقصيرة، وبعد أن قام بهذا العمل الخطير، غزا بلاد آسيا، وتوغل فيها، وفعل ما فعل، ومدة ملكه كلها (١٣) سنة.

فصل للجاحظ[٢] يحقق فيه عن ذي القرنين

ذكر هذا الفصل الإمام الثعالبي في كتابه «ثمار القلوب»[٣] فقال:

«(الباب التاسع عشر في الأذواء والذوات):

(ذو القرنين): قال الجاحظ في كتاب «التدوير والتربيع»[٤]: ولقد سَأَلْتُ عن

=ولا ينهاهم عن ذلك زجرٌ، ولا يَصُدّهم عنه قتلٌ ولا أسرٌ، وهي طبيعة للأكراد معلومة، وسجيّة جباهُهُم بها موسومةٌ، وفي مِلَح الأخبار التي تُكْسَعُ بالاستغفار: أن بعض المتطرّفين قرأ قوله -تعالى-: «الأكراد أشَدُّ كُفراً ونفاقاً، فقيل له: إنَّ الآية: ﴿الأعْرابُ أشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾، فقال: إن الله -عزَّ وجلَّ- لم يسافر (!!!) إلى شَهْرَزُوْر فينظر إلى ما هنالك من البلايا المخبّآت في الزوايا، وأنا أستغفر الله العظيم من ذلك وعلى ذلك، وقد خرج من هذه الناحية من الأجلّة والكبراء والأئمة والعلماء وأعيان القضاة والفقهاء ما يفوت الحصر عدّه، ويعجز عن إحصائه النفس ومدّه، وحسبك بالقضاة بني الشهرزوري جلالة قدر وعظم بيت وفخامة فعلٍ، وذكر الذين ما علمت أن في الإسلام كله وليَ من القضاة أكثر من عدّتهم من بيتهم، وبنو عَصْرُون -أيضاً- قضاة بالشام، وأعيان من فرق بين الحلال والحرام، منهم وكثير غيرهم جداً من الفقهاء الشافعية، والمدارس منهم مملوءة».

(١) تاريخ أبي الفدا، المسمّى «المختصر في أخبار البشر» (١/ ٧٨ - ط. دار الكتب العلمية).

(٢) سيأتي تحته أن للجاحظ فيه كلمة يسيرة، والباقي للقاضي أبي الحسن علي بن عبدالعزيز الجُرجاني، نقله عنه الثعالبي، وما سيأتي من تعليقاتٍ للمصنّف في استغرابه وتعقبه للكلام الموجود منسوباً للجاحظ، ليس كذلك، وقد صرح الثعالبي -فيما يأتي- بنهاية كلام القاضي، فتنبَّه.

(٣) (ص ٢٨٠-٢٨١ - ط. محمد أبو الفضل إبراهيم).

(٤) (ص ٣١ - ط. فوزي عطوي).

ذي القرنين أهو الإسكندر؟ ومن أبوه؟ فقال القاضي أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجُرجاني[1] في الجواب عن ذلك وشَرْحِه، قال:

---

(١) ظاهره أن السائل الجاحظ، والمسؤول القاضي الجُرجاني، وهذا غير صحيح؛ وذلك لأن القاضي كانت وفاتُه سنة (٣٦٦)، وقد عُمِّر (٧٦) سنة -كما ذكره ابن خِلِكان في ترجمته-، فتكون ولادته سنة (٢٩٠)، والجاحظ كانت وفاته سنة (٢٥٥)، فكيف يكون المسؤول القاضي؟ ويصح هذا الكلام إذا كان السائل للقاضي هو الثعالبي؛ لأن ولادته سنة (٣٥٠)، فيكون قد سأله قُبَيْل وفاته، وقد سأله وهو صغير، هذا إذا كان الثعالبي قد اجتمع بالقاضي الجرجاني، والقاضي قد نقل هذا الفصل عن الجاحظ من كتابه «التدوير والتربيع»، ويكون في هذه الأسطر تقديمٌ وتأخيرٌ وتحريفٌ نشأ من النّسّاخ، هذا ما ظهر لي الآن. (منه).

قال أبو عبيدة: ليس الأمر كما قال المصنّف -رحمه الله تعالى-! والذي للجاحظ من الكلام الآتي قوله فقط في رسالة «التربيع والتدوير» (ص ٣١ - ط. فوزي عطوي):

«وخبرني عن...، وعن ذي القرنين: أهو الإسكندر؟ ومن أبوه ومن أمّه؟ ومن قيرى [ومن] عيرى؟».

وهذا المقدار هو الذي ذكره الثعالبي في «ثمار القلوب» (ص ٢٨٠)، وقال عَقِبَه -كما عند المصنف-: «فقال القاضي أبو الحسن عليُّ بنُ عبدِالعزيز الجُرجاني في الجواب عن ذلك وشرحه...».

والذي ينبغي أن يُتَنَبَّهَ له: أن سؤال الجاحظ موجَّهٌ إلى عَصْرِيِّـهِ أحمد بن عبدالوهاب في رسالة شُهرت عند الأدباء، وتعرف بـ«المفاكهات»، وقد حذا حذوها، واعتنى بها جمع؛ منهم: أبو بكر الخوارزمي، وأشار الحصري في «جمع الجواهر» (٢٦٠) إلى ذلك، حيث أورد فقرات من رسالة لأبي بكر الخوارزمي وجهها إلى بديع الزمان الهمذاني، وقال الحصري في أعقابها: «وهي طويلة جدًّا، له فيها إحسان كثير، وإنما احتذى في أثرها مثال رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأحمد بن عبدالوهاب، المعروفة بـ«رسالة الطول والعرض»، وتعرف برسالة «التربيع والتدوير»، ورسالة «المفاكهات»، واتبع -أيضاً- طريق أبي الفضل بن العميد في رسالة لابن سمكة النحوي».

ورسالة الخوارزمي التي احتذى في أثرها مثال رسالة الجاحظ في «رسائله» (ص ٢٣٥-٢٥٠ - بتقديم نسيب الخازن)، وأولها: «وكتب إلى أبي الحسن المعروف بالبديهي الشاعر زعم يعبث به»، وقد طبعت هذه «الرسائل» في مصر قديماً سنة (١٧٢١م).

والشاهد من هذا: إن رسالة الجاحظ هذه اعتنى بها العلماء، واهتموا بها، وأن الكلام الذي ساقه الثعالبي في «ثمار القلوب» -وعنه المصنّف-، وعزاه للقاضي أبي الحسن علي بن عبدالعزيز الجُرجاني -وهو متأخر عن الجاحظ- ليس جواباً على سؤال وجهه الجاحظ إليه، كما فهم المصنّف، وإنما وجّهه=

....

=الجاحظ لأحمد بن عبدالوهاب، واعتنى به -فيما بعد- القاضي الجُرجاني، وأجاب عنه بتفصيل حسن، فلا إشكال في ذلك، ولا تقديم ولا تأخير، وليس للجاحظ منه إلا النّزر اليسير.

بقي بعد هذا أمران مهمان:

الأول: نشر «رسالة الجاحظ إلى أحمد بن عبدالوهاب» كاملة: فان فلوتن في ليدن ضمن «ثلاث رسائل للجاحظ» سنة (١٩٠٣م)، وتابعه محمد الساسي المغربي ضمن «مجموعة رسائل» سنة (١٣٢٤هـ - ١٩٠٧م)، ثم السندوبي في «رسائل الجاحظ» سنة (١٩٣٣)، ثم نشرها شارل بلا عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة (١٩٥٥م)، ثم فوزي خليل عطوي سنة (١٩٦٩)، ثم العلاّمة اللغوي الأديب عبدالسلام هارون في «رسائل الجاحظ»، ومن المتفق عليه عندهم -ولا سيما المستشرقين-: أن يد النحل والتزييف امتدت إلى رسالة الجاحظ هذه، كما امتدت إلى مؤلّفاته الأخرى، وإلى مؤلّفات سواه، فطرأ عليها من الزيادة والنقصان؛ ما جعل من الصعب التميز بين الصحيح والمنحول، خصوصاً وأن الجاحظ يُلقي بأسئلته -ولو أحصيناها لما وجدناها مئة سؤال كما يصرح أبو عثمان في بداية الرسالة- كيفما اتفق له، دون اتباع نهج واضح، أو تسلسل منطقي، وذلك خلافاً لروحه الاعتزالية (!!) التي تقيم وزناً كبيراً للعقل والمنطق وعلم الكلام، زعموا!

ولكن الأسلوب الجاحظي المعروف، يُسيغ في أكثر الأحيان إسقاط بعض ما يبدو نبوّه عن السياق، إلا أنه إن أساغ إسقاط البعض، فهو لا ييسر إسقاط الكل في أي حال.

ثم إن عنوان الرسالة بذاته هو عنوان مستحدث، فالجاحظ الذي كاد أن لا ينسى عنواناً لكتاب من كتبه في مقدمة كتابه «الحيوان»، يغفل ذكر «التربيع والتدوير»، ويكتفي وحسب، في (الجزء الأول) من «الحيوان» بأن يحيل من لا يفهم بعض محتويات سفره الضخم على الرسالة التي كتبها إلى أحمد بن عبدالوهاب؟ انظره: (ص ٣٠٨، ٣١١ - ط. عبدالسلام هارون).

وعليه؛ يكون العنوان من وضع الناسخين الذين استمدوه من ألفاظٍ في داخل الرسالة أو من بعض محتوياتها، والحقيقة أننا لا نستطيع الجزم بمدى توفيق الناسخين، حين اختاروا عنوان (التربيع والتدوير) الذي يوحي بالبحث الهندسي الصرف، لهذه الرسالة التي لم يدُر في خَلَد الجاحظ أن يوقِفَها على الهندسة وحدها. أفاده الأستاذ عطوي.

والآخر: نقَل المصنف في تعليقته السابقة عن ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٨١) أن القاضي الجُرجاني توفي سنة (٣٦٦هـ)، وتابعه على ذلك ابن العماد في «شذرات الذهب» (٣/ ٥٦)، وقال الذهبي في «السير» (١٧/ ٢١): «توفي في الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ٣٦٩هـ»، ثم قال معقّباً على ابن خلكان: «ووهم ابن خلكان وصحح أنه توفي سنة (٣٦٦هـ)، وإنما ذاك آخر؛ وهو: أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدالعزيز الجرجاني».

=

أكثر من بحث عن سالف الأمور، وتصفّح ما حدث منها في متقادِم العصور، أنّ التسمية بذي القرنين لا تعرف في غير هذه اللغة، ولا يوجد منها علم إلاّ عند هذه الأمّة؛ ومتى سمعنا غيرَهم ينطِق بها، ووجدنا بعض الأمم يذكرها، فبحثنا عن أصلها ومأخذِها، وسألناهم عن معناها وتأويلها، أصبناها راجعةً إليهم -أي: إلى العرب-، وأحلنا في الإسناد عليهم.

قالوا: ولم نعثر على كثرة التّفتيش والتّكشيف وشدّة الطّلب والتّنقير من ملوك الأمم، وأولياء الدول، وقادة الجيوش، وساسة الجنود ممن ارتفع فشُهر، أو خَمُل فغُمِر، عمن لزمه هذا الاسم أو حصل له معناه، أو استحقّه بلازم خلقة، أو مستجدّ صفة، فأما نحن فقد وجدنا في التّواريخ القديمة المأخوذة عن السُّريانية واليُونانيّة أن ضاميرس -وهو الثالث من ملوك بابل- خرج على أطركسركس فحاربه وظفر به، فقتله، ونزع قرني رأسه، فجعلهما إكليلاً يلبَسه فسمّي ذا القرنين، فهذا -كما تراهُ- تسمية مأخوذة من الأمم السالفة، منقولة عن تلك اللغة إلى هذه.

على أن العرب قد سمَّت بها من ملوكهم نَفَراً، وخصَّت بها هذا المَلِك السّائح الذي ورد القرآنُ بذكره، واجتمعت الإنس على تفخيم قدره، وسنذكر ما حفظناه في سبب هذه التَّسمية، ونستوفي ما عندنا في صاحبها، وما انتهى إلينا في حقيقة المسمّى بها، ونقول فيه على تفصيل الاختلاف والتميّز بين تلك الأقوال قولاً إن لم يكن شافياً، فعساه أن يكون كافياً، وما علينا إلاّ الجهد: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلمٍ عَلِيْم﴾ [يوسف: ٧٦].

قال الله -تعالى-: ﴿وَيسْأَلُونَكَ عَنْ ذي الْقَرْنَيـنِ قُل سَأَتْلُوا﴾[1] [الكهف: ٨٣] الآية المتضمّنة خبره، فوصف هذه الجملة من أحواله، في تقلّبه وانتقاله،

= والذي في «تاريخ الإسلام» للذهبي، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ٤٥٩)، و«معجم الأدباء» (١٤/ ١٤)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٣٣١)، و«النجوم الزاهرة» (٤/ ٢٠٥): أن وفاته سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة، ولعله الصواب.

(١) بعدها في مطبوع «الثمار»: ﴿عَلَيْكُم مِنهُ ذِكراً﴾ [الكهف: ٨٣].

ومنتهى سيره[١] في الشرق ظاعِناً، وغايةَ مبلغه من الغـرب واغـلاً، ودلَّ علـى عظـم مُلكه، وشدّة وطئه[٢]، وعلوِّ كلمته، وانبساط قدرته، بما عدّ مـن آثـاره، وقـصَّ علينـا من أخباره، وأكّد ذلك وحقّقه بقوله -تعالى-: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِـي الأَرْضِ وَآتَيْنَـاهُ مِـن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤].

وحسبُك بمن شهد الله له بالتَّمكين والاقتدار، وناهيكَ بمن آتـاه اللـه جوامـع الأسباب، ووطّأ له أباعدَ الأقطار!

وقد روي[٣] في تفسير هذه الآية: أن المشركين من قريش أوفـدوا وفـداً إلـى يهود يثرب يستمدّونهم مسائل فيمتحنون[٤] بهـا النَّبـي ﷺ، واعتمـدوا مـن المسـائل على قصص الأنبياء وأخبـار الملـوك؛ لعِلْمِهـم بأنّـه لا حـظَّ للعقـل والذّكـاء وحـدّة الفطنة، وقوّة الفكر، وتمثيل الاعتبار والمقايَسة، وإنعام النّظر والتـأمّل فـي اسـتدراك خبرٍ تقدّم زمانه بساعة، بل سبق وقتُه بلحظة؛ وإنما هي أمور تؤخـذ روايـةً وسـماعاً، وتُدرَك قراءةً وكتابةً، وقد رأوه -عليه السلام- وُلد بمكة في أمّـة أمّيـة، وبيـن قبـائلَ جاهليّة، فعرفوه طفلاً رضيعـاً، وناشـئاً ويافعـاً، وشـاهدوه غُلامـاً ومجتمِعـاً، وكَهـلاً ومحتنِكاً، يَدرُج بين أيديهم[٥]، ويتصرّف نُصب ألحـاظِهم، ويتكلّـم بمـا عرفـوه مـن ألفاظهم، وأنّ هذه أحوال تحجُزُ بينه وبين التّهمة، وتُباعده عن مواقع الظِّنّة، وتحقـق عند مَن له من العقل بُلغة، وفيه من التَّحصيل مُسْكة، أنه -عليـه الصـلاة والسـلام- عرف[٦] ذلك على حقّه، وأخبرَ عمّا علِمت الـرواةُ مـن غَيبـه، فإنمّـا تلقّـاهُ عـن اللـه وحياً، أو ألقاهُ المَلَكُ في رَوعِه نَفْثـاً، وذلـك علامـةُ النُّبـوّة التـي لا تُجْهَـل، وأمـارة

(١) في مطبوع «الثمار»: «مسيره».

(٢) في مطبوع «الثمار»: «وطئته».

(٣) انظر: ما تقدم (ص ٢٣-٢٤).

(٤) في مطبوع «الثمار»: «يمتحنون».

(٥) كذا في الأصل! وصوابه: «أبياتهم»؛ كما في «الثمار».

(٦) قبلها في الأصل: «إن»، ولا وجود لها في مطبوع «الثمار»، فحذفتها!

الرِّسالة التي لا تُنكر، فزوَّدَتْهم يهودُ يَثرب بمسائل[١]؛ منها:

خبرُ رجلٍ صار[٢] مُشرِّقاً حتى بلغ مَطلع الشَّمس، حيث تَبزُغ، وتوجَّه مُغرِّباً حتى بلغ مَغربها حيثُ تجبُ[٣] وتسقُط، هكذا ذكر الرُّواة، وإنما المراد بها مُنتهى العمارة في طرَفي الأرض.

وسألوه عن قصة يوسف، وعن فتيةٍ أَوَوْا إلى كَهفٍ فأُميتوا ثم أحيُوا، فأتاه الجواب من قبل الله -تعالى- في كل ذلك بما أقام به عَلَم صِدقهِ، وردّ الكائد بأخيَب ظنّه[٤].

وقد روى المفسِّرون والقُصَّاصُ في تأويل هذه الآيات أخباراً لم نجد في نقلها طائلاً، إذ كانت النَّفسُ لا تَثق بخبرهم، ولا تسكن إلى صحَّة نَقلِهم، وكان اختلافُهم يدلُّ على اختلاطهم، وهي على ذلك مشهورة يُمكن أخذُها عن قُربٍ.

وقد روى المحدِّثون عن النّبي ﷺ أنه قال: «لا أدري أذو القرنين كان نبياً أم لا[٥]».

---

(١) في الأصل: «مسائل»، والمثبت من «الثمار».

(٢) هكذا؛ ولعلها: «سار». (منه).

(٣) تجب من وجبت الشمس؛ أي: غربت. اهـ ذيل الأصل. (منه).

(٤) تقدم سبب النزول مع تخريجه في (الفصل الأول).

(٥) أخرجه أبو داود في «السنن» (رقم ٧٦٧٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٨٩ رقم ١٨٥٥٣)، والحنائي في «فوائده» (رقم ٢٨ - بتحقيقي) -ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٧ - ط. دار الفكر)-، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٦) -وعنه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٣٢٩)، وابن عبدالبر في «الجامع» (٢/ ٥٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١/ ٣-٤)-؛ جميعهم من طريق عبدالرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة رفعه، وزاد بعضهم عليه: «ولا أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا؟»، وفي أوله عند بعضهم زيادة: «لا أدري أتبَّع كان لعيناً أم لا؟».

وعزاه ابن كثير في (تفسير سورة الدخان) بعد الآية (٣٨) لعبدالرزاق، وهو ليس في «تفسيره» في طبعتيه.

وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين، ولا أعلم له علّة»، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. =

....

= وقال الدارقطني في «الغرائب» (٥/ ١٩٨ رقم ٥١٤٠ - «أطرافه» ط. الكتب العلمية): «تفرد معمر بن راشد عن ابن أبي ذئب عنه».

ونقل الحافظ ابن حجر في «النكت الظراف» عن الدارقطني: أن عبدالرزاق تفرد بوصله، وأن هشام بن يوسف رواه عن معمر، عن الزهري، عن النبي ﷺ، ولم يذكر بينهما أحداً.

قلت: أخرج رواية هشام: البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٥٣)، قال: «وقال لي عبدالله بن محمد: حدثنا هشام، قال: حدثنا معمر، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، أن رسول الله ﷺ: (فذكره)، وفيه: «أعزير»، بدل: «تُبَّعٌ»، وقال النخشبي في «تخريج فوائد الحنائي» عن رواية المرسل: «وهو الأصح».

قال: وقال عبدالرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

قال: والأول أصح، ولا يثبت هذا عن النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ قال: «**الحدود كفارة**».

قلت: قال الهيثمي: «يحتمل أنه ﷺ قاله في وقت لم يأته فيه العلم عن الله، ثم لما أتاه قال ما رويناه في حديث عبادة وغيره».

يعني قوله ﷺ: «... **ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارةٌ له**...» أخرجه الشيخان وغيرهما.

وقال ابن عساكر في «التاريخ» (١١/ ٥ - ط. دار الفكر) بعد أن ساق الحديث: «وهذا الشَّكُّ من النّبي ﷺ قبل أن يبين له أمره -أي: تُبَّع-، ثم أخبر أنه كان مسلماً، وذاك فيما أخبرنا...» وساق إسناده إلى سهل بن سعد -رضي الله عنه- مرفوعاً: «**لا تَسُبوا تُبَّعاً؛ فإنه قد كان أسلم**».

وكذا قال البيهقي -قبله-، وابن حجر في «الفتح» (١/ ٦٦)، والصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٩/ ١٣٥)، والسهيلي في «الروض الأُنف» (١/ ٣٦ - ط. دار الفكر).

وأخرجه أحمد (٥/ ٣٤٠) -ومن طريقه البغوي في «التفسير» (٤/ ١٥٣-٥٤)-، وابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص ٢٧٥)، والطبراني في «الكبير» (٦٠١٣) و«الأوسط» (٣٣١٤) عن ابن لهيعة: ثنا أبو زرعة، عمرو بن جابر، عن سهل بن سعد مرفوعاً، وأبو زرعة وابن لهيعة ضعيفان.

وأخرج البيهقي في «الكبرى» (٨/ ٣٢٩) الحديث من طريق آدم بن أبي إياس، عن ابن أبي ذئب، فوصله كما في رواية عبدالرزاق عن معمر، فكلاهما خالف هشاماً فَوصلاه وأرسله.

قال شيخنا الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (٦/ ٢٥١):

«فقد اتفق الثقتان -أي: آدم ومعمر- على وصله عن ابن أبي ذئب عن المقبري به، فإما أن يقال: ما اتفقا عليه أرجح مما تفرد به هشام من الإرسال، وإما أن يقال: كلٌّ صحيح، وابن أبي ذئب له سندان؛ أحدهما: عن المقبري عن أبي هريرة، والآخر: عن الزهري مرسلاً، وكلٌّ حفظ عنه ما سمع منه، وكلٌّ ثقة، والله أعلم». =

= وللحديث شواهد، انظرها في: «السلسلة الصحيحة» (رقم ٢٤٢٣).

أما (ذو القرنين) فالمشهور أنه ليس بنبيٍّ، وأنه رجلٌ صالح، كما صحّ عن عليٍّ، وعنه رواية شاذة أنه نبيٌّ! وسيأتي تحقيق هذا قريباً -إن شاء الله تعالى-.

وأسند ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص ٥٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٩٩) عن الحسن قوله: «كان ذو القرنين ملكاً، وكان رجلاً صالحاً».

وصح عن جمع من السلف أنه مؤمن ملَك الأرض، وسيأتي ذلك عند المصنف قريباً، فانظره والتعليق عليه.

وورد حديث -إن صحّ، ففيه الفيصل وهو لم يثبت- أخرجه ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص ٥٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٧٩ رقم ٩٧٦) عن خالد بن معدان: أن رسول الله ﷺ سئل عن ذي القرنين؟ فقال: «ملَك مسح الأرض من تحتها بالأسباب».

ومثله في «تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢٣٨٢ رقم ١٢٩٣٨) في القسم غير المسند عن الأحوص بن حكيم عن أبيه، وعزاه في «الدر» (٥/ ٤٣٦) له ولابن المنذر، وعلقه ابن الأنباري في «الأضداد» (٣٥٣) عن ابن معدان.

وإسناده ضعيف، وهو مرسل، فليس فيه حجة.

وأخرج الشيرازي في «الألقاب» عن جبير بن نصير: أن أحباراً من اليهود قالوا للنّبي ﷺ: حدثنا عن ذي القرنين إن كان نبيّاً؟ فقال: «هو ملَك مسح الأرض بالأسباب».

والظاهر أن (ملَك) في هذه النصوص بفتح اللام. أفاده ابن عطية في «المحرر» (٣/ ٥٣٨).

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، قال: «ذو القرنين نبيّ» -كذا في «الدر» (٥/ ٤٣٦)-، ولا إخاله يصح.

وأخرج ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٧ - ط. دار الفكر) عن عبدالله بن عمرو، قال: «ذو القرنين نبيٌّ»! وإسناده ضعيف، فيه جابر الجعفي.

هذا ما وقفت عليه من القول بنبوّته! وهو قول «ضعيف»، قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٨)، وسيأتي قريباً عند المصنف من قول محمد بن علي بن الحسين: أنّه نبيٌّ مَلِك!

وأطلق الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» (٦/ ١٩٠) الخلاف في نبوّته، وقال في كتابه «عرائس المجالس» (ص ٣٢٤): «والصحيح -إن شاء الله- أنه كان نبيّاً غير مرسل»!

ولعل مستند القائلين به قولٌ لعليٍّ، يأتي تخريجه والتنبيه على ما فيه -أيضاً-.

وذكر نبوّته المطهر المقدسي في «البدء والتاريخ» (٣/ ٥)، وذكر في (٣/ ٧٨-٨١) الأقوال=

....

=بالتفصيل، واستوعب ما ذكره المصنف آنفاً، وما سياتي من سبب تلقيبه بذلك.

وقال الخازن في «لبابه» (٤/ ٢٢٩):

«والأصح الذي عليه الأكثرون أنه كان ملكاً صالحاً عادلاً».

وذكر السيوطي في أول «حسن المحاضرة» (١/ ٥٣) تحت (ذكر من دخل مصر من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-)، قال: «وعدّ الكِندي وغيره فيمن دخلها من الصّدّيقين: الخضر وذا القرنين، وقد قيل بنبوّتهما»، ثم قال: «والقول بنبوّة ذي القرنين، أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن عبدالله بن عمرو».

أما ابن الكندي (ت القرن الرابع الهجري)، فقد ترجم لذي القرنين في كتابه «فضائل مصر المحروسة» (ص ١٥-١٧) تحت عنوان (ذكر من أظهرته مصر من الحكماء)، وقال:

«ومنهم: الإسكندر ذو القرنين، من أهل قرية نحو الإسكندرية يقال لها لوبية، ملك الأرض بأسرها، وذكره الله في كتابه العزيز باسمه، فقال -تعالى-: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِّنْهُ ذِكْراً . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً . فَأَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا ان تَتَّخِذَ فِيهِم حُسْناً﴾ [الكهف: ٨٣-٨٦].

وبنى سد يأجوج ومأجوج، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدونَ فِي الأَرضِ فَهَل نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم سَدّاً . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَل بَيْنَكُم وَبَيْنَهُمْ رَدْماً . ءاتوني زُبَرَ الحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٤-٩٦].

وبنى الإسكندرية ويروى أنها: ﴿إِرَمَ ذاتِ العِمَادِ . الَّتِي لَم يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ﴾ [الفجر: ٧-٨].

وبنى الإسكندرية ببلاد الخزَر، وبنى مدينة سمرقند، وبنى الأبراج والمناظر ببلد البسكس على بحيرة طابس في آخر العمارة التي بالشمال، وفعل بالعراق الأفاعيل العجيبة غضباً لما فعل بختنصر بمصر، فقتل دارا بن دارا، وخرب العراق.

وكتب إلى معلّمه بمصر أرسطاطاليس يشاوره في قتل من بقي منهم، فكتب إليه: لا تفعل، ولكن ولِّ كلَّ رئيسٍ منهم ناحيةً مِنْ بلَدِه، فإنهم يتنافسون في الرياسة، ولا يجمعُهم ملك أبداً، ففعل، فلبثوا على ذلك زماناً طويلاً، فلما قام (أردشير) واجتمعوا عليه، بعد تعب عظيم وحروب ومشقة، قال: إن كلمة فَرَّقَتْنا أربع مئة سنة، لكلمة مشؤومة».

وقال ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (٣٨): حدثني شيخ من أهل مصر، قال: كان ذو القرنين من أهل لوبية، كورة من كور مصر الغربية، وقال ابن لهيعة: وأهلها روم، ونقله السيوطي في «حسن المحاضرة» (١/ ٥٤).

وذكر (ذا القرنين) جماعةٌ ممن ألفوا في مصر؛ منهم: المقريزي في «خططه» (١/ ١٥٣)، وسبق نقل المصنف كلامه بتمامه. =

....

= وذكر محمد بن عبدالله الحسيني الشهير بـ(كبريت) (ت ١٠٧٠هـ) في رحلته «رحلة الشتاء والصيف» (ص ٧٢) كلام السيوطي فيمن دخل مصر من الأنبياء، وذكر من بينهم (ذا القرنين)، ونظم كلامه بأبيات، تنظر فيه.

وذكره -أيضاً-: ابن ظهيرة في «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة» (ص ١٥١)، وزعم -تَبَعاً لشيخه المقريزي في «السلوك» (١/ ٣٢)-: أن ميلاد ذي القرنين كان بمصر، وله -أيضاً- ذكر في «لطائف أخبار الأُوَل فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول» (ص ٤٧)، ونقل صاحبه عن عكرمة قوله: «كان ذو القرنين نبيّاً».

وقال البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٥٩٣) بعد ذكره الخلافَ فيه: هل هو نبيّ أم لا؟ قال: «والأكثرون على أنه كان ملكاً عادلاً صالحاً»، وهكذا قال ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٨١-٣٨٦) بعد أن سرد الأقوال والخلافَ، قال: «وقيل من الملوك، وعليه الأكثر»، وأجمل القول فيه في «نزهة الألباب في الألقاب» (١/ ٣٠١ رقم ١٢٠٣) بقوله: «على أقوال بسطتها في «شرح البخاري»».

بقي التنويه على أنه قد أخرج ابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٣٨٢ رقم ١٢٩٣٩) -ولم يعزه في «الدر» (٥/ ٤٣٦) إلاّ له- عن ابن زيد، قال: «كان نذير واحد بلغ ما بين المشرق والمغرب، ذو القرنين، بلغ السدين، وكان نذيراً، ولم أسمع بحق أنه كان نبيّاً».

وأخرج -أيضاً- (٧/ ٢٣٨٢) -ولم يعزه في «الدر» (٥/ ٤٣٩) إلا له -أيضاً- عن بكر بن مضر: «أن هشام بن عبدالملك سأله عن ذي القرنين: أكان نبياً؟ فقال: لا، ولكنه إنما أعطي بأربع خصال كُنّ فيه: كان إذا قدر عفا، وإذا وعد وفّى، وإذا حدّث صدق، ولا يجمع اليوم لغد».

ووقع هذا الكلام في مطبوع «التاريخ» لعبدالملك منسوباً لعلي -رضي الله عنه-!

وأخرج -أيضاً- وأبو الشيخ في «العظمة»، وأحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه: أنه سئل عن ذي القرنين؟ فقال: «لم يوحَ إليه، وكان مَلِكاً» كذا في «الدر» (٥/ ٤٣٨).

والذي يتأمل النصوص الواردة عنه، يجد الجامع بينها: أنه كان رجلاً طوّافاً، صالحاً، حكيماً -وما سيأتي عند المصنف من أخبار يدور في هذا الفلك-، وقيل: إن الناس جعلوه مَلكاً عليهم لذلك، كما تراه في «مختار الحكم ومحاسن الكلم» (٢٢٤) لأبي الوفاء المبشر بن فاتك، وهو كتاب توسع فيه بأخبار وحكايات الحكماء، ولذي القرنين ذكر واسع فيه، وفيه نقل كثير من حِكَمه، وذكره منتشر فيه، وانظره -على وجه الخصوص- (ص ٢٢٢-٢٥١).

والحكم المأثورة عنه كثيرة، أحيل على غير مراجع توثيق النقول التي عند المصنف -وفيها نصيب حسن من هذا الباب-: «ذكر الموت» (رقم ١٣٦، ١٣٧ - بتجميعي) و«القبور» (رقم ١٥٣، ١٥٤ - بتحقيقي) كلاهما لابن أبي الدنيا، و«زوائد زهد ابن المبارك» (رقم ٢٠٩)=

....

=لنعيم بن حماد، و«التاريخ» (ص ٥٩) لعبدالملك بن حبيب، و«بغية الطلب» (١/ ٤٥٠) لابن العديم، و«الجليس الصالح الكافي» للمعافى (٤/ ٥٤-٥٥)، و«المجالسة» (٢/ ٣٠٤ رقم ٤٦٠ و٤/ ٤٤-٤٦ رقم ١٢٠١ - بتحقيقي)، و«تاريخ ابن عساكر» (١٧/ ٣٥٢، ٣٦٠)، و«الذهب المسبوك» للحميدي (رقم ١، ٢، ٣ - بتحقيقي)، و«محاضرة الأبرار» (٢/ ٢٣٣-٢٣٤) لابن عربي الصوفي، و«سراج الملوك» (١/ ٤٦-٤٧) للطرطوشي.

قال أبو عبيدة: والحق الذي أراه بعد الذي تقدّم -على طوله-: أن الخوض في مسألة نبوّة (ذي القرنين) تكلّف لا داعي له، بعد الذي صح عن النّبي ﷺ من الحديث، ولعل سبب الإختلاف في ذلك: قوله -تعالى-: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِم حُسْناً﴾ [الكهف: ٨٣].

استدل من ذهب إلى أن ذا القرنين كان نبيّاً بهذا، قال: لأن أمر الله -تعالى- لا يعلم إلا بالوحي، والوحي لا يجوز إلا على الأنبياء، وقال الكلبي: إن الله -تعالى- ألهمه ولم يوحِ إليه، وقال ابن الأنباري: إن كان ذو القرنين نبياً، فإن الله -تعالى- قال له كما يقول للأنبياء، إما بتكليم أو بوحي، وإن لم يكن نبيّاً فإن معنى «قلنا» ألهمْنا؛ لأن الإلهام ينوب عن الوحي، قال -سبحانه-: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص: ٧]؛ أي: وألهمناها.

واستدل الرازي عليه بقوله -تعالى-: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الكهف: ٨٤]، قال: «ومن جملة الأشياء: النبوّة، وبقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤]، قال: والأَوْلى حملُه على التمكين في الدين، والتمكين الكامل في الدين هو النبوة».

قال القاسمي في «محاسن التأويل» (١١/ ٩٣-٩٤) بعد أن ساق أدلة من قال بنبوته، ومن رد ذلك بأن الله خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء، قال:

«فهو -أي: التأويل الأخير- عدول عن الظاهر، ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته؛ لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تنصيص وتخصيص، وأما تعمق الجَرْيِ وراء العمومات لاستفادة مثل ذلك، فغير مقنع».

قال أبو عبيدة: المركوز في حسّ المؤمنين، والقائم في تصوّراتهم من خلال قراءتهم لكتاب الله، أنه رجل صالح، هيأ الله له ما لم يُهيِّء لغيره، وظفرتُ بخبر طريف يؤكد هذا، وأن المسلمين -في عصور الخير- لم يعاملوه على أنه نبيّ! أورد المطهر بن طاهر المقدسي في كتابه «البدء والتاريخ» (٦/ ٢٢-٢٣) عند كلامه على المتوكل ما يلي:

«وفي أيامه ظهر رجل بسرَّ من رأى يقال له: (محمود بن الفرج النيسابوري)، وزعم أنه (ذو القرنين)! ومعه مصحف، قد ألّف كلاماً، وتبعه على ذلك سبعة عشر رجلاً، فقيل له: كيف ذهبت إلى (ذي القرنين) من بين الناس؟ قال: لأنّ رجلين ببغداد يدعيان النبوّة، فكرهتُ أن أكون ثالثهما، فصُفِع صفيعات،=

ورووا عنه أنه [قال][(١)]:

«مَلك الأرض أربعة: مُؤمِنان وكافِران؛ فأمّا المؤمِنان: فَسُليمان وذُو القرنيـنِ، وأمّا الكافِران: فَنُمرود وبُخت نَصَّر»[(٢)].

=وتاب هو وأصحابه».

وانظر: «تفسير الرازي» (٢١/ ١٤٠-١٤١)، و«مجمع البيـان» (٦/ ٤٣٧)، و«لبـاب التـأويل» (٤/ ٢٢٩)، و«روح المعاني» (١٦/ ٣٠-٣١)، وفيه: «واستدل بعض من قال بنبوّته بالآية على ذلك، وليس بشيء، كما لا يخفى».

(١) سقطت من الأصل، وأثبته من «الثمار».

(٢) أسنده بهذا اللفظ: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٦، ٣٣٧) -بإسنادين متفرقين- عن سفيان الثوري، وسعيد بن بشير قولهما، وهو الأشبه.

وأخرجه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٦/ ١٩٠) عن مجاهد قوله باللفظ نفسه، وعزاه ابـن حجـر في «الفتح» (٦/ ٣٨٥)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٥٧) إلى الزبير بن بكار في «النسـب» -وأوردا إسناده- من قول سفيان، وعزاه ابن حجر إلى وكيع في «تفسيره» من قول مجاهد، وهو عنـد ابـن أبـي شـيبة في «مصنفه» في كتاب الفضائل (٧/ ٤٦٩)، وأنهاه الحاكم فـي «المسـتدرك» (٢/ ٥٨٩)، وابـن بشـران فـي «أماليه» -ومن طريقه ابن عسـاكر (١٧/ ٣٣٦)- بسـند ضعيـف عـن معاويـة، قـال: «ملـك الأرض أربعـة: سليمان بن داود النّبي، وذو القرنين، ورجل من أهل حُلوان، ورجل آخر، فقيل له: الخضر؟ قال: لا».

وأخرج أبو سعيد النقـاش فـي «فنـون العجـائب» (رقـم ٨٧ - بتحقيقـي) بسـند فيـه كـذاب، وهـو محمد بن السائب الكلبي، وابنه هشام، قال عنه الدارقطني وغـيره: مـتروك. انظـر لهمـا -علـى الـترتيب-: «الميزان» (٣/ ٥٥٦ و٤/ ٣٠٤) عن ابن عباس، قال:

«لم يملك الدنيا كلها إلا أربعة رهط: مؤمنان وكافران، وكان المؤمنـان: ذو القرنيـن، وسـليمان بـن داود -عليهما السلام-، والكافران: نمرود بن كنعان، الذي بنى المجدل بأرض بابل، والضحاك بن عدنـان، وتقول الأزد منهم...».

وسرد قصة طويلة جداً للضحّاك هذا، وهي على نهج (شـيوخ القَمْراء)، وأوردهـا -بطولهـا- أبـو حنيفة الدينوري في «الأخبار الطوال» (ص ١٠-١١).

ثم أسند النقاش (برقم ٨٨) خبراً طويلاً جداً عن (الضحاك) هـذا، مـداره علـى (صـاحب سـمر)؛ وهو: (شَرقيّ بن قُطامي)، الذي كان يقول عنه شعبة: «حماري وردائي للمساكين؛ إن لم يكُنْ شرقيٌّ كَـذبَ على عمر».

=

ورووا عن علي وقد سئل عن ذي القرنين؟ فقال: ذلك الملك الأمرط[١] بلغ قَرن الشمس من مَطلِعِهَا، وقرنها من مغرِبها[٢].

= وانظر له: «الكامل» لابن عدي (٤/ ١٣٥٢)، وأورد قصته ابن الجوزي في «المنتظم» (١/ ١٧١)، وقال: لا أراه ثابتاً، وأومأ إلى القصة ابن قتيبة في «المعارف» (ص ٦١٨)، ونحوها في «الأخبار الطوال» -أيضاً-، ولم أظفر به مرفوعاً إلا معزوّاً لابن الجوزي في «تاريخه»، كما في «عقد الدرر» للسلمي (رقم ١٩، ٣٢٧)، و«البرهان في علامات مهدي آخر الزمان» (٢/ ٥٥٩ رقم ٤٦)، وهو ليس في طبعتَي «المنتظم».

(تنبيه): في معنى (شيوخ القَمْراء): أسند الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص ٣٠٦) عن الأعمش، قال: «إذا رأيت الشيخ ولم يكتب الحديث، فاصفعه، فإنه من شيوخ القَمْراء»، قلت (سهل بن إسماعيل) لابن عقبة (أحد رواة الأثر): ما معنى شيوخ القَمْراء؟ قال: شيوخ دهريون، يجتمعون في ليالي القمر، فيتحدثون بأيام الخلفاء، ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة.

(١) الأمرط؛ أي: صاحب المِرط -بكسر الميم-: واحد المروط؛ وهي: أكسية من صوف أو خز، كان يؤتزر بها. اهـ من ذيل الأصل. (منه).

قال أبو عبيدة: المذكور كلام أبي زيد، نقله عنه الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٣/ ٣٤٥).

(٢) قال الجاحظ في «الحيوان» (١/ ١٨٨): «وروى المختار بن أبي عبيد أن علياً كان إذا ذكر ذا القرنين، قال: ذلك الملك الأمرط، وسيأتي في التعليق على (ص ١١٤) أنه ثبت عن علي نفي كونه ملكاً، وقد ورد عن علي بمعناه.

أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٥٦٣ رقم ١١٩٦٤)، وعبدالرزاق في «التفسير» (٢/ ٤١٠)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٧٣٧)، وابن شاهين في «جزء من حديثه عن شيوخه» (ص ٤٠ رقم ٢٨)، والضياء في «المختارة» (٢/ ٣٢ رقم ٤٠٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٣ - ط. دار الفكر) عن سماك عن حبيب بن حِمَاز، قال: «قيل لعلي: كيف بلغ ذو القرنين المشرق والمغرب؟ قال: «سُخِّر له السَّحاب، وبُسط له النور، ومدّ له الأسباب»، ثم قال: «أزيدك»؟ قال: حسبي».

وإسناده ضعيف، حبيب بن حِماز -وتحرف في مطبوع «تفسير عبدالرزاق» إلى «خماش»! فليصحح- ترجمه البخاري في «تاريخه» (٢/ ٣١٥) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، ووثقه ابن حبان (٤/ ١٣٩) والعجلي، وله ترجمة في «طبقات ابن سعد» (٦/ ٢٣٢)، و«الإكمال» (٢/ ٥٤٧)، و«الأنساب» (الحِمَازي).

وقال الدوري في «تاريخه» (٣/ ٢٩٨ رقم ١٤٠٨): «قد سمع سماك من حبيب بن حماز، وسمع حبيب بن حِماز من علي بن أبي طالب». =

وعن عمر -رضي الله عنه-: أنه سمع رجلاً ينادي: يا ذا القرنين! فقال: «فرغتم من أسماء الأنبياء، وارتفعتم إلى أسماء الملائكة»[1]!

= وأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٤٨-١٤٤٩ رقم ٩٦١) من طريق سماك عن شيخ من بني أسد، قال: ...» وساقه.

والشيخ هو حبيب، والله أعلم.

وورد عن علي قول آخر، يأتي في التعليق على (ص ١١٤-١١٧)، وورد نحو ما عند المصنف عن غير علي -رضي الله عنه-أيضاً-.

أخرج في «العظمة» (٤/ ١٤٥٠) عن أبي العالية، قال: «إنما سمّي ذو القرنين؛ لأنه قرن بين طلوع الشمس ومغربها».

وأورده السيوطي في «الدر» (٤/ ٢٤٢ - ط. القديمة، أو ٥/ ٤٣٩ - ط. دار الفكر)، وعزاه -أيضاً- إلى ابن المنذر، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٥٥)، وعزاه إلى الزهري، ووصفه بأنه أشبه من غيره من الأقوال.

قلت: ومقولة الزهري، أخرجها بلفظ المصنف: ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص ٥٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٦)، وعزاها ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٨٣) إلى الزبير بن بكار في «النسب» -وهي غير موجودة في القطعة المطبوعة فيه-، وأورد إسنادها ابن حجر، وأخرجها من طريقه الدارقطني في «المؤتلف»، وساق إسنادها الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣٠٩)، وهي ليست في القسم المطبوع منه. وانظر: «الدر المنثور» (٥/ ٤٣٩).

(تنبيه): أورد صاحب «الكشاف» (٢/ ٤٠٠)، وغيره: عن النّبي ﷺ قال: **«سُمي ذا القرنين؛ لأنه طاف قرني الدنيا»** .

قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣٠٩) عنه: «غريب».

قلت: وهذا اصطلاح له فيما لم يظفر به، ولذا قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (٤/ ١٠٤ رقم ٣٢٧ - آخر «الكشاف»): «لم أجده مرفوعاً».

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص ٥٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٧٩-١٤٨٠ رقم ٩٧٦) من طريق خالد بن معدان عن عمر، **وإسناده منقطع**.

وعلّقه أبو جعفر النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٢٨٤-٢٨٥)، وابن الأنباري في «الأضداد» (٣٥٣)، وعزاه له السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٣٦)، وزاد: «ابن المنذر وابن أبي حاتم»، وأخطأ ابن عطية فنسبه في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٨) لعلي -رضي الله عنه-! ورده معه -كعادته- القرطبي في=

فتناوله قوم وزعموا أنَّ ذا القرنين كان من نتاج ما بين الملائكة والإنس، وأن أباه مَلَك (عِبرى)[1]، أهبط إلى الأرض، فسُلخ جناحه، وأعيد في صورة ولد

="تفسيره" (١١/ ٤٦)!

والقول بأن (ذا القرنين) مَلَك! لم يثبت عن عمر، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٥٥) قبله: «وأغرب من قال مَلكاً من الملائكة»، وورد في حديث مرسل، وإسناده ضعيف، مضى التنبيه عليه في التعليق على (ص ٩٩)، فلا متعلَّق للقائلين به.

ويعجبني هنا قول الآلوسي في «روح المعاني» (١٦/ ٢٤) على إثر هذا الأثر: «وهذا قول غريب، بل لا يكاد يصح، والخبر على فرض صحته ليس نصاً في ذلك، إذ يحتمل -ولو على بُعد- أن يكون المراد: أن هذا الاسم من أسماء الملائكة -عليهم السلام- فلا تسمّوا به أنتم، وإن تسمّى به بعض مَنْ قبلكم من الناس» انتهى.

وعليه؛ فيكون هذا الأثر قد صدر من بدوي لا يَتصوَّرُ قيام أفرادٍ من جنس البشر بإقامة مثل تلك الإنجازات الضخمة، بالقدرات الإنسانية وحدَها، وحتى يتقبلَ العقلُ ما يقالُ أو يشاهد، فقام قُصّاص بملإ الفجوة النفسية، والهوة الثقافية بردم من (المعجزات)!! منها هذه، ومنها -أيضاً-: ما مضى من خبر اجتماع (ذي القرنين) مع (الخضر)، وفيه: أنه كان له (خليل من الملائكة)! وهو مطروح لا يلتفت إليه!

واخترعَ (القصاصُ) -أيضاً- أخْباراً واهيةً فيها ذكرٌ لذي القرنين مع الملائكة، وقفْتُ على غير واحد منها، ولا فائدةَ من سياقها، ولكني أحيلُ على مظانّها: «ذم الدنيا» لابن أبي الدنيا (رقم ١٧٩)، و«تاريخ صنعاء» (ص ٤٠٦)، و«المجالسة» للدينوري (٤/ ١٩٢-١٩٣ رقم ١٣٤٠ - بتحقيقي)، و«تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٤٢-٣٤٣، ٣٢٥).

مع التنويه إلى ما ورد ضمن لقاء (ذي القرنين) مع (الخضر)!

وهنالك خبر في الباب نفسِه أوردَهُ صاحب «الدر» (٥/ ٤٤٧-٤٤٨)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة.

وانظر -غير مأمور-: «في طريق الميثولوجيا عند العرب» (ص ٢٣٠) لمحمود سليم الحوت، نشر دار النهار، بيروت، سنة ١٩٨٢م، و«الأسطورة والتراث» (ص ٢٢٢) لسيد القمي، نشر دار سينا، القاهرة، سنة ١٩٩٢م.

(١) كذا في الأصل بالباء الموحدة في الموطنين، وكذا في «فقه اللغة» (٨٢ - ط. الحلبي) دون إشارة إلى اختلاف النسخ.

وفي «ثمار القلوب» (ص ٢٨٣ - ط. محمد أبو الفضل إبراهيم): «عبرى» -بالموحدة-،=

ابن آدم، فنكح امرأة من الآدميات تدعى (قِبرى)، فأولدها ذا القرنين، وقد ادَّعوا مثل ذلك في هاروت وماروت[1]، ....

=و«قيرى» -بالقاف والياء آخر الحروف-.

وفي مطبوع «الحيوان» (١/ ١٨٨) ما نصه: «... وكذلك كان (ذو القرنين)، كانت أمّه (فيرى) -بالفاء والياء آخر الحروف- آدميّة، وأبوه (عبرى) -بالباء الموحدة- من الملائكة، ولذلك لما سمع عمر...» وأورد خبره.

ثم أعادهُ في (٤/ ٦٩) هكذا: «وقالوا في... وفي قيرى وعيرى -كلاهما بالياء آخر الحروف- أبوَي ذي القرنين» وكذا وقعت في «رسائل الجاحظ» (٩٧ - ط. ساسي)!

(١) زعموا أن هاروت وماروت مَلَكان مثّلا بَشَرَيْن، ورُكِّب فيهما الشهوة، فتعرّضا لامرأة يقال لها: (الزُّهَرة)، فحملتهما على المعاصي والشرك!

وورد هذا على أنه حديث مرفوع: قال الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ١٣٢):

حدثنا يحيى بن أبي بُكير، حدثنا زهير بن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع مولى عبدالله بن عمر، عن عبدالله بن عمر؛ أنّه سمع نبيَّ الله ﷺ يقول:

«إنَّ آدمَ ﷺ لمّا أهبَطَهُ الله -تعالى- إلى الأرض، قالتِ الملائِكَةُ: أي ربِّ! ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفسِدُ فِيهَا وَيَسفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بحمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؟ قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قالوا: ربَّنا نحنُ أطوعُ لك من بَني آدم، قال الله -تعالى- للملائِكةِ: هَلُمُّوا -أي: اختاروا- مَلَكين من الملائكةِ حتّى يُهبط بهما إلى الأرض، فننظُر كيف يَعمَلان؟ قالوا: ربَّنا هاروت وماروت.

فأُهبطا إلى الأرض، ومُثّلت لهما الزُّهَرة امرأةً من أحسن البَشر، فجاءَتهما، فسألاها -أي: راوداها- نفسَها، فقالت: لا والله، حتّى تكلّما بهذه الكلمة من الإشراك، فقالا: والله لا نُشرك بالله أبداً، فذهَبت عنهما.

ثمَّ رَجَعَت بصبيّ تحمِلهُ، فسألاها نفسَها، فقالت: لا واللهِ حتى تقتلا هذا الصبيَّ، فقالا: والله لا نقتُلهُ أبداً، فذهَبَت.

ثمَّ رَجعت بقدح خَمرٍ، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تَشربا هذا الخمر، فَشربا، فسكرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبيّ.

فلمّا أفاقا، قالت المرأة: واللهِ ما تَركتما شيئاً ممّا أبيتُماهُ عليَّ إلاّ قد فعلتُما حين سَكِرتُما.

فَخُيِّرا بينَ عَذابِ الدُّنْيا والآخِرَة، فاختارا عَذابَ الدُّنيا».

وأخرجه عبدُ بنُ حُميد في «المنتخب» (٧٨٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٨٦-=

....

=«الإحسان»)، والبزار في «مسنده» (رقم ٢٩٣٨- «زوائده»)، وابن السُّني في «عمل اليوم والليلة» (٦٥١)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (رقم ٢٢٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٤-٥) من طريق زهير بن محمد، به.

وذكره ابن كثير في «التفسير» (١/ ١٣٨) من رواية أحمد، وقال:

«وهكذا رواه أبو حاتم بن حِبَّان في «صحيحه» عن الحسن بن سفيان، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن أبي بُكَير، به.

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات من رجال «الصحيحين»؛ إلاّ موسى بن جبير هذا، وهو الأنصاري السَّلَميّ مولاهم المديني الحذَّاء».

ثم ذكر أشياخه، ومن رووا عنه، ثم قال:

«وذكره ابن أبي حاتم في كتاب «الجرح والتعديل»، ولم يحكِ فيه شيئاً مِن هذا ولا هذا، فهو مستور الحال، وقد تفرَّد به عن نافع عن ابن عمر عن النّبي ﷺ».

ثم ذكر متابعاً له من وجه آخر عن نافع؛ من رواية ابن مردويه: حدثنا دعلج بن أحمد، حدثنا هشام بن علي بن هشام، حدثنا عبدالله بن رجاء، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا موسى بن سرجس، عن نافع، عن ابن عمر سمع النّبي ﷺ يقول: ... فذكره بطوله.

ثم ذكر نحواً من هذه القصة من رواية الطبري في «جامع البيان» -وهي فيه برقم (١٦٨٨)-: حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين -وهو: سنيد بن داود صاحب «التفسير»، وهو عند الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٤٢-٤٣) من طريقه-، حدثنا الفرج بن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن نافع، عن ابن عمر، عن النّبي ﷺ، ثم قال:

«وهذان -أيضاً- غريبان جدّاً، وأقرب ما يكون في هذا: أنه من رواية عبدالله بن عمر عن كعب الأحبار، لا عن النّبي ﷺ؛ كما قال عبدالرزاق في «تفسيره»: عن الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب الأحبار».

ثم قال: «رواه ابن جرير من طريقين عن عبدالرزاق، به».

قلت: في «جامع البيان» برقم (١٦٨٤): حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى، قالا: حدثنا مؤمل بن إسماعيل (ح) وحدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبدالرزاق -وهو في «تفسيره» (١/ ٥٣)-؛ جميعاً عن الثوري، به.

ثم قال: «ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن عصام، عن مؤمل، عن سفيان الثوري، به. ورواه ابن جرير -أيضاً-: حدثني المثنى، قال: حدثنا معلى بن أسد، قال: حدثنا عبدالعزيز بن المختار، عن موسى بن=

....

=عقبة، قال: حدثني سالم؛ أنه سمع عبدالله يحدث عن كعب الأحبار: ... (فذكره)».

وهو في «جامع البيان» برقم (١٦٨٥)، و«العقوبات» لابن أبي الدنيا (رقم ٢٢٤)، ثم قال:

«فهذا أصح وأثبت إلى عبدالله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل، والله أعلم» انتهى.

وموسى بن جبير راوي هذا الحديث عن نافع: هو الأنصاري المدني الحذّاء، مولى بني سَلِمَة، ذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال: «كان يخطىء ويخالف»، وقال ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٣/ ٢٥٧ رقم ٩٩٩): «لا يُعرف حاله».

واغتر الهيثمي بتوثيق ابن حبان! فقال في «المجمع» (٦/ ٢١٤) بعد ما عزى الحديث لأحمد: «ورجاله رجال الصحيح؛ غير موسى بن جبير، وهو ثقة!!».

ولو أن ابن حبان أورده في كتابه ساكتاً عليه -كما هو غالب عادته- لما جاز الاعتماد عليه؛ لما عُرف عنه من التساهل في التوثيق، فكيف وهو قد وصفه بقوله: «يخطئ ويخالف»؟! وليت شعري؛ من كان هذا وصفه؛ فكيف يكون ثقة؟! أفاده شيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٠).

وذكره البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ١١٩٣)، ولم يذكر فيه جرحاً.

ثم إن الراوي عنه زهير بن محمد، وإن كان من رجال «الصحيحين»؛ ففي حفظه كلامٌ كثير، ضعَّفه من أجله جماعة، وقال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٢/ ٥٩٠):

«محلُّه الصِّدق، وفي حفظه سوء، وكان حديثُه بالشّام أنكرَ من حديثه بالعراق لسوء حفظه، فما حدَّث من كتبه؛ فهو صالح، وما حدَّث من حفظه؛ ففيه أغاليط».

ومن أين لنا أن نعلم إذا كان حدّث بهذا الحديث من كتابه أو من حفظه؟! وقال البزار عَقِبَه: «رواه بعضهم عن نافع عن ابن عمر موقوفاً، وإنما أتي رفعُ هذا -عندي- من زهير؛ لأنه لم يكن بالحافظ».

ففي هذه الحالة يُتوقّف عن قبول حديثه، إن سلم من شيخه المستور على حدّ تعبير الحافظ ابن حجر.

أما رواية ابن مردويه؛ ففيها عبدالله بن رجاء الغُداني، وهو وإن كان صدوقاً ومن شيوخ البخاري؛ إلا أنه كان كثير الغلط والتصحيف؛ كما قال ابن معين، وعمرو بن علي الفلاس.

وسعيد بن سلمة بن أبي الحسام، ترجمه البخاري (٣/ ١٦٠٠)، وضعفه النسائي، وقال أبو حاتم: «سألت ابن معين عنه، فلم يعرفه حق معرفته».

وموسى بن سَرجس، ترجمه البخاري (٧/ ١٢١٣)، وهو لا يُعرف حاله.

وقد ذكر هذا الحديث -أيضاً- الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٦٨)، وقال: =

....

= «رواه أحمد، والبزار، ورجاله رجال الصحيح؛ خلا موسى بن جبير، وهو ثقة».

وكذلك ذكره في (٦/ ٣١٣ و٣١٤) من «المجمع».

وذكره الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٢٥)، وقال: «وقصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن من حديث ابن عمر في «مسند أحمد»، وأطنب الطبري في إيراد طرقها، بحيث يُقضَى بمجموعها على أن للقصة أصلاً؛ خلافاً لمن زعم بطلانها؛ كعياض ومن تبعه».

وذكره في «القول المسدد» (٤٠-٤١)، ثم قال:

«أورده ابن الجوزي من طريق الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح، عن نافع، وقال: لا يصح، والفرج بن فضالة ضعفه يحيى، وقال ابن حبان: يقلب الأسانيد، ويلزق المتون الواهية بالأسانيد الصحيحة».

ثم قال ابن حجر: «وله طرق كثيرة، جمعتها في جزء مفرد يكاد الواقف عليه أن يقطع بوقوع هذه القصة؛ لكثرة الطرق الواردة فيها، وقوة مخارج أكثرها» انتهى.

قلت: تعدُّدُ الطرق الواردة في هذه الرواية لا يفيد؛ لأنها كلها ضعيفة جدّاً، فلا تقوى بمجموعها في مثل هذا المطلب، وقد بيّنْتُ ذلك في تعليقي على «النكت البديعات على الموضوعات» للسيوطي، الحديث قبل الأخير منه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وتعقبَ الشيخُ أحمد شاكر -رحمه الله- في تعليقه على «المسند» الحافظَ ابنَ حجر، فقال: «أما هذا الذي جزم به الحافظ بصحة وقوع هذه القصة لكثرة طرقها وقوة مخارج أكثرها، فلا؛ فإنها كلها طرق معلولة أو واهية، بالإضافة إلى مخالفتها الواضحة للعقل، لا من جهة عصمة الملائكة القطعية فقط، بل من ناحية أن الكوكب الذي تراه صغيراً في عين الناظر قد يكون حجمه أضعاف حجم الكُرة الأرضية بالآلاف المؤلّفة من الأضعاف، فأنّى يكون جسم المرأة الصغير إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة».

وقد رواه الحاكم بسياق آخر في «المستدرك» (٤/ ٦٠٧ و٦٠٨) من طريق يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر، وصححه.

وأنكر عليه الذهبي، وقال عن يحيى هذا:

«قال النسائي: متروك، وقال أبو حاتم: منكر الحديث».

وأخرجه ابن السنّي في «عمل اليوم والليلة» (٦٤٨)، وابن منده في «تفسيره»، وابن راهويه -كما في «إتحاف المهرة بزوائد المسانيد العشرة» (٤/ ق ٦٦/ أ)، و«الدر المنثور» (١/ ٩٧)- من حديث علي بن أبي طالب مختصراً بلفظ:

«لَعن اللهُ الزُّهَرَةَ؛ فإنّها هي التي فَتنت المَلَكين هاروت وماروت». =

....

= وهو حديث موضوع، آفته جابر بن زيد الجعفي، وهو متهم بالكذب، وكان يؤمن برجعة علي، ويقول: إنه دابة الأرض المذكورة في القرآن!! قاله شيخنا إمام العصر الألباني في «السلسلة الضعيفة» (رقم ٩١٣).

والخلاصة: إن هذه القصة من الإسرائيليات التي لا يصح رفعها إلى النّبي ﷺ، وقد استنكرها جماعة من الحفّاظ المتقدمين، والعلماء المتأخرين:

فقال أبو حاتم الرازي -كما في «علل الحديث» (٢/ ٦٩-٧٠) لابنه-: «هذا حديث منكر».

وروى حَنبل الحديث من طريق أحمد، ثم قال:

«قال أبو عبدالله -يعني: الإمام أحمد-: هذا منكر، وإنما يُروى عن كعب».

وكذا قال الحافظ ابن كثير، وعلق على كلامه الشيخ رشيد رضا -رحمه الله- بقوله:

«من المحقّق أن هذه القصة لم تُذكر في كتبهم المقدسة، فإن لم تكن وضعت في زمن روايتها؛ فهي من كتبهم الخرافية، ورحم الله ابن كثير الذي بيّن لنا أن الحكاية خرافة إسرائيلية، وأن الحديث المرفوع لا يثبت».

وقال شيخُنا محدث الديار الشّاميّة محمد ناصر الدين الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (رقم ١٧٠): «باطل مرفوعاً».

وأسهب في بيان ذلك، ثم قال -رحمه الله تعالى- :

«قلت: وممّا يؤيّد بطلان رفع الحديث من طريق ابن عمر: أنّ سعيد بن جبير ومجاهداً روياه عن ابن عمر موقوفاً عليه -كما في «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٩٧-٩٨)-. وانظر: «اللآلىء المصنوعة» (١/ ١٦٠) له -أيضاً-.

وقال ابن كثير في طريق مجاهد: «وهذا إسناد جيّد إلى عبدالله بن عمر، ثم هو -والله أعلم- من رواية ابن عمر عن كعب؛ كما تقدّم بيانه من رواية سالم عن أبيه».

وقال البيهقي في رواية ابن عمر عن كعب: «وهذا أشبه».

ومن ذلك أن فيه وصف الملكين بأنهما عَصَيا الله -تبارك وتعالى- بأنواع من المعاصي، على خِلاف ما وصف الله -تعالى- لعموم ملائكته في قوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

و(الزُّهَرَة) -بضم الزاي وفتح الهاء؛ كتُؤَدَة-: كوكب مضيء من السيارات المعروفة، ومن قاله بإسكان الهاء فقد غلط، قال الشاعر:

قَدْ وَكَّلَتْنِي طَلَّتِي بالسَّمْسَرَهْ ... وأيْقَظَتْنِي لِطُلُوعِ الزُّهَرَهْ =

وأبي جرهم[١]، وهي من حماقات العوام، غير مستنكر.

ورُوي عن الحسن أنه قال: كان له غديرتان من شعر؛ وعليها سُمِّي ذا القرنين[٢].

= وأفاد ابن حبان أن (الزُّهَرَةَ) الواردة في الحديث هي امرأة كانت في ذلك الزمان، لا أنها (الزُّهَرة) التي هي في السماء، التي هي من (الخُنَّس).

(١) جُرهم هذا هو ابن يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام، فيما يرى نُسّابُ العرب، وثبت في صحيح السنّة أنّه: «لما ترك إبراهم ولده إسماعيل وأمّه بمكة، جاءت رفقة من جُرْهُم فنزلوا شعاب مكة، فنشأ إسماعيل مع أولادهم، وتعلم الرمي، ونطق بلسانهم، ثم خطب إليهم، فزوجوه امرأة منهم».

انظر: «صحيح البخاري» (٢٣٦٨، ٣٣٦٢، ٣٣٦٣، ٣٣٦٤، ٣٣٦٥)، و«فضائل الصحابة» للنسائي (رقم ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤)، و«تاريخ مكة» للفاكهي (١/ ٥٧ و٢/ ٣٩)، و«مسند أحمد» (١/ ٣٦٠)، و«زوائد عبدالله» عليه (٥/ ١٢١)، وكتابي «من قصص الماضين» (٩٧-١٠٤).

قال ابن إسحاق مُعَيِّناً اسمَ امرأته: هي بنت مغاض بن عمرو الجرهمي.

والزعم الذي أشار إليه الثعالبي هو قولهم: إن بعض الملائكة عصى الله، فأهبط إلى الأرض في صورة رجل، تزوج أم جرهم، فولدت له جُرْهُماً. انظر: «الحيوان» (١/ ١٨٧).

والعرب يسمون ما تولد بين الملَك والآدمي -في زعمهم- «العلبان» -بالعين-. قاله الثعلبي في «فقه اللغة» (٨٧).

ولأبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ) في كتابه «البصائر والذخائر» (٧/ ١٦٨-١٧٣) كلمة جامعة رائعة في (الخرافة)، وسبب وجودها عند الأمم جميعاً، فلتنظر؛ فإنها مفيدة، والله الموفّق.

(٢) أخرجه ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص ٥٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٦) عن يونس بن عبيد، عن الحسن، قال: «إنما سمّي ذو القرنين؛ لأنه كان له غديرتان في رأسه من شعر يطأ فيهما».

وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٣٩) لابن عبد الحكم عن يونس بن عبيد! فلعل «عن الحسن» سقطت من نسخته التي نقل منها، والله أعلم.

وقيل في سبب تسميته بـ(ذي القرنين) خلاف ذلك!

أخرج ابن إسحاق في «المغازي» (ص ١٨٥/ رقم ٢٦١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٥٦٣ رقم ١١٩٦٢) -وعنه ابن أبي عاصم في «السنّة» (رقم ١٣١٨) و«الآحاد والمثاني»=

....

=(١/ ١٤١ رقم ١٦٨)-، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٣٥٠ - ط. الهندية، أو ٥/ ١٢١ - ط. مؤسسة الرسالة)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٤/ ٣٣٤) من طريق بسّام الصّيرفي عن أبي الطفيل، قال:

«قام علي -رضي الله عنه- على المنبر، فقال: سَلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام إليه ابن الكوّاء، فقال: ما كان ذو القَرنين؟! أمَلَكٌ كان أو نبيٌّ؟ قال: لم يكن نبيّاً ولا مَلَكاً، ولكنه كان عبداً صالحاً، أحبَّ الله، فأحَبَّه، وناصح الله، فنصحه، ضُرب على قرنه الأيمن فمات، ثم بعثه الله -عزَّ وجلَّ-، ثم ضرب على قَرنه الأيسر فمات، وفيكم مثله» لفظ الطحاوي.

وإسناده صحيح.

وتوبع بسّام الصَّيرَفي -وهو ثقة، من رجال النسائي-، فقد رواه بألفاظ متقاربة عن أبي الطفيل -أيضاً-:

* حبيب بن أبي ثابت، عند ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٥٦٣ رقم ١١٩٦٣)، وسفيان بن عيينة في «جامعه» -كما في «فتح الباري» (٦/ ٣٨٣)-ومن طريقه: ابن جرير في «التفسير» (١٦/ ٨)-، **وإسناده صحيح**، وصححه ابن حجر.

* عبيد بن المكتب، عند ابن جرير في «التفسير» (١٦/ ٨).

* القاسم بن أبي بزّة، عند الزبير بن بكار في «النسب» -كما في «الفتح» (٦/ ٣٨٣)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٤)-، وفيه عبدالعزيز بن عمران، ضعيف، وتوبع؛ كما عند ابن جرير في «التفسير» (١٦/ ٨).

* وهب بن أبي دُبيّ -وهو: وهب بن عبدالله الهنائي، وهو ثقة، **وإسناده صحيح**-، عند عبدالرزاق في «التفسير» (٣/ ٢٤١-٢٤٢ - ط. الرشد) (أول الذاريات)، وعيسى بن سالم الشاشي في «حديثه» (رقم ٣٩ - منشور في مجلة «الأحمدية»، العدد الحادي عشر، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ) (ص ٢٣٢-٢٣٤)، وساقه مطولاً جدّاً، فيه المذكور.

* سيف بن عمر، عند ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٤-٣٣٥)، **وإسناده ضعيف**، وطوّله.

* عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي حسين، عند ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (٥٩)، والضياء في «المختارة» (٢/ ١٧٥ رقم ٥٥٥).

وعلقه عن علي: أبو عبيد في «غريب الحديث» (٣/ ٨٠)، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٣٥) لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» وابن مردويه.

وخالف أبو الزرقاء -أو: أبو الورقاء- أبا الطفيل، فقال:

«قلت لعلي: ذو القرنين مم كانا قرنيه؟ قال: لعلك تحسب قرنيه ذهباً أو فضّة، كان نبيّاً (!!) فبعثه=

....

=الله -عزَّ وجلَّ- إلى ناس، فدعاهم إلى الله -عزَّ وجلَّ-، فقام رجل، فضرب قرنه الأيسر...» بنحوه، وقال في آخره: «فسمَّاه الله -عزَّ وجلَّ- ذا القرنين».

أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٤٩-١٤٥٠ رقم ٩٦٢) بسند مظلم، وقد خالف في قوله: «كان نبياً»، والصحيح عنه ما قدمناه.

ومن الشذوذ عنه: ما أخرجه ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد، قال: « سئل علي عن ذي القرنين: أنبي هو؟ فقال: سمعت نبيكم ﷺ يقول: **«هو عبدٌ ناصَح الله، فنصَحَهُ»**».

فجعله مرفوعاً!! والصواب وقفه.

وأخرجه أبو حيّان في «جزء من حديثه» (ص ١٥٣ رقم ٧٥ - انتقاء ابن مردويه) عن سالم مثله، وزاد في آخره: **«وإن منكم لَشِبْهَهُ أو مثله»**.

وإسناده ضعيف جداً، فيه يحيى بن يعلى وهو الأسلمي القطواني، ضعيف الحديث، ليس بالقوي. قاله أبو حاتم. وشيخه الصباح بن يحيى، قال البخاري (٤/ ٣١٥): «فيه نظر»، وسالم عن علي، مرسل؛ كما في «المراسيل» (٢٨٩) لابن أبي حاتم.

ولفظ الزبير في «النّسب»: **«بعثه الله إلى قومه»**.

ولفظ ابن أبي حسين: **«لم يكن نبياً ولا ملكاً»**.

وهو لفظ الصيرفي الذي سقناه، وهما لفظان متغايران؛ إلا أن يحمل البعث على غير رسالة النبوة! قاله ابن حجر (٦/ ٣٨٣)!

والذي يظهر لي أن المراد من «بعثه الله»؛ أي: بعد موته! فتأمل.

وقوله: **«وفيكم مثله»** مشكل، ترى توجيهه عند أبي عبيد في «الغريب» (٣/ ٧٩-٨٠)، والطحاوي في «المشكل» (٥/ ١١٩-١٢٦)، وابن الجوزي في «الغريب» (٢/ ٢٣٨)، وابن الأثير في «النهاية» (٤/ ٥١-٥٢)، وظفرت في «معجم المؤلفين» لكحالة في ترجمة (محمد بن أحمد الخزاعي) (٨/ ٢٥٢): أن له «الفرق بين المقامين وتشبيه علي بذي القرنين»، وطار بهذه العبارة الرافضة أي مطار، وحملوها على معانٍ لا تسنح في بال الموفّقين، فضلاً عن أن تستقر في عقولهم! ولذا لا يخلو كتاب من كتب التفسير التي لهم منها. انظر -على سبيل المثال-: «تفسير القمي» (٢/ ٤٠)، و«البرهان في تفسير القرآن» للبحراني (٥/ ٦٨ - ٦٩)، و«تفسير العياشي» (٢/ ٣٦٥ - ٣٦٦)، وغيرها.

واخرجه الضياء في «المختارة» (٢/ ١٢٢-١٢٦ رقم ٤٩٤) ضمن خبر طويل جداً عن زاذان، وفيه أسئلة ابن الكواء له، وفيه قوله: «فما ذو القرنين؟» قال علي: «رجل بعثه الله إلى قوم كفرة أهل الكتاب، كان أوائلُهم على حق، فأشركوا بربهم، وابتدعوا في دينهم، فأحدثوا على أنفسهم، فهم اليوم يجتهدون في الباطل، ويحسبون أنهم على حق». =

وعن محمد بن علي بن الحسين -رضي الله عنهم- أنه قال:

«الأنبياء والملوك أربعة: يوسف، ملَك مصر، وداود وسليمان، مَلكَا ما بين الشّام إلى إصطَخر، وذو القرنين، مَلَك ما بين المغرب والمشرق»[1].

= وإسناده صحيح، وذكر بعضه الدارقطني في «العلل» (٣/ ٢٠٨-٢٠٩)

وورد هذا المعنى عن جمع من التابعين؛ منهم:

يعلى بن عبيد، أسند عنه ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص ٥٩) قوله:

«كان له قَرنان صغيران، تواريهما العمامة».

وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٣٨) لابن عبد الحكم وابن أبي حاتم والشيرازي في «الألقاب»، وعنده «عبيد بن يعلى»! وهو خطأ، وصوابه القلب، كما ذكرناه.

وأخرج ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٥-٣٣٦) بسندٍ ضعيف جداً عن عبدالله بن عمرو، قال: «إن ذا القرنين أنه دعا ملكاً جباراً إلى الله -عزَّ وجلَّ- ودينه، فضرب على قرنه، فكسره ورضّه»، ثم قال: «ثم دعاه إلى الله، فدقّ قرنه الثاني، فكسره، فسُمّي ذا القرنين».

وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٥٠-١٤٥١ رقم ٩٦٤) عن إبراهيم بن علي بن عبدالله بن جعفر، قال: «إنما سمّي ذو القرنين ذا القرنين؛ لشجّتين شُجَّهما على قرنيه في الله، وكان أسود».

ولم يعزه في «الدر» (٥/ ٤٣٦) إلا له.

وأخرج الشيرازي في «الألقاب» -كما في «الدر» (٥/ ٤٣٩)- عن قتادة، قال:

«إنما سمّي ذا القرنين؛ لأنه كان له عُقَيْصَتان».

قال أبو عبيدة: وهناك أقوال أخرى كثيرة في سبب التسمية، سيأتي قريباً ذكرها -إن شاء الله تعالى-.

(١) أسنده عنه الشيعة؛ منهم: العياشي في «تفسيره» (٢/ ٣٦٦ رقم ٧٥)، وابن بابويه في «الخصال» (ص ٢٥٥/ رقم ١٣٠)، وعنهما البحراني في «البرهان في تفسير القرآن» (٥/ ٦٩، ٨١ رقم ٢١، ٣٦).

وأصبحت هذه المقولةُ شائعةً في كتب المؤرخين والمفسرين، وتُذكَر على أنها من المسلّمات عندهم، وممن اعتنى بها، وذكر الخلاف في تعيين الأربعة: المطهر بن طاهر المقدسي في كتابه «البدء والتاريخ» (٣/ ٤٥-٤٦)، وزاد عليهم القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٧-٤٨) خامساً، قال: «وهو المهدي».

وانظر: «التاريخ» لعبدالملك بن حبيب (ص ٤٠)، و«تاريخ ابن جرير» (١/ ٢٣٣)، و«المنتظم» (١/ ٢٨١)، و«المعارف» لابن قتيبة (٣٢).

وروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال:

«حَجَّ ذو القرنين؛ فلقي إبراهيم»[١].

وهذا يدلُّ على تقادُمِ عَهده، وقد روي من جهات كثيرة[٢] أن ذا القرنين كان

---

(١) مضى تخريجه (ص ٧٢)، وهو لم يثبت عنه؛ إذ فيه راو منكرُ الحديث.

وظفرتُ -أيضاً- عن ابن عباس قوله: «كان ذو القرنين ملكاً صالحاً، أرضى الله -عزَّ وجلَّ- عملَه، وأثنى عليه في كتابه، وكان منصوراً، وكان الخضر وزيره»!

أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٩)، وإسناده ضعيف جداً.

ومقتضاه أن (ذا القرنين) كان في وقت موسى لا إبراهيم -عليهما السلام-، وأما خبر لقائه مع إبراهيم -عليه السلام- فقد ورد عن جمع، وهي أقوال تُحكَى وتُروَى، ولا يُعقَد القلب عليها؛ إذ لا عصمة فيها، ومضى (ص ٧٢-٧٤) طرف منها، وهناك تخريج ما أورده المصنف في هذا الباب، والله الموفّق للصواب.

(٢) سبق (ص ٧٣) نقل المصنف عن ابن حجر قوله -بعد أن أورد جملة من الآثار فيها لقاءُ (ذي القرنين) إبراهيم -عليه السلام-: «فهذه الآثار يشدّ بعضها بعضاً».

وفاته أثر أخرجه ابن عساكر (١٧/ ٣٤٠-٣٤١) عن أصبغ بن زيد الورّاق عن بعض أصحابه، قال:

«كان إبراهيم خليل الرّحمن جالساً بمكان، فسمع صوتاً، فقال: ما هذا الصَّوت؟ قال: قيل له: هذا ذو القرنين، قد أقبل في جنوده، فقال لرجل عنده: اِئت ذا القرنين، فأقرئه السلام، فأتاه، فقال: إن إبراهيم يقرئك السلام، قال: ومن إبراهيم؟ قال: خليل الرحمن، قال: وإنه لها هنا؟ قال: نعم، قال: فنزل، قال: فقيل له: إن بينك وبينه هُنيهة، قال: ما كنت لأركب في بلد فيه إبراهيم، قال: فمشى إليه، قال: فسلّم عليه وأوصاه إبراهيمُ، فأوحى الله إلى ذي القرنين: إن الله قد سخَّر لك السَّحاب، فاختر أيها شئت، إنْ شئت صعابَها، وإنْ شئتَ ذلُلَها، فاختار ذلولها، فكان إذا انتهى إلى مكان من برّ أو بحر لا يستطيع أن يتقدَّم احتملته السحاب، فقذفته وراء ذلك حيث شاء».

وفاته آخَرُ عن الحسن عند ابن عساكر (١٧/ ٣٣٩) -أيضاً- وفيه:

«كان ذو القرنين مَلَك بعد نمورذ، وكان من معه أنه كان رجلاً مسلماً صالحاً أتى المشرق والمغرب...»، ونمروذ كان في عصر إبراهيم -عليه السلام- كما هو معروف.

وانظر -غير مأمور-: «تاريخ مكة» للأزرقي (١/ ٧٤)، و«سبل الهدى والرشاد» (١/ ١٣٧، ٢١٢ - ط. دار الكتب العلمية).

في زمن إبراهيم -عليه السلام- في عصر أفريدون، وتلك تواريخ لا يوثق بها، والذي نقل إلينا في التواريخ اليونانية والسَّريانية -وهي أقرب إلى الثقة- يقتضي أن بينهما زماناً طويلاً، تزيد على ألف سنة[(١)].

وروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-:
«أن ذا القرنين هو عبدالله بن الضَّحَّاك»[(٢)].

وهذه روايةٌ مهجورةٌ لا تلتفتُ العقلاءُ إليها، ولسنا ننكر أن يكون[(٣)] عبدالله بن الضحاك هذا يُدعى ذا القرنين؛ فهو اسمٌ مشترك، ولقب منقول، وقد سُمّي أحدُ ملوك الحيرة من بني نصر (ذا القرنين)؛ لضفيرتين من شعر كانتا له، وهو المنذرُ بن ماء السماء، وفي ملوك حِمير مَلِكان كانا يُدعى كلٌّ واحد منهما: ذا القرنين[(٤)]، وإنما ننكر أن يكون مَلكاً سُلطاناً، إذ كنّا نجد أخبار الأمم تكذبه، وكان هذا الأمر البيِّن لا يخمُل فيخفى على العرب شأنه، وهي ألهَجُ أمّةٍ بحفظ المآثر، وأحرصُها على إحصاء المفاخر.

وزعم بعض الفُرس أنّ ذا القرنين هو الضّحاك المسمّى بيوراسف، وأنّ قرنَيْه هما السِّلعتان اللتان تسميهما العامة حيّتين، وكانتا ناشزتين في فروع

---

(١) وردت بعض الأخبار فيها لقيا بُلقيس -وكانت زمن سليمان-عليه السلام- بذي القرنين، عزاها السيوطي في «الدر» (٥/ ٤٤٨) لابن أبي حاتم وابن عساكر عن مجاهد قوله، وهي أشبه ما تكون بالخرافة، والله أعلم.

(٢) أسند أبو سعيد النقاش في «فنون العجائب» (رقم ٨٧) بسندٍ فيه كذاب، ما يقتضي المغايرة بينهما، وهو المشهور عند الجماهير.

(٣) لا وجود لها في مطبوع «ثمار القلوب».

(٤) عُرِفَ عددٌ من العلماء والشعراء بهذا اللقب، فترجم ابن عساكر في «تاريخه» (١٧/ ٣٦١)، والأزدي في «أخبار الدول المنقطعة» (١/ ٥٥)، وغيرهما لذي القرنين ابن ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبدالله بن حمدان الشاعر، وهناك في «المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور» (ص ٢٣٦ رقم ٦٩١) ترجمة لذي القرنين بن محمد بن ذي القرنين، وهو أحد المحدّثين، وقل وصل الكذب ببعضهم أن ادعى أنه (ذو القرنين) في خبر تقدم (ص ١٠٤).

كتفيه[١]، وهـذا أبعـد شـيء عـن الصّـواب، ولكـن الآراء والألسُـن واللغـات والفِـرق مطبقةٌ[٢] على أن ذا القرنين هـذا هـو الإسكنـدر الرّومي قاتِلُ دارا[٣].

وقد نقل إلينا من أخباره بعض[٤] المطابقة لما اقتصَّ الله -تعالى- فـي كتابـه، والذي يقوّي هذا الرأي: إجماعُ رواة الأمم على أنّ السَّد الـذي يُدعـى ردم يـأجوج ومأجوج من صُنع الإسكندر، وأنه لم ينقل إلينا خـبر مَلـك جمـع بيـن الإيغـال فـي المشرق والإبعاد في المغرب سواه[٥].

---

(١) يروى هذا عن وهب بن منبه، فيما يأتي.

(٢) في الأصل: «مطابقة»، والمثبت من «ثمار القلوب».

(٣) دارا: صاحب ملك، ويعرف في اللغـة الأجنبيـة باسـم داريـوس (السين فـي اليونانيـة علامـة الرفع)، واختصر العرب الاسم (دارا) من الاسم في الفهلوية (الفارسية القديمة) (Darayavaush)، ويطلق هذا الاسم على نفر من ملوك الفرس، وله ترجمة في «تاريخ سورية» للمطران يوسف الديس (٢/ ٦٠٩ وما بعد - ط. سنة ١٨٩٥م).

(٤) لا وجود لها في مطبوع «ثمار القلوب».

(٥) هذا غريب من الجاحظ!! وخطأ ظاهر، وكيف يصح قوله أن الآراء والألسن واللغات والفـرق مطبقة على أن ذا القرنين هذا هو الإسكندر الرومي... إلخ. وقوله: أنه لم ينقـل إلينـا خـبر ملـك جمـع بيـن الإيغال في المشرق والإبعاد في المغرب سواه، وقد تقدمت لك نقول كثيرة عن جماعة متعددين هـم أعلـم من الجاحظ بالتاريخ وأخبار الأمم وأوثق منه: إن ذا القرنين ملك عربي حميري، وهو مؤمن بالله -تعالى-، بل هناك احتمال أن يكون نبياً كما نقله هو عن المحدثين، ونزيدك علماً ونقلاً أن الإسكندر الرومي ليـس ذا القرنين المذكور في القرآن، بما ذكره العلاّمة الشهرستاني في «الملل والنحـل» حيـث قـال [ص ٦٠ - مـن المطبوع على هامش «الملل» لابن حزم] في الكلام على حكم الإسكندر الرومي، وهو ذو القرنين الملـك، وليس هو المذكور في القرآن، بل هو ابن فيلقوس الملك... إلخ.

وحسبنا في الرد على الجاحظ ما قاله في أول الكلام، أن التسمية بـذي القرنيـن لا تعـرف فـي غير هذه اللغة... إلخ. وقوله على أن العرب قد سمت بها من ملوكهم نفراً، وخصَّـت بهـا هـذا الملـك السـائح الذي ورد القرآن بذكره... إلخ. وروايته عن ابن عباس أنه قال: «حج ذو القرنين فلقي إبراهيم»، وهـذا يـدل على تقادم عهده، وقوله: وقد روي من جهات كثيرة أن ذا القرنين كان في زمن إبراهيم، وهذا ما حققناه فيما تقدم، ولا يلتفت إلى قوله: وتلك تواريخُ لا يوثق بها، بعد قوله: وقد روي من جهات كثيرة،؛ إذ لا ريـب أن الروايات الضعيفة -إذا سلمنا أنها كلها روايات ضعيفة- يؤيد بعضها بعضاً. =

....

= ونرى الجاحظ يعترف أنه قد كان في ملوك حمير ملكان، كان يدعى كل واحد منهما ذا القرنين، وهو موافق لما قدمنا تحقيقه، أن ذا القرنين المذكور في القرآن هو من ملوك حمير، وهو الذي كانت العرب تلهج به، وتذكُرُه كثيراً في شعرها، ومن الغريب: قوله: أنه لم ينقل إلينا خبر ملك جمع بين الإيغال في المشرق والإبعاد في المغرب سواه، مع أنه قد نقل لنا قبل ذلك عن محمد بن علي بن الحسين أن ذا القرنين في عداد الأنبياء والملوك الذين ملكوا ما بين المغرب والمشرق، ثم يقول لنا: وهذه جملة من سِيَرِه مأخوذةٌ من تواريخ يونان وفارس، فقد أفصح لنا عن مصدره الذي دعاه أن يقول: ولكنّ الآراء والألسن واللغات والفرق، مطبقةٌ على أن ذا القرنين هذا هو الإسكندر الرومي، وهل هذه المصادر وصلت إليه بطريقٍ صحيح حتى حكم بصحتها؟ وما مستنده في ذلك؟ وهل هي مصادرُ موثوقةٌ في حدِّ ذاتِها عُرِفَ أصحابُها بالصدق والمعرفة؟ وهل هناك من يجزم بذلك؟ والحاصل أن ما قاله الجاحظ في أمر ذي القرنين بعيدٌ عن مهيع التحقيق والصواب، ومرفوض عند أهل التحصيل في فن التاريخ. (منه).

قال أبو عبيدة: وهنا تنبيهات مهمات:

الأول : هذا التعقب على القاضي الجرجاني وليس على الجاحظ، كما قدمناه في التعليق على أول هذا الفصل.

الثاني: علق المصنف -رحمه الله- عند قوله على الجاحظ: «وأوثق منه»، في هامش الهامش ما نصه:

«بل هو ليس بثقة، ولا مأمون، كما صرح به الذهبي في «ميزان الاعتدال» (ج ٢ ص ٢٨٢)، وقد كان وضّاعاً للحديث، ففي «المدخل» للحاكم النيسابوري (ص ١٩) بسنده إلى المحاملي، قال: سمعت أبا العيناء يقول: أنا والجاحظ وضعنا حديث فدك... إلخ.

وفي «أمالي السيد المرتضى» (١٣٩): جرى ذكر الجاحظ في مجلس أبي العباس أحمد بن يحيى، فقال: «أمسكوا عن ذكر الجاحظ؛ فإنه غير ثقة».

قال الأزهري: « وكان الجاحظ روى عن الثقات ما ليس من كلامهم، وكان قد أتي بسطةً في لسانه، وبياناً في خطابه، ومجالاً واسعاً في فنونه، غير أن أهل العلم والمعرفة ذمّوه، وعن الصدق دفعوه» انتهى.

قال أبو عبيدة: الكلام في (الجاحظ) كثير، أورد طرفاً منه لأهميته، ولشيوع ذكره عند الأدباء والقرّاء، ولشهرة كتبه، وتسابق الناشرين لطبعها، فأقول -والله المستعان-:

كتب الجاحظ مليئة بالأخبار وطافحة بالآثار، وهو أشبه ما يكون بـ«الصُحُفيِّ» فيها، ينوّع مادته ويعرضها بأسلوب أخّاذ شيّق، ولكنْ؛ ينبغي الحذرُ من الآثار والأخبار التي يوردها، وقد حذّرَ من كتبه بعامّة تلميذهُ ابن قتيبة واعتذر عن تلمذته له، فقال عنه في كتابه «تأويل مختلف الحديث» (١/ ١٩٨ وما بعدها - بتحقيق أخي الأستاذ أحمد الشقيرات - مضروبة على الآلة الكاتبة):

«ثم نصير إلى الجاحظ، وهو آخر المتكلمين والمعَاير على المتقدّمين، وأحسنهم للحُجة استثارة،=

....

=وأشدهم تلطّفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ بـه الاقتـدار إلى أن يعمـل الشي ونقيضه، ويحتج لفضل السودان على البيضان».

وقال يصف تلاعبه ونفاقه:

«فتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنّة، ومرة يفضل عليّاً -رضي الله عنه- ومرة يؤخره، ويقول: قال رسول الله ﷺ، ويتبعه: قال الجماز، وقال إسماعيل بن غـزوان كذا وكذا من الفواحش.

ويُجَلُّ رسول الله ﷺ عن أنْ يذكرَ في كتابٍ ذكِرَ فيه هؤلاءِ، فكيف في ورقة أو بعـد سـطر وسطرين.

ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الرد عليهم؛ تجوز فـي الحجـة كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون، وتشكيك الضعفة من المسلمين.

وتجده يقصد في كتبه المضاحيك والعبث، يريد بذلك استمالة الأحداث وشُرَّاب النبيذ.

ويستهزئ من الحديث استهزاءً لا يخفى على أهل العلم، يذكر كبد الحوت وقرن الشيطان، ويذكـر الحجر الأسود وأنه كان أبيض؛ فسوّده المشركون، وقد كان يجب أن يبيّضه المسلمون حين أسلموا.

ويذكر الصحيفة التي كان فيها المُنزَل في الرضاع تحت سـرير عائشـة؛ فأكلتهـا الشـاة، وأشـياء مـن أحاديث أهل الكتاب في تنادم الديك والغراب، ودفن الهدهـد أمـه فـي رأسـه، وتسـبيح الضفـدع، وطـوق الحمامة وأشباه هذا...».

وقال -أيضاً-:

«وهو مع هذا من أكذب الأمّة، وأوضعهم لحديثٍ، وأنصرِهم لباطلٍ، ومن علم -رحمك اللـه- أن كلامه من عمله قلّ إلا فيما ينفعه، ومن أيقن أنه مسؤول عما ألف وعما كتب؛ لم يعمل الشيءَ وضدّه، ولـم يستفرغ مجهوده في تثبيت الباطل عنده، وأنشدني الرياشي:

فـلا تكتـبْ بخطـكَ غـيرَ شَـيءٍ ... يسُـرّكَ فـي العَواقـبِ أن تَـراه

وفي نسخة خطية محفوظة بألمانيا من «مختلف الحديث» فيها زيادة بعد الكلام السابق: «وأنصرهم لباطل» ما نصه:

«وأكذبه على الله ورسوله، قال أبو محمد: وكان يفطر في رمضان، وكان يقول: إنّما هي دنيـا ليـس بعدها شيء، وإنما وضع الكتب مَطربةً وسُخريَةً؛ لأنه ما كـان لـه ديـن، ولا كـان يصلّـي إلا ريـاءً، قـال أبـو محمد: وذكر الشافعيَّ بأقبح قول وقال: ما يصنعون الناس بما صنع ووضع، هلا اشتغل بشعر جميل وكثير كان أصلح له من هذا! وكان يشتمه بأقبح الشتم، قال أبو محمد: فرحم الله الشافعيَّ؛ فإنّه ما كان من أهـل=

....

=الفقه من يتكلم مثل كلامه، ولا بيَّنَ للنّاس الفقهَ مثلَ بيانِه، وكان يقـول: «مـا أحببـتُ قـطُّ أن أنـاظرَ رجـلاً وأردتُ غلبتَه، وذلك أنه بلغني أنَّ مَنْ ناظرَ رجلاً وأراد غلبتـه؛ أحبـط اللـه لـه عمـل سـبعين سـنة»، وقـال: «وددت أن النّاس علموا مثل هذا العلم الذي صنفت من الذي علمت أنا، من غير أن ينسب ذلك إليّ».

وقال أحمد بن حنبل-رحمه الله-: «إني لأدعو لأبويّ وللشافعي منذ أربعيـن سـنة، وأقـول: اللهـم اغفر لي ولأبوي ولمحمد بن إدريس الشافعي؛ فإني ما رأيت أتبعهم لحديـث رسـول اللـه ﷺ منـه»؛ فهـل يحِلُّ لمسلم أن يذكر الشافعي إلا ترحم عليه، وحمد الله حيـث جعـل لأهـل الإسـلام مثلـه، فكيـف يسـبه ويشتمه ويثلبه والله مجازٍ كلاً عن نيته؟».

ثم قال معتذراً عن تلمذته عليه:

«قال أبو محمد: ولقد كنت في عُنفـوان الشـباب وتَطَلُّـب الآداب، أحـب أن أتعلـق مـن كـل علـم بسبب، وأن أضرب فيه بسهم، فربما حضرتُ بعضَ مجالسهم وأنا مغترٌّ بهم، طامعٌ أنْ أصدر عنهم بفائدة أو كلمة تدل على خير أو تهدي لرشد؛ فأرى من جرأتهم على اللـه -تبـارك وتعـالى- وقلّـة توقّيهـم وحملهـم أنفسهم على العظائم لطرد القياس، أو لئلا يقعَ انقطاعٌ؛ فأرجعَ معه خاسراً نادماً».

ولذا؛ قال الذهبي في «السير» (١١/ ٥٢٧) عن (الجاحظ): «كان ماجناً قليل الدين، له نوادر»، وقال (١١/ ٥٢٨): «يظهر من شمائل الجاحظ أنـه يختلـق»، وقـال فـي «المـيزان» (٣/ ٢٤٧): «وكـان مـن أئمـة البدع»، وقال الخطابي: «هو مغموص في دينه».

وذكر أبو الفرج الأصبهاني أنه كان يُرمَى بالزندقة.

وقال ابن حزم في «الفصل» (٤/ ١٩٥): «كان أحد المُجّان ومَنْ غلب عليه الهزَل، وأحـدَ الضـلال المضلّين؛ فإننا ما رأينا في كتبه تعمّد كذبة يوردها مثبتاً لها، وإنْ كان كثير الإيراد لكذب غيره» كذا في «لسانَ الميزان» لابن حجر (٤/ ٣٥٥).

وقد وصف المأمون كتبه لما اطلع عليها بقوله: «جمع استقصاء المعاني واسـتيفاء جميـع الحقـوق مع اللفظ الجزل والمخرج السهل؛ فهو سوقي ملوكي وعامي خاصي».

وعلق عليه ابن حجر بقوله: «وهذه والله صفة كتب الجاحظ؛ فسبحان مَنْ أضلّه على علم».

وقد أورد البغدادي في «الفَرق بين الفِرَق» (١٧٥-١٧٨)، والسكسكي في «البرهان في عقائد أهـل الأديان» (٣٠-٣١) كثيراً من البدع العقدية التي كان يعتقدها الجاحظ وأودعها في كتبه.

وقد أسهب الرازي في «المحصول» (٤/ ٣٠٨-٣٥٠) في نقل المطاعن التي أوردها الجاحظ تبعـاً للنّظّام في الصحابة -رضي الله عنهم-، فكن منها على حذر.

ثم ظفرت للدكتور بلقاسم الغالي بكتاب مطبوع عنوانه: «الجانب الاعتزالي عند الجاحظ».

التنبيه الثالث: القول بأن (ذا القرنيـن) هـو الإسـكندر الرومـي، قـال بـه غـير واحـد، ولكنـه قـول=

....

=مرجوح، وهنالك عدة ملوك سُمُّوا بهذا الاسم، نبه عليه ابن فاتك في كتابه عن الحكماء المسمى «مختار الحكم» (ص ٧٤، ٧٦)، وتجد أخباراً تاريخيّة تشير إلى ذلك. وانظر: «بغية الطالب» (١/ ٤٥٤) لابن العديم، و«شذرات من كتب مفقودة في التاريخ» (ص ٤٤٨) لإحسان عباس.

التنبيه الرابع: قوله: «هناك احتمالٌ أنْ يكونَ نبيّاً، كما نقله هو عن المحدّثين» فلم ينقله هو كما تقدم، ومضى معك في التعليق على (ص ٩٩) أن الخوض في مسألة نبوّته تكلّف لا داعي له بعد صحة الحديث: **«لا أدري أذو القرنين كان نبيّاً أم لا»**.

الخامس: سبق أن ذكرنا عن غير واحد التفريق بين (ذي القرنين) -الوارد ذكره في القرآن- والملك الإسكندر، وهو الذي رجحه المصنف فيما سبق، وهنا في تعقبه على الجاحظ (!!)، بَلْهَ القاضي الجرجاني، ويتأكد لك أن التعقب على الجرجاني وليس على الجاحظ؛ لأن الأخير لم يجزم بأنه الإسكندر، فقال في «الحيوان» (٧/ ٢٤٥): «ذو القرنين الملِك المذكور في القرآن، ويزعم بعضهم أنه الإسكندر»!

السادس: إسكندر (ذو القرنين) (غير الوارد في القرآن)، ترجمته مشهورة، وأخباره لا تخلوا منه الكتب التاريخية، وقد أفرِد بمصنّفات بالعربية والألمانية والفرنسية والإنجليزية، وله ترجمة -مثلاً- في: «تاريخ اليعقوبي» (١/ ١٤٣-١٤٥)، و«أخبار الدول وآثار الأول» (٣/ ١٧٦ وما بعد).

وللأستاذ البحّاثة عمر فرّوخ في كتابه «تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه» (ص ٥٥-٧٥) بحث جيّد بعنوان: (الإسكندر المقدوني والتعليل البطولي: التاريخ بين القصّة الخرافيّة والمدرك الحضاري).

وقد أفرده غير واحد بالتصنيف، كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم، والله الهادي.

بل هو مذكور عند من تكلم في تاريخ الفلسفة، كما تراه في «تاريخ الفلسفة اليونانية» (ص ١١٢-١١٣) ليوسف كرم، و«الفلسفة عند اليونان» (ص ٢٤٩-٢٥١) لأميرة قطر.

السابع -وأخيراً-: نتحف القارئ بنقلين عزيزين عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- ذكر فيهما -بقوة- التفرقة بين (الإسكندر) و(ذي القرنين) الوارد في القرآن:

أحدهما: ما قاله في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ٦٨-٦٩) في معرض الرد على المنجمين وأهل الضلال:

«... وأما أئمتكم البارعون -كأرسطو وذويه- فغايته أن يكون مشركاً سحّاراً وزيراً لملك مشرك سحّار كالإسكندر بن فيلبس، وأمثاله من ملوك اليونان الذين كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان، وإنما صار فيهم ما صار من الهدى والفلاح لمّا دخلت فيهم النصرانية بعد أرسطو بنحو ثلاث مئة سنة وتسع عشرة سنة أو أكثر منها، وقد قيل: إن ذلك كان على عهد آخر ملوكهم بطليموس صاحب المجسطي، فناهيك ممن تكون النصارى أعقل منهم وأعلم وأهدى إلى الدّين الأقوم!

ومن الضلال أن من يظن ذا القرنين المذكور في القرآن العزيز هو الإسكندر بن فيلبس، الذي=

....

يقال إن أرسطو كان وزيره، وهذا جهل، فإن ذا القرنين قديم متقدم على هذا بكثير، وكان مسلماً موحداً حنيفاً، وقد قيل: إن اسمه الإسكندر بن دارا، وأما اليوناني فهو ابن فيلبس الذي يؤرخ الروم به، وكان قبل المسيح بنحو ثلاث مئة سنة، أو ما يقارب ذلك، وهذا الكلام وأمثاله إنما قيل للمقابلة لما في كلام هؤلاء من الاستخفاف بأتباع الأنبياء».

والآخر: قوله في «الرد على المنطقيين» (ص ١٣١-١٣٢):

«وكثير منهم يعظم فرعون ويسمونه أفلاطن القبطي، ويدّعون أنّ صاحبَ مَدْيَنَ الذي تزوّجَ موسى ابنتَهُ -الذي يقول بعض النّاس: إنه شعيب- يقول هؤلاء: إنه أفلاطن أستاذ أرسطو، ويقولون: إن أرسطو هو الخضر، إلى أمثال هذا الكلام الذي فيه الجهل والضلال ما لا يعلمه إلا ذو الجلال، أقل ما فيه جهلهم بتواريخ الأنبياء، فإن أرسطو باتفاقهم كان وزيراً للإسكندر ابن فيلبودس المقدوني الذي تؤرخ به اليهود والنصارى التاريخ الرومي، وكان قبل المسيح بنحو ثلاث مئة سنة..

وقد يظنون أن هذا هو ذو القرنين المذكور في القرآن، وأن أرسطو كان وزيراً لذي القرنين المذكور في القرآن، وهذا جهل؛ فإن هذا الإسكندر بن فيلبودس لم يصل إلى بلاد الترك ولم يَبْنِ السَّدَّ، وإنما وصل إلى بلاد الفرس، وذو القرنين المذكور في القرآن وصل إلى شرق الأرض وغربها وكان متقدماً على هذا، يقال: إن اسمه الإسكندر بن دارا، وكان موحداً مؤمناً وذاك مشركاً، كان يعبد هو وقومهُ الكواكبَ والأصنامَ ويعانون السحرَ، كما كان أرسطو وقومه من اليونان مشركين يعبدون الأصنام، ويعانون السحر، ولهم في ذلك مصنفات، وأخبارهم مشهورة، وآثارهم ظاهرة بذلك، فأين هذا من هذا؟!».

ونقل هذا وارتضاه: صِدّيق حسن خان في «فتح البيان» (٤/ ٢٥٢-٢٥٣)، ثم ظفرت -بعد ذلك- بنقلين آخرين نحو المذكورَيْن في «منهاج السنّة النبوية» لابن تيمية، انظرهما منه (١/ ٣١٧-٣١٨، ٤١٠ - ط. محمد رشاد سالم).

ثم وجدت الدكتور سيد القمي في كتابه «الأسطورة والتراث» (ص ٢١٦) ينقل كلام ابن تيمية في «الرد على المنطقيين» ويرد عليه بقوة (!!) لأنه نقل عنه قوله: «كان مسلماً» عن ذي القرنين: «وكان متقدِّماً على هذا»! فاستشكل كونه مسلماً مع وجوده قبل (إسكندر)، قال (ص ٢١٦):

«وابن تيمية... يضعنا -ولا مناص- في موقف قسري لمناقشته منطقياً، ... وهي قوله: إن ذا القرنين كان مسلماً، وكان مقدماً على (أرسطو) بمدة عظيمة! فإسلام (ذي القرنين) هنا، يعني أنه قد آمن بدعوة (محمد) رسول الله ﷺ، قبل أن يدعو بها بأكثر من ألف عام؛ إذا كان هو المقدوني، وإذا لم يكن المقدوني -وكان مُقدَّماً على أرسطو بمدة عظيمة- فإن ذلك يلقي بنا ألفاً أخرى إلى الوراء، أو يزيد، كما أن إسلامه -يعني: وفق المنطق الإسلامي- أن يكون (ذو القرنين) نبيّاً، حيث ينسحق الزمان بكل آناته في لحظة، ويستدير التاريخ عكس حركته الطبيعية ليصبح كل من سلف من أنبياء -على اختلافهم واختلاف ظروفهم واختلاف مجتمعاتهم وبنياتِها، واختلاف قضية كلٍّ منهم ومنهجه وطريقته- مجرد لحظة في=

....

=الزمن المحمدي، وباستدارة التاريخ دورة كاملة، ثم تبدأ، ثم تنتهي عند نبي الإسلام ﷺ، يصبح جميع الأنبياء أتباعاً له ومؤمنين بدعوته، ويبيت هو البدء والمنتهى في عالم النبوة، كما أصبح الإله -تعالى- هو الأول والآخر في عالم الربوبية، وعليه؛ فإن (ابن تيمية) يعني بذلك أن (ذا القرنين) كان واحداً من الأنبياء الكرام -عليهم جميعاً الصلاة والسلام-، ومثَلُه مَثَلُهُم، فهو من أتباع نبي الإسلام ﷺ، الذي سبق الجميع وكان غُرّةً من نور في جَبين (آدم)، حملتها أصلابُ الطاهِرين، ومن أجله، وتمهيداً لدعوته، كانت نبوّاتُ ورسالاتُ جميع السالفين» انتهى.

قال أبو عبيدة: كلامه هذا هراء وأسطورة، ولا وزن له في التحقيق العلمي، وقائم على عُقَدٍ وإشكالاتٍ لا وجودَ لها إلا في عقل صاحبها، فكلام ابن تيمية عن (ذي القرنين) أنه موحّد كان موجوداً قبل بعثة رسول الله ﷺ! وليس (مسلماً) بالمعنى الذي يوافق مشربه الرافضي.

وأخيراً... انتصر القمي -بناءً على بعض ما سطره في «أسطورته»- إلى أن (ذا القرنين) هو الإسكندر المكدوني لا غير، وما عداه من الأقاويل إنما هو من (الأساطير)!!

ومن الجهود المشكورة التي نبَّهت على أوهامٍ وقعت للمفسِّرين حول (ذي القرنين) ما كتبه الدكتور محمد رجب البيومي في (الجزء الأول) من كتابه «قضايا إسلامية، مناقشات وردود» تحت عنوان: (نظرات قرآنيّة: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾) (ص ١٨٩-١٩٣)، وبيَّن فيه أن (المكدوني) غير (ذي القرنين)، قال:

«تكثر الروايات التاريخية في كتب التفسير شرحاً لبعض الأحداث، وتكملةً لما يتضمن كتاب الله -عزَّ وجلَّ- من قَصصٍ تَحمل العبرة البالغة والعِظةَ النافعةَ.

وفي هذه الرّوايات ما يصدّقه النظر المتئد، ويقبله العقل المتأمل، كما أن فيها ما يجب أن نتريث كثيراً في تدوينه، وقد كان قدماء المفسرين معذورين كلَّ العُذر في تسطيره، إذ إن منهم من يكتفي بذكر السند، وكأنه يخرج من التبعة إذ أحال الخبر إلى سواه، تاركاً فحص الوقائع لذوي الاختصاص من رجال التاريخ، وقد يكون حديث القرآن الكريم عن رجلٍ لم يأت في إيضاحه أثرٌصحيح كذي القرنين -مثلاً-، وهنا نتوقع كثيراً من الشطط لدى بعض القدماء من المفسّرين؛ لأن معرفتهم بالتاريخ العالمي البعيد عن مواقف الإسلام قليلة، وقد تكون معدومة لدى بعضهم، فيتورطون في نقل أراجيف تسيءُ ولا تُحسن، ولعل في هذا المقال ما يقدّم المثال.

إن تاريخ الإسكندر المقدوني جبّار اليونان، وطاغية العهد القديم، لم يكن من الوضوح لدى بعض المفسرين القدماء كما هو اليوم بعد أن كثرت عنه المؤلفات من أبناء جنسه، وممن عاشروه في عهده البائد، وكتبوا عنه ما صار اليوم موضع دراسة فاحصة، ومراجعة مستنيرة لدى من تحققوا من الروايات، واطمئنوا إلى الوثائق ومدونات الآثار الحجرية في الشرق والغرب، حتى استقامت له صورة صحيحة تدل على سُلوكه النّفسي وطموحه الحربي، وجَبروته الدكتاتوري، وقد أجمع مؤرّخوه دون أن يشذ أحد، حتى غلاة=

....

=المتعصبين من بني قومه ممن يعدونه ميراثاً وطنيّاً للأحفاد، ومثالاً للبسالة الفائقة والفتح المبين، والغزو الناطق بعزة اليونان في القديم؛ أجمع هؤلاء المؤرخون على أن الإسكندر الشّاب المتهوّر كان جبّاراً عنيداً يسرف في سفك الدماء دون مبرر، وأنه كان يضحي بمئات القرى والمدن ليرضي شهوات جنوده في السّبي والهتك والإبادة والاستئصال، وعلى أنه كان غادراً لا يفي بعهد، ماكراً يضع الدسائس المنكرة ليوقع بالأبرياء حتى من أخلص خُلصائه الذين يُتوهّم فيهم طموحاً إلى منزلة، أو تطلعاً إلى قيادة، كما أن الخمر كانت لذته الأولى فإذا عصفت برأسه جُنّ جُنونه، وحمل السيف ليفتك بندمائه ومن يوقعهم الحظ الأشأم في متناوله، وهو يهيئ المجلس لذلك محتفياً محتفلاً، داعياً من لا يرضى عنهم من كبار الجنود ليكون طعمة السيف ساعة الهياج، ثم يعتذر لدى الصحو بالشراب، وقد تآمر ودبّر وقدّر ونفّذ، كما يحدّث المؤرّخون جميعاً عن غضبه للنساء، ثم إعدامه لهنّ عقب أن تشفى نزوته الطائرة منهنّ، وقد خضعن له كرهاً دون طوع، وفوق هذه الشرور جميعها، فقد كان الرجل وثنياً غير موحّد لا يؤمن بربٍ فردٍ، وقد زار معبد سيوة عند غزوه لمصر، فاحتال الكهنة لينجوا من شرّه، فزعموا أنه ابن الإله آمون، وأنه ورث سلطانه في الأرض، ودوّنوا ذلك في بعض آثارهم الحجرية التي لا تزال لدينا اليوم، ونحتاج إلى صفحات كثيرة لنستقصي دواهيه، وقد ملئت بها المجلدات في القديم والحديث! فليت شعري أيكون هذا الطاغية الجبّار هو الملك العادل الموحّد المؤمن الذي عناه الله -عزَّ وجلَّ- في سورة الكهف حين قال:

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً . فَأَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً . قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً . ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً . كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً . ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً . قَالُواْ يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم سَدّاً . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَل بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾.

فالآيات الكريمة تتحدث بوضوح سافر عن إنسان عادل، مؤمن موحّدٍ يستغيثُ به المقهورون من الضعَفاء؛ لينقذهُم من بطش الطُغاة، وهو في صميم شعوره عابدٌ ورعٌ، يَضعُ الموازينَ بالقِسطِ، فيُعلن -كما حكى عنه كتاب الله- أن من ظلم النّاس شيئاً فسيجد عقابه منه، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً، أما الذي عدل وآمن وعمل الصالحات فله جزاءً الحسنى، وسيلقى الترحيب واليسر من ذي القرنين! هذا المؤمن الموحّد العادل الذي بذل جهده الجاهد ليبني سدّاً منيعاً يحمي الضعفاء من شر الأقوياء، وقد سخّر جهدَه وقوته وماله وأعوانه زمناً طويلاً ليرفع هذا السّد الشامخ حماية للمستجير وأمناً للّهيف، هذا المؤمن الموحّد العادل -سواء كان مَلِكاً عادلاً، أو نبياً كريماً كما تقول بعض الروايات- لا يمكن أن يكون الإسكندر=

....

=الأكبر المقدوني بحال، وهو الذي كان يهجم على الدولة الآمنة ليذبح الأطفال، ويستأصل الشيوخ، ويأسر الشباب، ويغتصب النساء ليكُنَّ متعة هنيئة للجنود، ثم يبحث عن المال ذهباً أو فضة لحمله جميعه حين يرحل عن المدينة المنكودة، تاركاً لها شتى الأوبئة من يُتمٍ وفقرٍ وعُري وجوعٍ، مما لا يقوم به غير طاغية جبّار، لم يستشعر إيماناً يدفعه إلى العدل والإحسان.

إننا إذا عذرنا قدماءَ المفسِّرين في حملهم هذه الآيات الكريمة من سورةِ الكهف على الإسكندر المقدوني؛ فلن نعذر من يفسرون اليوم كتاب الله من المحْدَثين، فيذكرون ما تُعُورف في التراث التفسيري من الروايات المتناقضة، ومن بينها تعيين الإسكندر المقدوني وترجيحه على سواه، وهم يعلمون أن ما ذكره المتقدمون -من أمثال الطبري والمسعودي والثعلبي- من مؤرّخي العرب عن الإسكندر المقدوني، لا يعدل في صدقه ما ذكره أبناء جلدته وعارفو تاريخه من المعاصرين؛ لأن مؤرّخي العرب لم يكونوا في عهودهم البعيدة ممن يستطيعون تدوين التاريخ العالمي على وجهه الصحيح، فأين هم من تواريخ الرومان واليونان والهنود والفرس والترك والصين في أحقابهم السحيقة، وآمادهم المتطاولة، وإذا كان تاريخ العرب أنفسهم في العصر الجاهلي، لم يخلُ للآن من اضطراب يختلط فيه الخطأ بالصواب، والروايات متوالية، والأشعار شاهدة، والأنساب مدوّنة، والوقائع متناقلة!

وإذا كان تاريخ العصر الجاهلي العربي لا يزال موضع دراسة وفحص وترجيح، فلن يكون تاريخ الإسكندر قد وصل إلى هؤلاء المؤرّخين على وجهه الصحيح فنقلوه واثقين!

لقد كتب المرحوم (على الدعاء لا على التقرير، وهي على هذا الوجه جائزة، أفادنيه شيخنا الألباني -رحمه الله-) الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي فصلاً طويلاً تحت عنوان: (الحضارات القديمة في القرآن)، نشره مسلسلاً بمجلة «الرسالة»، ثم جمعه في كتاب خاص، وقد تحدث عن الحضارات الفِرعونية واليمنية واليهودية والكلدانية بما يصلح أن يكون موضع أخذ وردٍّ كبيرين؛ لوجود فجوات في حديثه، ينبغي أن تملأ في ضوء ما وصلت إليه الاكتشافات الأثرية الحديثة من نتائج، ثم ختم كلامه بفصل عن الحضارة اليونانية في القرآن متحدثاً عن الإسكندر الأكبر المقدوني، وما ذكره القرآن -في زعمه- عنه بسورة الكهف، وقد تورّط الباحث الفاضل حين قال عن الإسكندر إنه مؤمن عادل موحّد؛ لأن القرآن الكريم ذكر ذلك عنه! وما أظن باحثاً معاصراً قرأ ما كتبه المتخصصون عن الإسكندر في الحديث والقديم يلجُ هذا المولج، وهو يرى تاريخ الرجل طافحاً بالشرور، وأجد الأستاذ الصعيدي يروي عن الطبري والرازي وابن كثير والقرطبي ما يؤيد وجهة نظره، حين اعترضه ناقد فاضل يستبعد أن يكون ذو القرنين القرآني هو الإسكندر المقدوني، ونحن في عصر حضاري ثقافي تمحصت فيه فنون شتى من مسائل التاريخ، ومن بينها تاريخ الإسكندر، فكيف نأتي البيوت من غير أبوابها؛ لنجعل روايات الطبري دافعةً لكل ما كتبه مؤرّخو الغرب عن الغازي الخطير.

ليس من غرضي الآن أن أحدد المقصود من ذي القرنين في كتاب الله، فأجعله فارسياً أو=

وهذه جملة مأخوذة من تواريخ يونان وفارس[1]؛ وأما روايات القصاص وأهل المبتدأ[2]: فمرفوضة عند أهل التحصيل، زعمت يونان أنه لما وُلد الإسكندر،

=يمنيًا، كما انتهى إلى ذلك بعضُ الدارسين، ولكني أمنع أن يكون هو الإسكندر المقدوني، إذ من المحال أن يكون طاغية من عتاة الطغاة مصلحاً أميناً عادلاً، وما جاء في (كتب التفسير) من الروايات لا يخرج عن قصص بدائي يرتفع إلى وهب بن منبه في بعض أسانيده، وقد انتشر هذا القصص في بلادٍ إسلامية من بينها فارس التي اصطلت بنار الإسكندر، فقتل ملوكها وخرّب ديارها، وترك خلفه أساطير داميةً تتحدثُ عن خوارقه، وقد استمرت هذه الأساطير متداولة على النطاق الشعبي، حتى جاء الشاعر الفارسي المسلم (نظام الكنجوي)، فحلا له أن يضع قصة (إسكندر نامة) مستعيناً بما تُدوول على الألسنة، وقد شاء له خياله أن يجعل من الإسكندر نبيّاً مرسلاً، وأن يبعث به إلى مكة ليطوف البيت الحرام حاجّاً معتمراً، ثم يوالي سيره لليمن فالهند فبلاد الأرمن فالعراق، ثم يتحول إلى منطقة الظلام بأرض الصين فيقابل الخضر ويحارب يأجوج ومأجوج، وكأني بالشاعر الفارسيّ وقد وجد قصة موسى -عليه السلام- مع العبد الصالح مجاورة لقصة ذي القرنين في سورة الكهف، فجعل القصتين قصة واحدة، هكذا كما شاء خياله الشاعر!! وانتقلت القصة إلى العربية، فاستعان بها المفسرون دون تمحيص، وصارت مدداً آخر يضاف إلى ما يعرفون، ولا نظلم جميع المفسرين؛ فمنهم من تحرّز واحتاط، ومنهم من تقبل كلَّ قول فحكاه.

نعلم أن كثيراً من الأعلام التي تحدّث عنها كتاب الله الكريم؛ مثل: ذي القرنين، وجالوت، وهاروت وماروت، وطالوت، وعُزير، كانت موضع التكثر والتزيّد لدى بعض الكاتبين، ومن الروائيين من استمد من روايات المفسرين خيوطاً كثيرة ليجعل من فنه تهاويل ذات بريق، وموضع الخطورة في هذا الصنيع أن قارىء القصة الروائية ذات الخيال البعيد يظن المؤلف يتابع الحقيقة وحدها دون تلفيق؛ لأنه يتحدث عن علم من أعلام القرآن الكريم، ويستمد خيوطه من كتب التفسير؛ لذلك كان من الواجب أن نمحِّص الحق، وأن نميط الأذى عن كتاب الله قدر ما نستطيع».

قلت: وصنع لبيدبا (الفيلسوف الهندي) كتابه «كليلة ودمنة»، الذي ترجمه إلى العربية (ابن المقفع) عن (الإسكندر ذي القرنين)، انظره (ص ١٤)! وهو مليء بالخرافات والمخالفات. انظر: «البداية والنهاية» (١٠/ ٣٠٥) (حوادث ٢٢٥)، «كتب حذر منها العلماء» (١/ ٤٨ و٢/ ٤٤).

(١) انظر تفصيلاً -أيضاً- في: «تاريخ سورية» للمطران يوسف الديس (٢/ ٦٠٠، ٦٠٩، ٦٢٨ - ط. سنة ١٨٩٥).

(٢) نشر محمد حميد الله في الرباط عن معهد الدراسات سنة ١٩٦٧م «المبتدأ والمبعث والمعاد» لابن إسحاق (ت ١٥١هـ)، ولوهب بن منبه (ت ١١٤هـ) كتاب بعنوان «المبتدأ»، ذكره الخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٤١٦)، ولأبي حذيفة إسحاق بن بشر البخاري (ت ٢٠٦) «المبتدأ» -أيضاً-، قال الذهبي عنه: «كتاب مشهور، في مجلدتين، ينقل منه ابن جرير فمن دونه، حدّث فيه ببلايا وموضوعات»، ونعت صاحبه بقوله: «القَصّاص الضعيف التالف»، ومن الكتاب جزءان في الظاهرية. انظر: «فهرس مخطوطات الحديث» (ص ٣٠٥ - بعنايتي)، و«تاريخ التراث العربي» (١/ ٤٦٩).

عُرض مولدُه على المنجّمين، فحكموا له بما آلَ إليه أمرُه، وترعرع الإسكندر، فهجسَ في نفسه صِدقُ ما حكموا له به، وهلكَ أبوه فيلقس[١]، وللإسكندر عشرون سنة، فخلفه على مُلكه، فركب البحر يؤمُّ المغرب، فوطئ أرضه، حتى انتهى [إلى أقاصيها، ثم رجع على طريق إفريقيةَ ومصرَ والشامِ متوجِّهاً إلى][٢] المشرق حتى قتل (دارا)، واستولى على ممالكه، وسار حتى أوغل في المشرق، فقتل فوراً مَلك الهند، وأقام ببلاده مدة، ثم سار حتى أتى (تُبَّتَ) فدان له مَلِكُها، وأهدى له شيئاً كثيراً من الذَّهب والمسك، ثم سار حتى أتى الصِّين، فتلقاه مَلِكُها بالطَّاعة[٣]، وأهدى له هدايا عظيمة من الذَّهب والحرير والوَبر وأنواع العِطر وآلات الصِّين، وعدل إلى نواحي يأجوج ومأجوج فبنى السَّد، ودخل الظُّلمات من ناحية القُطب الشمالي في أربع مئة رجل، فسار فيها ثمانية عشر يوماً، وخرج إلى طريق خُراسان، ولما انتهى إلى نهر بَلخ عقد عليه جسراً من ثلاث مئة سفينة، وبنى على غربيّه قصراً، فاغتاله بعض أصحابه فسقاه سُمّاً، فمرض بقُومَس، وتحامل حتى أتى شهرَزُوْر، وثقل بها، وهلك ببابل العتيقة، وكان أشقر أبرش، قصيراً أحنف[٤]، وابتدأ اليونانيّون تاريخ ملكه من أول سنة سبع وعشرين من [سني][٥] عمره، وهو ابتداءُ

(١) كذا هنا في الأصل! وكذلك في كثير من المواطن من كتابنا هذا، وبعضها مضى! وفي مطبوع «ثمار القلوب»: (فيليبس) بسين مهملة في آخره، ويعجمها بعضهم، ويسميه بعضهم «فيليب»، وفي «أخبار الدول» للقرماني: «فيلقوس»، والصواب بالباء؛ لأنّ القاف لا توجد في لغة اليونان والروم، وإذا أعجمت فيها قاف أبدلتها (كافاً).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من مطبوع «ثمار القلوب» تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٣) تذكر كتب الأدب قصة مطولة بين الإسكندر وملك الصين، انظرها في: «نشوار المحاضرة» (٧/ ١٩٣-١٩٥) و«المستجاد من فعَلات الأجواد» (ص ٤٨-٥٠ رقم ٢٧ - بتحقيقي) و«الفرج بعد الشدّة» (٢/ ٣٤٠-٣٤٢) جميعها للتنوخي، و«ثمرات الأوراق» (١٧٣-١٧٤) لابن حجة الحموي، و«لباب الآداب» (١٢٩).

(٤) أبرش: كأبرص -وزناً ومعنىً-؛ أي: به بياض، وأحنف؛ أي: برجله اعوجاج إلى الداخل. اهـ ذيل الأصل. (منه).

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من مطبوع «ثمار القلوب» تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

جَوَلانه، فكانت مدته بذلك[١] إحدى عشرة [سنة][٢] وثلاث مئة وستة وعشرين يوماً، ولم يكن يدعو إلى دين[٣]؛ وإنما كان يأمر بالتناصف وترك المظالم، إلى هنا كلام القاضي.

وقال حمزة الأصبهاني في كتابه[٤] «تواريخ الأمم»:

ومما ولّده[٥] القُصّاص من الأخبار: إنّ الإسكندر بنى بأرض إيران[٦] مُدُناً؛

(١) في مطبوع «ثمار القلوب»: «وكانت مدته في ذلك الوقت».

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من مطبوع «ثمار القلوب» تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٣) إذا كان لا يدعو إلى دين فكيف يكون مؤمناً؟ وإذا كان غير مؤمن فكيف يكون ذا القرنين المذكور في القرآن؟ والمذكور في القرآن وصفه الله بالإيمان كما قدمنا، فهو ليس الإسكندر الرومي على وجه قطعي. (منه).

قال أبو عبيدة: ولذا قال الذهبي في «ذات النقاب في الألقاب» (ص ٢٩ رقم ١٨٠): «ذو القرنين ليس بالإسكندر اليوناني»، واستبعد ذلك صاحب «مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: قصة ذي القرنين» (ص ٥٣-٧٩) بكلام طويل مسهَب جيّد.

(٤) بعدها في الأصل «كتاب»، ولا وجود له في «ثمار القلوب»، فحذفته، واسم كتابه «تاريخ ملوك الأرض»، طبع في كلكتا، سنة ١٨٦٦هـ في (٢١٢) صفحة، ونشره غوتوالد، في ليبسك، بعنوان «تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء» سنة (١٨٤٤هـ) في جزئين مع ترجمة لاتينية، ثم أعاد يوسف مسكوني نشره في بيروت، سنة ١٩٦١م، وصاحبه حمزة بن الحسن (ت ٣٦٠ هـ)، والكلام المذكور فيه (ص ٨٣ - ط. يوسف).

(٥) أي: رواه واخترعه.

(٦) قال الحافظ ابن عساكر في «الأربعين البلدانية» (ص ٧٤) في (البلد التاسع): (مَرْو الشّاهْجان): «قصبة خراسان، وهي من بناء ذي القرنين»! وقال -قَبلُ- (ص ٦٩): (البلد السابع): (جَيْ، وهي شهرستان): «مدينة أصبهان القديمة، ويقال: إنها من بناء ذي القرنين». (انظر: ملحق ١).

ووجدت في «تاريخ الموصل» (ص ٣٠٣) لأبي زكريا يزيد بن محمد الأزدي (ت ٣٣٤ هـ) شعراً لأبي العدام القمي، يمدح فيه (عيسى بن علي بن ماهان)، قال:

وكَادَ عيسى يكُون ذا القرنين ... بلَغَ المَشْرِقَين والمغْربين

لم يَدَع كابُلاً ولا زَابُليستا ... ن فما حولها إلى الرُّخَّجَيْن =

منها: أصبهان، وهَرَاة، وسَمَرْقَند، وليس للحديث أصل؛ لأن الرجل كان مُخرِّباً لا عامراً.

قال مؤلف الكتاب: وفي أصبهان وكونها من بناء ذي القرنين، يقول ابن طباطبا لأبي علي بن رُستم، وقد هدم سورَ أصبهانَ ليزيد به في داره:

وقد كَان ذو القَرنين يبني مدينةً فأصبح ذو القرنين يهدِم سُورَها
على أنّه لو كان في صَحنِ داره بقَرنٍ له سَيناءَ زَعزَعَ طُورَها

وقال آخر:

أيُّها الهادم سوراً هَدْمُه عينُ المنونِ
ليس يُوهي سُورَ ذي القَرنين إلا ذو قرون

وقد ضَرَب المثل بمسير ذي القرنين في الظلمات ابنُ لَنْكَك حيث[1] قال:

= و(الرُّخَّج) -بتشديد الراء مع ضمها، وتشديد الخاء مع فتحها-: كورة من نواحي كابل. وانظر: «معجم البلدان» (٣/ ٣٧٦-٣٧٧ و٤/ ٢٤١).

ومن أعاجيب الأكاذيب على علي -رضي الله عنه- في (قصة المهدي): «ويتوجه إلى الآفاق، فلا تبقى مدينة دخلها ذو القرنين إلا دخلها وأصلحها»! كما تراه في «عقد الدرر» (١٦٧)، و«البرهان» (٢/ ٧٨١).

وفي طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم من «ثمار القلوب»: «بنى بإيران شهر مدناً...».

(١) في الأصل: «النكل» وهو خطأ، صوابه الذي ذكرنا، وضبطه ابن خلكان في ترجمة (الخُبْزَأرْزيّ) من «وفيات الأعيان» (٢/ ١٥٦)، قال: «(لَنْكَك): بفتح اللام وسكون النون وكافين متواليتين، وهو لفظ أعجمي؛ معناه بالعربي: أُعَيْرَج، تصغير أعرج؛ لأن كلمة (لنك) معناها أعرج، وعادة العجم إذا صغروا اسماً ألحقوا في آخره كافاً».

وانظر: «معجم مقيدات ابن خلكان» (٢٨٥-٢٨٦) للعلاّمة عبدالسلام هارون.

قال أبو عبيدة: وهو محمد بن محمد بن جعفر البصري، وصفه الثعالبي في «يتيمة الدهر» (٢/ ١١٦-١٢٥) بفَرْدِ البصرة، وصدر أدبائها، وقال عنه: «أكثر شعره مُلَح وطُرَف، جُلُّها في شكوى الزمان وأهله، وهجاء شعراء عصره».

وهو صاحب البيت المعروف:

نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا ولو نطقَ الزّمانُ إذاً هَجَانا

توفي نحو سنة (٣٦٠ هـ).

وجمع شعره الأستاذ زهير غازي زاهد، ونشره في مجلة «الخليج العربي»، الصادرة عن جامعة=

تولـى شــبابٌ كنـتَ فيــه منعَّمــاً تَــروحُ وتغــدو دائــم الفَرَحــاتِ
فلستَ تُلاقيـه ولــو سِرتَ خَلفَـه كما سار ذو القرنيـن فـي الظُّلمـاتِ

اهـ ما ذكره الثعالبي في كتابه «ثمار القلوب»[١].

الجواب عن بقية الأسئلة

[لم دعي ذا القرنين؟]

قدمنا[٢] أن الخضر قال له: أنت صاحب قرني الشّمس، وأنَّ أول من سمّاه ذا القرنين: الخضر.

قال الفخر[٣]: «وقيل سُمِّي ذا القرنين: لأنه انقرض في وقته قرنان من النـاس، وقيل: كان صفحتا رأسه من نحاس، وقيل: كان على رأسه ما يشبه القرنيـن، وقيـل: كان لتاجه قرنان، وقيل[٤]: لأنه طاف قرنَيِ الدنيا يعني شرقها وغربها، قلت[٥]: ولعل هذا القول مأخوذ من القول الأول، وقيل: كـان لـه قرنـان: أي ضفيرتـان[٦]، وقيـل: يجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشاً، كأنه ينطح أقرانه[٧].

=البصرة، العدد الأول، سنة ١٩٧٣ (ص ٢٢٣-٢٨٠)، والآبيات المذكورة عنده.

(١) (ص ٢٨٠-٢٨٦).

(٢) ليس كذلك، بل ذكره فيما سيأتي (ص ١٤٧).

(٣) في تفسيره المسمى «مفاتيح الغيب» (٢١/ ١٤٠).

(٤) عزا الرازي هذا للنّبي ﷺ، قال: «عن النّبي ﷺ سُـمِّي ذا القرنيـن لأنـه طـاف...» وهـذا ليس بحديث، وقد سبق أنه من قول الزهري وغيره.

(٥) المراد: المصنِّف -رحمه الله تعالى- .

(٦) قال الرازي بعده: «من ضمن الأقوال: «إن الله -تعالى- سخر لـه النـور والظلمـة، فـإذا سـرى يهديه النور من أمامه، وتمدّه الظلمة من ورائه»».

(٧) ذكـره ضمـن أقـوال عديـدة جمـعٌ، سيأتي ذكـر جماعـة منهـم فـي الهـامش الآتـي، ومنهـم: الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٠٠)، وفيه: «لأنه» بدل «كأنه»، ونقله عنه القاسمي فـي «محاسـن التـأويل» (١١/ ٩٢-٩٣)، وزاده وضوحاً بقوله: =

وقيل: إنه رأى في المنام كأنه صعد الفلك فتعلّق بطرفَيِ الشمس وقرنيها

= «أقول: هذا اللقب من الكناية عن كل ذي قوة وبأس وسلطان؛ لأن ذا القرون من المواشي أقواها وأشدّها، والكناية بالقرن عن القوّة والسلطان معروفة عند اليهود، الذين هم السائلون، وقد وقع في «توراتهم» في نبوة دانيال -عليه السلام- قوله عن الملك: (فإذا أنا بكبش واقف عند النهر وله قرنان)، ثم قوله: (وبينما كنت متأملاً إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها، وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه)، قالوا: القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان، والتيس رمز إلى مملكة اليونان، وقرنه رمز إلى أول ملك على هذه المملكة، وهو الإسكندر الكبير، وما أشار إليه من سرعة مسير هذا التيس إيماء إلى كثرة ما دهم البلاد به من الغارات المتواصلة، وقوله: (خرج من المغرب) إشارة إلى خروجه من مكدونية، التي هي إلى غرب فارس، وذلك حين تقدم على جيوش داريوس وكَسَره، وتعقبه إلى داخل مملكته، والقصد أن هذا اللقب (ذو القرنين) شهير وليس من أوضاع العرب خاصة، كما زعمه بعضهم، بل هو معروف عند العبرانيين -أيضاً-، وقد يظهر أنه من رموزهم الخاصة التي سرت إلى العرب، وأقرتهم عليها».

قال أبو عبيدة: وكلامه متعقَّب بما نقلناه عن محمد أبي اليسر عابدين في «أغاليط المؤرخين».

انظر: التعليق على (ص ٣٣).

وهناك خرافات كثيرة نسِجَت حول (القرنين)، ولعلَّ لها صلة بذي القرنين هذا؛ كقول القزويني في «عجائب المخلوقات» (ص ٢٤٩ - ط. الحلبي): «وأنه إذا دُفِن القرنان تحت الشجرة بكَّرَتْ بالحمل»، وأن أهل الجاهلية كانوا يُعَلِّقون بجدار الكعبة المشرفة قرنين!

وانظر في هذا: «العقلية الصوفية ونفسانية التصوف» (ص ٤١٠) لعلي زيعور، نشر دار الطليعة، بيروت، سنة ١٩٧٩.

وذكر سبتينو موسكاتي في كتابه «الحضارات السامية» (ص ١١٠، ٢٦٤) تعريب يعقوب بكر، لوحات رافدية قديمة لإله آشوري وهو يلبس قلنسوة ذات قرنين، وذكر زيعور (ص ١١٠) أن الملك آشور بانيبال كان يجمع الحكماء، ويقول لهم: «الحمل ذو القرنين، يَحلُّ محلَّ رجلٍ، رأسُ الحملِ يُعطَى بدلَ رأس الرجل»!

قال أبو عبيدة: ما جيلٌ من الأجيال، ولا أمةٌ من الأمم إلا ولهم أمور قد اصطلحوا عليها، وسنن قد ألفوها، يُحمدون في بعضها، ويُذمّون، ولم يحوِ جيل منها جميع المحمود، ولا حازت أمّة منها جميع المذموم، ولكن تقاسموا المحامد والمذام، وبالجملة فأكثر الخرافات في (الهنود)، ثم في (الفرس) و(العرب) -ببُعدهم عن نصوص الوحي الذي فيه العصمة- وأقلّهم تخليطاً الروم، وذلك لأسباب، على أنهما ما خلوا ولا عروا. أفاده أبو حيان التوحيدي في «البصائر والذخائر» (٧/ ١٦٨، ١٧٣).

وجانبيها، فسمّي لهذا السبب بذي القرنين[1].

---

(١) وزاد في آخره ضمن الأقوال: «سمّي بذلك؛ لأنه دخل النور والظلمة»، وهذه الأقوال جميعاً عند من صنفوا في (الألقاب)؛ مثل: ابن الجوزي في «كشف النقاب» (ص ٨٢ رقم ٦٢٥)، والذهبي في «ذات النقاب» (ص ٢٩ رقم ١٨٠)، وزادا على المذكور قولين آخرين؛ هما:

الأول: أنه ملك الروم وفارس.

والآخر: لأنه كان كريم الطرفين.

وبين الثعلبيّ في «الكشف والبيان» (٦/ ١٩٠) القول الأخير، فزاد على المذكور: «من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه».

وانظر: «معجم الألقاب، والأسماء المستعارة في التاريخ العربي الإسلامي» لفؤاد السيد (١٣٠).

وبعض هذه الأقوال مأثورة عن وهب بن منبه.

أخرج أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٤٤ رقم ٩٥٥)، وابن جرير في «التفسير» (١٦/ ٩) عن وهب بن منبه، قال:

«كان ذو القرنين ملكاً، قيل: لم سمّي ذا القرنين؟ قال: اختلف فيه أهل الكتاب، فقال بعضهم: ملك الروم وفارس، وقال بعضهم: كانت في رأسه شبه القرنين».

وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ٢٤٢) إلى أحمد في «الزهد» -وليس في مطبوعه، وهو ناقص-، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وذكره ابن الأنباري في «الأضداد» (ص ٣٥٥).

وأخرج ابن جرير عن وهب -أيضاً-، قال: «إنما سمّي ذا القرنين أن صفحتي رأسه كانتا من نحاس»، وضعّفه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٩٥)، وزاد الثعلبي في «الكشف والبيان» (٦/ ١٩٠) قولين آخرين على ما تقدم؛ هما:

الأول: لأنه إذا حارب قاتل بيده وركابه جميعاً.

والآخر: لأنه أعطي علم الظاهر الباطن.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما تقدم، أنه كان له غديرتان.

واستوعب صِدّيق حسن خان في «فتح البيان» (٤/ ٢٥٣) تلك الأقوال، وزاد: «وقيل لأنه ملك الروم والترك».

وتجد بعض الأقوال السابقة عند: الزجّاج في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٣٠٨)، والنحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٢٨٣-٢٨٤)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٥٩٣)، وابن الأثير في «النهاية»=

والله أعلم أي هذه الأقوال أصح، لكنَّ الأقرب إلى العقل أنه سمّي بذلك لأنه طاف قرنَيِ الدنيا يعني غربها وشرقها وملك ما بينهما.

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»[(١)]: «وهو قول الزهري»[(٢)]، ونحوُ هذه الأقوال في «شرح البخاري»[(٣)] للحافظ ابن حجر، وذكر من جملتها قولَ الزهري وعبارَته: «وقيل: لأنه بلغ المشرق والمغرب» أخرجه الزُّبير بن بكّار من طريق سليمانَ بن أسيد عن ابن شهاب (الزهري)، قال: إنَّما سُمِّي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها[(٤)].

=(٤/ ٥٢)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٦/ ١٩٠)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦٣-١٦٤)، والطبرسي في «مجمع البيان» (٦/ ٤٣٥-٤٣٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ١٨٣-١٨٤)، والبيضاوي في «أنواره» (٢/ ٢١)، والخازن في «لبابه» (٤/ ٢٢٩)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٨)، وابن كثير في «التفسير» (٩/ ١٨٣-١٨٤ - ط. مكتبة أولاد الشيخ)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٧)، والبقاعي في «نظم الدرر» (١٢/ ١٢٨)، وجمال الدين بن ظهيرة القرشي في «الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف» (ص ٥١)، والآلوسي في «روح المعاني» (١٦/ ٢٤)، وقال على إثرها: «وأما الوجوه المذكورةُ من وجهِ تسميته، ففيها ما لا يكادُ يصحُّ، ولعلَّه غيرُ خفيّ عليك».

قال أبو عبيدة: أضعف هذه الأقوال: أنه كان له قرنان حقيقةً، وهذا أنكره عليٌّ في رواية القاسم بن أبي بزة. قاله ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٨٣).

قلت: وأنكره -أيضاً- في رواية أبي الورقاء عنه، وقد تقدم تخريج ذلك.

وانظر في الراجح: ما سيأتي قريباً، والله الهادي.

(١) (٢/ ١٥٥).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) (٦/ ٣٨٢-٣٨٣)، وأحال عليها في كتابه «نزهة الألقاب» (١/ ٣٠١ رقم ١٢٠٣).

(٤) رجح ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٨) ما مال إليه المصنّف، فقال:

«واختلف الناس في وجه تسميته بذي القرنين، فأحسنُ الأقوال أنّه كان ذا ضفيرتين، من شعرهِما قرناه، فسُمِّي بهما، ذكَره المهدويُّ وغيرُه، والضفائر: قرون الرأس».

ثم سرد الأقوال، وقال على إثرها:

«وهذا كله بعيد -وأوْرَد قول عليٍّ المتقدم (ص ١١٥-١١٧)-: إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه ضُرِب=

[ما هو تمكنه في الأرض]

وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤].

قال الفخر[١]: «الأولى حمله على التمكين في الدين، والتمكين الكامل في الدين هو النّبوّة[٢]، ... ويحتمل أن يكون المراد منه: التمكين بسبب المِلْك من حيث [إنه][٣] مَلَكَ مشارق الأرض ومغاربها، والأول أولى؛ لأن التمكين بسبب النبوَّةِ أعلى من التمكين بسبب الملْك، وحمل كلام الله على الوجه الأكمل الأفضل أولى».

وفي «الخازن»[٤] في تفسير هذه الجملة: «أي: وطَّأنا له، والتمكين تمهيد الأسباب، ... وقد سهّل الله عليه السَّيرَ في الأرض، وذلل له طريقها».

وقال البيضاوي[٥]: «أي: مكّنّا له أمره من التَّصرف في الأرض كيف شاء، فحذف المفعول».

=على قرن رأسه...»، وقال عَقِبه: «وهذا قريب».

قلت: وهو أولى من غيره، وفيه آية باهرة؛ لأنه بُعِثَ بعد موته، ولذا ذكره ابن أبي الدنيا في كتابه «من عاش بعد الموت» (ص ١١٤)، وأسند خَبر عليٍّ المتقدم.

ولذا قال أبو جعفر النحاس في «معاني القرآن الكريم» (٤/ ٢٨٣) بعد ذكر خبر علي: «وهذا أجلُّ إسناد، رُويَ في تَسَمِّيه بذي القرنين».

قلت: والعالي غال، ولا سيما من أمثال هذا الصحابي: علي -رضي الله عنه-، ولي ديوان في مروياته في التفسير وأقواله فيه، يسر الله إتمامه بخير وعافية، والله الهادي.

بقي التنبيه على أن مقولة الزهري سبق تخريجها في التعليق على (ص ١٠٦).

(١) في «تفسيره» (٢١/ ١٤٠-١٤١).

(٢) زيّفنا هذا القول فيما مضى (ص ٩٩، ١٠٥).

(٣) سقط من الأصل، وأثبته من مطبوع «تفسير الرازي».

(٤) في تفسيره المسمّى «لباب التأويل» (٤/ ٢٢٩).

(٥) في تفسيره المسمّى «أنوار التنزيل» (٢/ ٢١).

وقوله -تعالى-: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤].

قال الفخر[١]: «السبب في أصل اللغة: عبارة عن الحبل، ثم استُعِير لكلِّ ما يُتَوَصَّلُ به إلى المقصود، وهو يتناول العلم والقدرة والآلة، فيكون معناه: أعطيناه من كل شيءٍ من الأمور التي يُتوصَّل بها إلى تحصيل ذلك الشيء».

وفي «الخازن»[٢]: «قوله -تعالى-: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤]: مما يحتاج إليه الخلق، وكل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء، ﴿سَبَباً﴾؛ أي: علماً يُتَسَبَّبُ به إلى كل ما يريد، ويسير به في أقطار الأرض[٣]».

وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية»[٤]:

«أي: وسَّعْنا مملكته في البلاد، وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمَّات العظيمة، والمقاصد الجسيمة».

ثم قال في تفسير قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤]: «أي: علماً يطلب به أسباب[٥] المنازل.

قال إسحاق: وزعم مقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز، فمن اتّبعه على دينه وتابعه عليه وإلا قتله[٦] ...

وقال قتادة ومطر الورّاق: معالم الأرض، ومنازلها، وأعلامها، وآثارها[٧].

---

(١) في تفسيره «مفاتيح الغيب» (٢١/ ١٤١).

(٢) في تفسيره المسمى «لباب التأويل» (٤/ ٢٢٩).

(٣) تتمة كلامه: «وقيل: بلاغاً إلى حيث أراد، وقيل: قرّبنا له أقطار الأرض».

(٤) (٢/ ١٥٧).

(٥) في مطبوع «البداية والنهاية»: «بطلب -بباء موحدة أوله- أسباب» دون «به».

(٦) أسنده ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٤٠).

(٧) أخرجه عبدالرزاق، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٨٣ رقم ١٢٩٤٤)، وابن المنذر -كما في «الدر»=

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قوماً إلا حدّثهم بلغتهم(١).

والصَّحيحُ: إنه يعمُّ كلَّ سببٍ يُتَوصَّل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها، فإنّه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة والمطاعم والزَّاد، ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر»(٢).

=(٥/ ٤٥٠)- عن قتادة، قال: «منازل الأرض وأعلامها».

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٣٨٣ رقم ١٢٩٤٢)، ولم يعزه في «الدر» (٥/ ٤٥٠) إلا له.

(٢) نحوه عند ابن كثير في «التفسير» -أيضاً- (٩/ ١٨٣-١٨٤ - ط. مكتبة أولاد الشيخ)، وزاد قولاً كان يقوله كعب الأحبار، وأنكره عليه معاوية، قال:

«وقال ابن لهيعة: حدثني سالم بن غيلان، عن سعيد بن أبي هلال، أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا؟!! فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك؛ فإن الله -تعالى- يقول: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤].

[أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٣٨٣ رقم ١٢٩٤٣)، ولم يعزه في «الدر» (٥/ ٤٥٠) إلا له].

وهذا الذي أنكره معاوية -رضي الله عنه- على كعب الأحبار هو الصواب، والحقُّ مع معاوية في الإنكار، فإن معاوية كان يقول عن كعب: إن كنّا لنبلوا عليه الكذب؛ يعني: فيما ينقله، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس في صحيفته، ولكن الشأن في صحيفته أنها من الإسرائيليات، التي غالبُها مبدَّلٌ مُصَحَّفٌ، محرَّفٌ مختَلق، ولا حاجة لنا مع خبر الله -تعالى- ورسول الله ﷺ إلى شيء منها بالكلية؛ فإنه دخل منها على الناس شرٌّ كثيرٌ وفسادٌ عريضٌ.

وتأويلُ كعبٍ قولَ الله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤]، واستشهاده بذلك على ما يجده في صحيفته، مِنْ أنه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترقي في أسباب السماوات، وقد قال الله في حق بُلقيس: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ [النمل: ٢٣]؛ أي: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين، يسر الله له الأسباب؛ أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي، وكسر الأعادي وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً، والله أعلم».

وقال ابن القيم في «شفاء العليل» (ص ١٨٩) بعد أن نقل أقوال السّلف في ذلك: =

[ما هو إتباعه السبب]

وقوله -تعالى-: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٥]؛ أي: فأراد بلوغ المغربِ فأُتبع سبباً يوصِلُه إليه حتى بلَغَه[1].

= «وقال المبرد: وكل ما وصل شيئاً بشيء فهو سبب، وقال كثير من المفسرين: آتيناه من كل ما بالخلق إليه حاجة علماً ومعونةً له، وقد سمّى الله -سبحانه- الطريق سبباً في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٥]، قال مجاهد: طريقاً، وقيل: السبب الثاني هو الأول؛ أي: أتبع سبباً من تلك الأسباب التي أوتيها، مما يوصله إلى مقصوده».

ويؤثَر عن ابن عباس -كما عند ابن جرير (١٦/ ٩)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٨٢ رقم ١٢٩٤٠)، وابن المنذر كما في «الدر» (٥/ ٤٤٩)- قوله: «علماً»، وعلقه عنه أبو جعفر النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٢٨٥)، وقال: «والمعنى على هذا التفسير: علماً يصل به إلى المسير إلى أقطار الأرض»، ونحوه عند ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ١٢٩).

قال أبو عبيدة: ويُذكر هنا أثرُ علي: «سخر له السحاب، وبُسط له النور، ومُدّ له الأسباب»، ولكنه لم يثبت، كما قدمناه آنفاً (ص ١٠٦).

وقال البغوي في «معالمه» (٣/ ٥٩٣-٥٩٤) عقب أثر علي:

«فكان الليل والنهار عليه سواء، فهذا معنى تمكُّنه في الأرض؛ وهو: أنه سهّل عليه السير فيها، وذلل له طرقها».

ونقله الخازن في «لباب التأويل» (٤/ ٢٢٩)، وغيره.

ومما ينبغي لَفْتُ النظر إليه -وهو يُضعف استدلال كَعبٍ السابق بالآية-: أنّ بعضَ الأُصوليين يمثلون بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤] بالعام المخصوص قطعاً.

انظر: «التحبير شرح التحرير» (٦/ ٢٥١٥)، ووجَّه ذلك ابنُ عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٨) بقوله:

«﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾: عموم؛ معناه: الخصوص في كل ما يمكن أن يعلَمَه ويحتاجَ إليه، وثَمَّ -لا محالةَ- أشياءُ لم يُؤتَ منها سبباً، يَعلمُهَا به».

(١) نحوه عند الرازي في «مفاتيح الغيب» (٢١/ ١٤١).

وقال البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٥٩٤):

«﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٥]؛ أي: سلك وسار طريقاً، قرأ أهلُ الحجاز والبصرة: ﴿فاتّبع﴾=

....

=موصولاً مشدداً، وقرأ الآخرون: بقطع الألف وجزم التاء، وقيل: معناهما واحد، والصحيح الفرق بينهما، فمن قطع الألف؛ فمعناه: أدرك ولحق، ومن قرأ بالتشديد، فمعناه: سار، يقال: ما زلت أُتْبِعُه حتى اتَّبَعْته؛ أي: ما زلتُ أسير خلفَه حتى لحقتُه».

وانظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٨-٥٣٩)، « لباب التأويل» (٤/ ٢٢٩)، «روح المعاني» (١٦/ ٣١)، ونسب قراءة همزة الوصل وتشديد التاء إلى نافع وابن كثير.

وانظر: «التذكرة في القراءات الثمان» (٢/ ٤١٨)، و«حجة القراءات» (ص ٤٢٨) لابن زنجلة.



الفصل الثاني

في مسير ذي القرنين إلى منتهى المغرب الأقصى

قال -تعالى-: ﴿حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذا القَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً . قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ [الكهف: ٨٦-٨٨].

حيث تحقق لدينا بما لا شك فيه أنّ ذا القرنين باني السّدّ، هو عربي، ومن ملوك حِمير، وأنّ اسمَه هو الصَّعب بن الحارث، فلنْذكر قصتَّه ومسيرَهُ إلى منتهى بلاد المغرب الأقصى في إفريقية، ثم اجتيازَه إلى بلاد الأندلس، ومنها إلى المغرب الأقصى[1] (أميركا) ممتطياً متون السفن، وهو المشارُ إليه بقوله -تعالى-: ﴿حَتَّى إذا

(١) ردّ غيرُ واحدٍ من المعاصرين الفتوحات المذكورة، واعتبروها شطحات خيال، لا تستَنِدُ إلى الحقيقة التاريخية، وأكّدوا ذلك بما جاء في النقوش القديمة، وردّدَ مع وهبٍ ما سيأتي جمعٌ؛ منهم: نشوان بن سعيد الحميري في كتابه المطبوع «ملوك حمير وأقيال اليمن».

ونجدهم حقّاً قد لوّنوا الأحداثَ التاريخية في الحِقبة الحميرية على العموم بأطيافٍ خيالية... وأدخلوا في كتبهم حوشيَّ اللفظ والمعنى، وضمَّنوها حوادث لا أصلَ لها... ولقد فطن ابنُ خلدون إلى ذلك، وشعر بعدم صدق الإخباريين في تناولهم سيرة ملوك حمير، وأشار إلى ذلك في «مقدمته» المشهورة (ص ١٤)... قائلاً:

«ومن الأخبار الواهية للمؤرخين... ما ينقلونه كافةً في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب... أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقيا والبربر من بلاد المغرب... وكذلك يقولون في (تُبّع) الآخر وهو أسعد أبو كرب... إنه ملك الموصل وأذربيجان، ولقي الترك فهزمهم... وإنه بعد ذلك أغزى ثلاثةً من بَنيهِ بلادَ فارس، وإلى بلاد الصفر من بلاد أمم الترك وراء النهر، وإلى بلاد الروم... فملك الأول البلاد=

بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٨٦]، ملخصين ذلك من كتاب «التيجان في معرفة ملوك الزمان» للإمام وهب بن منبه اليماني رواية النسّابة أبي محمد عبدالملك بن هشام، وهو كتاب خاص بملوك حمير ملوك اليمن، طبع في مطبعة المعارف في حيدر آباد الدكن في الهند[1]، قال:

ملك الصعب ذي القرنين

لما ماتَ الملكُ الحارث بن الهمال، ولي بعده ابنه الصعب ذو القرنين بن الحارث الرائش ذي مراثد بن عمرو الهمال ذي مناح بن عاد ذي شدد بن عامر بن الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود -عليه السلام- ابن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح -عليه السلام-.

ولما ولي تجبّر تجبّراً لم يكن في التبابعة متجبّرٌ مثله، ولا أعظمُ سلطاناً، ولا أشدُّ سطوةً، وكان له عرشٌ من ذهب، صامت مرصّع بالدُّر والياقوت والزّمرّد والزّبرجد، وكان يلبس ثياباً منسوجة من الذّهب، منظومة درّاً وياقوتاً، وكان عظيم الحجابة، فبينما هو في ذلك المكان إذ رأى رؤيا[2]، كأنّ آتياً أتاه فأخذ بيده، وسار به حتى رقي به جبلاً عظيماً منيفاً، لا يسلك فيه سائرٌ من هولِ ما رَأى، إذ أشرف على

=إلى سَمَرْقند وقطع المفازة إلى الصين، فوجد أخاه الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها، فاتحاً في بلاد الصين، ورجعا جميعاً بالغنائم، وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير!!! فهي بها إلى هذا العهد... وبلغ الثالثُ إلى قسطنطينية، فداسها ودوّخ بلاد الروم ورجع...!!!».

ولا شك أن هذه الأخبار كلّها بعيدةٌ عن الصّحة... عريقةٌ في الوهمِ والغلطِ، وأشبهَ بحديثِ القَصص الموضوعة.

وانظر -للاستزادة-: «معالم تاريخ اليمن» (ص ١٢) لسلطان ناجي، و«العرب قبل الإسلام» (ص ١٣٠) لجرجي زيدان، و«مفاهيم جغرافية في القصص القرآني» (ص ١٣٣-٢٢٣).

(١) ثم طبع بصنعاء، عن مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، والكلام الآتي (ص ٩١) من هذه الطبعة.

(٢) أوردها أبو الليث السمرقندي في «بحر العلوم» (٢/ ٣١٠).

جهنّم، وهي تحته تَزْفر، وأمواجها تلتطم، وفيها قومٌ سود تتخطفهم النّيران من كلّ جانب، فقال له الصعب: من هؤلاء؟ قال له: الجبابرة، فاخلع يا صعبُ رداءَ الكبرِ، وتواضعْ لله، يعطك الله عزاً أعظم من عزّك، وهيبةً أجلَّ من هيبةِ الكِبرِ، وعزّاً أعظمَ من عزّ المُلْك، فاختر لنفسك أيَّ المقامَيْن أحبَّ إليك؟ قال: فلمّا أصبح برز للنّاس بعد الحجابة، وتواضَعَ وانبسطَ بعدَ العزِّ والقَسوَة، وجلسَ بين الناس، ودخل قلبَه وحشةٌ خوفاً من الله، ثم أمر بالعرش فأُخرِج، ثم قال: أيها الناس!! اهتكوا ولكلّ يدٍ ما أخذَتْ، فهتك العرش، وانتهبه الناس، ثم رمى بثوبه، فتخطّفه الناس، ثم قال: أيها الناس! إن الله الجبّار يبغضُ الجبّارين، قهرَ [الموتُ][1] مَنِ ادّعى أنه ندُّه، وأذلّ بالمُلْك من ادّعى أنه ضدُّه، واستأثر بالبقاء بعد ذهاب الإملاء.

قال وهب: ثم إنه رأى في الليلة الثانية رؤيا، وكذلك في الثالثة، والرابعة، وفصّلَ في الكتاب[2] ما رأى، وكانت الرابعةُ أعظمَ من الثالثة، والثالثةُ أعظمَ من الثانية، وخلاصتُها يرجع إلى أنه سيطوف الأرض، ويملِك الدنيا، ويدينُ له العالَمُ، فلما أصبح بعد الليلة الرابعة أرسل فجمع وزرائه وأهلَ مشورته، فقصّ عليهم ما رأى، فأحجموا عن تأويلها ؛ لهول ما رأى فيها، ثم قام إليه شيخٌ منهم له عقل ودين، قد جرّب الأمور[3]، فقال: أيها الملك! ليس على الأرض مَنْ يفسّر تأويلَ رؤياك إلاّ نبيٌ ببيت المقدس من ولد إسحاق بن إبراهيم الخليل، قال له الصعب: ولله نبيٌ على الأرض؟ قال له الشيخ: نعم أيها الملك! ما أتيتُ المَلِكَ إلا وقَدْ لقِيتُه وسمعتُ منه ما يدعو إليه، فأمر ذو القرنين بالجنود، فجُمعت، فجمَعَ جنوداً لم يجمعها مَلِكٌ قبلَه، وذلك عند كمال قوة بني سام بن نوح -عليه السلام-[4]، فلمّا اجتمع للصعبِ

(١) سقط من الأصل! وأثبتّه من «التيجان» (٩٢).

(٢) انظر: «التيجان» (ص ٩٢-٩٣).

(٣) في مطبوع «التيجان» (٩٤) بعدها: «وحكمته الدهور».

(٤) بعدها في مطبوع «التيجان» (٩٤): «وبه كانوا يتداعون في ذلك الزمان، وهم عمود النسب على مَن ناوأهم من جميع العجم».

ذي القرنين الجُموعُ العظيمةُ، والعساكرُ الجرّارةُ[١]، نهضتِ الجنودُ وجعل على طالِعَتِه ألفَ ألفِ فارس، ثم مشى بعدُ بالخيلِ والرَّجِل، فسار حتى انتهى إلى البلد الحرام، فنزل به، وقضى حجَّه، ثم سار[٢] إلى بيت المقدس، فلما نزله، سأل عن النّبي الذي ذكِر له، ولم يطلبْ شيئاً غيرَه حتى ظهر عليه، قال له الصَّعبُ: أنبيٌّ أنت؟ قال له موسى الخضر: نعم، قال له: ما اسمك؟ وما نسبك؟ قال له: موسى الخضر بن خضرون بن عموم بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل -عليه السلام-[٣]، قال له الصَّعبُ: أيوحى إليك يا موسى؟! قال: نعم يا ذا القرنين،

(١) بعدها في مطبوع «التيجان» (٩٤-٩٥) كلام فيه طول، وأورد ضمنه شعراً.

(٢) في مطبوع «التيجان» (٩٥): «فنزل به، ومشى في الحرم راجلاً حافياً، وطاف بالبيت، وحلق، ونحر، ثم قضى حجَّه، ومشى في الحرم راجلاً حافياً، حتى إذا خرج منه، ركب، ثم سار...».

(٣) هذا أحدُ عشَرةِ أقوالٍ في نسَبه، وهو مردود، وقد ذكر الأقوالَ العشَرة الحافظُ ابنُ حجر في «الإصابة»، نلخصها فيما يأتي:

١- قيل: إنه ابن آدم لصلبه. ٢- إنه ابن قابيل بن آدم. ذكره أبو حاتم السجستاني في كتاب «المعمرين» [ص ٩]. ٣- جاء عن وهب بن منبه أنه: بليا بن ملكان بن فالغ بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وبهذا قال ابن قتيبة وحكاه النووي. ٤- إنه المعمر بن مالك بن عبدالله بن نصر بن الأزد. ٥- هو ابن عمائيل بن النور بن العيص بن إسحاق. ٦- إنه من سبط هارون أخي موسى، روي عن الكلبي، قال: وهو بعيد، وأعجب منه قول ابن إسحاق: إنه أرميا بن خلقيا، وقد رد ذلك أبو جعفر بن جرير. ٧- إنه ابن بنت فرعون. ٨- إنه اليسع، وهو بعيد -أيضاً-. ٩- إنه من ولد فارس. ١٠- إنه من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل. حكاه ابن جرير الطبري في «تاريخه» اهـ.

أقول: إن ابن جرير ذكر هذا الكلام على قصة الخضر وخبره مع موسى -عليه السلام- (ج ١ ص ٢٢٠ - ط. دار الكتب العلمية)، قال: كان الخضر ممن كان في أيام أفريدون الملك بن أنغيان في قول عامة أهل الكتاب الأُوَل، وقبل موسى بن عمران ﷺ، وقيل: إنه كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر، الذي كان أيام إبراهيم خليل الرحمن ﷺ، وهو الذي قضى له ببئر السبع، وهي بئر كان إبراهيم احتفرها لماشيته في صحراء الأردن، وإن قوماً من أهل الأردن ادعوا الأرض التي كان احتفر بها إبراهيم بئره، فحاكمهم إبراهيم إلى ذي القرنين، الذي ذكر أن الخضر كان على مقدمته أيام سيره في البلاد، وإنه بلغ مع ذي القرنين نهر الحياة، فشرب من مائه وهو لا يعلم، ولا يعلم به ذو القرنين ومن معه؛ فخلد، فهو حيٌّ عندهم الآن، وزعم بعضُهم أنه مِنْ ولد مَنْ كان آمن بإبراهيم خليل الرحمن، واتبعه على دينه، وهاجر معه من أرض=

قال الصَّعب يوماً: هذا الاسم الذي دعوتني به ما هو؟ قال: أنت صاحب قرني الشَّمس، وذلك أنَّ أول مَنْ سمَّاه ذا القرنين الخضر[١]، ثم قصّ ذو القرنين عليه المرائي التي رآها، فأوّلَها له بما قدَّمناه، ثم أنه رأى سبباً: كأنّ الأرضَ كلَّها عليه ليلٌ إلى أن طلعت له الشمس من المغرب بيضاءَ صافية، فسارَ يلقى الشمس، فلم يزل يتبع نورَها، حتى بلغ أرضاً مفروشةً بنجوم السّماء، فمشى عليها، ثم أفاق، فأعلم الخضر بهذا السبب، قال [له] الخضر: أمرت بأن تسير إلى المغرب[٢]، فكأن

=بابل حين هاجر إبراهيم منها، وقال: اسمه بليا بن ملكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قال: وكان أبوه مَلِكاً عظيماً، وقال آخرون: ذو القرنين الذي كان على عهد إبراهيم ﷺ، هو أفريدون بن أنغيان، قال: وعلى مقدمته كان الخضر.

(ثم قال): قال ابن إسحاق بعد أن ساق بسنده: بلغني أنه استخلفَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- في بني إسرائيلَ رجلاً منهم، يقال له ناشية بن أموص، فبعث الله -عزَّ وجلَّ- لهم الخضر نبيّاً، وقال: واسم الخضر فيما كان يزعم وهب بن منبه عن بني إسرائيل: أورميا بن خلقيا، وكان من سبط هارون بن عمران، وبين هذا الملك الذي ذكره ابن إسحاق وبين أفريدون أكثر من ألف عام، وقول الذي قال: إن الخضر كان في أيام أفريدون وذي القرنين الأكبر قبل موسى بن عمران أشبه بالحق، إلا أن يكون الأمر كما قاله مَنْ قال: إنه كان على مقدمة ذي القرنين صاحب إبراهيم، فشرب ماء الحياة، فلم يبعث في أيام إبراهيم ﷺ، وبعث أيام ناشية ابن أموص، وذلك أن ناشية بن أموص الذي ذكره ابن إسحاق أنه كان ملكاً على بني إسرائيل، كان على عهد يشتاسب بن لهراسب، وبين يشتاسب وبين أفريدون من الدهور والأزمان ما لا يجهله ذو علم بأيام الناس وأخبارهم، ثم ذكر خبرَ الخضر مع موسى -عليهما السلام-؛ ليستدلَّ به على أن الخضر ليس من سبط هارون أخي موسى قطعاً، بل هو رجل قديم، وهذه القصة جاءت في أول «صحيح البخاري» في كتاب (العلم).

وأصح هذه الأقوال التي تقدمت: هو القول الثالث، من أنه بليا بن ملكان بن فالغ إلى آخر عمود نسبه الذي ذكره ابن جرير -أيضاً-، وقد قال الحافظ ابن حجر: إنه بهذا قال ابن قتيبة، وحكاه النووي. (منه).

قال أبو عبيدة: انظر قصة الخضر مع موسى -عليه السلام- في: «صحيح البخاري» (رقم ٧٤، ٧٨، ١٢٢، ٣٢٧٨، ٧٤٧٨)، و«صحيح مسلم» (رقم ٢٣٨٠)، وتكلمتُ عليها مع العِبَر المستفادة منها في كتابي «من قصص الماضين» (ص ٢١-٤٨)، والحمد لله على توفيقه وفضله.

(١) لم يثبت ذلك، كما بيناه بالتفصيل، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٢) بعدها في مطبوع «التيجان» (٩٤): «وتبلغ وادي الياقوت».

الخضر يأتيه الوحي، فيعلم بذلك ذا القرنين، وتأتي الأسبابُ الصَّادقةُ إلى ذي القرنين فيعلمُ بها الخضر، فكان ذو القرنين يعمَلُ بالعِلْمَيْن، ثم سار ذو القرنين إلى المغرب، وسار معه الخضرُ، فسارَ ذو القرنين ليطأ المغرب بالجنود يقتلُ ويسبي، وينقل الناسَ من أرضٍ إلى أرضٍ، فعاد على أرض الحبشة[١]، فلم يزل يفتحها أرضاً أرضاً، وأمّةً أمّةً، حتى بلغ أقصاها، قال[٢]: «ثم لجج ذو القرنين في أرض السودان يقتل ويحرق بالنار، ثم توغَّل فيها -يظهر أن المراد من توغله في بلاد السودان غربي إفريقية-[٣]، فقتل من قتل، وآمن من آمن، ثم مضى حتى بلغ أرضَ بني ماريع بن كنعان ابن حام، فقتل وغنم وسبى، وساق منهم أمماً بين يديه، ثم جاز إلى جزيرة الأندلس، فغلب عليها إلى أقصاها»[٤].

ركوب ذي القرنين البحر المحيط واكتشافه لأمريكا

قال: ثم رام ركوب البحر المحيط[٥] فزفر عليه البحر، وكان كالجبال الشُمّ،

---

(١) لم يرد ذكر لذي القرنين في كتاب عرب فقيه (أحمد بن عبدالقادر الجيزاني) المسمّى «تحفة الزمان»، أو «فتوح الحبشة»، ونشره مع مقدمة بالفرنسية رينيه باسيه، وللإسكندر ذكر في مواطن منه. انظر: (ص ١٣٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٩١، ٢٠٦، ٢٢٦).

(٢) أي: وهب في «التيجان» (٩٧)، وفيه: «لما لجج...»؟!

(٣) ذكر ليون (الحسن بن محمد الوزان) في كتابه «وصف إفريقيا» أن اسم إفريقيا مشتق من (إفريقوس) ملك بلاد العرب السعيدة (اليمن)، على اعتبار أنه أول من جاء إلى إفريقيا وسكنها، وفي هذا نظر. انظر مناقشته في: «مفاهيم جغرافية في القصص القرآني» (ص ١٧٤-١٧٦).

(٤) أورد المصنف هذا الخبر مختصراً، اقتصر فيه على ما يخصه، وضرب صفحاً عن بعض استطرادات فيه، فيها نكْرَة وغرابة، وهذا الخبر -على أحسن أحواله- مما تلقاه وهب عن بني إسرائيل، فلا يعقِدُ القلب عليه!

ومن محاسن أوصافه، ما قاله ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٤٥): «فيه طول وغرابة ونكارة، في أشكالهم وصفاتهم وطولهم، وقِصرَ بعضهم، وآذانهم».

(٥) قال سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي في كتابه «خريدة العجائب» (ص ٥-٦) في وصف هذا البحر:
=

....

= «فأعظم بحر على وجه الأرض: المحيطُ المُطوِّقُ لها من سائر جهاتها، وساحلهُ من جهةِ الخلو: البحرُ المظلم، وهو محيط بالمحيط كإحاطة المحيط بالأرض... وفي الظلمات عين الحياة التي شرب منها الخضر -عليه السلام-، منها في القطعة التي بين المغرب والجنوب، وفي المحيط: الأرضُ التي فيها عرش إبليس اللعين، وهو في التي بين المشرق والمغرب، والجنوب، وهو إلى الشرق أقرب إلى مقابلة الربع الخَراب مِنَ الأرض»، ويقول -أيضاً- (ص ٩٦):

«بحر الظلمة، وهو المحيط الغربي، ويسمّى المظلمُ؛ لكثرة أهواله، وصعوبة متنه، وفي البحر المظلم من الجزائر العامرة والخِراب ما لا يعلمُه إلا الله، وقد وصل الناس منها إلى سبعَ عشْرةَ جزيرة؛ فمنها: الخالدتان: وهما جزيرتان فيهما صنمان مبنيان بالحجر الصلد، طول كلٍّ منهما: مئة ذراع، وفوق كل صنم صورة من نحاس تشير بيدها: أن ارْجع فما ورائي شيء، وبناهما ذو المنار الحميري من التابعة، وهو ذو القرنين المذكور في القرآن»، وعرَّف بها (ص ٩٦-٩٩) بكلام طويل، وابن الوردي يقول بكروية الأرض، قال (ص ١١):

«والسماء محيطة بها من كل جانب كإحاطة البيضة بالمُحّةِ، فالصُّفْرةُ بمنزلة الأرض، وبياضُها بمنزلةِ الماء، وجلدُها بمنزلة السماء... حتى قال مهندسوهم -والضمير هنا يعود على جمهور علماء العرب-: لو حفر في الوهم وجهُ الأرضِ لأدى إلى الوجه الآخر، ولو ثقب -مثلاً- بأرضِ الأندلس لنفذ الثقبُ بأرض الصين».

وكان هذا الرأي هو رأي جمهور علماء المسلمين كما يقول ابنُ الوردي وغيرُه، ومَنْ عرفَ أنّ الأرضَ كرةً، كان معنى إحاطة المحيط الأعظم بها، هو: تغطيتُه لسطحها كلّه، إلا ما برز من الأرض من فوق سطح هذا المحيط من قاراتها وجزرها، ولذلك قال: إن بياض البيضة، من تشبيهه بمنزلة الماء، وجلد البيضة بمنزلة السماء، وأنا أقول هذا وأنبه عليه حتى لا يختلط المفهوم بما كان يغلب على بعض الناس مِن تصور الأرضِ مسطّحاً كبيراً أفقيّاً يمثل قُرصاً يحيط بأطرافه بحر، ويحبسه من ورائه جبل.

ومن دقة التعبير: قولُه عن هذا المحيط الشّامل: «وهو محيط بالمحيط كإحاطة المحيط بالأرض»؛ هو إذن يفصل بين «المحيط الشامل» و«المحيط بالأرض»، فهذا الثاني قسم داخلي من المحيط الأكبر، ومن هنا انطلق إلى تعيين هذه المحيطات الفرعية، فنجده يذكر «البحر المظلم»، ويشير إلى الأرض الواقعة فيه، وبها «عين الحياة التي شرب منها الخضر -عليه السلام-»!!

ويسمى -أيضاً-: «البحر الأخضر»، و«أوقيانوس» و«نيطش» و«مانيطش».

انظر: «التنبيه والإشراف» (ص ٦٦) للمسعودي، و«مسالك الأبصار» (١/ ق ٣٠٤ و٢/ ق ١٦٤-١٦٥) -وفيه وصف مفصل عنه-، و«عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة» لسُهراب (ص ٧٤-٧٨)، و«معجم البلدان» (١/ ٣٤٤)، و«تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» (ص ٣٧-٣٨، ١١٧-١١٨، ١٢٦، ١٧٥) لأبي حامد بن ربيع الأندلسي. =

فرأى في الأسباب عقدةً، فبنى منارةً، وجعل عليها صنماً من نحاس، عقد بها عاصفات الرياح، ثم سكن البحرَ فلان، فركبه وسار بجميع جموعه، حتى أبعدَ عن العقد، ثم طغى عليه البحر، فبنى منارة أخرى، ونصب عليها صنماً عقداً، فلم يزل يسير في المحيط، وكلما عبر وزفر عليه بنى منارة، وعقد عقداً، حتى انتهى إلى عين الشمس، فوجدها تغرب في عين حمئة في البحر المحيط، ووجد من دونها جزائر فيها أممٌ لا يفقهون ما يقولون، ولا ما يقال لهم، فقال ذو القرنين: من رمى بكم هنا؟ قالوا له: سبأ، فأخذهم ذو القرنين، فأراد قتلَهُم، فقال له الخضر: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ [الكهف: ٨٦] إلخ الآية.

وقال صاحب «التيجان»[١] بعد كلام في (٩٥):

«فحملَ عساكِرهُ في المحيط، يريدُ جزائـرَ الأرض[٢] خلف جزيـرةِ الأندلس، فلما وصلَ وعبرَ إلى الأرض، وأخذ أهل الجزائر؛ أنشأ يقول...» -وهنا ذكر قصيدةً طويلة ويغلب على الظنّ: أنها لأحد الشعراء ونسبت إليه-.

ويؤيد اقتحامَه لبحر الظلمات: قولُ ابن لَنْكَك[٣] الذي نقلناه عن «ثمـار القلوب»[٤]

= وله أسماء أخرى غير ذلك، ويسمى اليوم بـ(المحيط الأطلسي).

(١) (ص ١٠٤ - ط. اليمن).

(٢) تسمّى (الجزائر الخالدات)، وتقع هذه الجزر غربي المغرب في (المحيط الأطلسي)، وتسمى الآن (جزر كناري)، يقول أبو الفدا في «تقويم البلدان» (ص ١٨٧):

«فمن جزائر البحر المحيط الغربي (جزائر الخالدات)؛ وهي جزائرُ واغلةٌ في البحر عشْرَ درجاتٍ عن الساحل، وفي عدةِ جزائرَ».

وانظر: «المسالك والممالك» لابن خرداذبة (ص ٣٣١)، و«مسالك الأبصار» (١/ ق ٣٠٤) لابن فضل الله العماري، والهامش السابق.

(٣) في الأصل: «النكل»! وهو خطأ، صوابه ما أثبتناه، ومضت ترجمته في التعليق على (ص ١٣٢).

(٤) (ص ٢٨٦).

للثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩):

تولّى شبابٌ كنت فيه منعّماً تروحُ وتَغدُو دائم الفَرَحاتِ
فلستَ تلاقِيهِ وَلَوْ سِرْتَ خَلفَهُ كما سَار ذو القَرنَينِ في الظُّلُماتِ

يستفادُ مما تقدمَ: أنه ركب البحر المحيطَ من سواحل بلاد الأندلس الغربية، وسواءٌ صح ما قيل هنا من أنه قاوم الريح بهذه المنارات التي بناها، وجعل عليها طلاسم تكون سبباً لسكون الأرياح، أم لم يصح، فإنّه تمكَّن من اقتحام لُجِّ البحر المحيط إلى أن وصل شواطئَ أميركا، ثم سار بجنوده متوغلاً فيها إلى أن وصل إلى السواحل الغربية من بلاد أميركا، فعلى هذا: يكون ذو القرنين أول مكتشفٍ للبلاد الأميركية، وهو رجلٌ عربيٌّ.

أخبار أخر تفيد أن المكتشفين للقارة الأميركية هم العرب

بعد نقلي ما تقدم بثمان سنوات، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ١٣٦٧ الموافق لتشرين الأول سنة ١٩٤٨، اطّلعت على مقالةٍ بقلم الأب أنستاس الكرملي البغدادي، منشورةٍ في مجلةِ «المقتطف» المصرية في (العدد الثاني)[١] من (المجلد السادس بعد المئة) تحت عنوان:

(عرف العرب أميركة قبل أن يعرفَها أبناءُ الغرب)

ناقلاً ذلك عن مصادرَ غربيةٍ، فتعقّبتْه الآنسةُ دولتْ حسن الصغير (الإسكندرية)، فنشرَتْ مقالةً في مجلةِ «الرسالة» المصرية في العدد (٦١٢) تحت عنوان:

(اقتحم العربُ المحيطَ قبل أن يقتحمَه كلمبس)

ناقلةً ذلك عن مصادرَ عربيةٍ، فهذه النّقولُ تدعونَا نجزمُ أنَّ المكتشفَ الأولَ لهذه القارةِ مِن عصور قديمةٍ هم العربُ[٢] ولا ريبَ، والفضل للمتقدم، وإليك باختصار ما قاله

---

(١) (ص ١٥٥-١٦٠).

(٢) وكتب إلياس فرحات مقالةً نشرتْ في مجلة «المقتطف» -أيضاً- العدد (١٠٧)=

الأب الكرملي والآنسة دولت:

قال الأب في مقالته التي حاضر بها في بغداد في كانون الأول (دسمبر سنة ١٩٤٤):

«كان العرب منذ أقدم الأزمنة وقبل المسيح بكثير يختلفون إلى جزيرة واقعة

=(ص٤٢١-٤٢٧) بعنوان: (هل عرف العرب أمريكة؟)، ونشر محمد عبدالله عنان مقالة في «الهلال» (٤٣/ ١٠٧٩) بعنوان: (اكتشاف العرب لأميركة الجنوبية)، ولملحم خليل عيده في المجلة نفسها (٥٣٦-٥٤١) مقالةً بعنوان (أصل الهنود والعرب في أميركة)، ووجدت مقالة في مجلة «مجمع اللغة العربية» بدمشق (الجزء الأول/ المجلد الثامن والعشرون: ١٥/ ربيع الآخر/ سنة ١٣٧٢هـ) بعنوان: (الإتلنتدا هي أميركا الجنوبية) لجورج ليان، وظفرت بكتاب «الارتياد والكشف الجغرافي» للدكتور هـ . ج وود، نقل فيه (ص ٦٩-٨١) تحت عنوان: (كولومبوس) رسائل له، فيها التصريح بأنه مسبوق في اكتشاف أمريكية، وقال روم لاندو في كتابه «الإسلام والعرب» (٢٥٧ - ترجمة منير البعلبكي):

«... فليس من المبالغة في شيء أن نقول: إن في إمكاننا أن نعزو بعض الفضل في اكتشاف أميركة إلى الجغرافيين الإسلاميين».

وقرر البحاثة أنور الجندي في كتابه «الإسلام والتكنولوجيا» (ص ٨٢): أن العرب اكتشفوا أمريكا قبل كولمبس بثلاثة قرون، وقال:

«أعلن ذلك الدكتور هوى لين الصيني في المؤتمر (١٧١) للجمعية الشرقية، قال: كل طفل يتعلم أن كولمبس هو الذي اكتشف أمريكا عام ١٤٩٢، ولكن قام دليل قوي أن العرب سبقوا كولمبس، وقال: إنه أنفق ثمانية أعوام في تتبع هذا الأمر، وقد وصل إلى أن البحارة العرب قاموا قبل عام (١١٠٠م) من الطرف الغربي للعالم الإسلامي من ميناء الدار البيضاء على التحديد، ورسوا بسفنهم في عدة مواضع على طول الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية» انتهى.

وممن اعتنى بتقرير هذه الحقيقة على وجهٍ بديع جداً: الأستاذ نجيب البهبيتي في كتابه «المعلقة العربية الأولى» (١/ ٢٠٧-٢٢٣)، ثم عاد في (١/ ٢٤٣-٢٦٤) (الباب الحادي عشر) فبوب في (الفصل الأول: كولومبوس يسير على ضوء المعارف العربية)، وكلامه في هذا الباب مفيد، وفيه بيان قوي لبعض المعارف التراثية التفصيلية الجغرافية على وجه محدد دقيق، والجهود التي بُذلَت من قِبَلهم في رسم الخرائط، واعتماد كولومبس على ذلك في رحلته الثانية، وفيه نقولاتٌ عن بعض المصادر الأجنبية التي اعترفت بهذه الأمور، حتى أصبحت مسلّماتٍ وحقائقَ علميةً عندهم.

غربي بريطانيا العظمى، تلكم الجزر التي كان يسميها اليونانيون يومئذ (جزر القصدير)، بلسانهم (Kasselerides)، ومنه اسم القلعي عندنا -أي: القصدير- المعروف باسم منجمه، وذهاب أبناء قحطان إلى تلكم الربوع النائية يدل على أمور جمة:

منها: أنهم كانوا يتقنون الملاحة إتقاناً عجيباً؛ بدليل ما ذهبوا إليه من البلدان الشاسعة.

ومنها: أنهم كانوا يبرَعون في بناية السفن بأحكام عظيمة، لتتمكن من مصارعة أهوال الغمار والمحيطات؛ ولكي لا تتصدع ولا تتفسخ، ومِنْ ثمّ لا تغرق.

ومنها: أنهم كانوا بارعين في الهندسة، حتى إنهم تمكنوا من نشر الجواري المنشآت نشراً متساويَ الجوانبِ والأحناء والأجزاء؛ حتى لا تمزقَها اللّججُ المتلاطمةُ، ولا يزيدُ فيها جزءٌ على جزء، فيثقلَ جانبٌ ويخفَّ آخر؛ فيمتنعَ التوازنُ والتساوي، فتعطبُ تلك المواخر في اليم، فكان هؤلاء السلف الأبطال يذهبون إلى تلكم الربوع الأقاصي كأنّ قلوبهم قُدَّتْ من جلمود، فكانوا إذا بلغوا تلكم الأصقاع يستخرجون منها القصدير، ثم ينقلونه إلى بلادهم العامرة على تلكم المواخر، فيبيعونه بأثمان باهظة، هذا وتجارة العرب معروفة ومشهورة منذ القِدَم والأزمنة الواغلة في الماضي، وقد تعلّم بعضُ الناس من العرب استخراجَ القصدير من تلك الجزر، فتأثروا هم في صناعتهم وتجارتهم، فكان فيهم الفينيقيون، والقرطاجنيون، والرومان، واليونان، وغيرهم.

ذكر كل ذلك هيرودونس أبو التاريخ في (١١٥٠٣)، واسترابون في الباب (٢) في الفصل (١١).

بسطت لكم الدليل الأول نقلاً عن هيرودونس أبي التاريخ المتوفى في المئة الخامسة قبل الميلاد، وعن استرابون المتوفى في الأيام الأخيرة من عهد طيباريوس قيصر؛ أي: في نأأة النصرانية.

والآن أذكر لكم الدليل الثاني؛ وهو: يرى المفكّرون البصراءُ من أهل البحث في هذا العصر: أن أبناء العروبة عرفوا التيار المشهور في هذا العهد بالاسم الإنكليزي (Gulf stream)؛ أي: تيار الخليج، وهو تيار عظيم ينساب في (المحيط الأتلانتي) الذي يسميه ابن خلدون (المحيط اللبلابي)، وينشأ من خليج المكسيك ماراً بقناة بهاما، ثم يلاعب سواحل أميركة الجنوبية، ويسارها إلى الدرجة (٤٠) من العرض الشمالي، ثم ينحدر إلى جنوب الجنوب الشرقي.

ويذهب أمير موناكو البحار الشهير والبحاثة الخطير: إلى أنّ سواحلَ أوربةَ تتدفقُ على وجهها بسط من المياه، هي غير مياه تيار الخليج، اللهم إلا القليل النزر منها الذي لا يلتفت إليه، هذا وتبقى مجاري هذا التيار دافئة، فتكسر شيئاً من برد إيرلاندة؛ لأن تلكم المياه تبلغُها كما تصل إلى إنكلترة ونروج.

وسبق العربُ سائرَ الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصِّه، وإلى حركته من المكسيك إلى إيرلاندة، ومن هذه إلى تلك، فكانوا يركبون من موضع إلى موطن، بحيث كانوا يُدهِشونَ سكان جزيرة المانش -أي: جزر القصدير-، وأهالي جزيرة إيرلاندة، فكانوا إذا ظعنوا إلى أنحاء المكسيك، مكث بعضهم فيها، وعاد القليلون منهم إلى بلادهم راكبين متن ذلك التيار المبارك.

ونعرف أنهم كانوا يقيمون في الديار التي عرفت بعد ذلك بالمكسيك من أسماء الحيوانات التي سموها بها، وهي أسامٍ تُعرَفُ بها إلى اليوم، لكن لا يفقه أهلُها معانيها، ولا علماءُ الغربِ الذين اتخذوها هم -أيضاً- محافظين عليها محافظَتَهم على حياتهم.

ولو كانوا واقفين على تاريخ نشأة بني يعرب، ونزولهم في تلك الربوع، بل وصولهم إلى أقصى الخافقين، واطلاعهم على أسرار لغتهم البديعة المبينة لاهتدوا إلى حل العقد وحل المعضل.

هذا والألفاظ العلمية الموضوعة في علم الحيوان والطير والسمك والحشرات

جمة لا تحصى، على أن ما لا يدرك كله لا يترك جلّه، وأنا أتلو على أسماعكم شيئاً نزراً من هذا القبيل، فمنها التمساح المسمى عندهم (Alligator)، فإنهم لم يعرفوا من أي لغة هي، إنما يقولون: إنها بلسان البلاد التي يعيش فيها، ولم يزيدوا على هذا القدر، ولو اتسعَ لي الوقتُ لذكرتُ لكم مئاتٍ من الألفاظ، إلا أني أحاول مسابقة الزمن؛ لئلا تَفوتني الفرصةُ التي أريدُ أن أبيِّن فيها أن الإرلنديين لما رأوا العرب يأتون إلى ديارهم، ثم يركبون متن تيار الخليج، عرفوا أن في أقاصي البحر الأتلانتي بلاداً مأهولة وسكاناً متوحشين، لا يعرفون من دين النصرانية شيئاً يذكر.

وأولُ مَنِ انتبهَ لهذا الأمر راهبٌ اسمه (Brendan) برندان السائح البحار المولود في فنست سنة (٤٨٣م)، وقد أولع منذ حداثته بركوب الأخطار، فعزم على ارتياد المحيط الأتلانتي ومشاهدة ما وراءه من البر العظيم المجهول، ثم ذكر رحلته مع (١٤) راهباً سنة (٥٤٥)، وفي الآخِرِ تراءتْ لهم أرضٌ كانت جزيرةً، والمظنون أنها كانت إسلندة، التي معناها: جزيرة الجمد، وفي الفاتيكان نسخةٌ باللاتينية من هذه الرحلة، وفي المكتبة الوطنية في باريس إحدى عشْرَةَ نسخةً خطيةً.

ولا جرَمَ أن كُلُنبس كانَ واقفاً أتمَّ الوقوف على خبر رحلة برندان، فتمكن مِن أن يقنعَ الملكَ فرديناند والملكة إيزابلّه بأن يوافقا على هذه الرحلة للبحث عن العالَم الجديد، فقنعا في الآخِرِ، ويُلخَّصُ كلامي هذا كما يأتي:

إن أبناء يعرب القدامى، ولا سيما أولئك الذين كانوا يجاورون ثغور البحار، يركبون السُّفنَ التي كانوا ينشرونها بأيديهم، فيجوبون بها المحيطات، فوصلوا في أول أسفارهم إلى جزر القصدير وهي في بحر المانش، وعددها (١٤٥) خريصاً، وبعد ذلك عرفوا تيار الخليج وهو المسمى عند الإنكليز (Gulf stream) فاتخذوه ناقلاً لهم إلى الربوع التي دُعيَت بعد ذلك بالمكسيك، ومنها انبثّوا إلى سائر مدن أميركة من شماليةٍ وجنوبيةٍ.

فالعربُ وسائر الأقوام التي حَلّتِ العالم الجديدَ: عرفوا المكسيك قبل أن

يعرفوا سائرَ الدِّيار الغربية من تلك الأرجاء، ولذا نرى فيها من الأسماء العربية[١] العائدة إلى الحيوان والطير، أكثرَ مما في سائر الأنحاء الحديثةِ المعروفةِ بحيث لا يمكن لأحد أن ينكرَها، وقد اعتمدْتُ في كل ما قررت هنا على مصنفات الأغراب أنفسهم إلا ما وجدته نَبهاً بنفسي، وقع ذلك كلُّه قبل المسيح وبعده، لا سيما بعد اكتشاف تلك المتنأيات» انتهى ما لخصناه من مقالة الأب الكرملي.

وقالت الأديبة دولت حسن، بعد أن لخصت الخلاصة الأخيرة:

«كنت أحسب قبل مطالعة كلمته الرائعة أنه سيورد من المراجع العربية ما يثبت أن من أبناء قحطان مَن اقتحمَ البحر المحيط، ليرى ما به من الأخبار والعجائب ويقف على نهايته، غير أنّ الأبَ اعتمدَ في كل ما قرره على مصنفاتِ الأغراب فحسب، إلا ما وجده نَبهاً في نفسه.

وليس لي أن أفنّد ما جاء به العلاّمة من تحقيقاتٍ لُغَوية، فما إلى هذا رميت في هذا المقال، ولكنْ سأعنَى بالتحدث عمَّن ركبَ من العرب البحرَ المحيطَ قبل أن يركبه كلمبيس معتمداً على ما جاء بالمصادر العربية.

ثبت قطعاً أن خرستوف كلمبيس ليس أول من حطَّ رِحَالَهُ بالدّنيا الجديدة[٢]، ولكنَّ رحلته إليها هي التي فتحتْ أعينَ الناسِ على هذا العالَم الجديد؛

---

(١) أثبت مونتجومري وات في آخر كتابه «فضل الإسلام على الحضارة الغربية» (ص ١١٥-١٢٥) تذييلاً بعنوان (قائمة بالكلمات الإنجليزية المشتقة من أصل عربي)، وذكر أنه مسبوق بذلك؛ إذ نشرَ كارل لوكوتش قائمةً أكثرَ شمولاً منها في هايدلبرج، عام (١٩٢٧م)، ووجدتُ قوائمَ طويلةً في كتاب «اللغة العربية أصل اللغات كلها» (ص ٩٥-٩٦، ٩٩-١٦١) للأستاذ عبدالرحمن البوريني، فيها الأصل العربي للكلمة ومعناها والكلمة بالإنجليزية. وانظر: مقالة «الكلمات العربية الشائعة في اللغة الإنجليزية» المنشور في مجلة «المجمع العلمي العراقي» لجرجيس فتح الله (المجلد الرابع/ الجزء الأول/ سنة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م) (ص٢٢٠- ٢٣١)، وسيأتي كلام للمصنف في سبب هذه المطابقة في التعليق على (ص ١٦٩)، فانظره بتأمل!

(٢) لقد كانت الرحلةُ الكولومبيسية مُعـدَّةً على ضوء المعلومات التي استمدها من الرواسب التاريخية لرِحَلاَتٍ تعددت، قام بها المسلمون إلى الدنيا الجديدة، وتفسيرُها هو الذي حرّك حول الرحلة زوبعةً من الجدال بعثت كل ما بقي عن القديم في رؤوس الأجيال العربية الإسلامية، أو في كتبها. =

....

= وآخر هذه الرحلات كانَ: رحلة الأندلسيين من الشباب الذين دُعُوا «بالمغرورين»، وقد جاهد الكتّاب الأوروبيون في صرف هذه الرحلة عن وجهتَها، ليعيشوا على انتحال كشف هذا العالَمِ الجديدِ القديمِ جميعاً.

وهذه بعض الأدلة على معرفة المسلمين القوية لتلك الأرض، وكان طريقها واضحاً عندهم:

أولاً: في كتاب كولومبوس الأول الموجه إلى ملكي إسبانيا على يد عاملهما على خزانة المال، يقول كولومبوس: إن الجزر التي كشفها إذا كانت قد وُصِفت قبل ذلك، فإنما صنع ذلك واصفوها عن طريق التخمين والظنّ، وأن واحداً منهم لم يرها بعينيه، وهو اعتراف صريح بأنه قد قرأ ما كتبه أولئك الكتّاب عنها قُبلا، وهو بذلك يُكذبُ نفسه حين يقول: إنه أول من وطىء هذه الجزر.

ثانياً: قوله: إن ما قيل عن أكَلَة لحوم البشر غير صحيح، إلا في جزيرة واحدة من جزر الكاريب؛ يدل على أنه كان قد سمع عن هؤلاء قبل سفره أو قرأ عنهم، ثم لم يجد ما يبرهن له على وجود هؤلاء في جميع الجزر، ولكن في واحدة من بينها.

لهذه الرسالة ترجمة إلى الفرنسية نشرت على هيئة ملحق لصيق بكتاب:

(H. Kramer, L'Univers et l'Humanite. T.IV. (Fac-simple de la Premiere Lettre de Christophe Colombe sur la Decouverete de l'Amerique en l'annee 1492).

وفي هذه الرسالة: يتحدث كولومبوس عن عقيدة أهل الجزر الأولى من جزر الكاريب، فيقول ما يفيد أنهم موحّدون، مجردون، لم ير عندهم تمثالاً لمعبود، يعتقدون أن كل قوة وخير ينزلان من السماء، وأنه هو نفسه وسفنه وبحارته نزلوا من السماء، وعقيدة التوحيد هنا هي العقيدة التي لحق الأوروبيون أهلَ الكناري وهم يدينون بها، وهي أول عقيدة نزلت أوروبا مغايرةً تماماً لما اتصل عليه حالُ أهلها بعد ذلك في تاريخهم كلّه، من تأليه الملوك الماثل في أساطيرهم.

لقد كان كولومبوس ومعه مَلِكا إسبانيا يعرفون موضِعَ الأرضِ الجديدة، على ضوء ما قدَّمه الأندلسيون من ذوي الأصول والدماء المُسْلِمة، هم القوام العامل لتحقيق نجاحِ هذه الرِّحلة، وكان رؤساؤهم من هؤلاء البرابرة الوحوش الذين أحالوا الرحلة إلى أفظع مأدبة عِربيدة لأكل لحوم الأمم ونهب أموالها، وانتساف الباقي منها.

وعلى أكتاف مثل هذا يعيش العِلْمُ الأوروبي، وبمثل هذا العِلْمِ يعيش، هذه المعارفُ المُسلَّمَةُ التي بعثها العملُ الدائبُ على تحصيل دلالات القرآن، كانت تنتشر في شرق العالم الإسلامي وفي غربه، في بوتقة العمل الدائب لاستخراج معاني القرآن، والفضوليون والمغامرون من أهل جنوة والبلاد الساحلية الأوروبية، والدخلاء الجدد على الأندلس، كل هؤلاء كانوا يتطلعون إلى ما بأيدي العرب، وتحصيل ما عندهم، وقبل ذلك أخذ دانتي قصةَ الإسراء ليصنع منها كوميدياه، التي دُعِيت أولَ ما دعيت: «الديوان»؛=

....

=أي: «ديوان» الشعر، ثم تحول الاسم إلى «ديفين» (Divine)، وصُيِّر صفةً لاسمٍ اجتُلِبَ من خارج الموضوع هو: (Comedia).

ثالثاً: هذه إشاراتٌ ومعالمُ ودلائلُ لمعرفة المسلمينَ الجغرافيةَ في ذلك العصر؛ نستيقن من خلالها على وصولهم ومعرفتهم هذه، بخلاف غيرهم آنذاك:

قال شمسُ الدين الأنصاريُّ الدمشقي المتوفى سنة (٧٢٧ هـ - ١٣٢٦م) في مقدمة كتابه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر»:

«وختمته بصورة جغرافية دهاناً بالأصباغ، وتخطيطاً محرراً على مثل مواقع الأطوال والعروض والأصقاع في المعمور؛ ليكون مثالاً حسيّاً مشاهداً بالحس... وليكون الوصفُ برهاناً لما مثَّلتُ أمثلَتَه بالجغرافيةِ المذكورةِ، وكلُّ ما هو من الدهان بها أزرقُ فهو مثالُ بحرٍ مالح، صَغر أو كَبر، دقَّ أو عرض...».

ثم ينخرم النص، ولكن يأتي بعده: «من لون مخالف فهو مثال جبل أو جزيرة، وكل ما هو في ذلك وفي باقيها من لون أخضر فهو مثال بحيرة حلوة ونهر جار ... وكل ما هو بها من لون جلناري أو خمري أو أصفر أو حجري أو أبيض أو أغبر مستطيل مخطط خطوطاً بالسوداء فهو مثال جبال وربوات مشهورة، وكل ما هو صورة خط أسود مستطيل من مشرق الجغرافية إلى مغربها فهو مثال فصل ما بين إقليم وإقليم من الأقاليم السبعة وما وراءها وما خلف خط الإستواء منها، وكل ما هو صورة عمارة وتفصيل حجارة بالتخطيط فهو مثال سور أو برج أو مدينة أو هيكل مشهور في الأرض».

فهي خريطة تفصيلية ملونة كأحسن ما تكون الخرائط، وبأكثر ما تتنوع الألوان لإيضاح الدلالات، وأبعد ما تدق في الدلالة على ماهية الموضوع.

ومن سوء الحظ، أن هذه الخريطة قد أسقَطَها النّسّاخ المتقدمون من الكُتّاب استهانةً، وغناءً عنها بالتصوير اللفظي، فهي غير موجودة عند ختام الكتاب، كما كانوا يصنعون فيما عزّ عليهم فهمُه أو تحقيقُه مما هو في الكتب المنسوخة، أو أنها رُفِعت قصْداً لينتفعَ بها متَفِعٌ من المستشرقين كان همه إخفاءُ الأصل، فالمستشرقون هم الذين نشروا كتابَ الأنصاريِّ لأول مرة، ولم تكن منه نسخٌ في المشرق، وقبل خروج كولومبوس في سَفْرته الأولى في سنة ١٤٩٢م بمئة وست وستين سنة.

والتاريخ كثيراً ما يبوحُ بسرِّه -وإن ضَنَّ أحياناً-، وقد قدم لنا في هذه المناسبة شاهداً عجيباً معاصراً لكولمبوس ولرَحَلاته الأربع إلى العالم الجديد، وضعه بين أيدينا.

«فمنذ بضع سنين حدَث أن خرجَتْ من الآستانة خريطةٌ للعالم راسمُها تركيٌّ يُدعَى «بيرى رئيس»، رسمها في سنة ١٥١٣ (بعد موت كولومبوس بسبع سنوات)، وفوقَها كتابةٌ تبيـنُ أن الجزء الخاص بجزر الأنتيل قد نقل عن خريطة رسمها كولومبوس الكافر...» كما يقول صاحب المرجع الإنكليزي.

= (Samuel Elliot Morrison, Admiral of the Sea Ocean, II. 398).

....

= كون هذه الخريطة تشمل العالم، على ما يقول هذا الأخطبوط، يعني أن فيها رسماً تاماً لقارتي العالم الجديد، والأوربيون لم يكونوا حتى ذلك العام الذي رسمت فيه الخريطة التركية قد عرفوا من القارتين الجديدتين إلا جزر بحر الكاريب، وشيئاً تافهاً جدّاً من شاطئ أمريكا الوسطى، ولم يتمّ لهم التعرفُ على القارتين ورسمهما فوق خريطة إلا بعد ذلك بدهر طويل، فالزعم بأن الخريطة التركية منقولة عن «الكافر كولومبوس»، زعمٌ فاجرٌ وكَذِبٌ صراح.

ومعنى ذلك أن رسم القارتين هنا كان شيئاً قديماً في المشرق قبل أن يعرِفَ عنهما الغربُ شيئاً، وإذا صحَّ ما يقوله هذا الكاتب من تسجيل أسماء بعض هذه الجزر الكاريبية، على تسمية كولومبوس لها، فإن هذا يكون إضافة إلى الصورة القديمة لتحديد مدلولاتها على ضوء الجديد بعد أن غدا واقعاً مبنياً على التملك بالقوة القاهرة... والغريب أن هذا الكاتب يسوق هذا الكلام، من خلال الحديث عن «خرائطَ لجزر الكاريب» صنعها أو كان يصنعها كولومبوس وهو يتنقل بينها حذاء شواطئها، لم يُتِمَّ دورته حول واحدة منها.

ويقول عن هذه الخرائط: إنها ضاعت كلها إلا انعكاس هذه الخريطة في الخريطة التي وجدت أخيراً برسم رسام الخرائط التركي بيرى رئيس، وهو ربان بحري كما يُرَى من لَقَبه: «الريس بيري».

كيف ذهبت هذه الخرائط التي رسمها كولومبوس، فلم تبق منها واحدةٌ حتى هذه التي نقل عنها الرسامُ الجغرافيُّ التركي ما نقل؟ وهي بعدُ أصول خطيرة جدّاً لتحديد كيان أرض بعيدة صارت تملكها الدولة التي موّلتْ بعْثَ كولومبوس، وهي وحدَها الوثيقةُ المثبِتَةُ لملكيتها لهذه الأرض المكشوفة، التي صارت بعد هذا بقليل جدّاً محل صراعٍ مُفتَرِسٍ بين الأسبان والبرتغاليين حتى حكّموا فيه البابا؟

كيف ضاعت هذه الخرائط كلُّها في إسبانيا، التي لا بُدَّ أن تكونَ حكومَتُها قد طَلَبَتْ إلى كولومبوس تسليمَها إليها باعتبارها عَمَلاً تملِكُه هي، وصاحبُه أجيرٌ لها؟

وبَعدُ؛ كيف كانت هذه الخرائطُ تُصوِّرُ القارتين الجديدتين في تاريخ يقعُ قبل موت كولومبوس، وكولومبوس لم يكن يعرفُ منها إلا هذا القسم الضئيلَ جدّاً الذي كان يمرُّ بسواحِلِه، ولا ينزل منه إلا في الأرض التي عرف أنّ بها الذهب في دور الناس، أو في سفوحِ جبالهم ومجاري أنهارهم؟

وهذا الكاتب ينهال سبّاً على هذه الخريطة التي تُمثّلُ العالَم في عَصَبيةٍ ظاهرةٍ تُشعِرُ بأنه يجد أمامها حَرَجاً لا يكشف عن سرّه، ولعله قائمٌ في أنّ هذه الخريطةَ تمثلُ العالَم كلَّه أدقَّ تمثيل، حتى لقد وصفها كاتبٌ أوروبيٌّ سِواه، بأنها لا بدَّ أن تكونَ من رسم رجال أتَونا من الفراغ الكوني من كوكبٍ آخر، وقد ذكر أنها قد رُسمت فيها القارةُ القُطبية الجنوبيةُ والبحرُ الشماليُّ الجليديُّ الذي يدور بالقطب الشمالي، وهذا زيادةٌ على القارتين المؤلَّفتين للعالم الجديد.

ولم يكُن القطب الشمالي الجليدي أو القارة القطبية الجنوبية معروفَين إذ ذاك لأحد من الناس إلا=

....

=للعلماء المسلمين، وها هو الدليل:

يقول شمس الدين الأنصاري في كتابه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» (ص ٩):

«أجمع المحققون لعلم الهيئة على أن الأرض كُرِيّة الشكل... بالكلية، مضرسة بالجزئية من جهة الجبال البارزة والوهدات الغائرة، ولا يخرجها ذلك من الكرية».

ثم يمضي في تقديم الأدلة على كرويتها كأدق ما تكون الأدلة.

وفي (ص ١١) يتحدث عن عملية كلّف بها المأمون «جماعة من أهل الخبرة بحساب النجوم؛ منهم: علي بن عيسى، (فبعث بهم) إلى برية سنجار، وتفرقوا من هناك، فذهب بعضهم إلى جهة القطب الشمالي، وذهب آخرون إلى جهة القطب الجنوبي، وسار كل منهم إلى أن وجد غاية ارتفاع الشمس نصف النهار قد زال وتغير عن الموضع الذي اجتمعوا فيه، ومنه تفرقوا مقدار درجة واحدة، وكانوا قد ذرعوا الطريق، وأوتدوا الأوتاد، وشدوا الحبال، ثم رجعوا وامتحنوا الذرْعَ ثانيةً، فوجدوا مقدار درجة واحدة في السماء تسامت من وجه الأرض وبسيطها ستة وخمسين ميلاً وثلثي ميل، فضربت أطوال هذه الأحبال في جميع درجات الفلك وهي ثلاث مئة وستون درجة، فخرج من الضرب عشرون ألف ميل وأربع مئة، فحكم بأن ذلك دور الأرض».

ولا شك في أن بهذه الحسبة خطأ وقع فيه ناقل الخبر عن علماء المأمون أو من جاء بعدهم، فلقد شهدنا الدقة البالغة في قياس هذا الدور عند ابن رستة، والأغلب أن يرجع هذا الخطأ إلى زعمه أن قياس الدرجة الواحدة فوق الأرض كان ستة وخمسين ميلاً وثلثي الميل، وحقيقته هي ستة وستون ميلاً وثلثا الميل، وليست هذه الدقة الحسابية لمحيط الأرض بالأمر الهين بالقياس إلى رحلة تدور بكرتها، مسترشدة بها، مع إدخال حسبة الانحرافات الاضطرارية على الطريق بحكم تضاريسها، لضمان تحقق الوصول إلى نقطة البدء، وعدم الانقطاع دونها أو توهم الضلال عنها.

كانت هذه كلها إذن أموراً معروفة، ومحققة في عهد المأمون، وهو المتوفى سنة (٢١٨ هـ - ٨٣٣م)، وهو علمٌ قديم، فيقول شمس الدين الأنصاري في كتابه السابق (ص ١٨) عند الكلام على تقسيم الأرض إلى مناطق:

«ثم وراء ذلك إقليم الظلمة، الذي يسامته القطب الشمالي ويوازيه، والنهار الأطول هناك مقابل أربع وعشرين ساعة، يوماً واحداً مدة ستة أشهر لا نهار معها، والظلمة مستمرة هناك لا تزال من غيبوبة الشمس ومن تراكم الغيوم والضباب أبداً».

ثم يقول: «والذي قسّم قسمة هذه الأقاليم أفاضل ملوك الأرض الجامعون بين المُلك العام والحكمة والعلم؛ كسليمان بن داود، وآصف بن برخيا، و(ذي القرنين) المؤمن الأول وتبّع التابعة، وأردشير، وبطليموس، ثم المأمون». =

= فنجد أنفسَنا مرةً أخرى مع (ذي القرنين) في مناسبة تتصلُ بهيئةِ الأرضِ الكُروية، وتقسيمها تقسيماً جغرافياً، ولا بأس من أن تعرف أنَّ هذا كان قبل أن يولد كوبيرنيقوس في سنة (١٤٧٣م) بما لا يقل عن ثمانية قرون، بالقياس إلى البعثة العلمية التي أرسل بها المأمون إلى برية سنجار لاستخلاص دور الأرض.

وقبل أن يولد جاليليو بتسعة قرون، والمأمون في هذا كان يحقق نتيجة علمية؛ أخذت الكنيسة بعد تلك المدة الطويلة تطارد القائلين بها، وتضع رؤوسهم بين أيدي جزاري محاكم (التفتيش)، وتحرق صغارهم باعتبارهم ملاحدة، والمأمون بعد هو خليفة المسلمين؛ أي: قائد دينهم ودنياهم، والدولة هي التي تسهر على تثبيت هذه الحقائق، وتختار لها أقدر رجالها؛ إنارة لدنيا الناس.

ولا أكاد أشك في أنه إذا كانت الكنيسة في أوروبا، بقيادة البابا: أسقف رومة، كانت تصنع هذا الصنيع بشعبها فإنها إنما كانت تصنعه؛ لأنها ظنته منهم انفعالاً بما انتهى إليهم من كتب المسلمين، التي كانت إذ ذاك تُقرأ في أوروبا وتُترجم إلى اللاتينية، ويطّلع عليها المشوقون إلى النور في جماعة كانت الكنيسة حريصة على أن تبقيها في الظلام، وخشية منها أن يجرَّ أمرٌ أمراً.

وقد تحدث علماء العرب عن جاذبية الأرض وأسباب تعلق الأرض في قبة السماء، فقالوا في هذا الباب أقوالاً، كانت الرائدة للذين جاءوا من بعدهم واطلعوا على كُتبهم، ومثقفو القرون الوسطى في أوروبا كانوا تلاميذ للعرب في جامعاتهم، أو قرّاء لكتبهم.

يقول الأنصاري في كتابه السابق (ص ١٠):

«ولولا التضريس لغمرها -الأرض- الماء، حتى لم يبق منها شيء، ولكن العناية الإلهية اقتضت اللطف بالعالم الإنسي؛ فأبرز له في الماء جزءاً منها ليكون مركزاً للعالم، وإحاطة الماء لها أمر طبيعي؛ إذ كل خفيف يعلو على الثقيل، والماء أخف من الأرض، فكانت مَركزَه، والهواء محيط بها، وجاذب لها من جميع جهاتها إلى الفلك بالسوية، كجذب المغناطيس الحديد، ولذلك وقفت في الوسط».

ويقول -أيضاً-:

«وذهب آخرون إلى أن الأرض بطبعها هاربة من الفلك إلى ذاتها على ذاتها، فهي إذن منضمة منه من سائر جهات إحاطته بها انضماماً إلى نفسها عنه بالتساوي، وإذا زال الفلك يوم القيامة، وانتشرت كواكبه، وطُويَ طيّ السِّجل، ذهب عنها الموجب لهروبها؛ فامتدت، وانتشرت، واهتزت، وتساوت بالافتراش إلى قريب من أذيال السماء الثابتة».

هذه نماذج مما كان العلماء المسلمون القدامى بالشرق العربي قد انتهوا إليه في تفسير الكون، ونحن نجدها الآن بين أيدينا ظلالاً تتقدم ما جاء بعدها بقرون في أوروبا، من تفسيرات دُعّمت بالنظريات المقترنة بالتدليلات الاحتمالية الرياضية في صور معادلات جبرية، وغياب المكتبة العربية القديمة بعَصْف عوادي الزمن التي هبت على بغداد والأندلس خاصة، يجعلنا نقف بحذر بإزاء الاتجاهات المشابهة التي=

فبدئَ مِن بعده الظَّعنُ إليهِ والاستعمارُ.

حدثنا الأب بنبأ رحلة الراهب برندان إلى جزيرة آيسلنده (المعروفة عند العرب باسم تولى) وجزائر الكناري (الخالدات)[1]، ثم نزوله على الساحل الأميركي في النصف الثاني من القرن السادس، كما حدثنا بخبر بعض الرهبان الإرلندليين الذين كانوا يدهشون لركوب العرب لتيار الخليج القادم من المكسيك، ونزولهم في القرن الثامن الميلادي إلى سواحل أميركا الشرقية، غير أن التاريخ غمط حقوق بعض الرواد المغامرين من يعرب، الذين ركبوا الأهوال محاولين اختراق

=غابت مما هو موجود بين أيدينا اليوم من كتبنا.

ذلك أنه إذا كان التفسير بالمعادلة الجبرية هو المركب الذلول لبلوغ تأكيد النتائج النظرية؛ فإنا كنا البادئين بإيجاد (علم الجبر) للتمكين به لتحقيق هذه الغاية، وإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف يُؤمن القول بأن هؤلاء العلماء المتأخرين من المسلمين -وهم في الأغلب غير متخصصين- لم يحذفوا هذه الاستدلالات الرياضية إيثاراً للسلامة، ومضياً مع حب الرواج عند الجماهير؟ ونحن نجد نموذجاً نصّياً لهذا الحذف في حذف الخريطة الملونة التي ختم بها شمس الدين الأنصاري كتابه، ووصفها في مقدمته.

على كل حال كانت هذه معارف أجدادنا المسلمين قبل عصر كولومبس.

ومن الغريب والعجيب في آنٍ واحد، أن يضع نيكل بليندل في كتابه «أشهر الأخطاء الكبرى في العالم» (ص ١١-١٤ - ط. الأولى، نشر دار دمشق، ترجمة هيثم سرية) عنوان المبحث (كريستوف كولومبوس توفي دون أن يعلم أنه اكتشف القارة الأمريكية).

ومن المفيد أن أنوّه بجهود ثلّة من باحثينا في كشف دقة أسلافنا وعنايتهم بالخرائط، فقد ظفرت في «بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول»، الصادر عن مركز البحوث في جامعة الإمام محمد بن سعود في (الجزء الثالث) منه ثلاث مقالات بهذا الصدد:

الأولى: (دور العرب والمسلمين في رسم الخرائط) لفلاح أسود (ص ١٨١ وما بعد).

والثانية: (جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط الجغرافية) لعبد العال عبدالمنعم الشامي (ص ٢٦٩ وما بعد).

والثالثة: (جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط) لمحمد بن أحمد العقيلي (ص ٣٠٩ وما بعد).

(١) سبق أن عرفت بها.

الخضم المحيط المعروف في ذلك الحين باسم بحر الظلمات.

الكرة الأرضية والبحر المحيط عند العرب

قالت[١]: نقل العرب كتاب «المجسطي»[٢] لبطليموس القالوذي في مطلع العصر العباسي، وقالوا في أزياجهم وكتبهم الجغرافية: إن الأرض كروية[٣].

---

(١) يريد: الأديبة دولت حسن، في مقالها الذي أشار إليه سابقاً.

(٢) وقع خلط شديد عند كثير من المترجمين (لبطليموس) بين الملك من جهة، وبين (القالوذي) صاحب «المجْسَطي» من جهة أخرى، كما تراه مثلاً عند ابن جلجل (ت ٣٧٧ هـ) في كتابه «طبقات الأطباء والحكماء» (ص ٣٥-٣٦)، مما اضطر العلامة البحّاثة فؤاد سيد -رحمه الله- إلى تطويل التفرقة بينهما، وقد قال في تحقيقه لكتاب ابن جلجل عن صاحب «المجسطي»:

«عاش في الإسكندرية في القرن الثاني بعد الميلاد، وقد بين حقيقة وقته في كتابه «المجسطي»، وأن عصره كان بعد عصر أغسطس قيصر المتوفى سنة (١٤ م) بمئة وإحدى وستين سنة، وقد تنبه القفطي لهذا الخلط، وفرّق بينهما وحدد عصر كل منهما (الأخبار ٩٥ و ٩٦ و ٩٩)، وكذا ميّز بينهما ابن خلدون في «مقدمته» (ص ٤٨٨)».

و«المجسطي» كتاب في علم الهيئة والنجوم وحركات الكواكب والأفلاك في ثلاث عشر مقالة -حسب الترجمة العربية-، وأول من اعتنى بترجمته إلى العربية وتفسيره يحيى بن خالد بن برمك المتوفى سنة (١٩٠هـ)، ثم توالت عليه بعد ذلك عناية العلماء: بشرحه، وتحريره، ومراجعته، واختصاره.

انظر: «الفهرست» (٢٦٧-٢٦٨)، و«الكشف» (٢/ ١٥٩٤-١٥٩٦)، و«التنبيه» (١١٢)، وفي «تاريخ اليعقوبي» (١٠٧-١٠٩) تفصيل وافٍ لمقالاته وأبوابه.

وأصل اسم هذا الكتاب في اليونانية: مجال سنطاكسيس، أي النظام العظيم، فترجمه العرب «المجسطي»، ولا شك أن الذي عربه هكذا كان ممن يحذقون اللغة اليونانية؛ لأنه استعمل عبارة أفعل التفضيل (العظمى) عوضاً عن الصفة البسيطة؛ أي: (العظيم)، وأسقط الاسم؛ أي: «النظام أو المجموعة» اكتفاء بالشهرة المتداولة، كما ترى ذلك في «الكتاب» لسيبويه، فقد أسقطوا كلمة «الكتاب» واكتفوا باسم «سيبويه» علماً عليه.

وفي العصور الوسطى صار اسم الكتاب عند الأوربيين (Almageste) تقليداً للعرب.

(٣) نقل هذا عنه المسعودي في «مروج الذهب» (١/ ٨٩).

جاء في «مروج الذهب» للمسعودي[١]:

«ذكروا أن الأرضَ مستديرةٌ، ومركزها في وسط الفلك، والهواءُ محيطٌ بها من كل الجهات[٢]، وأخذوا عمرانها من حدود الجزائر الخالدات في بحر أقيانوس[٣] إلى أقصى عمران الصين[٤]، وعلموا أن الشمس إذا غابت في أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التي في بحر أوقيانوس[٥]، وإذا غابت في هذه الجزائر كان طلوعها في أقصى الصين، وذلك نصف دائرة الأرض، وهو طول العمران الذي ذكروا أنهم وقفوا عليه».

ولعمري! إنّ هذا تحديدٌ دقيقٌ لما يعرف اليوم جغرافياً باسم نصف الكرة الشرقي.

وقال المسعودي -أيضاً-:

«إن أقصى العمران في المشرق إلى حدود بلاد الصين والسيلي إلى أن ينتهي إلى بحر أقيانوس المظلم المحيط، وأقصى عمران المغرب ينتهي إلى بحر أقيانوس المحيط -أيضاً-، فكأن الأقيانوس المحيط كان -بحسب ما عرفوه- متصلاً من أقصى العمران في المشرق إلى أقصى العمران في المغرب».

وهو ما يعرف اليوم جغرافياً باسم نصف الكرة الغربي، وتواترت الأخبار قديماً بأن بحر الظلمات هنا لا تدرك غايته، ولا يعلم منتهاه، وأنه بحر لا تجري فيه جارية ولا عمارة.

---

(١) (ص ٥١)، وفي الطبعة الأولى الأزهرية المصرية (ص ٣٦). (منه).

قال أبو عبيدة: وانظر منه: (١/ ٨٤ - ط. دار الكتب العلمية).

(٢) بعدها في المطبوع: «وأنها عند فلك البروج، بمنزلة النقطة قلّة».

(٣) بعدها في المطبوع: «الغربي، وهي ستة أجزاء عامرة».

(٤) بعدها في المطبوع: «فوجدوا ذلك اثنتي عشرة ساعة، فعلموا...».

(٥) بعدها في المطبوع: «الغربي».

جـاء فـي كتـــاب الشــريف الإدريســـي[١] «نزهــة المشـــتاق فــي اخــتراق

(١) ألف الشريف الإدريسي لروجر الثاني ملك صقلية كتابه في الجغرافيـة سـنة (٥٤٨ هـ)، وقـد نشر في أوروبا بعض قطع منه. (منه).

قال أبو عبيدة: نشر بتمامه في مطبعـة ميديشـتي، فلورنسـا فـي رومـا سـنة (١٩٥٢ م)، فـي (٣٢٦) صفحة، بعنوان: «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق»، وهي طبعـة مكتملة نسبيّاً، وإن شابتها أخطاء كثيرة، اعتنى بإبرازها كثير من المستشرقين!

وطبعت أجزاء متفرقة منه في بلدان أوروبية متعددة، وهذا ما وقفت عليه منها:

* «وصف إسبانيا»، نشره كونده، مـع ترجمـة إسـبانية، ونشـرت القطعـة هـذه بـالعنوان نفسـه سـنة ١٨٨٥م، بإشراف سافيدرا، وترجمها للإسباينة -أيضاً- بلاشكت، ونشرها في مدريد، سنة ١٩٠١م.

* «إفريقيا من كتاب الإدريسي» دراسة هارتمان، طبع في غوتنجن، سنة ١٧٦٩م.

* «إفريقيا والأندلس»، نشره دوزي ودي فوييه، في ليدن، سنة ١٨٦٦م، مع ترجمة فرنسية.

* «القسم الخاص بإفريقيا الشمالية والصحراوية»، نشره هنري بيريس في الجزائر سـنة ١٩٥٧ عـن مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية.

* «وصف المسجد الجامع بقرطبة»، حققه لامار، ونشره في الجزائر -أيضاً- سنة ١٩٤٩م.

* «وصف الشام وفلسطين»، نشره روز نملـلر، فـي ليبسـك، سـنة ١٨٢٨م، ونشـر القطعـة نفسـها براندل في أويسالا سنة ١٨٩٤م، ونشرها -أيضاً- في جزئين ميدنكوف سنة ١٩٢١م.

* «إيطاليا»، نشره إماري وسكيابارلي في روما، سنة ١٨٧٨م، مع ترجمة إيطالية.

* «بلغاريا»، نشره بوريس كرستون ندكوف.

* «قسم جزيرة العرب»، نشره إبراهيم شوكة في مجلة «المجمـع العلمـي العراقـي» (المجلـد ٢١) (ص ٧-٥٩)، سنة ١٩٧١م.

* «وصف الهند وما يجاورها من البلاد»، نشره السيد مقبول أحمـد، عـن الجامعـة الإسـلامية فـي علي كره، سنة ١٩٥٤م.

ثم سعى المعهد الإيطالي للشرق الأدنى والأقصى في روما في جمع مصورات الكتاب المخطوطة ونشرها.

وانظر في ميزات كتاب الإدريسي هذا وأهميته: « التاريخ والجغرافية في العصور الإسـلامية» لعمـر فرّوخ (ص ٢١٥-٢٢٧، ٢٣٤-٢٣٨)، «تاريخ الفكر الأندلسي» (ص ٣١٣-٣١٦)، «العلوم عنـد العـرب» (ص ١٨٦-١٨٨)، «الرحالة العرب» (٥٩)، و«الفكر الجغرافـي فـي الـتراث الإسـلامي» (ص ٩٩-١٠٢، ١٦٧).

=

الآفاق»[1]:

«ولا يعلمُ أحدٌ ما خلْفَ هذا البحر المظلم، ولا وقف بشر فيه[2] على خبر صحيح؛ لصعوبة عبوره، وظلام أنواره، وتعاظم موجه، وكثرة أهواله، وتسلط دوابه، وهيجان رياحه، وبه جزائر كثيرة منها معمورة وغير معمورة[3] ...».

وكان يعزِّزُ ما تواتر عليه الناس عنه، أسطورةٌ[4] مأثورة عن قدامى اليونان،

= ومن الجدير بالذكر أن الإدريسي قسم العالم إلى سبعة أقاليم، وقسم كل واحد منها إلى عشرة أقسام من الغرب إلى الشرق، ووضع لكل قسم خريطة خاصة زيادة على الخريطة الجامعة، والخرائط السبعون محفوظة في النسخ الموجودة من «نزهة المشتاق»، ومنها استخرج ميلر خريطة الإدريسي ونشرها، وقد وجه المجمع العلمي العراقي عنايته لإعادة الخريطة إلى أصلها العربي بعد تحقيق وتصحيح من العلاّمة محمد بهجة الأثري والعلاّمة جواد علي -رحمهما الله تعالى-، ورجعا إلى خمس نسخ من الكتاب، واستدركا على ميلر، وبيّنا اختلاف النسخ، ونشرها المجمع سنة ١٩٥١م، بطول مترين وعرض متر.

(١) (٢/ ٥٢٥).

(٢) في مطبوع «نزهة المشتاق»: «منه».

(٣) في مطبوع «نزهة المشتاق»: «معمورة ومغمورة».

(٤) هذه الأسطورة هي (جلجامش)، وهي ملحمة سومريّة بابليّة، تغنت بها الأجيال منذ الألف الثالث قبل الميلاد في قصة اسمها: «الذي شاهد كل شيء»، والذي نعرفه منها وصلنا من مكتبة أشور بانيبعل في نينوى، وأصدرتها مديرية الفنون والثقافة الشعبية بوزارة الإرشاد بالعراق سنة ١٩٦٢م، في (١٠٨) صفحات، ثم سنة ١٩٧١م، ثم سنة ١٩٧٥، ثم عن دار الحرية ببغداد -أيضاً- في (٢٦٤) صفحة، نقلها من السومرية إلى العربية وقدم لها وعلق عليها طه باقر، وظهرت -أيضاً- عن دار المعارف - القاهرة، ونقلها إلى العربية محمد نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضي.

وانظر: «الذخائر الشرقية» لكوركيس عواد (١/ ٤٧٧ و٢/ ٢٥٥-٢٥٦ - ط. دار الغرب الإسلامي).

والأحداث فيها منسوبة إلى هرقل عند الفينيقيين، بينما في ترجمتها اليونانية الباقية المنقولة عن النسخة الفينيقية، فالأحداث فيها منسوبة إلى (جلجاميش) وبطلها بحري، بينما الأولى وللأستاذ نجيب محمد البهبيتي دراسة صدرت عن دار الثقافة - الدار البيضاء في (٥٤٤) صفحة، قارن فيها بين هذه الأسطورة وبين ما ورد عن ذي القرنين، ودراسته موعبة، وفيها جدّة، ونتائجها غريبة!

وانظر عن (جلجامش): «معجم الحضارات السامية» (ص ٣١٨-٣١٩) لهنري عبودي،=

تقول بأن هِرَقْل بنى أعمدة من النحاس والحجارة، حدّاً بين بحر الروم والأقيانوس، وعلى أعلاها كتابة وتماثيل مشيرة بأيديها: أن لا طريق ورائي لجميع الداخلين إلى ذلك البحر المحيط.

وأشار المسعودي إلى هذه النصب بما نصه[١]:

«وعلى هذا البحر المحيط مما يلي الأندلس جزيرة تعرف بقادس مقابلة لمدينة شذونة، وفي هذه الجزيرة منارة عظيمة عجيبة البنيان، على أعاليها عمود عليه تمثال من النحاس، يرى من شذونة ورائها لعظمه وارتفاعه، ووراءه في هذا البحر على مسافات معلومة تماثيل أخرى في جزائر يرى بعضها مع بعض، وهي التماثيل التي تدعى (الهرقلية) بناها في سالف الزمان هرقل الجبار، تنذر من رآها أن لا طريق وراءها، ولا مذهب بخطوط على صدورها بينة ظاهرة ببعض الأقلام القديمة، وضروب من الإشارات بأيدي هذه التماثيل تنوب عن تلك الخطوط، لمن لا يحسن قراءتها، صلاحاً للعبّاد، ومنفعاً لهم من التغرير بأنفسهم في ذلك البحر».

وكان الحكماء والجغرافيون من العرب يعترفون أن هذا البحر موصل إلى الهند، فقد جاء في كتاب «السماء والعالم»[٢] لأرسطو في الدليل على صغر الأرض: أن الموضع الذي يدعى أصنام هرقل يختلط بأول حد من حدود الهند، ولذلك قالوا: إن البحر واحد.

=«سومر أسطورة وملحمة» (ص ٦٢ وما بعد) لفاضل عبدالواحد علي، ومجلة «آداب المستنصرية» (العدد الثامن/ سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) مقالة «ملحمة كلكامش العراقية ودورها الرائد في أدب الملاحم العالمي» (ص ٧٥-١٠٢)، لسلمان داود الواسطي و(العدد العاشر/ سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م) مقالة (تحليل المضامين القيمة في ملحمة جلجامش) لمجموعة.

(١) «التنبيه والإشراف» (ص ٦٠). (منه).

(٢) ينظر هل هو كتاب «الآثار العلوية» المنشور بتحقيق كازيمير عن المطبعة الكاثوليكية، بلبنان، سنة ١٩٦٧م.

رواد المحيط من العرب

قالت[١]: واقتحام أبناء قحطان بحر الظلمات وركوبهم أهواله أمر لا مرية فيه، وقد بسط الأب انستاس الدليل على ذلك نقلاً عن هيرودونس وعن استرابون، ونحن بدورنا نبسط الدليل نقلاً عن المصادر العربية.

جاء في «مروج الذهب»[٢] (ص٧١) في ذكر الكلام عن البحر المحيط:

«وله أخبار عجيبة، وقد أتينا على ذكرها في كتابنا «أخبار الزمان»[٣] في أخبار مَن غَرّر وخاطر بنفسه في ركوبه، ومن نجا منهم، ومن تلف، وما شاهدوا منه وما رأوا».

ثم قالت: والأرجح أن قصة المغرورين وقعت في القرن الثالث الهجري[٤] (التاسع المسيحي)، ونقلتُ قصّتهم عن كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق»[٥] وخلاصتها:

«أنه اجتمع ثمانية رجال كلهم أبناء عَمٍّ، وخرجوا من مدينة (لشبونة) وجَرَوْا في البحر (١٢) يوماً، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج، كدر الريح، قليل الضوء، فأيقنوا التلف، ثم فردوا قلاعهم في اليد الأخرى، وجَرَوْا في البحر في ناحية الجنوب (١٢) يوماً، فخرجوا إلى جزيرة الغنم، فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين بري، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فوجدوا

---

(١) المراد: الأديبة دولت حسن.

(٢) في الطبعة التي عندي الأزهرية (ص ٥٠). (منه).

قال أبو عبيدة: والكلام المذكور في (١/ ١١٩ من ط. دار الكتب العلمية).

(٣) انظره: (ص ٤١-٧١)، وفيه ذكر لذي القرنين في غير موطن.

(٤) أي: قبل اكتشاف كلمبس بستة قرون. (منه).

قلت: وانظر ما قدمناه في التعليق على (ص ١٥١-١٥٢، ١٥٦) من استفادة كولومبس منها.

(٥) (٢/ ٥٤٨-٥٤٩).

لحومها مُرّة، فأخذوا من جلودها، وساروا مع الجنوب (١٢) يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث، فقصدوا إليها ليروا ما فيها، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك، فأخذوا وحملوا في مراكبهم إلى مدينة على ضفة البحر، فأُنزلوا بها في دار، فرأوا رجالاً شقراً زعراً، شعور رؤوسهم سبطة، وهم طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب، فاعتُقِلوا فيها في بيت ثلاثة أيام، ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي[1] فسألهم عن حالهم وفيم جاءوا، وأين بلدهم؟ فأخبروه بكل خبرهم، فوعدهم خيراً، وأعلمهم أنه ترجمان الملك.

فلما كان في اليوم الثاني أحضِروا بين يدي الملك، فسألهم عما سألهم التَّرْجمان عنه؟ فأخبروه بما أخبره به الترجمان بالأمس، من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته، فلما علم الملك ذلك ضحك، وقال للترجمان: خبر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر، وإنهم

---

(١) يقول محمد راغب: من أين أتى هذا الرجل العربي، وهل هو وحده في هذه الجزيرة يعرف اللسان العربي، هذا مما يستبعد، يمكننا أن نقول جازمين: إنه لما وصل ذو القرنين إلى تلك البلاد واقتحمها، ترك فيها رجالاً من العرب جعلهم حكام تلك البلاد وقتئذٍ وعاد إلى الشرق، فهؤلاء من بقايا مَنْ نزل تلك البلاد من العرب لما جاءها ذو القرنين.

وقول المسعودي الذي تقدم: «وفي هذه الجزيرة منارة عظيمة ووراءه في هذا البحر تماثيل أخرى، وهي التي تدعى الهرقلية، بناها في سالف الزمان هرقل الجبار»، لا يعارض ما نقلناه عن كتاب «التيجان»، أن الباني لهذه الأشياء هو ذو القرنين، لكن مع تقادم الزّمان نسي ذو القرنين، وصار سكان الأندلس ومَنْ كان هناك من البلاد الأوروبية الغربية ينسبون هذه الأعمال إلى هرقل الجبّار، وتُدُوولَ هذا بينهم، وأخذه المسعودي عنهم عن لسانهم أو عن كتبهم، ويحتمل أن هرقل الجبار زاد في هذه المنارات وفي تلك التماثيل وتُنُوسِي مع تطاول الزمان الباني الأول، ولذلك نظائر في التاريخ، وأضف إلى هذا الرجل العربي ما جاء في «مقالة الأب الكرملي»، أن هناك كثيراً من أسماء الحيوان والطير ما هو عربي.

والأب الكرملي لم يعين اسم هذا المكتشِف العربي الأول، ودولت حسن لم تعينه فيما نقلته من المصادر العربية، وصاحب «التيجان» قد عيّنه وسمّاه، وقد مضى على وفاة مؤلف «التيجان» ألف ومئة وسبع وستون عاماً، فإنه توفي سنة (٢٠٠) كما في «تاريخ ابن خلكان»، ومن حفظ حُجّة على من لم يحفظ. (منه).

جروا في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء، وانصرفوا في غير حاجة ولا فائدة تجدَى، ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً، وأن يحسن ظنهم بالملك، ففعل، ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جريُ الرِّيح الغربية، فعمر بهم زورق، وعصبت أعينهم، وجرى بهم في البحر برهة من الدَّهر، قال القوم: قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها، حتى جيء بنا إلى البر، فأخرجنا وكتفنا إلى خلف، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس، ونحن في ضنك وسوء حال من شد الأكتاف، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا، فأقبل القوم إلينا، فوجدونا بتلك الحال السّيئة، فحلّونا من وَثاقنا، وسألونا؟ فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابرة، فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا: لا، فقال: إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين، فقال زعيم القوم: وا أسفى! فسمِّي المكان إلى اليوم (أسفي)، وهو المرسى في أقصى المغرب.

والذي نستخلصه من رواية الإدريسي: إن الإخوة الذين نعتوا ظلماً باسم المغررين، أو المغرورين، ركبوا البحر المحيط من (لشبونة) -عاصمة البرتغال الحالية-، فضربوا في عرضه غرباً، ثم انعطفوا نحو الجنوب فوطئوا أرضَ جزيرةٍ بها غنم وتين بري بعد مسيرة (٢٤) يوماً، ونحن نستبعد أن تكون جزيرة الغنم هذه إحدى جزر اللازورد (أزوره)؛ لأنها تقع غرب (لشبونة)، لا إلى جنوبها الغربي، ولأنها جزر مسكونة من قديم الزمان عرفها القرطاجينيون والنورمانديون والعرب كما جاء في «دائرة المعارف الفرنسية»، وقد هاجر فريق إليها من عرب إسبانيا بعد طردهم من الأندلس.

والذي نظنّه أن هؤلاء الإخوة حطّوا رحالهم في إحدى (جزر برموده) أو (جزر الإنطيل)، إن لم يظعنوا إلى أحد أنحاء المكسيك بلاد التين البري (وفصائل الصبير)، والتي كانت تزخر بقطعان الماشية».

ثم بعد كلام قالت: «وهنا قصة لمغامر آخر اقتحم البحر المحيط، ولا يعرف إلا الله مصيرَه، ومن تبعه في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (أوائل القرن

الرابع عشر الميلادي)، يحدثنا ابن فضل الله العمري في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» عن الملك موسى بن أبي بكر أحد ملوك (مالي) في السودان الغربي، وكان معاصراً لصاحب «مسالك الأبصار»[١] في أيام الملك الناصر بن قلاوون، قال: قال ابن أمير حاجب والي مصر عن الملك موسى بن أبي بكر سألته عن سبب انتقال الملك إليه؟ فقال:

«إن الذي قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك، فجهز مئتين من السفن، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته، فغابوا مدّة طويلة، ثم عاد منها سفينة واحدة، وحضر مقدّمها، فسأله عن أمرهم؟ فقال: سارت السفن زمناً طويلاً، حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة جرية عظيمة، فابتلع تلك المراكب وكنتُ آخر القوم، فرجعت بسفينتي فلم يصدِّقه، فجهز ألفي سفينة؛ ألفاً: للأولاد، وألفاً: للأزواد، واستخلفني وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك، وكان هذا آخر العهد به وبمن معه».

ثم قالت: «ومما يغلب على الظن أن كلمبس وقف على خبر الإخوة المغرورين، وعرف أنهم هبطوا إحدى الجزر فيما وراء المحيط، ولعله كان على علم بنبأ رحلة برندان[٢]، ولا جدال في أنه اطلع على ترجمات الكتب الجغرافية

(١) اسمه: أحمد بن يحيى، وكانت وفاته سنة (٧٤٩) كما في ترجمته في «الدرر الكامنة» (ج ١ص ٣٣١). (منه).

قال أبو عبيدة: بعض كتابه بخطه ما زال محفوظاً في المكتبة السليمانية، إستانبول، برقم (٢٤٢٧ - آياصوفيا)، وله نسخ خطية أخرى، وأصدره مصوراً عنها الأستاذ فؤاد سزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا وإيكهارد نويباور، عن معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت - ألمانيا الاتحادية، في سبعة وعشرين سفراً.

(٢) أقول: ولعله كان على علم برحلة ذي القرنين التي قصها علينا صاحب كتاب «التيجان»!!. (منه).

قال أبو عبيدة: قرر الدكتور هـ. ج وود في كتابه «الارتياد والكشف الجغرافي» (ص ٦٩-٨٨): إن (كولومبوس) كان عارفاً بقصة البحث عن أمريكا، وأنه قبل أن يبحر سنة ١٤٩٢م كانت هذه الجزر=

العربية التي تقول بكَرَوية الأرض، وبأن البحر المحيط موصل إلى الهند، ثم استطاع أن يقنع الملكة إيزابلّه، وسار بسفنه الشراعية في ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢، متخذاً سبيله في المحيط غرباً، ثم جنوباً بغرب، حتى وصل في ١٢ اكتوبر إلى جزيرة غواني هاني -التي عرفت فيما بعد باسم (سان سلفادور)- وكأن معاصريه لم يجدوا فيما أتى به بدعاً أو لم يروا فيه أول مقتحم لبحر الظلمات، فضرب لهم مثل البيضة المعروف، ومات في بلد الوليد عام ١٥٠٦ آسفاً محسوراً.

فهذه حقائق مستفادة من المصادر العربية، تثبت أن أبناء يعرب جابوا بحر الظلمات قديماً، على أن أخبار مقتحميه منهم وما شاهدوا منه وما رأوا لم تلق من الناس والمؤرخين الأقدمين اهتماماً كبيراً، وهناك ولا ريب كثير من رواد المحيط الناطقين بالضاد ركبوا في قوافل بحرية كبيرة مثل ملك (مالي)، بيد أنهم لم يجدوا مَن يؤرِّخ لهم، ولا ريب أنَّ بعضهم حطَّ رحاله في ربوع أميركا الوسطى وجزائرها، لذا لا نعجب إن رأينا فيها كثيراً من الأسماء العربية العائدة إلى الحيوان والطير» اهـ ما قالته.

=معروفة، وأن معرفة الجزر في المحيط الأطلسي يرجع إلى عهد مبكر جدّاً»، قال (ص ٧١): «إن سجلات (لشبونة) قد تُعلِن في أي يوم أدلة مقنعة أخرى على اكتشاف البرتغاليين لأمريكا قبل وصول كولومبس إلى جزيرة (الأنتيل)».

تتمة الفصل الثاني في مسيره إلى المغرب

وأما معنى قوله آنفاً أنه لما انتهى إلى عين الشمس وجدها تغرب في عين حمئة، فقد قال الفخر الرازي في «تفسيره» (ج ٥/ ص ٧٥٣)[١]:

«إنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة، وأن السماء محيطة بها، ولا شك أن الشمس في الفلك، وأيضاً قال: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ [الكهف: ٨٦]، ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود[٢]، وأيضاً الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة، فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض؟ إذا ثبت هذا؛ فنقول:

تأويل قوله: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] من وجوه:

الأول: أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب في عين، وهدةٍ[٣] مظلمة، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشّط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر، هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبّائي في «تفسيره»[٤]، ثم

(١) المسمى «مفاتيح الغيب» (٢١/ ١٤٢ - ط. دار الكتب العلمية).

(٢) أخرج أبو يعلى في «مسنده» -في رواية ابن المقرئ، وهي غير مطبوعة- كما قال في «المطالب العالية» (١٥/ ٣٧ رقم ٣٦٥٧ - ط. العاصمة) بسند صحيح عن ابن جريج؛ في تفسير هذه الآية: «مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس دويَّ الشمس حين تَجِبُ».

قلت: تجب؛ أي: تسقط مع المغيب. انظر: «النهاية» (٥/ ١٥٤)، والدَّويُّ: الصوت. انظر: «اللسان» (٤/ ٢٨١).

(٣) تحرفت في مطبوع «تفسير الرازي» إلى «وهذه» فلتصحح.

(٤) صاحبه محمد بن عبدالوهاب بن سلام أبو علي الجُبَّائي (٢٣٥-٣٠٣ هـ ٨٤٩-٩١٦م)، من أئمة المعتزلة، «تفسيره» حافل مطوّل، رد عليه غير واحد؛ منهم: أبو الحسن الأشعري، نقل عنه ابن عساكر=

قال:

الوجه الثالث: قال أهل الأخبار: إن الشمس تغيب في عين كثيرة الماء والحمأة، وهذا في غاية البُعْد، وذلك أنا إذا أرصدنا كسوفاً قمرياً: فإذا اعتبرنا[(١)] ورأينا أن المغربيين قالوا: حصل هذا الكسوف في أول الليل، ورأينا

=في «تبيين كذب المفتري» (ص ١٣٩) قوله عنه:

«ورأيت الجبَّائي ألّف في تفسير القرآن كتاباً، أوّله على خلاف ما أنزل الله -عزَّ وجلَّ-، وعلى لغة أهل قريته المعروفة بجُبّى، وليس من أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وما روى في كتابه حرفاً عن أحد من المفسرين، وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه، ولولا أنه استغوى بكتابه كثيراً من العوام، واسْتَزَلَّ به عن الحقِّ كثيراً من الطغام، لم يكن لتشاغلي به وجه...».

وانظر: «التفسير والمفسرون» (١/ ٣٨٦) لمحمد حسين الذهبي، و«الأعلام» للزركلي (٦/ ٢٥٦).

وأما بالنسبة إلى معنى الآية:

«فالمعنى: إن ذا القرنين لما وصل إلى نهاية بلاد المغرب المعروفة في عصره بالنسبة إلى بلاده، وجد الشمس تغرب في ماء كدر؛ لكثرة ما فيه من الحمأة أو الحمأ؛ ومعناهما: الطين الأسود، وقد ذكر الراغب في مادة: (وجد) من «مفرداته» أن الوجود أنواع: فيطلق على ما يدرك بإحدى الحواس الخمس، وبالعقل، وبالوجدان الباطن، كالغضب والشهوة، فيقال: وجدت الشيء أو الشخص، ووجدت طعمه حلواً، ووجدت رائحته طيبة، ووجدت صوته حسناً، ووجدت خشونته شديدة، ووجدت الشبع والسرور، ووجدت برهانه صحيحاً، وقال في تفسير: ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] حيث رأيتموهم، وفي تفسير: ﴿وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣]، وقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: ٢٤]، إنه وجود بالبصر والبصيرة، فلقد كان منه مشاهدة بالبصر، واعتبار بالبصيرة.

فقوله -تعالى-: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ [الكهف: ٨٦]؛ بمعنى: رآها، وذلك كما نراها ونحن مسافرون في البحر تطلع منه وتغرب فيه، وكذلك نراها في السواحل، ويرى بعض الناس أن المراد بهذه العين الحمئة البحر المحيط الغربي المعروف (بالأتلانتيك)، وكانت العرب تسميه بحر الظلمات، ويجوز أن يراد بها بعض البحيرات التي جفت أو الباقية، فإن ذا القرنين قديم لا يُعرَف في أي عصر كان، وليس هو الإسكندر المكدوني المشارك له في اللقب، وقد كانت الأرض مغمورة بالمياه، وظهرت اليابسة منها بالتدريج البطيء، وكثيراً ما حصل في الأقاليم الاستوائية أن توجد البحيرة، ثم تجف في مدة قصيرة» أفاده رشيد رضا في مجلة «المنار» (١٣/ ٨٢٥-٨٢٦)، سنة ١٣٢٨هـ.

(١) في مطبوع «تفسير الرازي»: «اعتبرناه».

أن[1] المشرقيين قالوا: قد[2] حصل في أول النهار، فعلمنا أن أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثاني عند أهل المشرق، بل ذلك الوقت الذي هو أول الليل عندنا فهو وقت العصر في بلد، ووقت الظهر في بلد آخر، ووقت الضّحوة في بلد ثالث، ووقت طلوع الشمس في بلد رابع، ونصف الليل في بلد خامس.

وإذا كانت هذه الأحوال معلومة بعد الاستقراء والاعتبار، وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الأوقات؛ كان الذي يقال: إنها تغيب في الطين والحمأة، كلاماً على خلاف اليقين.وكلام الله -تعالى- مبرأ من هذه التهمة، فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل الذي ذكرناه. اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية»[3] (ج ٢ ص ١٠٧) في تفسير قوله -تعالى-: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٨٦]:

«يعني: من الأرض انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي، الذي يقال له (أوقيانوس)، الذي فيه الجزائر المسماة بـ(الخالدات)، التي هي مبدأ الأطوال على أحد قولي أرباب الهيئة، والثاني من ساحل هذا البحر كما قدمناه، وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]، والمراد بها، البحر في نظره، فإنَّ مَن كان في البحر أو على ساحله؛ يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغيب فيه، ولهذا قال: ﴿وَجَدَهَا﴾؛ أي: في نظره، ولم يقل: فإذا هي تغرب في عين حمئة؛ أي: ذات حمأة» اهـ.

وقوله -تعالى-: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ [الكهف: ٨٦].

---

(١) سقطت من مطبوع «التفسير».

(٢) سقطت من مطبوع «التفسير».

(٣) (٢/ ١٥٨ - ط. دار أبي حيان).

قال النسفي في «تفسيره»[١]: «كانوا عراة مـن الثّيـاب، لباسـهم جلـود الصيـد، وطعامهم ما لَفَظه البحر، وكانوا كفاراً، وقوله: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ...﴾ إلخ [الكهـف: ٨٦]: استدل بعضهم بقوله: ﴿قُلْنَا﴾ على نبوّة ذي القرنين، والـذي يتكلـم الله معـه لا بد وأن يكون نبياً، ومنهم من قال: إنه كان عبداً صالحاً»[٢].

قال النسفي[٣]:

«إن كان نبياً، فقد أوحى الله إليه بهذا، وإلا فقد أوحى إلـى نبـيّ فـأمره النبـي به[٤]، أو كان إلهاماً، خُيِّر بين أن يعذبهم بالقتل إن أصرّوا على أمرهم، وبين أن يتخذ فيهم حسناً بإكرامهم، وتعليم الشّرائع إن آمنوا، أو التعذيب: القتل، واتخـاذ الحسـن: الأسر؛ لأنه بالنظر إلى القتل إحسان».

وفي «البداية والنهاية» (ج ٢ ص ١٠٣)[٥]:

عن ابن عباس: كان ذو القرنين ملكاً صالحاً رضي الله عملـه[٦]، وأثنـى عليـه في كتابه، وكان منصوراً، وكان الخضر وزيره[٧]، وذكر أن الخضـر -عليـه السـلام- كان على مقدمة جيشه، وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم.

وقد ذكر الأزرقي[٨] -مؤرخ مكة- وغيره:

---

(١) المسمى «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٠٩-٣١٠).

(٢) انظر ما قدمناه في التعليق على (ص ٩٩، ١٠٥).

(٣) في «مدارك التنزيل» (٢/ ٣١٠).

(٤) وهذا بعيد، قال القاسمي في «محاسنه» (١١/ ٩٣-٩٤): «هو عدول عن الظاهر».

(٥) (٢/ ١٥٥).

(٦) تحرفت في مطبوع «البداية» إلى «عنه» فلتصوب.

(٧) مضى تخريجه، وإسناده ضعيف جداً.

(٨) هو محمد بن عبدالله بن أحمد أبو الوليد الغسَّاني، لم نجد له ترجمة مـع كـثرة البحـث فـي=

«إن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل، وطاف معه الكعبة المكرمة

=شيء من المصادر المطبوعة والمخطوطة، إلا قول السمعاني في كتاب الأزرقي «أخبار مكة»: «وأحسن في تصنيف ذلك الكتاب غاية الإحسان»، وإلا قول كاتب النسخة الأولى، فإنه قال في أول الكتاب بعد البسملة: «قال الحافظ المتقن أبو الوليد الأزرقي رحمه الله».

ولكني لم أعرف منزلة الكاتب في العلم حتى يوثق بتوثيقه، لا سيما مع عدم ورود مثله في شيء من كتب أهل العلم، ولذلك فإني أعتبر المؤلف في حكم المستورين عند المحدثين الذين يستأنس بحديثهم ولا يحتج به، وكذلك لم نقف له على تاريخ وفاته في شيء من المصادر الموثوقة، وقد ذكر كاتب جلبي وغيره من المتأخرين فيها أقوالاً كثيرة لا يمكن الاعتماد على شيء منها، وأقدم مصدر وقفت عليه في تاريخها إنما هو «الأنساب» للسمعاني، ولكنه بيض لبعضه، فقد قال -كما في النسخة المخطوطة المحفوظة في الظاهرية (ص ٤٢)-: «مات ومئتين» كذا! والبياض قدر لفظتين أو ثلاثة، وقد ألغى هذا البياض كاتب النسخة المصورة، فصارت الجملة فيها هكذا: «مات ومئتين»! ولم ترد إطلاقاً في «اللباب» لابن الأثير، فالظاهر أن البياض من نفس المؤلف.

ثم وجدت ترجمة له في «الفهرست» للنديم، و«العقد الثمين» (٢/ ٤٩)، وفيه: «وما علمت متى مات؛ إلا أنه كان حيّاً في خلافة المنتصر محمد بن جعفر المتوكل العباسي»، وقال: «ولم أرَ من ترجمه، وإني لأعجب من ذلك».

قلت: والمنتصر حكم الثلاثة الأشهر الأخيرة من سنة ٢٤٧، والثلاثة الأشهر الأولى من سنة ٢٤٨، فتكون وفاة المؤلف بعد (٢٤٧)، وقبل (٣٠٠)، ونقل ابن حجر في «الفتح» (١/ ٢٥٥، ٤٩٩ و٨/ ٨٢ و٣/ ٤٥٩، ٤٦٥، ٤٦٩، ٤٧٤) من هذا الكتاب.

وقد نظمه بعض متأخري الشافعية في أرجوزة كما في «طبقات السبكي» (١٠/ ٩٨)، هذا ما أثبتُّه بخطي في تعليقي على «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية» (ص ٣٠٤) لشيخنا المحدث الألباني، وقرأته عليه، وارتضاه، وكان قد عرّف به في أصل الكتاب في الطبعة السابقة بقوله: «محدّث، روى عن جماعة، كان حيّاً سنة ٢٤٧ هـ»، ولم يذكر درجته تعديلاً أو تجريحاً على خلاف عادته، فحاولت استدراك ذلك في مراجعتي له، فلم أظفر إلا بما أثبتُّ.

ومن المفيد بهذه المناسبة: أن أذكر أن منهج الشيخ -رحمه الله- في كتابه هذا ذكر منزلة الراوي إلا فيما لم يظفر به، وقد حاولت الوقوف على عدد من أبهمهم الشيخ، وذكرتُ منزلتهم، مشيراً إلى زيادتي بوضعها بين معقوفتين، وقد غفل عن إدراج أحكام الشيخ في هذا الكتاب أخوانا صالح اللحام وأحمد الشكوكاني في كتابهما «مجرد أسامي الرواة الذين ترجم لهم العلاّمة محمد ناصر الدين الألباني جرحاً وتعديلاً»، ووقع لهما فوت يسير في رسائل مفردة، لم يقفا عليها، فليتنبه لذاك، تولى الله هداك.

هو وإسماعيل -عليه السلام-»[١].

وفي «محاضرة الأوائل» لعلي دده (ص ٢٩)[٢]:

«أول من صافح وعانق إبراهيم -عليه السلام-، حكى بعض الثقات من المؤرخين أنه اجتمع في الحرم المكي مع إسكندر ذي القرنين الكبير[٣]، وعانقه وصافحه وأعطاه الراية، وتشرع بشريعته، ودخل ملته، ودعا الناس إلى أحكام شرعه».

وهذا يؤيد أنه كان عبداً صالحاً، ويكون الله قد أوحى إلى وزيره الخضر الذي كان مرافقاً له أن يقول لذي القرنين: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ [الكهف: ٨٦]، فقال: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً﴾ [الكهف: ٨٧]؛ أي: فاختار الدعوة، وقال: أما من دَعَوْته فظلم نفسه بالإصرار على كفره، أو استمر على ظلمه الذي هو الشرك، فنعذّبه: أنا ومن معي في الدنيا بالقتل، ثم يعذبه الله في الآخرة عذاباً منكراً لم يعهد مثله، ﴿وَأَمَّا مَنْ آمنَ وَعمِلَ صَالِحاً﴾ [الكهف: ٨٨]، وهو ما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُ﴾ في الدارين ﴿جَزَاءً الحُسْنَى﴾؛ أي: فله المثوبة الحسنى مجزيّاً بها، ﴿وسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾؛ أي: لا نأمره بالصَّعب الشّاق، ولكن بالسهل الميسر من الزكاة والخراج وغيرهما، وقيل: نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا.

---

(١) أخرجه الأزرقي في «تاريخ مكة» (١/ ٧٤): حدثني جدي، عن رجل من أهل العلم، قال: حدثني محمد بن مسلم الرازي، عن جرير بن عبدالحميد الرازي، عن الفضل بن عطية، عن عطاء: «أن إبراهيم رأى رجلاً يطوف بالبيت، فأنكره، فسأله: ممن أنت؟ فقال: من أصحاب ذي القرنين، قال: وأين هو؟...» وساق نحوه.

وإسناده مظلم، وذكره عنه الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (١/ ١٣٧) وغيره.

(٢) (ص ٣٩ - ط. بولاق، سنة ١٣٠٠هـ)، ومؤلفه علي بن دده السكتواري البنوي، الملقب بـ(شيخ التربة)، كان صوفيًا، له مؤلفات عديدة؛ منها: «خواتم الحكم»، و«تمكين المقام في المسجد الحرام»، توفي سنة (١٠٠٧هـ)، ترجمته في: «الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء البوسنة» (ص ١٦٣-١٦٥)، «معجم المؤلفين» (٧/ ٢٤٣).

(٣) تقدم التحقيق أنّ ذا القرنين الكبير لا يسمى إسكندر، وأيضا؛ فإن المشهور لم يذهب إلى بلاد الحجاز، بل أين زمنه من زمن إبراهيم -عليه السلام-؟! (منه).

الفصل الثالث

في عودته من الغرب وسيره إلى أقصى الشرق

قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَم نَجْعَلْ لَهُمْ مِن دُونِهَا سِتْراً . كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾ [الكهف: ٨٩-٩٠].

قال ابن كثير[١] والبيضاوي[٢]: أي أنه سلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق، فيقال: إنه رجع في ثنتي عشرة سنة[٣]، حتى بلغ الموضع الذي تطلع الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض -والمراد به: المشرق الأقصى من جهة الجنوب-، ولما بلغ ذلك المكان، وجد الشمس تطلع على قوم ساكنين في الفلاة ليس لهم بيوت، ولا أكنان يستترون بها من حَرِّ الشمس[٤].

---

(١) في «البداية والنهاية» (٢/ ١٥٩)، والمذكور لفظه، وكذا ما سيأتي إلى قوله: «مغارب الأرض ومشارقها».

(٢) في «أنوار التنزيل» (٢/ ٢٢ - ط. دار الكتب العلمية)، ونقل المصنف منه من قوله: «أو أن أمر ذي القرنين...».

(٣) وفي أثناء رجوعه إلى الشرق بنى الأبلة، وهي بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة. نص على بناء ذي القرنين لها ياقوت في الكلام على (البطيحة) (ج ٢ ص ٢٢٣). (منه).

(٤) ورد نحوه في المرفوع!

أخرجه أبو يعلى في «مسنده» -رواية ابن المقرئ، كما في «المطالب العالية» (١٥/ ٣٨ رقم ٣٦٥٨ - ط. دار العاصمة)- وعنه أبو الشيخ في «العظمة» (١/ ٣٩٥ رقم ٩٥٩)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٣٨٦ رقم ١٢٩٦٠) من طريق ابن جريج، قال: حدثت عن الحسن،=

قال كثير من العلماء: كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى أسراب، قد اتخذوها في الأرض شبه القبور.

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ونحن نعلم ما هو عليه، ونحفظه ونكلؤه بحراستنا في

=عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«﴿سِتراً﴾ بناءً، لم يُبْنَ فيها بناء قَط، ولم يُبن عَلَيهِم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول».

وإسناده ضعيف؛ لانقطاعه بين ابن جريج والحسن، وسكت عليه البوصيري في «الإتحاف».

وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٦/ ١٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٣٨٤ رقم ١٢٩٥٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١/ ٤١٣ رقم ٩٧٨) عن ابن جريج قوله، **وإسناده صحيح**، وهو أشبه، وعزاه في «الدر» (٤/ ٢٤٩) لابن المنذر، وورد معناه عن غير واحد من التابعين، وهذا البيان:

قال الحسن: «أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا في الماء، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم».

أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١/ ٤١٣ رقم ٩٨٠) عن الوليد، عن أبي طالب، عن نصر بن علي، عن سلم بن قتيبة، عن سهل بن أبي الصلت السراج، عن الحسن، **وإسناده حسن**.

وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٦/ ١٤) عن إبراهيم بن المستمر، عن سليمان بن داود أبي داود، عن سهل بن أبي الصلت، به بنحوه.

وعزاه السيوطي في «الدر» (٤/ ٢٤٩) إلى الطيالسي، ولم أره في القسم المطبوع من «مسنده»، وكذا إلى البزار في «أماليه»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم -وهو في «تفسيره» (٧/ ٢٣٨٦ رقم ١٢٩٦١)-، وهو موقوف على الحسن.

وقال قتادة: **«بلغنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان، فكانوا يدخلون في أسراب لهم إذا طلعت الشمس حتى تزول عنهم، ثم يخرجوا إلى معاشهم».**

أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (٣/ ٤١٢) -ومن طريقه ابن جرير في «التفسير» (١٦/ ١٤)- عن معمر، عن قتادة باللفظ المتقدم.

وأخرجه ابن جرير (١٦/ ١٣-١٤) عن بشر بن يزيد، عن سعيد، عن قتادة بنحوه، وهو في «تفسير ابن أبي حاتم» (٧١/ ٢٣٨٦ رقم ١٢٩٦٢)، **وإسناده صحيح**.

وذكره ابن أبي زمنين في «تفسير القرآن العزيز» (٣/ ٨٠)، وغيره عن قتادة.

مسيره ذلك كله من مغارب الأرض ومشارقها، أو: إن أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان، وبسطة الملك، وأمرُه[١] فيهم كأمرِه في أهل المغرب في التخيير والاختيار، ويجوز أن يكون ﴿كَذَلِكَ﴾ صفة لقوم، ويكون المعنى: على قوم[٢] مثل ذلك القبيل، الذين[٣] تغرب عليهم الشمس في الكفر والحكم.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ [الكهف: ٩١] من الجنود والآلات والعدد والأسباب، ﴿خُبْراً﴾: علماً تعلّقوا بظواهره وخفاياه، والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير، قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ [الكهف: ٩٢]؛ يعني: طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من الجنوب إلى الشمال، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٣]: بين الجبلين، وهما جبلان؛ سَدَّ ذو القرنين ما بينهما، وهما جبلان منيعان في أواخر الشّمال، في مُنقطعِ أرضِ الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج[٤].

وقوله: ﴿وجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً﴾ [الكهف: ٩٣]، قال الفخر[٥] والنسفي[٦]: من ورائهما. وقال الخازن[٧]: أمامهما. وهو الأظهر، ويدل عليه قول البيضاوي آنفاً أن الجبلين من ورائهما يأجوج ومأجوج، وقول الخطيب[٨]: أي: بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما[٩] إلى الجهة التي أتى منها ذو القرنين.

---

(١) كذا في الأصل، وعند البيضاوي: «أو أمره».

(٢) عند البيضاوي: «صفة مصدر محذوف لوجد أو نجعل، أو صفة قوم؛ أي: على قوم...».

(٣) كذا في الأصل، وعند البيضاوي: «الذي».

(٤) ما سبق في «أنوار التنزيل» (٢/ ٢٢).

(٥) في «مفاتيح الغيب» (٢١/ ١٤٤).

(٦) في «مدارك التنزيل» (٢/ ٣١١).

(٧) في «لباب التأويل» (٤/ ٢٣١).

(٨) في تفسيره «السراج المنير» (٢/ ٣٨٥ - ط. بولاق، سنة ١٢٩٩هـ).

(٩) في الأصل: «منها»، والمثبت من مطبوع «السراج».

وفي خريطة بلاد الصين المثبتة في كتاب «النخبة الأزهرية في تخطيط الكرة الأرضية»: صورة واضحة عن هذا السد، وبيانُه: أنك ترى جنوبي تركستان الشرقية، سلسلة جبال متصلة من وسط بلاد الصين، آخذة نحو الشرق ممتدة إلى جهة الشمال، تسمى جبال (كوتين تون)، وبعد انتهاء هذه السلسلة ترى سهولاً واسعة ممتدة إلى الشرق، ثم ترى سلسلة جبال آخذة نحو الشمال، تسمى جبال (آن شان)، ثم يليها جبال متسلسلة آخذة إلى الشمال إلى أن تدخل إلى بلاد منشورية، تسمى جبال (كنج جان) الكبيرة، وشمالي جبال (كوتين تون) وغربي جبال (آن شان) وجبال (كنج جان) الكبيرة: صحراء (قوبي)، وهو صحراء واسع جداً مترامي الأطراف، يسكنه المغول، وهم يأجوج ومأجوج!!

وفي كتاب «التيجان»[1] (ص ٩٢) تفصيلٌ عن عودة ذي القرنين من المغرب الأقصى ومَسيرِهِ إلى الشرق الأقصى، نقتطف منه ما يلي:

قال: «ثم أرسل عساكره إلى جزيرة الأندلس، ثم أرسل الخضر إلى قمونية في عساكره، وأمره أن يلقاه بدروب الشام، فسار الخضر حتى أتى بيت المقدس فآمن به مَن آمن، وأخرج من بيت المقدس من لم يؤمن، ومنهم من أجرى عليه الجزية، ثم سار حتى انتهى إلى الدروب فلقي ذا القرنين، فسارا يريدان مطلِعَ الشمس يدعوان إلى الإيمان، ولا يأتيان على أمة إلا آمنت أو هلكت، ثم عطف على الجزيرة -المراد بها: جزيرة ابن عمر الواقعة شرقي الفرات ولا زالت تسمى الجزيرة-[2]، ومضى إلى العراق[3] يدعو ويقتل، ثم قصد أرضَ فارس، فآمن من

---

(١) (ص ١٠٦ - ط. مركز الدراسات والأبحاث اليمنية)، والكلام فيه بتصرف واختصار شديدين.

(٢) وهي في شمال (الموصل) بينهما تسعون ميلاً، وهي اليوم قضاء في تسنجق (ماردين) في ولاية (ديار بكر) في الجمهورية التركية.

(٣) ذكر ياقوت في «معجمه» (٢/ ٤٤١) عند (دجلة): «... وقيل: إنّ أصل مخرجه من جبل بقرب (آمِد) عند حصن يعرف بـ(حصن ذي القرنين)، من تحته تخرج عين (دجلة)، وهي هناك ساقية، ... ورأيته بآمد، وهو يخاض بالدواب»، ونحوه في «الماء وما ورد في شربه من=

آمن، وقتل من غدر وكفر، ونزل على جبل الصخر، ونـزل قصر المجدل، وهو القصر الأبيض قصر عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح».

قال[١] بعد أن وصف هذا القصر:

«ثم سار حتى بلغ إلى فجٍّ عظيمٍ بنهاوند، ثم لقيته جبال شُمٌّ منيعة، بينها شِعاب عظيمة، فقيل له: يا ذا القرنين! هذا الشِّعب ينفذ إلى جابرصا[٢]، وهذا الشعب يصل إلى هرات ومرو وسَمَرْقند، وهذا ينفذ إلى جاجا وبلخا وحابلجا وبارد[٣] وأرض يأجوج ومأجوج، فأخذ شِعب جابرصا[٤]، فقتل من قتل وآمن من آمن، وغلب على أرمينية ومَنْ بها، ثم عطف إلى فجٍّ نهاوند، فقيل هذا باب الأبواب، وهو اسمه إلى اليوم باب الأبواب[٥]، ثم مضى حتى بلغ أرض يأجوج

=الآداب» (ص ٤٣) لمحمود شكري الآلوسي.

(١) انظر: «التيجان» (ص ١٠٩ - ط. مركز الدراسات والأبحاث اليمنية).

(٢) في «المعجم»: «جابرس (بالسين): مدينة بأقصى الشرق». (منه).

(٣) هذه الأسماء كلها محرفة في الأصل، والمراد بجاجا: مدينة جاج فيما وراء النهر؛ وهي بجيمين فارسيين، وقد عرّبت العربُ اسم هذه المدينة، فقالت: شاش، وبلجا محرف من بلخ بالخاء، و(حابلجا) لعله محرف من جابلق، والظاهر أن هذه الأسماء كلها مأخوذة من كتاب باللغة الآرامية بحيث في آخرها ألف، وأما بارد فلا أدري أي بلد يعني بهذا. من هامش «التيجان» (١٠٩).

(٤) بعدها في مطبوع «التيجان»: «وجابلقا».

(٥) وسماه الفرس من قبلهم (دربند)؛ أي: الحاجز بين جورجيا وبين ولاية شيروان الفارسية، وسماه الأتراك (دمبركابي)؛ أي: باب الحديد، وعرفه الأرمن من تاريخهم وبلغتهم المحلية باسم (بهاك غورائي) أو (كابان غورائي)، ومعنى الكلمتين واحد؛ وهو: مضيق غورش أو ممر غورش، وأطلق عليه سكان (جورجيا) في عهودهم الغابرة الباب الحديدي، ويسمى في أيامنا هذه بـ(مضيق داريال)، وموقعه بين فلادي وكوكس وتفليس. انظر: «يأجوج ومأجوج» (٣١٠) لشفيع أحمد.

وظفرت بكلام أورده الشيخ العلاّمة فقيه الزمان محمد الصالح بن عثيمين -رحمه الله تعالى- في «مجموع فتاوى ورسائل له» (٧/ ٢٧٠) تحت (فائدة)، وهذا نصه بتمامه:

«ووجدت في مجلة التمدن الإسلامي الصادرة في رمضان سنة ١٣٧٨هـ (٧٥٦) تحت عنوان:=

ومأجوج، فقاتلهم، فغلب عليهم، وأناب أمّة منهم، وهم: بنو علجان بن يافث بن نوح، فتركهم في جزيرة أرمينية إلى ناحية جابرصا فسموا الترك؛ لأن ذا القرنين تركهم ومضى يطلب يأجوج ومأجوج حتى لجج في أرضهم، فلم يزل يأخذها أرضاً أرضاً، وأمّة أمّة، حتى انتهى إلى الأرض الشمّاء، وهي جبال شُمٌّ شواهق شوامخ، فلم يزل يحرقها بالطرق، وينزل العلو، ويرفع الوهاد، ويفتتحها حتى غلب عليها، وبلغ الأرض الهامدة، فافتتحها -وهي أرض مبسوطة، لا تلعة فيها، ولا ربوة عليها- وغلب مَنْ بها مِنْ يأجوج ومأجوج».

يستفاد مما تقدم: إن ذا القرنين بعد أن أتى بلاد باب الأبواب، وهي البلاد الواقعة عند بحر (خزر)، سار منها إلى تركستان الشمالية، ومنها إلى تركستان الشرقية[1]، الواقعة شمالي جبال (كوتن تن)، وكانت جميع هذه البلاد -إلى أن

=«سد يأجوج ومأجوج» ما نصه:

توجد في التعبة الواقعة بين بحر الخزر والبحر الأسود سلسلة جبال توقان، كأنها جدار طبيعي، وقد سَدَّ هذا الجدارُ الجَبَليُّ الطريقَ الموصلة بين الشمال والجنوب إلا طريقاً واحداً بقي مفتوحاً، هو مضيق داريال، بين ولايتي كيوكز وتفليس، حيث يوجد الآن جدار حديدي من قديم الأزمان. اهـ.

وذكر أنه منقول من كتاب «شخصية ذي القرنين» من منشورات دار البصري في بغداد» انتهى.

قال أبو عبيدة: حصّلت «المجلة» المذكورة، ولم أجد فيها شيئاً زائداً عن (السّد)، إلاّ الذي ذكره الشيخ بحروفه، فاقتضى التنبيه والتنويه.

وبعدها في مطبوع «التيجان»: «فأنشأ ذو القرنين يقول هذه الأبيات...» وأورد ستة أبيات من الشعر.

(١) التركستان: هضبة واسعة متفاوتة الارتفاع، تقع في أواسط آسية، ويحدها من الشمال سيبيرية، ومن الغرب بحر الخزر (قزوين)، ومن الجنوب إيران والأفغان وشبه جزيرة الهند، ومن الشرق بلاد المغول وصحراء غوبي، وهي تقسم مِنطقتين: التركستان الغربية، ثم التركستان الشرقية، التي هي في الحقيقة جزء من الصين يدعى اليوم (سِنْ كِيانْغ).

هذه الهضبة كثيرة التلال، وفيها جبال ترتفع أحياناً إلى نحو ثلاثة آلاف متر، وفيها -أيضاً- منخفضات تصل إلى نحو مئة وخمسة وعشرين متراً تحت سطح البحر، ثم إن الجانب الشرقي من التركستان أكثر ارتفاعاً وانخفاضاً من الجانب الغربي وأكثر تفاوتاً.

وقد كان الآريّون -أسلاف الهنود والجرمان والصقالبة- ينزلون في فجر التاريخ في التركستان=

تصل إلى جبال (كنج جان)، بل وإلى ما وراء هذه الجبال- تدعى (بلاد يأجوج ومأجوج)، ثم خصت البلاد الغربية من بلاد الصين من الشمال إلى الجنوب باسم الترك بناء على أن ذا القرنين تركهم غربيَّ السّد[1]، وكونهم سموا تركاً لهذا السبب ليس مما يطمئنُّ له القلب، ويثلج به الصَّدر[2].

=الشرقية، وكذلك كان الهيطل-الهون البيض- ينزلونها في القرن الثاني قبل الميلاد.

انظر: «العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط» (ص ٢٢) لعمر فرّوخ، و«محاضرات في حاضر العالم الإسلامي» (ص ٢٩٤-٢٩٥) لداود الفاعوري، و«الإسلام والصين» لبدر الدين حي، و«البلدان الإسلامية» (٦١٣-٦٣٧) لفهمي هويدي، و«تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر» لتوماس أرنولد (ص ٣٣١-٣٤٣) ترجمة حسن إبراهيم وعبدالمجيد عابدين وإسماعيل النحراوي.

(١) رأيت نحو هذا في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» للعلاّمة الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله تعالى- (٥/ ٣٥٧ - جمع وإشراف الشويعر)، وهذا نص السؤال والجواب بحروفه:

السؤال: سمعنا عن قوم يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم، فما موقفهم الحالي في عالمنا المعاصر وما دَورُهم فيه؟

الجواب: «هُم من بني آدم، ويخرجون في آخر الزمان، وهم في جهة الشرق، وكان الترك منهم فتركوا دون السّد وبقي يأجوج ومأجوج وراء السّد، والأتراك كانوا خارج السد، ويأجوج ومأجوج من الشعوب الشرقية (الشرق الأقصى)، وهم يخرجون في آخر الزمان من الصين الشعبية وما حولها بعد خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنهم تركوا هناك حين بنى ذو القرنين السد، وصاروا من ورائه من الداخل، وصار الأتراك والتتر من الخارج، والله -جلّ وعلا- إذا شاء خروجهم على الناس خرجوا من محلهم وانتشروا في الأرض وعثوا فيها فساداً، ثم يرسل الله عليهم نغفاً في رقابهم فيموتون موتة نفسٍ واحدةٍ في الحال، كما صحت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ، ويتحصّن منهم نبيُّ الله عيسى ابن مريم ﷺ والمسلمون؛ لأن خروجهم في وقت عيسى بعد خروج الدجال» انتهى.

قال أبو عبيدة: وكون (يأجوج ومأجوج) هم أهل (الصين)، هو اختيار المصنِّف في رسالته هذه، وسيأتي تعقّبه بكلام مطوّل مهم، فلينظر.

(٢) قلت: ومثله: تحديد مكان يأجوج ومأجوج، وسيأتيك -إن شاء الله تعالى- مزيد بسط في ذلك.

ويستفاد من كلام صاحب «التيجان» بعد ما تقدم: أنه أوغل في شمالي البلاد الصِّينية، وبلغ جزائرها، ولعل المراد بها الجزائر التي في شمالي آسيا، أو الجزر التي فيها الأمّة المعروفة الآن باليابان.

وقال[١] بعد ذلك (في ص ١٠٢):

«ثم إن ذا القرنين رجع حتى بلغ السَّدّ، وهو بالصدفين، ولا سدَّ فيه».

فشكى له أهل تلك الأماكن ما يلاقونه من يأجوج ومأجوج من الغارات عليهم، والإفساد في زروعهم، والتخريب في بلادهم، وقطع السُّبل عليهم، وهم قوم أقوياء، ولا يحصي عددَهم إلا الله -تعالى-، وهؤلاء ضعاف قليلون بالنسبة إلى أولئك، وغشم قليلو الفطنة، كما وصفهم الله -تعالى- بقوله: ﴿**لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً**﴾ [الكهف: ٩٣]، ولما رأو أن ذا القرنين قد أنكى فيهم، ودوّخ بلادهم، وخضعوا لسلطانه، وكانوا لا يؤمنون إذا ذهب ذو القرنين، وكرّ راجعاً إلى بلاده أن يهاجموهم ويغيروا عليهم ويعيثوا في الأرض فساداً، فانتهزوا هذه الفرصة و﴿**قَالُواْ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً**﴾ [الكهف: ٩٤] يحجز دون خروجهم علينا.

قال الحافظ ابن كثير[٢]:

«والسَّدُّ؛ هو: الرَّدمُ بين الجبلين، وكانوا لا يستطيعون الخروج عليهم[٣] إلاّ من بينهما، وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة».

والصَّواب -كما تراه في الخريطة-: أن ليس بينهما بحار مغرقة، بل بينهما جبال شاهقة، كما قدَّمنا بيانه.

---

(١) في «التيجان» (ص ١١١-١١٢).

(٢) في «البداية والنهاية» (٢/ ١٦٠).

(٣) في مطبوع «البداية»: «إليهم».

الفصل الرابع

في بيان من هم يأجوج ومأجوج وصفاتهم

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»[١] (ج ٢ ص ١٠٩):

«هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه، ثم الدَّليل على ذلك: ما ثبت في «الصحيحين» من طريق الأعمش عن أبي صالح، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ -تعالى- يَوم القيامَة: يا آدمُ! قُم فابْعث بَعْثَ النَّار مِن ذرّيتِك، فيقول: يا رب! وما بَعْثُ النّار؟ فيقولُ: مِن كُلِّ ألفٍ تِسعُ مئةٍ وتِسعةٌ وتِسعونَ إلى النَّار، وواحدٌ إلى الجنّة، فحينئذٍ يَشيبُ الصَّغير ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرى النَّاسَ سُكَارى وَمَا هُمْ بِسُكَارى وَلَكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيْدٌ﴾ [الحج: ٢]»، قالوا: يا رَسُولَ الله! أيُنا ذلِك الواحِد؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبشِروا فإنَّ منكم واحداً ومن يأجُوجَ ومأجوجَ ألفاً»[٢].

وفي رواية فقال: «أبشروا، فإن فيكُم أمَّتين ما كانتا في شيءٍ إلاّ كثّرَتاه»[٣].

---

(١) (٢/ ١٦١ - ط. دار أبي حيان).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣)، ومسلم (٢٢٢) بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري.

وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (٩١٧)، وأحمد (٣/ ٣٢)، والنسائي في «الكبرى» في كتاب التفسير (٢/ ٨٠-٨١ رقم ٣٥٩)، ووكيع في «نسخته عن الأعمش» (رقم ٢٧)، وابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٨٧)، وغيرهم من طريق الأعمش، به.

(٣) هذا لفظ الترمذي (٣١٦٩)، والنسائي في «الكبرى» في كتاب التفسير (٢/ ٨٢-٨٣ رقم=

أي: غلبتاه كثرة.

وهذا يدل على كثرتهم، وأنهم أضعاف الناس مراراً عديدة.

ثم هم من ذرية نوح؛ لأن الله -تعالى- أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الأرض بقوله: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِيْنَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]، وقال -تعالى-: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، وتقدم في الحديث المرويّ في «المسند» و«السنن»:

«أنّ نُوحاً ولدَ له ثلاثة أولاد، وهُم: سام، وحام، ويافث، فسام أبو العرب، وحام أبو السّودان، ويافث أبو الترك»[1].

=٣٦٠)، وابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٨٦)، وأحمد (٤/ ٤٣٥)، والحاكم (١/ ٢٨ و٢/ ٢٣٣، ٣٨٥ و٤/ ٥٦٧)، وغيرهم من حديث عمران بن حصين.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣١، ٣٩٣١)، وأحمد (٥/ ٩، ١٠-١١)، والحاكم (٢/ ٥٤٦)، وابن عدي (٣/ ٩١٩)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٧/ رقم ٦٨٧١، ٦٨٧٢، ٦٨٧٣ و١٨/ رقم ٣٠٩)، وفي «مسند الشاميين» (رقم ٢٦٤٤، ٢٦٤٥)، وأبو بكر الشافعي في «حديثه» (ق ١٢/ ب)، وابن جرير في «التاريخ» (١/ ١٩٢، ٢٠٩، ٢١٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٧٦، ٢٧٧)، والعراقي في «محجة القرب إلى محبة العرب» (ص ٧٩-٨٠)، **وإسناده ضعيف**، الحسن البصري لم يسمعه من سمرة.

وضعّفه شيخنا العلاّمة الألباني في «ضعيف الجامع» (٦١٣١).

وللحديث شواهد؛ منها:

حديث عمران بن الحصين، أخرجه الطبراني (١٨/ ١٤٦/ رقم ٣٠٩)، وابن جرير في «التاريخ» (١/ ٢٠٩)، وضعفه شيخنا -أيضاً- في «ضعيف الجامع» (٦١٣٢).

وله شاهد من حديث أبي هريرة:

أخرجه البزار في «مسنده» (١/ ١٩٣ رقم ٢١٨ - «زوائده») من طريق إبراهيم بن هانئ، وأحمد بن حسين بن عياد، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٧٢٥) من طريق عمر بن هاشم، والخطيب البغدادي في «تالي التلخيص» (١/ ١١٣-١١٤ رقم ٤٣ - بتحقيقي)، وأبو بكر الزبيري في «فوائده» (ق ٢٥/ ب)=

....

=-ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٧٧)- من طريق أبي أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسي، وابن عساكر (٦٢/ ٢٧٧) من طريق أبي فروة يزيد بن محمد؛ جميعهم عن محمد بن يزيد بن سنان، عن أبيه، عن يحيى بن سعيد، عن أبي هريرة رفعه.

قال ابن عدي عقبه: «لا أعلم روى هذا الحديث عن يحيى بن سعيد بهذا الإسناد غير يزيد بن سنان».

وقال البزار: «لا نعلم أسنده عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة بهذا الإسناد، تفرد به يزيد بن سنان، وتفرد به ابنه عنه، وقد حدّث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه، ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلاً، ولم يسنده، وإنما جعله من قول سعيد».

قال أبو عبيدة: وإسناده ضعيف.

محمد بن يزيد بن سنان، قال الحافظ في «التقريب»: «ليس بالقوي»، وقال عن أبيه يزيد: «ضعيف»، وقال البخاري عن أبيه: «مقارب الحديث؛ إلا أن ابنه يروي عنه مناكير». وانظر: «تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٦٣).

وضعفه ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ١٠٧)، والعراقي في «محجة القرب» (ص ٨١-٨٢)، وقال: «ولا يصح هذا الحديث عن أبي هريرة من سائر طرقه، وهو مخالف لحديث سمرة، وحديث سمرة أولى بالصواب، والله أعلم».

ولفظ الطرسوسي: «ولَدَ نوح ثلاثةً: سامَ، وحامَ، ويافث، فولد سام: العرب وفارس، والخير فيهم، وولد يافث: يأجوج ومأجوجَ والصقالبة، ولا خير فيهم، وولد حام القِبط والتّرك والسواد».

قلت: و«الصقالبة: جيل حُمر الألوان، صُهب الشعور، يُتاخمون الخزر وبعض جبال الروم». انظر: «لسان العرب» (ص ق ل ب).

وأما مرسل يحيى بن سعيد، فقد أخرجه ابن وهب في «الجامع» (٢٥)، وابن سعد (١/ ٤٢-٤٣)، والحاكم (٤/ ٤٦٣)، وابن جرير في «التاريخ» (١/ ٢١٠).

وعزاه الحافظ ابن كثير في «قصص الأنبياء» (ص ٨٦) لابن عبدالبر من طريق إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، قال: ... فذكره، وظفَرْتُ به هكذا عند ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٧٨)، ثم قال عقبه:

«وهذا الذي ذكره أبو عمر هو المحفوظ عن سعيد قوله، وهكذا روي عن وهب بن منبه مثله، والله أعلم، ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرّة، ولا يعتمد عليه».

وأخرجه ابن عدي (٣/ ١١٠١)، وابن عساكر (٦٢/ ٢٧٧) من طريق سليمان بن أرقم، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، به نحوه مرفوعاً. =

فيأجوج ومأجوج طائفة، وهم مغل المغول[1]، وهم أشدُّ بأساً، وأكثر فساداً

= وإسناده واهٍ، فيه سليمان بن أرقم، متروك.

وأخرجه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٢٠١) عن وهب بن منبه قوله.

(١) أقول: وإلى الآن يدعى سكان شمالي البلاد الصينية من غربها إلى شرقها بالمغول كما تراه في خريطة آسيا، قال في «النخبة الأزهرية» في الكلام على البلاد الصينية (ص ٥٣٦): فأما بلاد المغول، فتمتاز بصحراء واسعة قاحلة، يظنونها قاع بحر جف ماؤه، تدعى صحراء (قوبي) أو (شامو)، والماء قليل بهذه البلاد، ولا توجد مدنها إلا بسفوح الجبال حيث يوجد الماء. (منه).

قال أبو عبيدة: موطن (المغول) ذاك القطاع الواسع من الأرض، الذي يضم صحراء (جوبي)، وجبال (ألطاي) (Altai) والجزء الشرقي من (تيان شان) (Tien Shan)، وكلام المصنف يعوزه الدقة، وفيه إجمال، وهذا البيان:

تتدرج جبال ألطاي في المناطق الشمالية تدرجاً تخف فيه حدة الارتفاع، وتنبسط سلسلة الجبال، لتشكل في تدرّجها وانحدارها سهولاً منخفضة في ارتفاعها، إذا ما قورنت بسائر جبال هضبة (منغوليا)، ولذا فارتفاعها لا يزيد في أعلى المناطق عن ستة آلاف قدم فوق سطح البحر، في حين تنحدر سلسلة الجبال الجنوبية انحداراً شديداً ومتطرفاً، لتشكل حاجزاً طبيعياً، يطوق الهضبة على طول حدودها الجنوبية الغربية.

وتمتد من الشمال الشرقي وإلى الجنوب الغربي سلسلة جبال (تيان شان) بطول يبلغ حوالي ألف ومئتي ميل، وبارتفاع يتفاوت ما بين خمس عشرة ألف قدم إلى عشرين ألف قدم، فوق سطح البحر، وإلى الجنوب الغربي من سلسلة جبال (تيان شان) تقع سلسلة أخرى هي جبال (البامير) (Pamir)، لتؤلف بمفردها هضبة مستطيلة الشكل وبالغة الارتفاع، وتنحدر نحو الغرب انحداراً لا تطرف فيه.

وفي أقصى الشرق تقع سلسلة جبال (خانجاي) (Khangai)، والتي تمتد من شمال هضبة (منغوليا) إلى جنوبها حتى تتصل بصحراء (جوبي) (Gobi) القاحلة، وتمتد صحراء (جوبي) عبر منطقة شاسعة من الجنوب وحتى الشمال الغربي حيث تتصل بجبال (خانجاي) على حدود (منشوريا).

وصحراء (جوبي) سهل مسطح تغطيه طبقة كثيفة من الحصباء شديدة الصلابة، جرّدتها الرياح العنيفة من العناصر الدقيقة كالطين والرمل، فأصبحت قاحلة ووعرة، حتى ظهرت في بعض مناطقها مساحات واسعة من الصخور، تبدو للرائي من بعيد وكأنها جزر بحرية متناثرة هنا وهناك.

فإذا كانت سلاسل الجبال هذه مع صحراء (جوبي) تطوق (منغوليا) من جهة الشرق والشمال والغرب تطويقاً محكماً، فإنَّ سلسلة جبال (الهملايا) تكمل هي الأخرى من جهة الجنوب أحكام التطويق، فتعزل (منغوليا) عن بقية مناطق آسيا الجنوبية. =

....

= وعلى هذا؛ فمنغوليا عبارة عن هضبة مغلقة تقع ضمن دائرة واسعة محيطها هذه السلسلة الجبلية الشاهقة والمنيعة، وتتخللها أودية وسهول شاهقة، ولا تتصل بآسيا والعالم إلا عبر ممرات جبلية ومسالك سهلة العبور نسبياً، تربطها بالصين من جهة الجنوب والشرق، وبأوروبا من جهة الغرب، أما من جهة الشمال والجنوب فلا تتوفر في الممرات والمسالك تلك السهولة النسبية؛ نظراً لارتفاعها الشاهق من جهة، ولبرودتها القارسة من جهة أخرى.

أسهم ارتفاع منغوليا عن معدله الطبيعي، وبُعدها الشديد عن البحار وتأثيراتها المختلفة، وتضاريسها المتموّجة، وتكويناتها الأرضية الغريبة إسهاماً فاعلاً في خلق مناخ قاري متطرف إلى أبعد الحدود، ولا يثبت على حالة واحدة أبداً، بل تتخلله تغيّراتٌ متطرّفةٌ في درجات الحرارة والبرودة تبلغ حد الشذوذ، فبينما تكون البرودة قارسة في الشتاء تصل إلى درجة التجمُّد، تتفاقم درجات الحرارة صيفاً فتفوق المعدلات العادية بمراحل كثيرة.

وحتّى هذا التّطرف والتّغيُّر في مناخ الإقليم، لا ينتظم على حالة واحدة صيفاً وشتاءً، فبينما تعاني المناطق الشمالية من البرد القارس تصطلي المناطق الجنوبية في الوقت نفسه بالشمس المحرقة والعواصف الترابية الهائلة، أما الجفاف فقد يضرب مناطق كثيرة في ذروة حرارة الصيف، كما يضرب مناطق أخرى في ذروة برودة الشتاء، حتى أصبح التطرف الشديد من السمات المميزة لمناخ المنطقة، مع أن الاستقرار والانتظام والثبات من الأمور الطبيعية السائدة في أغلب البقاع الواقعة ضمن خطوط الطول والعرض نفسها التي يقع فيها الإقليم، مما تحتّم معه القول بأن مناخ منغوليا نسيج وحده، ويعدُّ بكلِّ المقاييس نموذجاً فريداً ومتميزاً كسكّانه تماماً.

بعد هذا العرض الإجمالي للمناخ المتطرّف، نأتي لبيانه على فصول الإقليم السنوية:

يعد فصل الصيف من أقصر فصول السنة؛ إذ لا يتجاوز عمره ثلاثة أشهر؛ هي: يونيو، ويوليو، وأغسطس، وهو مثله في ذلك مثل سائر فصول الهضبة قد تحكمت فيه إلى حد كبير الجبال المحيطة بها، فمنعت عنه الرياح الدافئة الممطرة، مما نتج عنه ارتفاع في درجات الحرارة تبلغ حد التطرف والشذوذ، وتتفاوت من منطقة إلى أخرى بشكل مخيف، فقد تتراوح ما بين (٣٨ و٤٢) درجة، وتصل أحياناً إلى (٦٠) درجة، وقد تزيد عن ذلك، فتحيل السهول إلى قطعة ملتهبة.

غير أن درجات الحرارة صيفاً لا تنطبق برمتها على نصف الدائرة الجبلية من مرتفعات (ألطاي) (وشيان تيان)، ولا على المناطق الشمالية من الهضبة، حيث تخف درجات الحرارة وتنخفض تدريجياً كلما اتجهنا صوب الشمال، حتى لا تتجاوز في أقصى بقعة من الإقليم عن عشر درجات مئوية.

وفي منتصف شهر يوليو تلتهب المناطق السهلية الخضراء من شدة الحرارة، وسرعان ما يذبل جمالها الأخّاذ، وتتوارى خضرتُها اليافعة مخلّفة وراءها لوناً أصفرَ باهتاً يبعث في النفس الحزن والأسى، وتنصَبُّ عليها حرارة الشمس نهاراً بلا توقف فتحيلها إلى كتلة من الحرارة لا تطاق، وعندها تنحدر=

....

=الشمس ميمّمة وجهها نحو الغرب، تخف شدة الحرارة إلى أقصى مدى لتفتح الباب على مصراعيه لهبوب الرياح العاتية التي تضرب المنطقة يميناً وشمالاً، وبلا رحمة لساعات طويلة.

وفصل الصيف -على قصره وشدة حرارته- لا يثبت على حالة واحدة، ففي الوقت الذي تقاسي فيه مناطق متفرقة من الإقليم لفحات الحرارة العالية، تهب على مناطقَ أخرى عواصفُ رعديةٌ تغطي المنطقة كلَّها بسرعة جنونية، وبلا مقدمات، وعادةً ما تكون مصحوبة ببَرَد يتساقط على المنطقة بكثافة، وفي التو واللحظة يذوب البَرَد لارتفاع درجة الحرارة ويتحول إلى سيول جارفة تكتسح كل ما يعترض طريقها.

أما فصل الشتاء فيمتاز بطوله، فيبدأ في الغالب في شهر نوفمبر، ويستمر ما بين أربعة إلى خمسة أشهر، وقد يزيد عن ذلك قليلاً، وتنخفض درجة الحرارة فيه إلى أقصى حد، وتتراوح في بعض المناطق ما بين ١٥ إلى ٣٢ درجة تحت الصفر.

وفي فصل الشتاء تتجمد المياه في السهول وفي المنخفضات، بل قد تتجمد المياه حتى في أواني الشرب، ويتساقط الثلج بكميات تحيل المنطقة بأكملها إلى كتلة من الجليد، وتصبح وكأنها جزء من سيبريا، ويستمر الشتاء هكذا حتى شهر مايو، حيث تخفُّ حِدَّةُ البرودة وينحسر الثلج عن وجه الأرض.

ويندر سقوط الأمطار في شهور الشتاء، وإذا شذت القاعدة وهطلت أمطار؛ فعادة ما تكون على شكل بَرد لا يستمر طويلاً، إذ تهبّ طوال الشتاء رياح ثلجية باردة من سيبريا شديدة الهبوب وفي غاية من العنف، فتعمل بقوة اندفاعها على إزاحة الغطاء الثلجي الرقيق الذي يغطي الأرض ويحميها، فتتعرى الأرض لتقع تحت وطأة برودة الرياح الشديدة فتتجمد القشرة العلوية من التربة، وربما تغلغل التجمد إلى باطن الأرض، ومع بداية انحسار البرودة وهبوب الرياح الدافئة تخف وطأة التجمد على التربة، وتعود الأرض إلى ما كانت عليه من قبل.

وما إن يُودِّع الشتاءُ المنطقة، ويحلُّ فصل الربيع حتى ترتفع درجة الحرارة رويداً رويداً متخطية حد التجمد، فيصفو الجو، وتزدان الأرض بالخضرة، ولكن درجة الحرارة -كما هو الحال في أغلب فصول السنة- لا تثبت على حالة واحدة، فترتفع تارة وتهبط تارة أخرى طوال شهرين كاملين هما عمر هذا الفصل.

وفصل الربيع عموماً يتميز بشدة هبوب الرياح فيه، ويسبق رياحه نسيم لطيف يهب على المنطقة، ثم يعقبه سكون خامد ثقيل تتخلله ذبذبات هوائية تتحول بالتدريج إلى زئير رتيب يتعالى بين لحظة وأخرى، ثم تجتاح المنطقة عاصفة غبراء داكنة لها زئير يبعث الفزع في القلوب، ومحملة بالرمال والحصى تقذف به وبقوة هائلة إلى مسافات بعيدة، عندئذٍ يصبح التنفس عسيراً والرؤية مستحيلة، والسير ولو لخطوتين مجازفة مميتة.

ولا يزال سكان منغوليا إلى يومنا هذا يلقون بأنفسهم بلا تردد إذا هبت مثل هذه الأعاصير الرملية، إذ هي وسيلتهم الوحيدة للنجاة، ويدفنون وجوههم في الأرض أو في قطع من القماش المبلل، إذ هي=

من هؤلاء[١] وقد قيل: إنَّ التُّرك إنّما سمُّوا بذلك؛ حين بنى ذو القرنين السدّ، وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه؛ فلهذا قيل لهم: الترك».

قال في «البداية والنهاية»[٢]:

«ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم فاختلطت بالتراب، فخلقوا من ذلك، وأنهم ليسوا من حواء، فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في «شرح مسلم»[٣] ....

=الطريقة المفضّلة للتنفس، ويمكثون هكذا طوال فترة هبوب العاصفة.

ويتفاوت زمن هبوب العواصف الربيعية ما بين ساعة وأسبوعين، ومنها ما يهب لفترة وجيزة من الزمان قد لا تتجاوز الدقائق، ويغمر المكان عقب هبوب كل عاصفة ربيعية -طال زمانها أم قصر- سكونٌ مطبق ينعدم فيه الهواء إلى حد خانق ومقبض، وترتفع فيه درجة الحرارة بلا سابق إنذار بحيث يتلهف المرء إلى نسمة من الهواء ولا يجدها.

ويقرر المصنِّف وغيره: إن هذه المنطقة الناتئة من العالم ظلت ومنذ الخطوات الأولى لأبناء نوح -عليه السلام- على الأرض، وبكل تناقضاتها الحادة وتضاريسها المتموجة، مهداً ومستقراً ليأجوج ومأجوج وذريته من بعده، ألفوا قسوتها، وتأقلموا مع ظروفها البيئية الشاذة، وفي دائرة حدودها الضيقة تكاثروا، ومنها خرجوا على إخوانهم وأبناء عمومتهم خروجاً عاصفاً مدمراً شبيهاً بعواصفهم الربيعية، تضاربت في دوافعه الآراء والتفسيرات، وأجمع الكل على أنه لا نظير له ولا شبيه في تاريخ البشر!! وفي هذا نظر كبير! وسيأتي ردُّه بتفصيل، والله الهادي.

(١) بعدها في مطبوع «البداية»: «ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى هؤلاء».

(٢) (٢/ ١٦١)، والكلام السابق له -أيضاً-.

(٣) (٣/ ٢٥٥)، ونحوه في «الفتاوى» (ص ١١٦-١١٧ رقم ٢٣ - جمع وترتيب تلميذه ابن العطار)، ولفظ السؤال: «يأجوج ومأجوج، هل هم من أولاد حواء؟ وكم صح في قَدر أعمارهم؟» وجوابه:

«الجواب: هم من ولد آدم، [من حواء عند جماهير العلماء، وقيل: إنهم من بني آدم] لا من حواء، فيكونون إخوتنا لأب، ولم يثبت في قدر أعمارهم شيء، وذكر المفسرون وأهل التاريخ في ذلك أشياء لا تثبت».

ونقله ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ١٠٧)، وسقط من نسخته ما وضعناه بين معقوفتين، ولذا تعقبه،=

وغيره[1]، وضعّفوه، وهو جدير بذلك إذ لا دليل عليه، بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع النّاس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن، وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدّاً، فمنهم من هو كالنخلة السَّحوق، ومنهم من هو في غاية القصر، ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى، فكل هذه أقوال بلا دليل[2]، ورجم بالغيب بلا برهان.

=فقال: «كذا قال، ولم نر هذا عن أحد من السلف إلا عن كعب الأحبار، ويرده الحديث المرفوع: إنهم من ذرية نوح، ونوح من ذرية حواء قطعاً».

قال أبو عبيدة: تخطئة ابن حجر النوويّ بناءً على السقط الذي في نسخته، وإلا فكلامه متّجه، واختياره في «شرح النووي» هو قول الجمهور الذي حكاه في «الفتاوى».

(١) حكاه الثعلبي في «قصصه» (ص ٣٢٧)، وعنه القرماني في «أخبار الدول» (٣/ ٣٨٣-٣٨٤).

وقال ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ١٠٦) بعد ذكره:

«ورُدَّ بأن النبي لا يحتلم، وأجيب عنه بأن المنفي: أن يرى في المنام أنه يجامع، فيحتمل أن يكون دفق الماء فقط، وهو جائز كما يجوز أن يبول، والأول المعتمد، وإلا فأين كانوا حين الطوفان».

وقال في (٦/ ٣٨٦): «وهو قول منكر جدّاً، لا أصل له إلا عن بعض أهل الكتاب».

(٢) هذه الأخبار من الإسرائيليات.

أخرج ابن أبي حاتم -كما في «الفتح» (١٣/ ١٠٧)-، ونعيم بن حماد في «الفتن» (رقم ١٦٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٤) من طريق شريح بن عبيد عن كعب، قال:

«هم ثلاثة أصناف: صنف أجسادهم كالأَرْز -بفتح الهمزة وسكون الراء، ثم زاي، هو شجر كبار جدّاً-، وصنف أربعة أذرع في أربعة أذرع، وصنف يفترشون آذانهم ويلتحفون بالأخرى».

وأخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٥٩٢ رقم ١٦٤٧) عن كعب وشريح بن عبيد قولهما.

وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٦/ ٢٢) من طريق أبي الزاهرية وشريح بن عبيد قولهما.

وأخرجه نعيم بن حماد (٢/ ٥٨٥ رقم ١٦٣٤) عن جبير بن نفير قوله بنحوه.

وأخرجه أبو عمرو الداني في «الفتن» (٦/ ١٢١١ رقم ٦٧٠) عن أشعث بن شعبة، عن أرطاة بن المنذر وذكر نحوه، وعزاه القرطبي في «التذكرة» (ص ٨١٣) إلى علي بن سعيد في الطاعة، وأشعث مقبول.

نعم؛ وردت هذه الصفة في تتمة حديث حذيفة الآتي، أوله قريباً عند المصنف، ولكنه لا يُفرح به!! فانظره.

والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم، وقد قال النّبي ﷺ:

«إنّ اللهَ خَلَقَ آدم وطوله ستون ذِراعاً، ثمّ لم يَزل ينقص حَتى الآن»[١].

وهذا فيصل في الباب وغيره، وما قيل من أنّ أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً، فإنْ صح في خبر قلنا به؛ وإلا فلا نرده، إذ يحتمله العقل، والنقل -أيضاً- قد يرشد إليه، بل قد ورد حديث مصرّح بذلك إن صح.

قال الطبراني: حدثنا عبدالله بن محمد بن العباس الأصبهاني، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا المغيرة عن مسلم[٢]، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبدالله بن عمرو، عن النّبي ﷺ قال:

«إن يأجُوج ومأجُوج مِن ولد آدم، ولو أرسِلوا لأفسَدوا على النّاس معايشَهُم، ولَن يموت مِنهم رَجلٌ إلاّ تَرك من ذرِّيته ألفاً فصاعداً، وإن مِن ورائِهم ثلاث أمم: تاويل، وتاريس، ومنسك»[٣].

---

(١) هذا الحديث في «صحيح البخاري» [(رقم ٣٣٢٦، ٦٢٢٧)]، و«مسلم» [(رقم ٢٨٤١)]، وغيرهما، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في «شرحه على البخاري» [(٦/ ٣٦٧)] إشكالاً فيه ولم يجب عنه، ولنا في جواب هذا الإشكال رسالة في عشرين صحيفة، لم تزل مخطوطة. (منه).

(٢) كذا في «الأصل»، و«البداية والنهاية»، وصوابه: «بن مسلم».

(٣) أخرجه الطيالسي في «مسنده» (٢٢٨٢) -ومن طريقه الطبراني في «الكبير»، وهو ليس في القسم المطبوع ولا المتمم له، وعزاه له ابن كثير في «النهاية» (١/ ١٨٥) -أيضاً-: حدثنا المغيرة بن مسلم، به.

وسكت عنه البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (١٠/ ٣٢٢ رقم ١٠٠١٥).

والمغيرة هذا هو القسملي، صدوق، تابعه زياد بن خيثمة.

أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨/ ٢٦٧ رقم ٨٥٩٨ - ط. دار الحرمين) من طريق الوليد بن شجاع بن الوليد، ثنا أبي عن زياد بن خيثمة، حدثني أبو إسحاق بنحوه.

وقال: «لم يرو هذا الحديث عن زياد بن خيثمة إلا شجاع، تفرد به ابنه».

وفي هامش الأصل منه بخط البقاعي: «قال شيخنا -أي: ابن حجر- أطال الله بقاءه: هذه أسماء=

....

=قبائل خَلْف يأجوج ومأجوج».

وإسناده هذا ضعيف، فيه وهب بن جابر، لم يذكر له راوياً غير أبي إسحاق السبيعي، ونقل الذهبي في «الميزان» عن ابن المديني فيه: «مجهول»، وزاد: «قلت: لا يكاد يعرف، تفرد عنه أبو إسحاق»، وقال النسائي عنه: مجهول كذلك، ووثقه ابن حبان (٥/ ٤٨٩)، والعجلي وابن معين. انظر: «التهذيب» (١١/ ١٦٠).

ولذا قال ابن حجر في «التقريب» عنه: «مقبول»؛ أي: إذا توبع، ولم أظفر بمتابع له عن ابن عمرو!

والآفة عندي فيه من أبي إسحاق، فقد اختلط فيه على ثلاثة ألوان وضروب:

أحدها: المذكور.

الثاني: ما سيأتي من حديث ابن مسعود.

الثالث والأخير: ما أخرجه يحيى بن سلام في «تفسيره» -ومن طريقه ابو عمرو الداني في «الفتن» (٦/ ١٢٢٣ رقم ٦٨٠)- عن عاصم بن حكيم، عن شعبة، عن أبي إسحاق، به... وذكره موقوفاً على عبدالله بن عمرو.

وشعبة ممن روى عن أبي إسحاق قبل اختلاطه، ورواه اثنان آخران عن شعبة به موقوفاً عند ابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٨٨)؛ هما: محمد بن جعفر، وسهل بن حماد أبو عتاب.

وأخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٥٩٥ رقم ١٦٥٦) من طريق محمد بن جعفر، والحاكم (٤/ ٤٩٠) من طريق عاصم بن علي؛ كلاهما عن شعبة، به موقوفاً.

وأخرجه ابن جرير (١٧/ ٨٨) -أيضاً- عن سفيان موقوفاً، و(١٧/ ٨٩) عن معمر؛ كلاهما عن أبي إسحاق، ووقفاه.

ثم تبين لي أن خلافاً وقع فيه على سفيان، وبعضهم رفعه مع شك في ذلك، كما تراه عند البيهقي في «البعث» (رقم ٨٧) -ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٢٣٢)-.

ثم ظفرتُ به عند عبدالرزاق في «المصنف» (١١/ ٣٨٤-٣٨٥ رقم ٢٠٨١٠) و«التفسير» (٢/ ٢٩ - مختصراً) -ومن طريقه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٥٩٠-٥٩١ رقم ١٦٤٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٠٠-٥٠١)-، قال: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر الخيواني، قال: «كنت عند عبدالله بن عمرو بن العاص، فقدم عليه قهرمان من الشام، وقد بقيت ليلة من رمضان، فقال له عبدالله: هل تركت عند أهلي ما يكفيهم، قال: قد تركت عندهم نفقة، فقال عبدالله: عزمت عليك لما رجعت، وتركت لهم ما يكفيهم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كفى إثماً أن يضيّع الرجل من يقوت»**، قال: ثم أنشأ يحدّثنا، قال: **«إن الشمس إذا غربت سلّمت، وسجدت، واستأذنت، قال: فيؤذن لها، حتى إذا كان يوماً غربت، فسلّمت، وسجدت، واستأذنت، فلا يؤذن لها، فتقول: أي ربِّ! إن المسير بعيد، وإني لا يؤذن لي،**=

وهو حديث غريب جداً، وإسناده ضعيف، وفيه نكارة شديدة.

وأما الحديث الذي ذكره ابن جرير في «تاريخه»:

«أن رسول الله ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء، فدعاهم إلى الله؛ فامتنعوا من إجابته، ومتابعته، وأنه دعا تلك الأمم التي هناك: تاريس وتاويل ومنسك فأجابوه»[(١)].

=لا أبلغ، قال: فتحبس ما شاء الله، ثم يقال لها: اطلعي من حيث غربت، قال: فمن يومئذ إلى يوم القيامة: ﴿لا يَنفَعُ نَفْساً إيمانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٨٥]»، قال: وذكر يأجوج ومأجوج، قال: «ما يموت الرجل منهم حتى يولد له من صلبه ألف، وإن من ورائهم ثلاث أمم، ما يعلم عدَّتهم إلا الله، منسك، وتاويل، وتاويس».

وهذه الرواية مجوّدة، فيها بيان المرفوع من الموقوف، ولينظر للقسم المرفوع منها: تحقيقي الثاني لـ«الكبائر» للذهبي (رقم ٤٦٠).

وبالجملة؛ فأصح وجوهه الموقوف، ويؤكده وروده من طريق النعمان بن سالم، قال: سمعت نافع بن جبير بن مطعم يقول: قال عبدالله بن عمرو:

«يأجوج ومأجوج لهم أنهار يَلْقَمون ما شاءوا، ونساء يجامعون ما شاءوا، وشجر يلقمون ما شاءوا، ولا يموت رجل إلا ترك من ذرّيّته ألفاً فصاعداً».

ولا يبعد عندي أن هذه أخبار إسرائيلية، وكان عبدالله بن عمرو يحدث عن بني إسرائيل، ووقعت له يوم أجنادين صحف لهم، كان يحدث منها، فمثل هذه الغيبيات عنه لا تأخذ حكم الرفع، وإنْ صحت!

وأما المرفوع فلم يثبت، ولذا قال عنه ابن كثير -ونقله المصنف-: «هو حديث غريب جداً، وإسناده ضعيف، وفيه نكارة شديدة».

وقال في «التفسير» (٥/ ١٩٦ - ط. الشعب): « هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف».

وقال في «النهاية» (١/ ١٨٥): «وهذا حديث غريب، وقد يكون من كلام عبدالله بن عمرو، والله أعلم».

وعزاه في «الكنز» (٤١/ ٣٤١) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه، وهو معزو للطيالسي في «إتحاف الخيرة المهرة» (١٠/ ٣٢٢ رقم ١٠٠١٥) للبوصيري، و«المطالب العالية» (١٨/ ٤٥٩ رقم ٤٥٢٧) لابن حجر، وسكتا عليه!

(١) أخرجه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٧٠)، وأورد إسناده في (١/ ٦٥) هكذا: =

فهو حديث موضوع، اختلقه أبو نعيم عمرو[١] بن الصُّبح، أحد الكذابين الكبار، الذين اعترفوا بوضع الحديث»[٢].

= حدثني محمد بن أبي منصور، حدثنا خلف بن واصل، حدثنا أبو نعيم، عن مقاتل بن حيان، عن عكرمة، عن ابن عباس، به.

وأبو نعيم هذا هو عمر بن الصُّبح، سماه ابن جرير في الإسناد الذي قبله (١/ ٦٣-٦٤)، قال ابن حجر في «التقريب» (٤٩٢٢): «متروك، كذبه ابن راهويه».

قلت: وقال ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٨٨): «يضع الحديث»، وقال الأزدي: «كذاب»، وأسند البخاري في «التاريخ الأوسط» عنه قوله: «أنا وضعت خطبة النبي ﷺ».

وأما ابن راهويه، فقال: «أخرجَتْ خراسان ثلاثة لم يكن لهم في الدنيا نظير -يعني: في البدعة والكذب-: جهم بن صفوان، وعمر بن الصبح، ومقاتل بن سليمان».

وانظر: «تهذيب الكمال» (٢١/ ٣٩٦)، و«الميزان» (٣/ ٢٠٦).

وأخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٥٩٣-٥٩٤ رقم ١٦٥٣): حدثنا نوح بن أبي مريم، عن مقاتل، به مختصراً.

ونوح أسوأ حالاً من ابن صُبح، قال عنه ابن حجر في «التقريب» (رقم ٧٢١٠): «يعرف بالجامع؛ لجمعه العلوم، لكن كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع».

(١) كذا في «البداية والنهاية» والأصل، وصوابه: «عُمر» -بضم العين، لا بفتحها-.

(٢) انتهى كلام الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»، وله كلام في «النهاية» (١/ ١٨٤) هذا لفظه:

«يأجوج ومأجوج ناس من الناس، يشبهون الناس كأبناء جنسهم من الأتراك المخرومة عيونهم، الزلف أنوفهم، الصهب شعورهم، على أشكالهم وألوانهم، ومن زعم أن منهم الطويل الذي كالنخلة السحوق أو أطول، ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير، ومنهم من له أذنان يتغطى بإحداهما، ويتوطى بالأخرى؛ فقد تكلّف ما لاعلم له به، وقال ما لا دليل عليه، وقد ورد في حديث: **«إن أحدهم لا يموت حتى يرى من نسله ألف إنسان»**، فالله أعلم بصحته».

قال أبو عبيدة: الحديث لم يثبت، **وستأتي شواهده -وهي ضعيفة جداً،** لا يفرح بها- ضمن كلام الحافظ ابن حجر الآتي قريباً، وللمسعودي في كتابه «أخبار الزمان» (ص ٩١-٩٢) وابن وصيف شاه (ت ٥٩٩هـ) في كتابه «مختصر عجائب الدنيا» (ص ٦٩ - ط. دار الكتب العلمية) كلمة عن (يأجوج ومأجوج)، جاء فيها ما حذر منه ابن كثير في كلمته المتقدمة قريباً، وأورد هذا الحديث في آخرها، فكن على حذر منها، والله الموفق.

وفي «الفتح شرح البخاري»(١) للحافظ ابن حجر:

«وجاء في صفتهم ما أخرجه ابن عدي، وابن [أبي](٢) حاتم، والطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه من حديث حذيفة رفعه، قال:

«يأجوج أمّة، ومأجوج أمّة، كل أمّة أربع مئة ألف أمّة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح»(٣).

---

(١) (١٣/ ١٠٦).

(٢) سقط من الأصل، وأثبته من «الفتح».

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢١٧٧) -ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٠٦)-، والطبراني في «الأوسط» (٤/ ١٥٥ رقم ٣٨٥٥)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦٦)، والمحاملي في «الأمالي» (رقم ٣٢١ - رواية ابن البيّع) -ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٢٣٢-٢٣٣)-، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٦/ ١٩٣-١٩٤) من طريق يحيى بن سعيد العطار: نا محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن حذيفة -وعند الثعلبي: عن عبدالله!!-، قال: سألت رسول الله عن يأجوج ومأجوج؟ فذكره بزيادة عليه؛ هي:

«قلت يا رسول الله! صِفهُم لنا، قال: **«هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز»**، قلت: وما الأرز؟ قال: **«شجرٌ بالشام طول الشَّجرة عِشرون ومئة ذِراعٍ في السَّماء»**، فقال رسول الله ﷺ: **«هؤلاء الذين لا يقوم له حيل ولا حديد، وصِنف منهم يفترش بأذنه ويلتحف بالأخرى، لا يَمُرّون بفيلٍ ولا وحشٍ ولا جملٍ ولا خِنزيرٍ إلاّ أكَلوه، ومن مات منهم أكلوه، مُقدّمتهم بالشّام، وساقَتهم بخُراسان، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية»**.

لفظ الطبراني، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن الأعمش إلى محمد بن إسحاق، ولا عن محمد بن إسحاق إلا يحيى بن سعيد العطار».

وعزاه السيوطي في «اللآلئ» (١/ ١٧٤) إلى ابن أبي حاتم -وهو ليس في القطعة المطبوعة من تفسيره- وابن مردويه، وكذلك فعل الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشّاف» (٢/ ٣١١) والحافظ ابن حجر، فيما نقله عنه المصنّف.

قال أبو عبيدة: هذا إسناد واهٍ بمرّة، له علّتان:

الأولى -وهي الأعلى-: محمد بن إسحاق، وهو العُكّاشي، وفي ترجمته ساقه ابن عدي، وأورد له أحاديث، منها المذكور، وقال: «كلها مناكير موضوعة»، ووافقه ابن الجوزي، وقال: «ومحمد بن إسحاق=

وهو من رواية يحيى بن سعيد العطار، عن محمد بن إسحاق، عن الأعمش، والعطار ضعيف جداً، ومحمد بن إسحاق، قال ابن عدي: ليس هو صاحب

=هو العكاشي، قال ابن معين: كذاب، وقال الدارقطني: يضع الحديث».

وقال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٥/ ١٩٥): «كذاب»، وقال ابنه: «ورأى في كتابي ما كتب إليّ هاشم بن القاسم الحراني حديثه، فقال: هذه الأحاديث كذب موضوعة».

والأخرى -وهي الأدنى-: يحيى بن سعيد العطار، الشامي، ضعيف، كما في «التقريب»، وبه أعله الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٦) وغفل عن العلّة الأولى، وهي أولى، ثم ظفرت به من طريقين آخرين، هما عدم؛ وهما:

الأولى: ما أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٨٧) من طريق عصام بن رواد بن الجراح، عن أبيه، عن سفيان الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة، وساقه طويلاً.

وإسناده ضعيف جداً، رواد في حديثه عن سفيان ضعف شديد، كما في «التقريب».

والأخرى: ما أخرجه أبو عمرو الداني في «الفتن» (رقم ٦٧٦) بسندٍ مظلم إلى سفيان الثوري، عن قيس بن مسلم، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة، ساقه مطولاً بالزيادة المذكورة -أيضاً-، وفي إسناده مجاهيل.

وقال ابن عرّاق في «تنزيه الشريعة» (٢/ ٢٣٧):

«ورأيت بخط الشيخ تقي الدين القلقشندي على حاشية «الموضوعات» لابن الجوزي ما نصه: لم ينفرد به العكاشي إلا من حديث حذيفة، وقد رواه ابن حبان في «صحيحه» من حديث ابن مسعود رفعه».

قلت: حديث ابن مسعود شاهد قاصر لحديث حذيفة، في لفظة مختصرة منه تأتي في الحديث الآتي، وتخريجه هناك، والله الموفق.

والمحفوظ في هذا الباب قول لحسان بن عطية: «يأجوج ومأجوج أمّتان، في كل أمّة أربع مئة ألف أمّة، ليس منها أمّة تشبه الأخرى»، وبعضهم زاد عليه:

«لا يموت الرجل منهم حتى ينظر في مئة عين من ولده».

أخرجه نعيم بن حماد (رقم ١٦٣٠، ١٦٥٨، ١٦٧٧) وأبو عمرو الداني (رقم ٦٧٣) كلاهما في «الفتن»، وأبو الشيخ في «العظمة» (رقم ٩٤١)، وعبدالله بن أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (٢/ ٥٩٣ رقم ٣٨١٤، ٣٨١٥)، قال الذهبي في «الميزان» (٤/ ٣٦٩):

«هذا مع غرابته منكر من القول، ما أدري من أين وقع لحسّان»؟!

«المغازي»، بل هو العكَّاشي، قال: «والحديث موضوع»، وقال ابن أبي حاتم: منكر[١].

قال الحافظ ابن حجر[٢] هنا:

«قلت: لكن لبعضه شاهد صحيح، أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود رفعه:

«إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم لصلبه ألفاً من الذريّة»[٣].

---

(١) في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للإمام الشوكاني طبع الهند (ص ٢٨٩، [أو (ص ٤٩٨ - ط. بيروت)] بعد أن ذكر هذا الحديث: «رواه ابن عدي عن حذيفة مرفوعاً، وقال: موضوع منكر، ومحمد بن إسحاق العكاشي كذاب يضع» اهـ. وبه تحقق أن محمد بن إسحاق ليس صاحب «المغازي»، بل هو شخص آخر. (منه).

(٢) في «الفتح» (١٣/ ١٠٦).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٥/ ٢٤٠-٢٤١ رقم ٦٨٢٨ - «الإحسان») من طريق زيد ابن أبي أنيسة، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن ابن مسعود رفعه بتتمة له، هي:

«وإن من ورائهم أمماً ثلاثة: منسك، وتاويل، وتاريس، لا يعلم عددهم إلا الله».

وإسناده ضعيف، أبو إسحاق السبيعي مختلط، ورواية زيد بن أبي أنيسة عنه بعد اختلاطه، ورواه أبو إسحاق واضطرب فيه، فجعله عن ابن عمرو موقوفاً ومرفوعاً، وتقدم بيان ذلك.

ولم يعزه ابن حجر في «إتحاف المهرة» (١٠/ ٤٠٤ رقم ١٣٠٣٥) إلا إلى ابن حبان، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٥٥) إلى ابن أبي حاتم، وهو في «تفسيره» (٧/ ٢٣٨٧ رقم ١٢٩٦٧)، ولا إسناد فيه، وفي أوله حديث آخر، رواه جمع من الثقات عن أبي إسحاق دون هذه القطعة، وقد سبق ترجيحنا أنه من كلام عبدالله بن عمرو موقوفاً عليه، أخذه عن بني إسرائيل، وهذا الذي مال إليه ابن كثير، فيما نقلناه عنه آنفاً، والله أعلم.

وأخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٥٩٣ رقم ١٦٥١): حدثنا عيسى بن يونس، عن زكريا، عن عامر، حدثني عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود، قال:

«لا يموت من يأجوج رجل، إلا ترك الف ذري فصاعداً».

وهذا موقوف على ابن مسعود، وإسناده ضعيف، وعلقه عنه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٢٢).

وللنسائي من رواية عمرو بن أوس عن أبيه رفعه:

«إن يأجوج ومأجوج يجامعون ما شاؤوا، لا[١] يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»[٢].

وأخرج الحاكم وابن مردويه من طريق عبدالله بن عمرو:

«إن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم، ووراءهم ثلاث أمم، ولن يموت منهم رجل إلاّ ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»[٣].

وأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن عبدالله بن سلام مثله[٤].

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «ولا».

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٤٠٨ رقم ١١٣٣٤ - ط. دار الكتب العلمية، أو ١٠/ ١٨٦ رقم ١١٢٧١ - ط. مؤسسة الرسالة): أنا أبو داود، نا سهل بن حماد، نا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن ابن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده رفعه:

«إن يأجوج ومأجوج لهم نساء، يجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقَحُون ما شاؤوا، فلا يموت منهم رجل...» مثله.

ولم يعزه في «تحفة الأشراف» (٢/ ٦ رقم ١٧٤١) إلا له.

قلت: وإسناده ضعيف، ابن عمرو لا يعرف.

وورد -فيما مضى- عن النعمان بن سالم، قال: سمعت نافع بن جبير يقول: قال عبدالله بن عمرو.، وذكره موقوفاً عليه، وهو أشبه.

وفي الباب عن ابن عباس، عند ابن جرير (١٦/ ٢٢)، وإسناده مظلم.

(٣) مضى تخريجه قريباً عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً وموقوفاً.

(٤) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٥٩١ رقم ١٦٤٣)، قال: حدثنا وكيع وعبدة بن سليمان، وابن أبي شيبة (٨/ ٦٦٢ - ط. الفكر) عن علي بن مسهر؛ جميعاً عن زكريا، عن الشعبي، عن عمرو بن ميمون، عن عبدالله بن سلام، قال:

«لا يموت الرجل من يأجوج ومأجوج إلا ترك ألف ذرّيّ فصاعداً».

قال نعيم: «إلا أن وكيعاً لم يذكر (عمرو بن ميمون)»!

وإسناده صحيح، وهذا يؤيد ما قررناه أنّ الصحيحَ في هذا الباب أخبارٌ من بني إسرائيل، والله أعلم.

أقول: إن هذه الشّواهد ليس فيها من صفتهم إلا أن أحدهم لا يموت حتى يرى ألفاً من ذريته، وهذا محمول على أن الواحد منهم كان ينكح الكثير من النساء، وليس لهم شريعة تمنعهم من التزوج بالكثير، بل في أخبارهم[١] ما يفيد أنهم أهل سفاح لا نكاح، فهنا يتأتّى للرجل الواحد أن يرى الكثير من ولده لصلبه، ومن ولد ولده، ومن ولد ولد ولده، وهو لم يبلغ الثمانين من العمر، فكيف إذا عمَّر أكثر من ذلك؟ كما هو مشاهد، فصحَّة هذه الشواهد لا تعارض وضع وضعف تلك الآثار الدالة على طولهم كالنخلة السحوق، وقصرهم غاية القصر، وإن منهم من يفترش أذناً من أذنيه، ويتغطى بالأخرى، فهي كما تقدم عن الحافظ ابن كثير[٢]: «أقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان».

والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم، وبلاد الصين وما وراءها من بلاد اليابان بلاد قد عرفت كلّها، وأهلها وسكان بلاد اليابان أصبحوا يأتون إلا بلادنا وإلى بلاد الغرب بكثرة، وكذلك أهل بلادنا وغيرهم يذهبون إلا بلادهم كثيراً، بل من أهل حلب وغيرهم من لهم محلات تجارية في بلاد اليابان؛ نظراً لتفوّق بلاد اليابان في الصناعة، ورخص أسعار مصنوعاتها رخصاً زاحمت فيه البلاد الغربية، وهم مثلنا إلا أنهم من حيث العموم أقصر قليلاً، وهم سمر الألوان، وسمرتهم مشوبة بصفرة، وهم فطس الأنوف صغيرو الأعين، كأن وجوههم المِجَانّ المطْرَقَة، كما جاء وصفهم في الحديث النبوي[٣].

---

(١) ورد ذلك في لفظ حديث أوس الثقفي المتقدم عند النسائي في «الكبرى».

(٢) في «البداية والنهاية» (٢/ ١٦٢ - ط. دار أبي حيان).

(٣) يشير إلى ما أخرجه البخاري (٢٩٢٨، ٢٩٢٩، ٣٥٨٧، ٣٥٩٠، ٣٥٩١) ومسلم (رقم ٢٩١٢) في «صحيحيهما» عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك؛ صغار الأعين، حُمر الوجوه، ذُلْفَ الأنوف، كأنَّ وجوهَهم المِجانُ المُطرَقَة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا أقواماً نعالهم الشَّعر»**.

لفظ البخاري في الموطن الأول. وانظر: «العلل» للدارقطني (٩/ ١٨٢-١٨٣ رقم ١٧٠٤).

قال في «النخبة الأزهريــة» فـي الكـلام علـى بـلاد الصيـن فـي (ص ٥٣٨): «وللصينيين سحنةٌ مخصوصة؛ فلونُ بشرتهم مـائل للصفـرة، وعيونهـم ضيّقـة مائلـة نحو الأصداغ، وملابسهم واسعة زاهية الألوان، وهم يحلقون رؤوسهم ويتركون في وسطها ذؤابة يرسلونها على ظهورهم ...» إلخ.

الفصل الخامس

في بناء ذي القرنين لسدِّ الصين[١]

لما طلب هؤلاء من ذي القرنين أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدّاً، يكون حاجزاً بينهم، يحول دون قصدهم لبلادهم بالإفساد والتخريب، وأن يجعلوا له خَرْجاً -أي جُعلاً- يخرجونه من أموالهم لقاء ذلك العمل العظيم، قال لهم ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيْهِ رَبِّي خَيرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]، أي: ما جعلني فيه مكيناً من المال والملك خير مما تبذلون لي من الخراج ولا حاجة بي إليه، وهذا يدلك على عزة نفسه وقوّة سلطانه، وفي إضافة ذلك إلى ربه اعترافاً[٢] منه بعبوديته إلى الله -تعالى-، وأن ما هو فيه من الملك والقوة مستمد من الله -تعالى- ومن نعمه -تعالى- عليه، ثم إنه مع عدم حاجته لمساعدتهم بالمال لا بد له من المعاونة بالرجال والآلات، لذا قال لهم: ﴿فَأعِينُونِي بقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]؛ أي: بقوةِ فَعَلَةٍ أو بما أتقوّى به من الآلات، ﴿أجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ٩٥]، قال العلاّمة أبو السعود[٣]: «تقديم إضافة الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج لإظهار كمال العناية بمصالحهم، كما راعوه في قولهم: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ [الكهف: ٩٥]؛ أي: حاجزاً حصيناً وبرزخاً متيناً، وهو أكبر من السد، وأوثق[٤]، وهذا إسعاف بمرامهم فوق

---

(١) هذا التعيين مؤدّى اجتهاد المصنف -رحمه الله-، ووافقه عليه جمع، واعترض عليه آخرون، وسيأتي تفصيل ذلك -إن شاء الله رب العالمين-.

(٢) في الأصل: «اعتراف».

(٣) في تفسيره المسمّى: «إرشاد العقل السليم» (٥/ ٢٤٥).

(٤) بعده في «تفسير أبي السعود»: «يقال: ثوب مردّم»؛ أي: فيه رقاع فوق رقاع.

ما يرجونه.

قال ذو القرنين: ﴿آتُوني زُبَر الحَدِيْدِ حَتّى إذا سَاوى بَينَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتّى إذا جَعَلَهُ نَاراً قَال آتوني أفْرِغْ عَلَيهِ قِطراً﴾ [الكهف: ٩٦].

الزُّبَر: جمع زُبْرة كغرف في [جمع] غرفة، وهي القطعة الكبيرة[١]، ولعل تخصيص الأمر بالإيتاء بها دون سائر الآلات من الصُّخور والحطب ونحوهما، لما أنَّ الحاجة إليها أمس، إذ هي الركن في السَّد، ووجودها أعز».

وساوى بين الصدفين: بين جانبي الجبلين بتنضيدها، والصدفان: جانبا الجبلين؛ لأنهما يتصادفان أي يتقابلان، والقِطر: النحاس المذاب.

قال الرازي[٢]: «وقوله: ﴿حَتّى إذا سَاوى بَينَ الصَّدَفَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٦] فيه إضمار؛ أي: فأتَوْه بها فوضع تلك الزُّبر بعضَها على بعض، حتى صارت بحيث تَسدُّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافخ عليها، حتى إذا صارت كالنّار صب النحاس المذاب على الحديد المحمّى، فالتصق بعضه ببعض، وصار جبلاً صلداً».

قال العلاّمة أبو السعود[٣]: «قيل: حفَرَ الأساس حتى بلغَ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم، حتى سدَّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما وكان مئة فرسخ[٤]، وكان ارتفاعه

---

(١) بعده في «تفسير أبي السعود»: «وهذا لا ينافي رد خراجهم؛ لأن المأمور به الإيتاء بالثمن، أو المناولة، كما ينبئ عنه القراءة بوصل الهمزة؛ أي: جيئوني بزبر الحديد، على حذف الباء، كما في: أمرتك الخير، ولأن إيتاء الآلة من قبيل الإعانة بالقوة دون الخراج على العمل...».

(٢) في تفسيره المسمّى «مفاتيح الغيب» (٢١/ ١٤٦).

(٣) في تفسيره «إرشاد العقل السليم» (٥/ ٢٤٥).

(٤) بعده في «تفسير أبي السعود»: «وذلك قوله -عز قائلاً-: ﴿حَتّى إذا سَاوى بَينَ الصَّدَفَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٦]؛ أي: أتوه إياها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً، حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في السُّمك، وعلى النهج المحكي، قيل: كان ارتفاعه...».

مئتي ذراع، وعرضه خمسين ذراعاً».

ثم قال: «وقيل: بناه من الصخور مرتبطاً بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب في تجاويفها، بحيث لم يبق هناك فرجة أصلاً»[١].

وفي «معجم البلدان»[٢] في الكلام على السَّد، قال:

«أمر بالحديد، فأُذِيبَ وضُرب منه لَبناً عظاماً، وأذاب النحاس، ثم جعل منه مِلاطاً[٣] لذلك اللبن، وبنى به الفجَّ، وسوَّاه مع قُلَّتَيِ الجبل، فصار شبيهاً بالمصْمَت[٤]، وفي بعض الأخبار: السدُّ طريقةٌ حمراءُ، وطريقةٌ سوداءُ من حديد ونحاس».

ثم قال[٥]: «وفي رواية: إن ذا القرنين إنما عمل السَّد بعد رجوعه عنهم -أي: بعد منصرفه عن بلاد يأجوج ومأجوج-، فانصرف إلى ما بين الصّدفين، فقاس ما بينهما، وهو مُنقطَع أرض التُّرك[٦] مما يلي الشَّمس، فوجدَ بُعدَ ما بينهما مئة فرسخ، فحفر له أساساً بلغ به الماء، وجعل عرضَه خمسين فرسخاً -الصواب: ذراعاً، كما تقدم-، وجعل حَشوَه الصّخور، وطينَه النحاسَ المذابَ يُصبُّ عليه، فصار عِرقاً من جبلٍ تحت الأرض، ثم علاّه وشرّفه بزُبُر الحديد والنحاس المذاب، وجعل خلاله عرقاً من نحاسٍ أصفر، فصار كأنّه بُردٌ محبَّرٌ من صفرة النحاس وسواد الحديد، فلما أحكمه انصرف راجعاً».

وفي «البداية والنهاية»[٧]: «بناه -كما قال تعالى- من الحديد والقِطر، وهو

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٤٦).

(٢) (٣/ ١٩٧ - ط. دار صادر).

(٣) الملاط: الطين يجعل بين سافي البناء ويملط به الحائط، وملَطَ الحائط: طلاه، وسافي البناء شقوقه. (منه).

(٤) «المُصْمت: الذي لا جوف له» اهـ «قاموس». (منه).

(٥) (٣/ ١٩٨).

(٦) ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ٢٠٤) (حوادث ٥١٦): «وفيها ظهر معدن نحاس بديار بكر قريباً من قلعة ذي القرنين».

(٧) (٢/ ١٦٠ - ط. دار أبي حيان).

النحاس المذاب[١]، فجعل بدل اللبن حديداً، وبدل الطين نحاساً».

وقال[٢]: «بناه من الحديد والنّحاس، وساوى به بين الجبال الصُّم الشّامخات الطوال، فلا يُعرف على وجه الأرض بناءٌ أجلّ منه، ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم».

قال البخاري[٣]: «وقال رجلٌ للنّبي ﷺ: رأيت السَّد، [قال: «وكيف رأيته»؟ قال][٤]: مثل البُرد المحَبَّر، فقال: «قد رأيته»».

هكذا ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم[٥]، ولم أره مسنداً من وجهٍ متّصل أرتضيه، غير أن ابن جرير الطبري رواه في «تفسيره» مرسلاً، فقال:

حدثنا بشر حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال:

«ذكِر لنا أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله! قد رأيت سَدَّ يأجوج ومأجوج، قال: «انْعتهُ لي»، قال: كالبُرد المحبَّر: طريقة سوداء وطريقة حمراء، قال: «قد رأيتَه»»[٦].

---

(١) بعده في مطبوع «البداية»: «وقيل: الرصاص، والصحيح الأول».

(٢) (٢/ ١٦٣).

(٣) في «صحيحه» في كتاب الأنبياء (باب قصة يأجوج ومأجوج) قبل (رقم ٣٣٤٦).

(٤) لا وجود لهذه القطعة في «صحيح البخاري»، وهي ساقطة -أيضاً- من الطبعة اليونينية منه (٤/ ١١٠).

(٥) أي: في كتاب (أحاديث الأنبياء) قبل حديث زينب ابنة حجش الآتي ذكره. (منه).

(٦) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٦/ ٢٣): حدثنا بشر، به.

وأخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٥٨٤ رقم ١٦٣٢)، قال: حدثنا ابن وهب، عن مسلمة بن علي، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، وفيه زيادة من قول الرجل: «وإن النّاس يكذبوني»! وفي آخره قول النّبي ﷺ له: «صدقت، والذي نفسي بيده! لقد رأيتَه وردمه، لبنة من ذهب، ولبنة من رصاص».

وهذا منكر بمرّة، وإسناده على أية حال ضعيف، فهو مرسل، وفيه اضطراب.

ثم رأيت ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٣٨٦) يورد الزيادة: «لقد رأيتُه»، ويقول عنها: «زيادة منكرة»، وسيأتي كلامه، والحمد لله على توفيقه.

وقال الحافظ ابن حجر في «شرح البخاري»[(١)] (ج ٦ ص ٢٤٣): «وصله ابن أبي عمر من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن رجل من أهل المدينة أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله! قد رأيتُ سَدَّ يأجوج ومأجوج، قال: «كيف رأيته»؟ قال: مثل البُرد المحبَّر: طريقة حمراء، وطريقة سوداء، قال: «قد رأيتَه»»[(٢)].

---

(١) (٦/ ٣٨٦ - ط. السلفية).

(٢) عزاه لمحمد بن يحيى بن أبي عمر العَدني: العيني في «عمدة القاري» (١٥/ ١٣٦).

وأخرجه ابن حجر في «تغليق التعليق» (٤/ ١٢) بسنده إلى ابن أبي عمر، قال: ثنا سفيان بن عيينة -وهو غير موجود في مطبوع «تفسيره»-، عن سعيد بن أبي عروبة، به. وقال: تابعه سعيد بن عبدالرحمن المخزومي، عن ابن عُيينة في «التفسير».

هذا إسناد صحيح إلى قتادة، فإن كان سمعه من هذا الرجل، فهو حديث صحيح؛ لأن عدم معرفة اسم الصحابي لا تضر عند الجمهور؛ لأنّ كلَّهم عدول، ولكن قد اختلف فيه على قتادة، فرواه سعيد بن أبي عروبة، عنه هكذا، ورواه سعيد بن بشير عنه، فاختُلِف عليه فيه، فقال أبو الجماهير والوليد بن مسلم عنه، عن قتادة، عن رجلين، عن أبي بكرة الثقفي:

«أن رجلاً أتى النّبي ﷺ، فقال: إني قد رأيتهُ -يعني: السد-، فقال: «كيف»؟ قال: كالبرد المحبّر، فقال: «قد رأيتَهُ»».

رواه ابن مردويه في «تفسيره» عن الطبراني، عن أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، عن أبي الجماهير بهذا.

ورواه نعيم بن حماد في كتاب «الفتن»، عن شيخ له، عن سعيد بن بشير، عن قتادة أن رجلاً أتى النّبي ﷺ، فذكره مرسلاً.

ورواه مسلمة بن علي عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أنس، ومسلمة ضعيف وليس هذا من حديث أنس، والله أعلم.

ورواه يوسف بن أبي مريم الحنفيُّ، عن أبي بكرة ورجلٍ رأى السد، فساقه مطولاً، ورواه البزار في «مسنده» من هذا الوجه بإسنادٍ حسن» انتهى.

قال أبو عبيدة: الموجود في مطبوع «الفتن» (٢/ ٥٨٤ رقم ١٦٣٢) الإسناد الثاني فقط، هكذا: «حدثنا ابن وهب، عن مسلمة بن علي، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، قال: قال رجل...»، وهكذا وجدته في النسخة الخطية المحفوظة في المتحف البريطاني منه (ج ٨/ ق ٦/ ب). =

ورواه الطبراني[١] من طريق سعيد بن بشير، عن قتادة، عن رجلين، عن أبي

= وأورد الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣١٢) إسناد ابن مردويه من طريق ابن أبي عمر العدني، وإسنادَهُ من طريق الطبراني، ثم وجدت ابن حجر يصرح بأنه في «مسند الشاميين» له.

وانظر: الهامش الآتي، والله الهادي.

وأما إسناد البزار ولفظه، فهذا هو:

أخرج البزار في «مسنده» (٢/ ٤٥١ رقم ٢٠٨٩ - «كشف الأستار»)، قال: حدثنا عمرو بن مالك، أنبأ محمد بن حمران، ثنا عبدالملك بن أبي نعامة الحنفي، عن يوسف بن أبي مريم الحنفي، قال:

«بينا أنا قاعد مع أبي بكرة، إذ جاء رجل فسلّم عليه، فقال: أما تعرفني؟ فقال له أبو بكرة: من أنت؟ قال: تعلم رجلاً أتى النّبي ﷺ، فأخبره أنه رأى الرَّدم؟ فقال أبو بكرة: أنت هو؟ قال: نعم، قال: اجلس حدثنا، قال: انطلقت حتى انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلاّ الحديد يعملونه، فدخلت بيتاً، فاستلقيت فيه على ظهري، وجعلت رجلي على جداره، فلما كان عند غروب الشمس سمعت صوتاً لم أسمع مثله، فرُعبت، فجلست، فقال لي ربُّ البيت: لا تذعَرن فإن هذا لا يضرك، هذا صوت قوم ينصرفون هذه الساعة من عند هذا السد، قال: فيسرك أن تراه؟ قلت: نعم، قال: فغدوت إليه، فإذا لبنه من حديد، كل واحدة مثل الصخرة، وإذا كأنه البُرد المحبّر، وإذا مسامير مثل الجذوع، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «صِفه لي»، فقلت: كأنه البرد المحبرة، فقال رسول الله ﷺ: «**من سرَّه أن ينظر إلى رجلٍ قد أتى الرَّدْم فلينظر إلى هذا**»، قال أبو بكرة: صدق».

وقال البزار على إثره: «لا نعلم أحداً رواه إلاّ أبو بكرة، ولا له إلاّ هذا الطريق».

قال أبو عبيدة: إسناده ضعيف، بل مظلم، بل منكر.

قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٣٤): «رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك، تركه أبو زرعة وأبو حاتم، ووثقه ابن حبان، وقال: يخطئ ويغرب، وفيه من لم أعرفه».

وعمرو هذا ترجمه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٩٩-١٢٠٠)، وقال عنه: «منكر الحديث عن الثقات، ويسرق الحديث، سمعت أبا يعلى يقول: كان ضعيفاً».

وانظر: «الميزان» (٣/ ٢٨٥)، وأورد حديثين في ترجمته، وقال عقبهما في آخر الترجمة: «ولعمرو غيرُ ما ذكرت، أحاديثه مناكير، بعضها سرقها من قوم ثقات».

قلت: هذا الحديث من سرقاته! فأنّى له الحُسْن!!

(١) في «مسند الشاميين» (٤/ ٧١ رقم ٢٧٥٨)، وعنه ابن مردويه في «تفسيره»، وساق الزيلعي إسناده في «تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف» (٢/ ٣١٢)، وكذلك فعل ابن حجر في=

بكرة: «أن رجلاً أتى النّبي ﷺ فقال: ... فذكر نحوه».

وذكر الثعلبي في «تاريخ الأنبياء» المسمّى «عرائس المجالس»[1] (ص ٢٨٨) كيف كان بناء هذا السد، فقال:

«وكيفية بنائه على ما ذكر أهل السِّيَر: أنه لما قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مئة فرسخ، فلما أنشأ في عمله حَفَرَ له الأساس حتى بلغ الماء، ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً -هكذا أيضاً، والصواب: ذراعاً كما تقدم-، ثم وضع الحطب بين الجبلين، ثم نسج عليه الحديد، ثم نسج الحطب على الحديد، فلم يزل يجعل الحطب على الحديد، والحديد على الحطب، حتى ساوى بين الصدفين -وهما الجبلان-، ثم أمر بالنار فأرسلت فيه، ثم[2] قال: انفخوا، حتى جعل يفرغ القطر فيه، وهو النحاس المذاب، فجعلت النار تأكل الحطب، ويصير النحاس مكان الحطب، ثم لزم الحديد النحاس، فصار كأنه بُرد حبرة من صفرة النحاس وحمرته، وسواد الحديد وغبرته، فصار سدّاً طويلاً عظيماً» اهـ.

وفي «النخبة الأزهرية» في الكلام على الصناعة في بلاد الصين:

«امتاز الصِّينيون في الصناعات الدقيقة كالحفر في العاج وعمل لوازم البيوت الصغيرة من الخشب[3] والأصداف والخيزران... إلخ. ومن صناعاتهم -أيضاً-: الخزف والمنسوجات والورق، ويقال: إنهم اخترعوا البارود والمطبعة والبوصلة،

=«الكافي الشاف» (ص ١٠٤-١٠٥/ رقم ٣٣٠)، وعنه تلميذه البقاعي في «نظم الدرر» (١٢/ ١٤١)، مع تصريحهما بتقييد العزو لـ«مسند الشاميين» و(مسند أبي بكرة) ساقط من مطبوع «المعجم الكبير»، ولم أرَ من صرح بأن الحديث فيه، أو في «الأوسط» مع مروري على ترجمة (الأحمدين) -واسم شيخ الطبراني فيه: (أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة) فيما أفاده الزيلعي- في «الأوسط» فلم أفز بذكر له فيه.

(١) (ص ٣٢٨ - مصورة المكتبة الثقافية)، ومثله في تفسيره «الكشف والبيان» (٦/ ١٩٦).

(٢) ساقطة من مطبوع «العرائس».

(٣) في الأصل: «اليشب»، ولا ذكر لها في (جدول الخطإ والصواب) في آخر الكتاب.

إنما الصناعات الكبرى غير منتشرة عندهم، وغاية ما يقال له (عظيم) في صناعتهم (السور الهائل)، الذي أحاطوا به جزءاً من مملكتهم على طول (٢٦٠٠) كيلو متر، والبرج المبني من القرميد المغطى بالخزف -وهو بنانكين-، وقنال الملاحة الواصل بين شمالي الصين وجنوبها» اهـ.

وهذا لا ينافي أنه من آثار ذي القرنين؛ لأن البنّائين إنما هم صينيون، وهو مقتضى قوله -تعالى-: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]؛ أي: بقوةِ فَعَلَةٍ، أو بما أتقوّى به من الآلات كما تقدم، وهذا لا ينافي -أيضاً- أن ينسب بناؤه إلى ملك الصين، الذي كان في ذلك الزمن، حيث إنه كان بطلب منه، وعُمِل على مرأى منه، إلاّ أنه لما كان ضعيفاً لا يتمكن من عمله بنفسه ورعيته؛ وعدوه قوياً ليس في الوسع مقاومته ورد غاراته؛ استنجد بذي القرنين لما وصل إليه، ومع ذي القرنين من الجنود ما لا قبل لأحد بها، فاضطر المغوليون إلى السكوت وعدم الممانعة، فتمكن الصينيون بمعونة ذي القرنين من القيام بعمل هذا السد الهائل، والفضل في ذلك يرجع إلى قوة ذي القرنين وشدة بأسه وعظيم سلطانه.

سكنى العرب ببلاد الصين حول السَّد من عهد ذي القرنين

في الكتاب الذي كتبه أبو دلف مِسْعر بن مهلهل إلى صديقيه عن سياحته في بلاد الصين -كما في «المعجم» (ج ٥ ص ٤١٣)[1]- في الكلام عليها ما نصه:

---

(١) ذكر ياقوت في «معجم البلدان» (٣/ ٤٤٠-٤٤١) الآتي ضمن خبر طويل، نسوق طرفاً منه، مع ملاحظة كلامه الذي أورده قبله، قال:

«هذا شيء من أخبار الصين الأقصى، ذكرته كما وجدته لا أضْمنُ صحته، فإن كان صحيحاً، فقد ظفرت بالغرض، وإن كان كذباً فتعرف ما تقوّله الناس، فإن هذه بلاد شاسعة، ما رأينا مَنْ مضى إليها فأوغل فيها، وإنما يقصد التجار أطرافَها، وهي بلاد تُعرَف بالجاوه على سواحل البحر شبيهة ببلاد الهند، يُجلبُ منها العودُ والكافورُ والسنبل والقرنفل والبسباسة والعقاقير والغضائر الصينية، فأما بلاد الملك فلم نر أحداً رآها».

ثم قال بعد ذلك: «وقرأت في كتاب عتيق ما صورته: كتب إلينا أبو دُلَف مِسعَر بن مهلهل في ذِكْر=

....

=ما شاهده ورآه في بلاد الترك والصين والهند، قال: إني لما رأيتكما يا سيّدي -أطال الله بقاءكما- لَهِجَيْن بالتصنيف، مُولَعَين بالتأليف، أحببت أن لا أخلي دستوركما وقانون حكمتكما من فائدة وقعت إليّ مشاهدتُها، وأعجوبة رمت بي الأيام إليها، ليروق معنى ما تتعلّمانه السمع، ويصبو إلى استيفاء قراءته القلب، وبدأت -بعد حمد الله والثناء على أنبيائه- بذكر المسالك المشرقية، واختلاف السياسة فيها، وتباين ملكها، وافتراق أحوالها، وبيوت عبادتها وكبرياء ملوكها، وحكم قُوّامها ومراتب أولي الأمر والنهي لديها؛ لأن معرفة ذلك زيادة في البصيرة واجبة في السيرة، قد حض الله -تعالى- عليها أولي التيقظ والاعتبار، وكلّفه أهل العقول والأبصار، فقال -جلّ اسمه-: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، فرأيت معاونتكما لِما وَشجَ بيننا من الإخاء، وتوكد من المودة والصفاء، ولما نبا بي وطني ووصل بي السير إلى خراسان، ضارباً في الأرض، أبصرت ملكها والموسوم بإمارتها نصر بن أحمد الساماني، عظيم الشأن كبير السلطان، يستصغر في جنبه أهل الطُّول، وتخفّ عنده موازين ذوي القدرة والحول، ووجدت عنده رُسُل قالين بن الشخير ملك الصين راغبين في مصاهرته، طامعين في مخالطته، يخطبون إليه ابنته، فأبى ذلك واستنكره لحظر الشريعة له، فلمّا أبى ذلك راضوه على أن يزوّج بعض ولده ابنة ملك الصين، فأجاب إلى ذلك، فاغتنمت قصد الصين معهم، فسلكنا بلد الأتراك، فأول قبيلة وصلنا إليها بعد أن جاوزنا خراسان وما وراء النهر من مدن الإسلام قبيلة في بلد يعرف بالخركاه، فقطعناها في شهر نتغذى بالبُرّ والشعير.

ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالطخطاخ تغذينا فيها بالشعير والدخن وأصناف من اللحوم والبقول الصحراوية، فسِرْنا فيها عشرين يوماً في أمن ودعة، يسمع أهلها لملك الصين ويطيعونه ويؤدّون الإتاوة إلى الخركاه لقربهم إلى الإسلام ودخولهم فيه، وهم يتفقون معهم في أكثر الأوقات على غزو من بَعُد من المشركين.

ثم وصلنا إلى قبيلة تعرف بالبجا، فتغذينا فيهم بالدخن والحمص والعدس، وسرنا بينهم شهراً في أمن ودعة، وهم مشركون ويؤدّون الإتاوة إلى الطخطاخ ويسجدون لملكهم ويعظمون البقر، ولا تكون عندهم ولا يملكونها تعظيماً لها، وهو بلد كثير التين والعنب والزعرور الأسود، وفيه ضرب من الشجر لا تأكله النار، ولهم أصنام من ذلك الخشب.

ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبجناك، طوال اللحى، أولو أسبلة همج يغير بعضهم على بعض، ويفترش الواحد المرأة على ظهر الطريق، يأكلون الدخن فقط، فسرنا فيهم اثني عشر يوماً، وأخبرنا أن بلدهم عظيم مما يلي الشمال وبلد الصقالبة، ولا يؤدّون الخراج إلى أحد.

ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بالجَكل يأكلون الشعير والجلبان ولحوم الغنم فقط، ولا يذبحون الإبل ولا يقتنون البقر، ولا تكون في بلدهم، ولباسهم الصوف والفراء لا يلبسون غيرهما، وفيهم نصارى قليل، وهم صباح الوجوه، يتزوّج الرجل منهم بابنته وأخته وسائر محارمه، وليسوا مجوساً، ولكن هذا مذهبهم في النكاح، يعبدون سُهيلاً وزُحَل والجوزاء وبنات نعش والجدي، ويسمّون الشعرى اليمانية ربّ الأرباب،=

«فسرنا فيهم أربعين يوماً في أمنٍ وخوفٍ، ثم انتهينا إلى موضع يقال له (القُليب) فيه بوادي عرب ممن تخلَّف عن تُبَّع لمّا غزا بلاد الصين، لهم مصايفُ ومشاتٍ[١] في مياه ورمال، يتكلمون بالعربية القديمة (الحميرية) لا يعرفون غيرها، ويكتبون بالحميرية، ولا يعرفون قلمنا، يعبدون الأصنام، وملكهم من أهل بيت منهم، لا يخرجون الملك من أهل ذلك البيت، ولهم أحكام، وحظر الزنا والفسق، ولهم شرابٌ جيّد من التَّمر، وملكهم يهادي ملك الصين، فسرنا فيهم شهراً في خوفٍ وتغرير».

وقال ياقوت[٢] في الكلام على (سَمَرْقَنْد) (ج ٥ ص ١١٢):

«قال المفجَّع في كتاب «المنقذ في الإيمان في أخبار ملوك اليمن»[٣]، قال: لما مات ناشرُ يُنعُمِ الملك، قام بالملك من بعده شَمِرُ بن إفريقيس[٤] بن أبرهة، فجمع جنوده وسار في خمس مئة ألف رجل حتى ورد العراق، فأعطاه يشتاسف الطاعة، وعلم أن لا طاقة له به! لكثرة جنوده وشدّةِ صولته، فسار من العراق لا

=وفيهم دعة ولا يرون الشّر، وجميع من حولهم من قبائل الترك يتخطفهم ويطمع فيهم، وعندهم نبات يعرف بالكلكان طيب الطعام يطبخ مع اللحم، وعندهم معادن البازهر وحياة الحبق، وهي بقر هناك، ويعملون من الدم والذاذي البري نبيذاً يُسكر سكراً شديداً، وبيوتهم من الخشب والعظام، ولا ملك لهم، فقطعنا بلدهم في أربعين يوماً...» إلخ ما نقله المصنف منه في كلام طويل جداً، والمذكور هنا في (٢/ ٤٤٣-٤٤٤).

(١) في الأصل: «ومشاتي»!!.

(٢) في «معجم البلدان» (٣/ ٢٤٧).

(٣) عرفه ياقوت في «معجمه» (٣/ ٤٤٠) بقوله: «وهو كتاب وضعه على مثل «الملاحن» لابن دريد»، وكذا في «كشف الظنون» (٢/ ١٨٦٩)، وسمّى صاحبه «محمد بن أحمد البصري»! وكذا في «نزهة الألباب» (٢/ ١٨٨)، و«بغية الوعاة» (١/ ٣١)، وسمي بذلك؛ لأن له شعراً كثيراً في أهل البيت، يذكر فيه أسماء الأئمة، ويتفجّع على قتلهم، وفي «الكشف»: «المعروف بالعجيج»! وهذا تحريف، فليصوب، وفيه: «مات سنة ٣٢٠ هـ». وانظر: «الأعلام» (٦/ ١٩٨).

(٤) كذا في مطبوع ياقوت، وفي الأصل: بالشين المعجمة في آخره.

يصُدُّه صادٌّ إلى بلاد الصين، فلما صار بالصَّغد اجتمع أهل تلك البلاد وتحصَّنوا منه بمدينة (سَمرقند)، فأحاط بمن فيها من كلّ وجه، حتى استنزلهم بغير أمان، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأمر بالمدينة فهُدمت فسمّيت (شمركند)؛ أي: شمر هدمها، فعرَّبتها العرب، فقالت: سمرقند، وقد ذكر ذلك دِعبل الخزاعي في قصيدته التي يفتخر فيها ويردُّ بها على الكُميت، ويذكر التبابعة[1]:

وَهُم[2] كتبوا الكتاب بباب مرو ... وباب الصّين كانوا الكاتبينا
وهم خرّبوا سمرقنداً بشمر[3] ... وهم غرسوا هناك التُّبّتينا

فسار شمر وهو يريد الصين، فمات هو وأصحابه عطشاً، ولم يرجع منهم مخبر، فبقيت سمرقند خراباً إلى أن ملك تُبّع الأقرن بن أبي مالك بن ناشر ينعم، فلم تكن له همّة إلا الطلب بثأر جده شمر الذي هلك بأرض الصين، فتجهّز واستعد وسار في جنوده نحو العراق، فخرج إليه بَهمَن بن إسفنديار، وأعطاه الطاعة، وحمل إليه الخراج حتى وصل إلى سمرقَنْد، فوجدها خراباً، فأمر بعمارتها، وأقام عليها حتى ردّها إلى أفضل ما كانت عليه[4]، وسار حتى أتى بلاداً واسعة، فبنى التُبَّت كما ذكرنا -أي: في الكلام عليها-[5]، ثم قصد الصين فقتل وسبى وأحرق، وعاد إلى اليمن في قصّة طويلة» اهـ.

وقال ياقوت[6] في الكلام على (تبَّت) (ج ٢ ص ٣٥٩):

---

(١) في الأصل: «التتابعة»، والمثبت من «معجم البلدان».

(٢) في الأصل: «هم».

(٣) جاء هكذا في «معجم البلدان»: «وهم سمّو قديماً سَمرقَنداً».

(٤) قال ابن فضل الله العمراني في «مسالك الأبصار» (٣/ ق ٧٧) -ومن خطه أنقل-: «ويزعم بعضُ الناس أنّ تبّعاً المسمّى: أسعدُ أبا كرب ابتنى مدينة (سمرقند)، وأنّ ذا القرنين أتمّ بعض بنائها...» وذكر أنه كان على بابها الكبير صفيحةُ حديدٍ، عليها كتابةٌ -زعم أهلها أنها بالحميرية- تدلّ على ذلك.

(٥) سيأتي نقل المصنف عن ياقوت في كلام له عليها.

(٦) (٢/ ١٠).

«وإنمّا سُمّيت ممن ثُبِّت فيها وربِّث[١] من رجال حمير، ثم أبدلت الثاءُ تاءً؛ لأن الثاء ليست في لغة العجم، وكان من حديث ذلك أنّ تُبّعَ الأقرن[٢] سار من اليمن، حتى عبر نهر جَيحون، وطوى مدينة بخارى وأتى مدينة سمرقند، وهي خراب، فبناها وأقام عليها، ثم سار نحو الصين في بلاد الترك شهراً حتى أتى بلاداً واسعة، [كثيرة][٣] المياه والكلأ، فابتنى هناك مدينةً عظيمةً، وأسكن فيها ثلاثين ألفاً من أصحابه ممن لم يستطع السَّير معه إلى الصين، وسماها (تبَّت)»[٤].

وقد افتخر دِعبَل بن علي الخزاعي بذلك في قصيدته التي عارض بها الكُمَيت، فقال:

وهم كتبوا الكتاب بباب مرو ... وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سموا قديماً سَمرقَنْداً ... وهم غرسوا هناك التُّبَّتينا

وأهلها -فيما زعم بعضهم- على زِيّ العرب إلى هذه الغاية، ولهم فروسيّة، وبأس شديد، وقهروا جميع من حولهم من أصناف الترك، وكانوا قديماً يسمّون كل من ملك عليهم تبّعاً؛ اقتداءً بأوّلهم، ثم ضرب الدهر ضربه، فتغيّرت هيآتهم ولغتهم

---

(١) في الأصل: «ثبت فيه ورتب».

(٢) في ذيل كتاب «التيجان» في (أخبار عبيد بن شرية الجرهمي مع معاوية -رضي الله عنه-) في (ص ٤٣٣)، قال: «إن تبع الأقرن هو ذو القرنين المذكور في القرآن، وسمي الأقرن وذا القرنين؛ لشيب كان فيه، وهو على قرنيه، وكان ملكاً عظيماً عالماً حكيما...» إلخ.

ويستفاد من «تاريخ أبي الفدا» في الكلام على ملوك العرب قبل الإسلام، أنّ تُبّع الأقرن هو غير ذي القرنين، وترى إذا تصفحت التاريخ تقديماً وتأخيراً في ملوك اليمن واختلافاً في سني تملك كل واحد منهم، وفي عدد ملوكهم، وأبو الفدا والمسعودي أشارا إلى ذلك، وتقادُمُ زمنهم أدى إلى هذا الاختلاف، ولعل الزمن يوصل الباحثين إلى حقيقة ترتيب ملوكهم، ومدة تولّي كل واحد منهم إلى آخر ملك منهم، وهو سيف بن ذي يزن أو ولده معد يكرب. (منه).

(٣) سقط من الأصل، وأثبتّه من «معجم البلدان».

(٤) في الأصل: «ثبت» بمثلثة في أوله وموحدة وتاء مثناة من فوق.

إلى ما جاورهم من الترك، فسموا ملوكهم خاقان[١]» اهـ.

وقال المسعودي في «مروج الذهب»[٢] في (باب ذكر اليمن وملوكها ومقدار سنيها) (ج١ ص ١٩٤): «ثم ملك بعد ناشر النعم كليكرب، وكان ملكه ثلاث مئة سنة وعشرين سنة، وسكن قومه نحو[٣] الشرق في بلاد خراسان والتُّبَّت والصين وسجستان» اهـ.

(١) كذا في الأصل، وفي مطبوع «المعجم»: «بخاقان».

(٢) (٢/ ٨٢).

(٣) العبارة في مطبوع «المروج» هكذا: «ثم عاد بعد ذلك المُلْكُ إلى حمير، فملكهم ناشر النعم بن عمرو بن يعفر، وكان ملكه خمساً وثلاثين سنة، ثم ملك بعده شمر بن إفريقس بن أبرهة، فكان ملكه ثلاثاً وخمسين سنة، ثم ملك بعده تُبع الأقرن بن شمر، فكان ملكه مئة وثلاثاً وستين سنة، ثم ملك بعده كليكرب بن تبع، وكان ملكه مئة سنة وعشرين سنة، وسير قومه نحو...».



الفصل السادس

في معرفة العرب بهذا السد في عهد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- والخلفاء العباسيين

من جملة قواد عمر -رضي الله عنه- في (فتح بلاد الفرس)[١] وما وراءها: عبدالرحمن بن ربيعة أخو سلمان بن ربيعة.

قال في «معجم البلدان»[٢] في الكلام على (باب الأبواب) -بلدة على بحر خَزَر[٣]-:

«في أيام عمر بن الخطاب في سنة (١٩) أنفذَ سُراقَة بنَ عمرو -وكان يُدعى ذا النون- إلى الباب، وجعل في مقدّمته عبدالرحمن بن ربيعة -وكان -أيضاً- يدعى ذا النون-، وسار في عسكره إلى الباب، ففتحه بعد حروب جرت».

قال ابن جرير الطبري[٤]:

«وحدث عمرو بن معدي كرب عن مَطَرِ بن ثلْجٍ التميمي، قال: دخلتُ على عبدالرحمن بن ربيعة بالباب وشهريزار[٥] عنده، فأقبل رجلٌ عليه شُحوبةٌ، حتى دخل

(١) انظر: «قادة فتح بلاد فارس» (١١٢، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١) لمحمود شيت خطاب.

(٢) (١/ ٣٠٥).

(٣) هو بحر قزوين اليوم.

(٤) (٤/ ١٥٩-١٦٠ - ط. محمد أبو الفضل إبراهيم)، وعنه -أيضاً- الذهبي في «تاريخ الإسلام» (ص ٢٤٤-٢٤٥ - عهد الخلفاء الراشدين).

(٥) كذا في الأصل، وفي مطبوع «ابن جرير»: «شهربراز»، وفي مطبوع الذهبي: «شهريران».

على عبدالرحمن، فجلس إلى شهريزار[١]، وعلى مَطرٍ قَباءُ برودٍ يمنيّة، أرضُه حمراء، ووشْيُه أسود -أو: وشيه أحمر، وأرضه سوداء- فتساءلا، ثم إن شهريزار قال: أيها الأمير! أتدري من أين جاء هذا الرجل؟ هذا رجل بعثْتَه منذ سنين نحو السّدّ، لينظر ما حاله ومَنْ دونه، وزوّدتَه مالاً عظيماً، وكتبتَ له إلى مَن يليني، وأهديتَ له، وسألتَه أن يكتب إلى مَنْ وراءَه، وزوّدته لكلِّ ملِك هديّة، ففعل ذلك بكل ملك بينه وبينه، حتى انتهى إليه، فانتهى إلى الملك الذي السّدُّ في ظهر أرضه، فكتب له إلى عامله على ذلك البلد فأتاه، فبعث معه بازيَارَه ومعه عُقابه، فأعطاه حريرة، فتشكر لي البازيار[٢]، فلما انتهينا فإذا جبلان بينهما سد مسدود، حتى ارتفع على الجبلين بعد ما استوى بهما، وإذا دون السد خندق أشد سواداً من الليل لِبُعده، فنظرت إلى ذلك كله، وتفرَّستُ فيه، ثم ذهبت لأنصرف، فقال لي البازيار: على رِسلِكَ أكافك[٣]! إنه لا يلي مَلِكٌ بعد مَلِكٍ إلا تقرّب إلى الله بأفضل ما عنده من الدنيا، فيرمي به في هذا اللهب، فشرّح بضعة لحم معه، فألقاها في ذلك الهواء، وانقضّت عليها العُقاب، وقال: إنْ أدركتْها قبل أن تقع فلا شيء، وإن لم تُدركها حتى تقع فذلك شيء؛ فخرجت علينا العُقاب باللحم في مخالبها، وإذا فيه ياقوتة، فأعطانيها، وها هي هذه، فتناولها شهريزار[١] حمراء، فناولها عبدَالرحمن، فنظر إليها، ثم ردّها إلى شهريزار[١]، وقال شهريزار[١]: لهَذه خير من هذا البلد -يعني: الباب-، وإيم الله! لأنتم أحب إليّ مَلَكة من آل كسرى، ولو كنتُ في سلطانهم، ثم بلغَهم خبرُها لانتزعوها مني، وإيم الله! لا يقوم لكم بشيء[٤] ما وفيتم ووفَّى مَلِكُكم الأكبر.

فأقبل عبدالرحمن على الرسول، وقال: ما حال هذا الردم وما

(١) كذا في الأصل، وفي مطبوع «ابن جرير»: «شهربراز»، وفي مطبوع الذهبي: «شهريران».

(٢) البازيار: حافظ الباز وصاحبه، كذا في «تاج العروس»، و(الباز) أشرف الطيور، وبه سمّي علم (البزدرة)، كما في «تذكرة داود الأنطاكي» وغيره.

(٣) في «تاريخ الإسلام»: «أكافئك»، وكلاهما صحيح.

(٤) في مطبوع «تاريخ ابن جرير»: «شيء».

أشبهه[١]؟ فقال: هذا الثَّوب الذي على هذا الرجل، قال: فنظر إلى ثوبي، فقال مطر بن ثلج لعبدالرحمن بن ربيعة: صدق والله الرَّجل، لقد نفذ ورأى، فقال: أجل؛ وصفَ صفةَ الحديد والصُّفر، وقال:﴿آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦] إلى آخر الآية، وقال عبدالرحمن لشهريزار[٢]: كم كانت هديتك؟ قال: مئة ألف [في][٣] بلادي هذه، وثلاثة آلاف ألف أو أكثر في تلك البلدان» اهـ.

إرسال الخليفة العبّاسي الواثق بالله بعثة لاكتشاف هذا السد[٤]

الخليفة الواثق بالله اسمه: هارون، ولي الخلافة سنة سبع وعشرين ومئتين، ومات سنة اثنتين وثلاثين ومئتين.

قال ياقوت في «المعجم» (ج ٥ ص ٥١)[٥]:

---

(١) في مطبوع «تاريخ ابن جرير»: «شبهه».

(٢) كذا في الأصل، وفي مطبوع «ابن جرير»: «شهربراز»، وفي مطبوع الذهبي: «شهريران».

(٣) أثبتها من مطبوع «تاريخ ابن جرير».

(٤) مما يذكر من باب المعرفة؛ أن لابن فضلان رحلة قام بها سنة (٣٠٩ هـ - ٩٢١ م)، وكانت بأمر الخليفة المقتدر العباسي بناء على طلب من ملك بلغار الفولغا، واستغرقت الرحلة أحد عشر شهراً كاملة، وفيها وَصْفٌ لأحوالٍ وعاداتِ شعوبٍ في آسيا الوسطى وشرقي أوروبا وشمالها، لم تكن معروفة، وكانت رحلته إلى بلاد الترك والخزر والصقالبة والروس وإسكندنافيا، ونشرت بأكثر من لغة، وأول ما صدرت بالعربية عن مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة (١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م) بتحقيق وتقديم سامي الدهان، ثم بجمع وترجمة وتقديم حيدر محمد غيبة، سنة (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

ومن اللطيف هنا إيراد ما قاله ابن فضل الله العمراني (ت ٧٤٩هـ)، في كتابه «مسالك الأبصار» (٣/ ق ٨٩) -ومن خطّه أنقل-: «قلت: ولقد كان في (السرب) و(البلغار) من قديم دار إسلام، ومستقر إيمان، ذكر هذا المسعودي في «مروج الذهب» وغيره، فأما الآن فقد تبدلت بإيمانها كفراً، وتداولتها طائفة من عُبَّاد الصليب».

قال أبو عبيدة: يا ترى! لو بلغهم ما جرى في (السرب) هذه الأيام، فكيف يصاغ الكلام؟! فاللهم لطفك وحنانيك!!

(٥) (٣/ ١٩٩ - ط. دار صادر).

«ومن مشهور الأخبار حديث سلاَّم التَّرجُمان، قال: إن الواثق بالله رأى في المنام أن السَّد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج مفتوح، فأرعبه هذا المنام، فأحضرني وأمرني بقصده والنَّظر إليه والرجوع إليه بالخبر، فضم إليَّ خمسين رجُلاً، ووصلني بخمسة آلاف دينار، وأعطاني ديَتي عشرة آلاف درهم ومئتي بغل تحمل الزَّاد والماء، قال: فخرجنا من سُرَّ من رأى، بكتاب منه إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية، وهو بتَفْلِيس، يُؤمَرُ فيه بإنفاذنا وقضاء حوائجنا، ومكاتبة الملوك الذين في طريقنا بتيسيرنا، فلما وصلنا إليه قضى حوائجنا، وكتب إلى صاحب السَّرير، وكتب لنا صاحبُ السَّرير إلى ملك اللاَّن، وكتب ملك اللاَّن إلى فيلانشاه، وكتب لنا فيلانشاه إلى ملك الخزَر، فوجّه معنا ملك الخزَر[1] خمسة مِن الأدلاَّء، فسِرْنا ستة وعشرين يوماً، فوصلنا إلى أرض سوداء، منتنة[2] الرائحة، وكنا قد حملنا معنا خلاًّ لنشمَّه من رائحتها بإشارة الأدلاء، فسرنا في تلك الأرض عشرة أيام، ثم صرنا إلى مدن خراب، فسرنا فيها سبعة وعشرين يوماً، فسألْنا الأدلاَّء عن سبب خراب تلك المدن، فقالوا: خرَّبها يأجوج ومأجوج، ثم صرنا إلى حِصن بالقرب من الجبل الذي السَّدُّ في شعب منه، فجُزنا بشيء يسير إلى حصون أخر فيها قوم يتكلَّمون بالعربية والفارسية، وهم مسلمون، يقرأون القرآن، ولهم مساجد وكتاتيب، فسألونا: من أين أقبلتم؟ وأين تريدون؟ فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين، فأقبلوا يتعجَّبون من قولنا، ويقولون: أمير المؤمنين! فنقول: نعم، فقالوا: أهو شيخ أم شاب؟ قلنا: شاب، قالوا: وأين يكون؟ قلنا: بالعراق في مدينة يقال لها: سُرَّ من رأى، فقالوا: ما سمعنا بهذا قط[3].

---

(١) في مطبوع «معجم البلدان»: «فوجه ملك الخزر معنا»، و(الخزر): اسم إقليم من قصبة تسمّى (إتِل)، و(إتِل) اسم لنهر يجري إلى (الخزَر) من الروس وبلغار، و(إتل) مدينة، و(الخزر): اسم المملكة لا اسم المدينة.

(٢) في الأصل: «منتة»!

(٣) في «نهاية الأرب» زيادة: «فسألناهم عن إسلامهم: من أين وصلهم ومن علَّمه لهم؟ فقالوا:=

ثم ساروا معنا إلى جبل أملس، ليس عليه من النَّبات شيء، وإذا هو مقطوع بواد عرضه مئة وخمسون[١] ذراعاً، وإذا عَضَادَتان مبنيَّتان مما يلي الجبلَ من جنبي الوادي، عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعاً، الظاهر من تحتها عشرة أذرُع خارج الباب، وكلّه مبنيّ بلبنِ حديد، مغيَّب في نحاس[٢] في سمك خمسين ذراعاً، وإذا (دَرْوَند)[٣] حديد طرفاه في العضادتين، طوله مئة وعشرون ذراعاً قد ركب على العضادتين، وعلى[٤] كل واحد مقدار عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع، وفوق (الدَّرَوَنْد) بناء بذلك اللَّبن الحديد والنُّحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مدُّ البصر، وفوق ذلك شُرَف حديدٍ، في طرف كل شُرْفة قرنان، ينثني كل واحد إلى صاحبه، وإذا باب حديد بمصراعين مُغْلَقين، عرض كل مصراع ستون ذراعاً في ارتفاع سبعين ذراعاً، في ثخن خمسة أذرع، وقائمتاها في دوّارة على قدر (الدَّرَوَند) وعلى الباب قفلٌ طوله سبعة أذرُع في غِلَظ باع، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعاً، وفوق القفل نحو خمسة أذرع، غلق طوله أكثر من طول القفل، وعلى الغِلق مفتاح معلّق طوله سبعة أذرع، له أربعة عشر (دندانكة)[٥] أكبر من

=وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجلٌ راكب على دابّة طويلة العُنُق طويلة اليدين والرجلين، لها في موضع صُلبها حَدَبَة، (فعلِمْنَا أنّهم يَصِفون الجمل)، قالوا: فنزل بنا، وكلّمنا بكلام فهمناه، ثم علّمنا شرائع الإسلام، فقبلناها، وعلّمنا -أيضاً- القرآن ومعانيه، فتعلّمْناه وحفِظْناه».

(١) في «تاريخ الإسلام»: «عرضه مئة ذراع».

(٢) في «المسالك والممالك» (ص ١٦٥) زيادة: «تكون اللَّبنة ذراعاً ونصفاً في ذراعٍ ونصفٍ في سمك أربع أصابع».

(٣) كلمة فارسية، من معانيها: سنبلة من حديد يقفل بها باب الدكان، واللفظ ما زال شائعاً في بعض البلاد العربية. انظر: «التعريف بمصطلحات صبح الأعشى» لمحمد قنديل البقلي (١٣٤)، و«معجم الكلمات الأعجمية والعربية في التاريخ الإسلامي» (ص ٤٩) لعاتق البلادي، و«تكملة المعاجم العربية» (٤/ ٣٤٤) لدوزي.

(٤) في مطبوع «معجم البلدان»: «على».

(٥) مفردها (دِنْكة): ركيزة أو عماد، والأصل (مِدقة الرز) التي كانت مستعملة في محلة=

(دَسْتَج)[١] الهاون معلَّق في سلسلة طولها ثمانيــة أذرع، فـي استـدارة أربعـة أشـبار، والحَلَقة التي فيها السلسلة مثل حلقة (المنجنيق)[٢]، وارتفاع عتبة الباب عشـرة أذرع في بسط مئة ذراع سوى مـا تحـت العضـادتين، والظـاهر منهـا خمسـة أذرع، وهـذا الذراع كله بذراع السَّواد.

ورئيس تلك الحصون يركب في كلِّ جمعة في عشرة فـوارس، مـع كـل فارس مذربة[٣] حديد، فيجيئون إلى البـاب ويضـرب كـل واحـد منهـم القَفـل والباب ضربات كثيرةً؛ ليسمع من وراء الباب ذلك، فيعلمون أنّ هنـاك حَفَظَـة، ويعلم هؤلاء أنَّ أولئك لم يُحْدِثوا في الباب حَدَثاً، وإذا ضربوا الباب وضعـوا آذانهم فيسمعون من وراء الباب دويّاً عظيماً، وبالقرب من السَّد حصـن كبـير، يكون فرسخاً في مثله، يقال إنه يأوي إليه الصنَّاع، ومع البـاب حصنـان يكـون كل واحدٍ منهما مئتي ذراع في مثلها، وعلى بابي هذين الحصنين شجر كبير لا يُدرى ما هو، وبين الحصنين عَيْنٌ عذبة، في إحداهما[٤] آلة البناء التي بُني بهـا

=(الدنكجية) في بغداد سابقاً. كذا في «معجم المصطلحات والألفاظ الأجنبيـة فـي اللغـة العاميّـة العراقيـة» (ص ١٦٠) لمجيد محمد.

(١) قال الصفدي في «تصحيح التصحيف وتحرير التحريـف» (٢٩٠) نقـلاً عـن «تقويـم اللسـان» (١٠٥) لابن الجوزي: «والعامة تقول: (دَسْتَك)، والصواب: (دَسْتَج)؛ وهو الذي يدق به، أعجميٌ معرب».

ونقله عنه العلاّمة أحمد تيمور باشا في كتابـه «عيـوب المنطق ومحاسنه» (ص ٩٧)، ونحـوه فـي «تكملة المعاجم العربية» (٤/ ٣٥٢)، بينما الموجود في «المجمـوع اللطيـف» (معجـم فـي المـواد اللغويـة التاريخية الحضارية) (ص ١٣٧): «الدَّسْتَج: قبضة السيف وغيره».

انظر: «ذيل الفصيح» (٣٤)، و«درة الغواص في أوهام الخواص» (١٣٥).

(٢) انظر في وصفه وطريقة عمله: «العز والرفعة والمنـافع للمجاهدين فـي سـبيل اللـه بـالمدافع» (ص ٣٤٠ - ضمن «المدفعية عند العرب») لابن مرزوق (محمـد بـن أحمـد - مـن وفيـات القـرن الثـامن الهجري).

(٣) كذا في الأصل! وفي مطبوع «المعجم» و«تاريخ الإسلام» وسائر المصادر: «مِرزبة».

(٤) كذا في الأصل، وفي مطبوع «المعجم»: «أحدهما»!

السد من القُدُور والحديد[١] والمغارف، وهناك بقية من اللبن الحديد قد التصق بعضه ببعض من الصَّدإ، واللبنة ذراع ونصف في سمك شبر، وسألنا من هناك: هل رأوا أحداً من يأجوج ومأجوج؟ فذكروا أنّهم رَأوا مرة عدداً [منهم] فوق الشُّرف، فهبّت ريح سوداء فألقَتْهم إلى جانبنا؛ فكان مقدار الواحد منهم في رأي العين شبراً ونصف شبر[٢]، فلما انصرفنا أخذ بنا الأدلاّء نحو خُراسان، فسرنا حتى خرجنا خلف سَمْرقَند بسبعة[٣] فراسخ، قال: وكان بين خروجنا من (سُرَّ مَن رأى) إلى رجوعنا إليها ثمانية عشر شهراً.

قد كتبت من خبر السد ما وجدته في الكتب، ولست أقطع بصحة ما أوردته لاختلاف الروايات فيه[٤]، والله أعلم بصحته، وعلى كل حال فليس في صحّة أمر السد ريب، وقد جاء ذكره في الكتاب العزيز» اهـ.

وذكر نحو ذلك الحافظ ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية»[٥] (ج ٧ ص ١٢٥) نقلاً عن شيخه الحافظ الذهبي -لعله في تاريخه الكبير المسمّى «تاريخ الإسلام»[٦]-، والذهبي نقله عن كتاب «مسالك الممالك»[٧] عما أملاه عليه سلاّم التّرجمان[٨].

---

(١) كذا في الأصل، وفي مطبوع «المعجم»: «القدور الحديد».

(٢) في «نهاية الأرب»: «شبرين ونصفاً».

(٣) في «تاريخ الإسلام» وغيره: «بتسعة».

(٤) انظر الخبر السابق على نحو آخر عند الثعلبي في «قصص الأنبياء» (ص ٣٢٨-٣٢٩). وانظر: الكلام الآتي مع التعليق عليه.

(٥) (٧/ ١٢٨ - ط. دار الكتب العلمية).

(٦) هو فيه (ص ٢٤٦-٢٤٨ - عهد الخلفاء الراشدين).

(٧) (ص ١٦٢-١٧٠ - طبعة بريل، سنة ١٨٨٩م، أو ٢/ ق ٩٩-١٠٢ - النسخة الألمانية) وكلامه فيه: «وأما ردم يأجوج ومأجوج فشيء قد نطقت الكتب وتوالت الأخبار عنه، ومن ذلك ما حكاه سلاّم الترجمان، أخبر عنه بذلك عبدالله بن خَرداذبه في كتابه، وكذلك أخبر به -أيضاً- أبو نصر الجيهاني، قالا: إن الواثق...» إلخ الخبر.

(٨) قال الذهبي في آخر الخبر: «قال مصنف كتاب «المسالك والممالك»: هكذا أملى عليَّ سلاّم=

و«مسالك الممالك» عدة كتب ذكرها صاحب «الكشف» في (ص ٤٢٢)[١]، والمراد منها كتاب عبيدالله[٢] بن عبدالله بن خَردادْبَه، كما ذكره الفخر الرازي في «تفسيره» (ج ٥ ص ٧٥٦)[٣]، وقد جاء في هذه الرواية أنه بعث معه ألفي بغل، ويظهر أن الصواب ما تقدم عن «المعجم» أنه بعث معه مئتي بغل، وجاء في هذه الرواية أنه هبت الريح فألقتهم إليهم، فإذا طول الرجل منهم شبر أو نصف شبر؛ بمعنى: إنهم رأوهم من بعيد بهذا المقدار، والرؤية من بعيد تصغر الشيء سواء كان إنساناً أو حيواناً أو شجراً أو جبلاً أو غير ذلك، قال أبو العلاء المعري:

والنَّجمُ تستصغرُ الأبصارُ رؤيتَه ... والذّنبُ للعين لا للنَّجم في الصِّغَرِ

وفي الحقيقة هم أناس مثلنا كما تقدم بيانه.

وذكر الحافظ ابن كثير هذه البعثة مرة ثانية في «تاريخه» المتقدم (ج ٢ ص ١١١)[٤]، فقال:

«وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلاً من جهته، وكتب لهم كتباً[٥] إلى

=التَّرجُمان»! والخبر في «الفِصَل» (١/ ١٢٠) لابن حزم -وسيأتي كلامه قريباً-، و«نهاية الأرب» (١/ ٣٧٤-٣٧٨) للنويري، و«عرائس المجالس» (ص ٣٢٩) للثعلبي، و«معجم البلدان» (٣/ ١٩٧-٢٠٠)، قال: «قد كتبت من خبر السد ما وجدته في الكتب، ولست أقطع بصحة ما أورَدْتُه؛ لاختلاف الروايات فيه، والله أعلم بصحته، وعلى كل حال فليس في صحة أمر السد ريب، وقد جاء ذكره في الكتاب العزيز».

(١) (٢/ ١٦٦٤-١٦٦٥).

(٢) في الأصل: «عبد» -بالتكبير-، والصواب ما أثبتناه، كما في مصادر ترجمته، وكتابه «المسالك والممالك» مطبوع بعناية ذي خويه عن مطبعة ليدن، سنة ١٨٨٩م، ونشره أولاً باربيه دي مينار مع ترجمة فرنسية في المجلة «الآسيوية»، سنة ١٨٦٥م.

(٣) (٢١/ ١٤٤).

(٤) (٢/ ١٦٣).

(٥) في الأصل: «كتاباً» بالمفرد! والتصويب من «البداية والنهاية».

الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد، حتى ينهوا إلى السَّدّ، فيكشفوا عن خبره، وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أيّ صفة، فلمّا رجعوا أخبروا عن صفته، وأن فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال، وأنه بناء محكم شاهق منيف جدّاً، وأن بقيّة اللبن الحديد والآلات في بُرج هناك، وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد، ومحله في شرق الأرض في جهة الشمال في زاوية الأرض الشرقية الشمالية، ويقال: إن بلادهم متسعة جدّاً، وأنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البرّ ومن البحر، وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلاّ الذي خلقهم» اهـ.

والخلاصة: إنّ ذهاب هذه البعثة واكتشافها السَّد أمر محقق، وهي كما قال ياقوت في «المعجم»[1]: «من مشاهير الأخبار، وإن اختلفت الرواية في صفة السد».

وما نقله الحافظ ابن كثير من أنّ محلَّهم في شرق الأرض... إلخ، وأنّهم يقتاتون بأصناف من المعايش، منطبق تمام الانطباق على ما رسمه جغرافيو زماننا في الخرائط[2]، وما ذكروه من أصناف معايشهم، وحراثهم، وزراعتهم، واصطيادهم.

(١) (٣/ ١٩٩).

(٢) انظر: الخارطة التي رسمها ابن فضل الله العمراني في «مسالك الأبصار» (١/ ق ٢٩٢-٢٩٣)، وفيها مكان (السّد).



الفصل السابع

بعد بناء السد

لما امتثلت تلك الأمة ما أمرها به ذو القرنين من إيتاء القِطر وإفراغه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلاً صلداً، جاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوا ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]؛ أي: يعلوه ويرقوا فيه؛ لارتفاعه وملاسته، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف: ٩٧] من أسفله؛ لصلابته وثخانته.

وفي «البداية والنهاية»[١] للحافظ ابن كثير (ج ٢ ص ١٠٨):

«﴿فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]؛ أي: يعلوا عليه بسلالم ولا غيرها، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف: ٩٧]؛ أي: بمعاول ولا فؤس ولا غيرها، فقابل الأسهل بالأسهل، والأشدّ بالأشد».

وقال[٢] في (ص ١١٢): «﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف: ٩٧]؛ أي: في ذلك الزمان؛ لأن هذه صيغة خبر ماضٍ، فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدراً، وتسليطهم عليه بالتدريج قليلاً قليلاً، حتى يتم الأجل، وينقضي الأمر المقدور فيخرجون».

ولما وُفِّق ذو القرنين لهذا العمل الخطير، وذلك البناء العظيم، الذي دفع به شر هؤلاء الأقوياء يأجوج ومأجوج عن هؤلاء الضعفاء، بحيث أصبحوا عاجزين عن شن الغارات عليهم، وإفسادهم لزروعهم وتخريبهم لبلادهم، إذ لم يبق لهم

(١) (٢/ ١٦٠).

(٢) في «البداية والنهاية» (٢/ ١٦٤).

منفذ سهل قريب ينفذون منه لبلادهم، ولو أرادوا أن يأتوهم من مكان آخر شق ذلك عليهم، لبعد المسافة ووجود الجبال الشاهقة الصعبة المُرتَقَى، ووجود أممٍ ودولٍ أخرى تحول بينهم وبين مقصدهم، قال شاكراً لربّه، معترفاً بنسبة هذا العمل العظيم لخالقه وبارئه: ﴿هَذَا﴾ السد والاقتدار والتمكين من تسويته؛ ﴿رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨] على كافة العباد، لا سيما على مجاوريه.

وفي «البداية»[1]: «﴿هذا رَحْمَةٌ مِن رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨]؛ أي: قدَّر الله وجوده؛ ليكون رحمةً منه بعباده، أن يمنعَ بسببه عدوانَ هؤلاء القوم على مَنْ جاورَهم».

قال أبو السعود في «تفسيره»[2]: «وفيه إيذانٌ بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة، بل هو إحسان إلهي محض، وإن ظهر بمباشرتي، والتعرض لوصف الربوبية لتربية [معنى] الرحمة».

ثم إن هذا البناء، وإن كان عظيماً هائلاً متيناً، يتحمَّلُ طوارقَ الزمان، ويبقى مئاتٍ بل آلافاً من الأعوام، فإنه لا بد له -مهما طال أمدُ بقائِهِ- من أن يدخله الوهن، وتمتد إليه أيدي التخريب، ويذهب منه ذلك النفع الذي بُنيَ لأجله، ولما كان ذو القرنين يعلم هذه الحقيقة، قال: ﴿فَإِذا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الكهف: ٩٨]: مدكوكاً مبسوطاً بالأرض؛ أي: أرضاً مستوية، وهذا الجعل وقت مجيء الوعد بمجيء بعض مبادئه، وفيه بيانٌ لعِظَمِ قدرته -عزَّ وجلّ- بعد بيان سعة رحمته: ﴿وكَانَ وَعدُ رَبّي حَقّاً﴾ [الكهف: ٩٨]: ثابتاً كائناً لا محالة[3].

واختلف المفسرون في ذلك الوعد متى هو؟

---

(١) (٢/ ١٦٠).

(٢) المسمّى «إرشاد العقل السليم» (٥/ ٢٤٦)، وما بين المعقوفتين منه، وسقط من الأصل.

(٣) قوله: «وهذا الجعل...» إلى هنا من كلام أبي السعود (٥/ ٢٤٦-٢٤٧)، وفيه -أيضاً- نحو الذي قبله.

قال البيضاوي[١]: «﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨]: وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة، بأن شارف يوم القيامة».

ومثله في «تفسير الخطيب»[٢]، وعبارته: «بقرب قيام الساعة أو بوقت خروجهم».

وفي «الخازن»[٣]: «يعني: يوم القيامة، وقيل: وقت خروجهم».

وفي «البداية والنهاية»[٤] للحافظ ابن كثير (ص ١٠٨):

«﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨]؛ أي: الوقت الذي قدّر خروجَهم على الناس في آخر الزمان ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الكهف: ٩٨]؛ أي: مساوياً للأرض، ولا بدّ من كَوْنِ هذا، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ [الكهف: ٩٨] كما قال -تعالى-: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧] الآية، ولذا قال هنا[٥]: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]؛ يعني: يوم فتح السد على الصحيح» اهـ.

والذي ترائى لنا بتتبع الحديث النبوي والتاريخ، أن هذا الفتح وذلك الدك لا يكون دفعةً واحدة، بل هو تدريجي، وأنّ خروج يأجوج ومأجوج الذين هم المغول[٦]، ....

---

(١) في تفسيره «أنوار التنزيل» (٢/ ٢٣).

(٢) المسمّى «السراج المنير» (٢/ ٣٨٨ - ط. المصرية، سنة ١٢٩٩هـ)، وصاحبه الخطيب شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني، ولثقيل الشمري دراسة مطبوعة حوله بعنوان: «الخطيب الشربيني ومنهجه في التفسير».

(٣) أي: في تفسيره المسمّى «لباب التأويل» (٤/ ٢٣٤).

(٤) (٢/ ١٦٠).

(٥) في مطبوع «البداية»: «ها هنا».

(٦) هذا هو اجتهاد المصنّف، وفيه ما فيه!

وعيثهم في الأرض فساداً ليس مرة واحدة[١]، وإن خروجهم الأعظم المشار إليه في الآية المتقدمة سيكون قرب قيام الساعة، فيكون من علاماتها، ومبدأ فتح هـذا السـد قد جاء في الحديث الصحيح، وبه تجمع بين أقوال المفسرين في تفسير الوعد؛ أي: إنّ التفسيرَيْن صحيحان.

(١) بنى الدكتور الشفيع الماحي أحمد كتابه «يأجوج ومأجوج: فتنة الماضي والحاضر والمستقبل» على هذه الفكرة، وذكر فيه (ص ٤٧-١٦١) أنهم خرجوا في التاريخ سبع مرات، ثـم ذكـر (ص ٢٩٣): (الخروج في الحاضر والمستقبل)، ثم ذكر (ص ٢٩٦): (الخروج الأخير).

الفصل الثامن

في أقوال الغربيين عن هذا السد

جاء في «دائرة المعارف الإنكليزية» (الطبعة ١٤ ج ٥ ص ٥٢٤) تحت عنوان: (سد الصين الكبير) ما ترجمتُه[1]:

أنشئ حوالي عام ٢١٤ قبل الميلاد لصد برابرة الشمال، يمتد هذا السد ملتوياً

---

(١) «دائرة المعارف الإنكليزية»، وكتاب «عجائب الماضي» أو «العالم القديم» الذي هو باللغة الإنكليزية -أيضاً- هما في خزانة الشاب الأديب الفاضل السيد فؤاد العنتابي، وقد تفضل بترجمة ما تراه منقولاً عن هذين الكتابين، فجزاه الله خيراً، وإنا له من الشاكرين، والرسوم الآتية كلُّها من كتاب «عجائب الماضي»، وقد أخذناها عنه بالناقل الشمسي، وما في ذيل كل رسم من التعريف ترجمه لنا المومأ إليه. (منه).

قال أبو عبيدة: انظر -أيضاً-: «دائرة معارف الناشئين» (١٩١) لفاطمة محجوب، و«دائرة معارف القرن الرابع عشر» لمحمد فريد وجدي (٥/ ٦٠٢-٦٠٥)، و«موسوعة الأوائل» لجمال مشعل (ص ٨٤-٨٥)، و«العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط» (ص ٢١).

وذهب ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (١٥/ ١٢٥ - ط. مؤسسة التاريخ) إلى أن السد هو سور الصين -أيضاً-، إلاّ أنه زعم أن (ذو القرنين) هو ملك الصين (تسن شي هوانغ تي) الذي حكم الصين، وقال عنه: «وكان موجوداً سنة سبع وأربعين ومئتين قبل ميلاد المسيح».

أما بالنسبة لما ذكره المصنف عن السيد فؤاد العنتابي، فقد ظفرت بخبر عن مكتبة السيد أسعد العنتابي، «أنه جمع فيها معظم مطبوعات الشرق العربية مع بعض المخطوطات الدينية القديمة العهد، البديعة الكتابة، بينها ما كتبه المصنفون بيدهم، فتضاعف قيمته». كذا في مجلة «المشرق» (١٩/ ٧٥٦) سنة ١٩٢١م، وذكر الغزي أن المكتبة تضم بضعة آلاف مجلد، أكثرها بالعربية، وبعضها بالتركية والفارسية والإنجليزية، فلعل هذا يخص (فؤاداً) هذا الذي ذكره المصنف في هذا الهامش.

وانظر: «الحركة الفكرية في حلب» (٩٤) لعائشة الدباغ.

لمسافة (١٥٠٠) ميل في الجبال والوديان وحول الأنهار، ويتألف من واجهة خارجة قشرة من القرميد أو حجر الغرانيت مملوؤة من الداخل بالتراب، ويبلغ علوه الوسطي ما يزيد على عشرين قدماً، وعرضه الأعلى (١٥) قدماً، كل مئة يَرْدَة منه برج محصن.

وجاء في (صحيفة ٥٣٢) جلد (١٥) ما ترجمته:

«وقد خلع آخر ملك من ملوك أسرة (جاو) (Chou) عام (٢٤٩) قبل الميلاد، وكان اتحاد أملاك أسرة (جن) (Ch'in) الواسعة وجعلها مملكة واحدة يعود الفضل فيه إلى أعظم عبقرية سياسية في تاريخ الصين، ألا وهو الحاكم (جين)، الذي ارتقى العرش عام (٢٤٦) قبل الميلاد، ولقب نفسه شي هوانغ تي (Shin Hwang) (أي: الإمبراطور الأول)، فقضى على النظام السياسي الذي كان سائداً زمن أسرة (جو)، والذي يتألف من دويلات صغيرة وإمارات كثيرة يتوارثها الأمراء، ثم قسم البلاد إلى (٣٦) مقاطعة، وعيّنَ لها حُكّاماً بنفسه وهم مسؤولون أمامَه...

ثم وسّع حدود إمبرطوريته، ووصل إلى المقاطعات المعروفة الآن باسم (فوكيان)، (كوانتونغ)، و(كوانغسي)، وحارب البرابرة -هسولع نو- على حدود بلاده الشمالية، وليدافع عن الحدود التي هي أشد عرضة لهجمات المُغِيرين بُني السد الكبير، والغالب أن قسماً كبيراً من هذا السد كان موجوداً قبله، ولكنّه أتمه وعمل على تعزيزه وتقويته» اهـ.

(ل. س. لاثورْت) أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة ييل (أميركا).

أقول: قوله: أنشئ حوالي عام (٢١٤) قبل الميلاد، يَردُّه قولُه بعد ذلك: «والغالب أن قسماً كبيراً من هذا السد كان موجوداً قبله، ولكنه أتمه وعمل على تعزيزه»، وغاية ما يمكن أن يقال: إنه لما خرّبَ قسماً كبيراً منه المغوليون، أعيد ما تخرب حوالي عام (٢١٤) -وهذه الجملة، وهي قوله: «والغالب أن قسماً كبيراً...» إلخ- تثبت أنه مما بُنيَ قبل الإسكندر المقدوني الذي كان قبل المسيح -عليه السلام- بنحو مئتي سنة، وإذا

كان كذلك؛ فالباني الأول هو -ولا ريب- ذو القرنين الملك المؤمن العربي، الذي ذكره القرآن العظيم، والبناء الثاني إنما هو تتميم وترميم، والتعليل بقوله: «لصد برابرة الشمال» (أي: المغوليين) يوافق ما جاء في القرآن الكريم[1] في قوله -تعالى-: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً﴾ [الكهف: ٩٤]، وقد قدمنا ذلك.

وجاء في كتاب «عجائب الماضي» أو «العالم القديم» (جلد ١ ص ٣٠٢ و٣٠٧) من مقال تحت عنوان:

سور الصين العظيم

بقلم: (دن هدلنددفيس) -باللغة الإنكليزية- ما خلاصته:

«إن حدائق بابل المعلقة والأسوار التي بناها الرومانيون حتى الهرم الكبير، لا يمكن مقارنته بما سماه الصينيون (وان لي - جانغ جين)، أو سور العشرة آلاف ميل، الذي تتألف منه الحدود الشمالية للأمبراطورية الصينية، ويمتد من (شان هاي كوان) على خليج (ليا وتونغ) إلى ممر (كيايو) بالقرب من جبال التيبت، فإذا قيس -أي: السور- بخط مستقيم يبلغ طوله (١٢٥٥) ميلاً، ولكنْ؛ إذا اعتبرنا الالتواآت الكثيرة والتعاريج المتعددة؛ وجب علينا إذاً أن نضيف إلى هذا (٢٥٠) ميلاً -أيضاً-، يتراوح ارتفاع السور من (١٥) قدماً إلى ثلاثين قدماً، وعرضه عند القاعدة (٢٥) قدماً، ومن السطح (١٥) قدماً، ولكنّ القسم الغربي من السور أقل أهمية (أثراً)، وحيث يمر السور في أرض ترابية حوارية رملية، تكون الرسوبات الطينية منحوتة على شكل جدار تدعم واجهاته الأحجار والآجر، فقبل مئات من السنين عندما كان هذا السور خطّاً دفاعيّاً عسكريّاً، كان يشتمل على (٢٥٠٠٠) حصنٍ و(١٥٠٠٠) مرقب (أبراج للخفراء)، وأما

(١) ذكر ذلك -أيضاً- عمر فروخ في كتابه «العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط» (ص ٢١).

الآن وقد ذهب كثير من روعة أعجوبة الصين (أي: سدها) فيقدر أنه لم يبق منه الآن سوى (١٠٠٠٠) مرقب.

على أنّ أكثرَ الناس تخيُّلاً؛ يصعب عليه تصورُ سور طولُه أكثرَ من (١٥٠٠) ميل، حتى إننا لو جمعنا طول أسوارها إلى هذا السد؛ لزاد ذلك على قطر الأرض.

في سنة (٢٢١) قبل ميلاد المسيح، تسلّم عرشَ الصين مَلِكٌ عظيم جدير بالاعتبار، واتخذ لقب الإمبراطور الأول (أي: شي هوانغ تي)، وبذلك ضرب مثَلاً حسناً لمن خلفه من الملوك، فقد قضى على النظام الإقطاعي في البلاد (أي: في الصين)، وقسم البلاد إلى دويلات» اهـ.

لم يتمَّ بناءُ السور العظيم في أثناء مُلْكِ الإمبراطور الأول، ولا نعلم مقدار الجزء الذي تم بناؤه في زمانه، على أن (ليوبانغ) الأول من أسرة (هانس) عمل على إنهاء هذا السد العظيم، ويعود الفضل -أيضاً- إلى بعض ملوك[1] أسرة (مينغ) في ترميمه وإصلاح حصونه وأبراجه، فقد اتبع هؤلاء بأمانة وإخلاص الخطة التي سار عليها الإمبراطور الأول (هوانغ تي)، وما يراه السائح الآن هو من بنائهم ومن الأبنية الحديثة التي أضيفت إليه.

ولا تنس ما تقدم آنفاً من قول (ل. س. لاثورت) أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة (ييل): «والغالب أن قسماً كبيراً من هذا السد...» إلى آخر عبارته.

ويستخلص من المقالين: أنَّ الباني الثاني هو الإمبراطور (شي هوانغ تي)، وإن ملوك الصين الجنوبية كانوا يهتمون بأمر هذا السد، فكانوا يزيدون فيه ويرممونه كلما تخرب جانب منه؛ حفظاً لبلادهم من برابرة الشمال، وهم المغوليون.

وفي هذا الكتاب «عجائب الماضي» أو «العالم القديم» ثمانية رسوم[2] من

---

(١) في الأصل: «الملوك»!

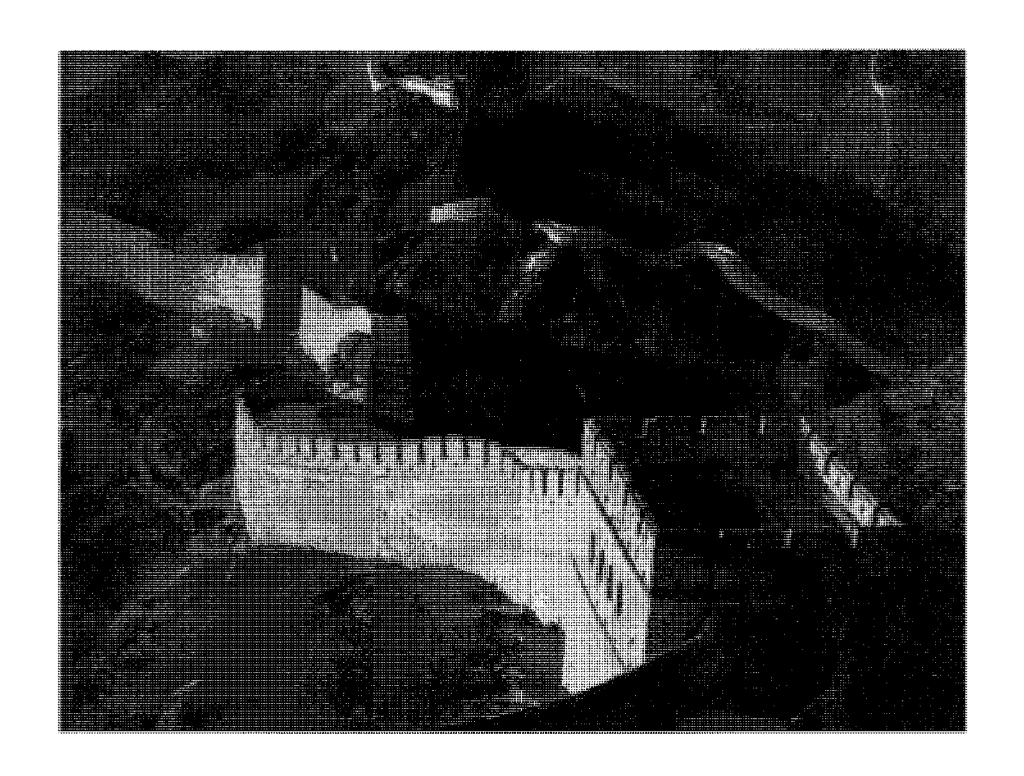
(٢) وهي مثبتة منه -فيما سيأتي- من كتابنا.

أماكن متعددة من هذا السد، وكلها تتجلى فيها جلالةُ هذا الأثرِ وعظمتُه، وها هي مع خريطة السد جميعه، وجاء في «دائرة المعارف البستانية» (ج ١١ ص ١٠١):

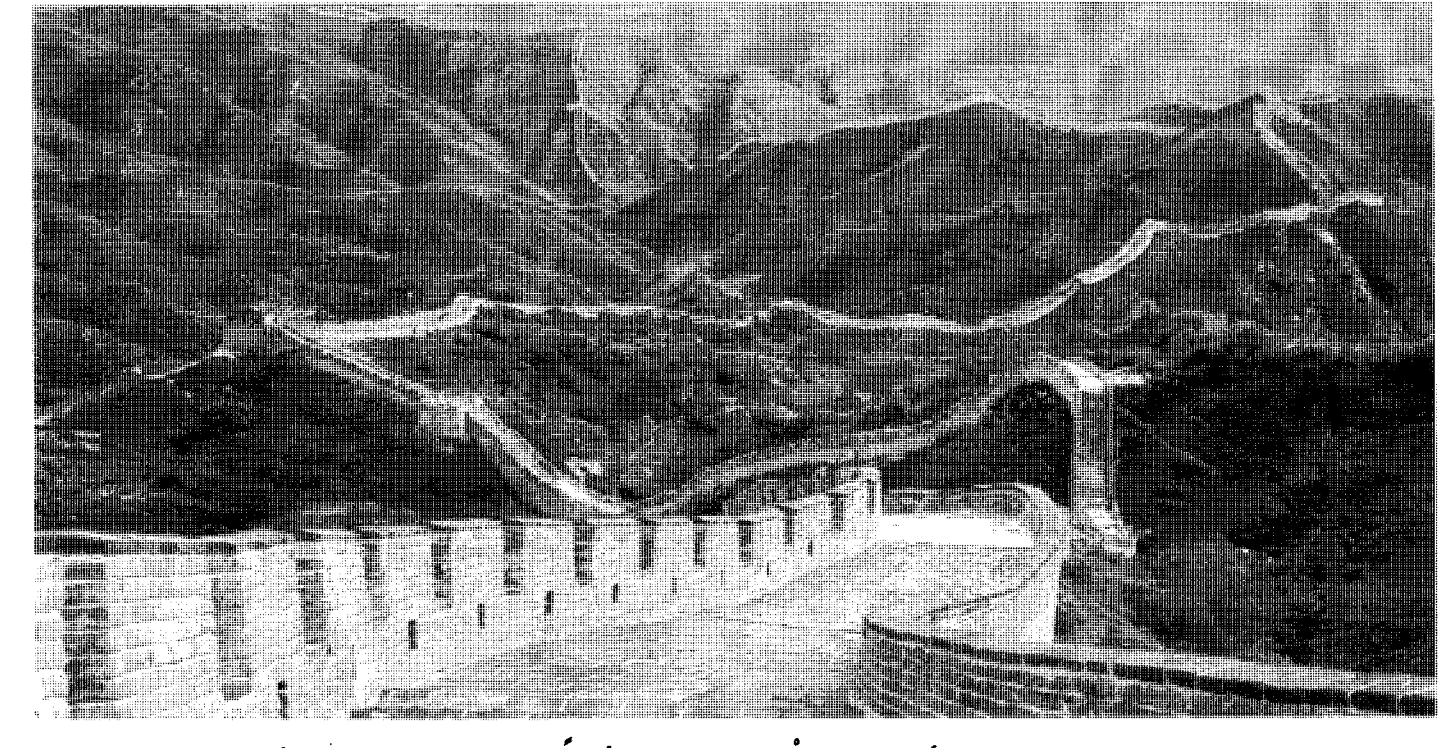
«وأما السور العظيم (وان لي شانغ) الذي طوله ألف ميل، فيُعدّ مِنْ غرائب بلاد الصين، بل من عجائب الدنيا، وهو فاصل بين الصين الأصلية ومنغوليا، بناه مَلِكٌ من ملوكهم قبل التاريخ المسيحي بنحو (٢٢٠ سنة)؛ ليرد عن بلاده هجماتِ القبائلِ الشمالية، وأولُ هذا السور عند البحر حيث العرض (٤٠-٤) شمالاً، والطول (٢/ ١٢٠) شرقاً، وهو يلاقي النهر الأصغر حيث الطول (٥, ١١١) شرقاً، والعرض (٥, ٣٩)، وأيضاً في (٣٧) عرضاَ شماليّاً، ومن ثم ينعطف إلى جهة الشمال الغربي، وينتهي بقرب (٩٩) طولاً شرقياً و(٤٠) درجة عرضاً شمالياً، وطوله مع تعاريجه نحو (١٢٥٠) ميلاً، وهو مبني بالحجارة والآجر وبعضه بالطين فقط، وغلظه عند أسفله نحو (٢٥) قدماً، وفي أعلاه نحو (١٥) قدماً، وارتفاعه بين (١٥ و٢٠) قدماً، وعليه أبراجٌ مبنية من الآجر، ارتفاع بعضها نحو (٤٠) قدماً، وقد كان هذا السور حاجزاً حصيناً لدفع القبائل الرُّحَّل، ولكنه لم يغْنِ شيئاً في صد رؤسائهم وأمرائهم، الذين تغلبوا على الصين واستولوا عليها، وهو الآن مشرف على الخراب، ولا اعتبار له إلا من جهة أنه حد فاصل بين بعض المقاطعات. انظر الرسوم (شكل: ٩٧)؛ أي: في «دائرة المعارف البستانية».



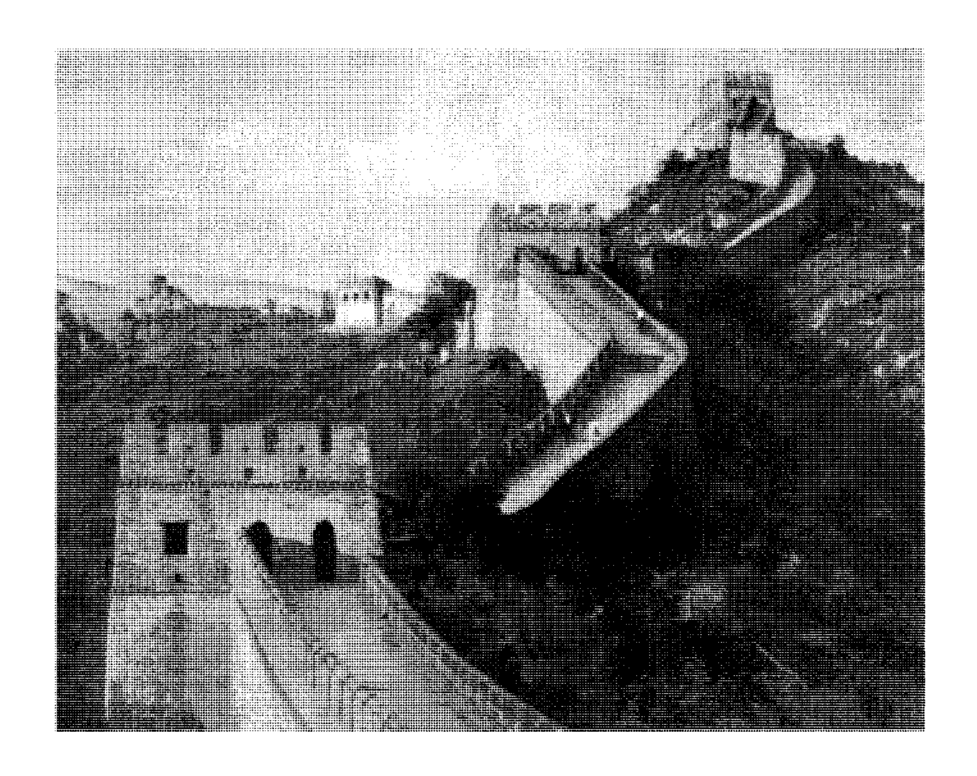
خريطة سور الصين، الذي يَمتد نَحواً من ١٥٠٠ ميل على طول حدود بلادها الشمالية، من التبت غرباً حتى البحر المْحيط الكبير شرقاً.



قمة سد الصين العظيم، حيث يتقاطع به مَمر نانكو Nankow متعرجاً فوق الجبال والوديان، قاطعاً الصحاري والأنهار من (شانهاي كوان) Shan-hai-kuan على خليج (لياو تونغ) Liau-tung حتى (كيايو كوان) Kiayu-kuan على حدود صحراء غوبي Gobi قريباً من (سوجاو) Su-chou.



جزء من سور الصين العظيم، يلتوي كالأفعى فوق الْجبال والتلال صُعُداً، وينخفض في الوديان بانْحدار هائل، حتى ليكاد المسافر أن يَمشي فوقه على أربع، ويشاهد في الصورة بعض الأبراج والْحصون التي كانت فيما مضى ترد بحامياتها الصغيرة هجمات الْمغول والتتار، حتى عفى عليها الزمن، فانهار بعضها وأضحى ركاماً مبعثراً، ولكن السور على الرغم من ذلك كله يظل أكبَر شاهد على أعظم ما بلغته عبقرية الإنسان في الْهندسة والبناء.



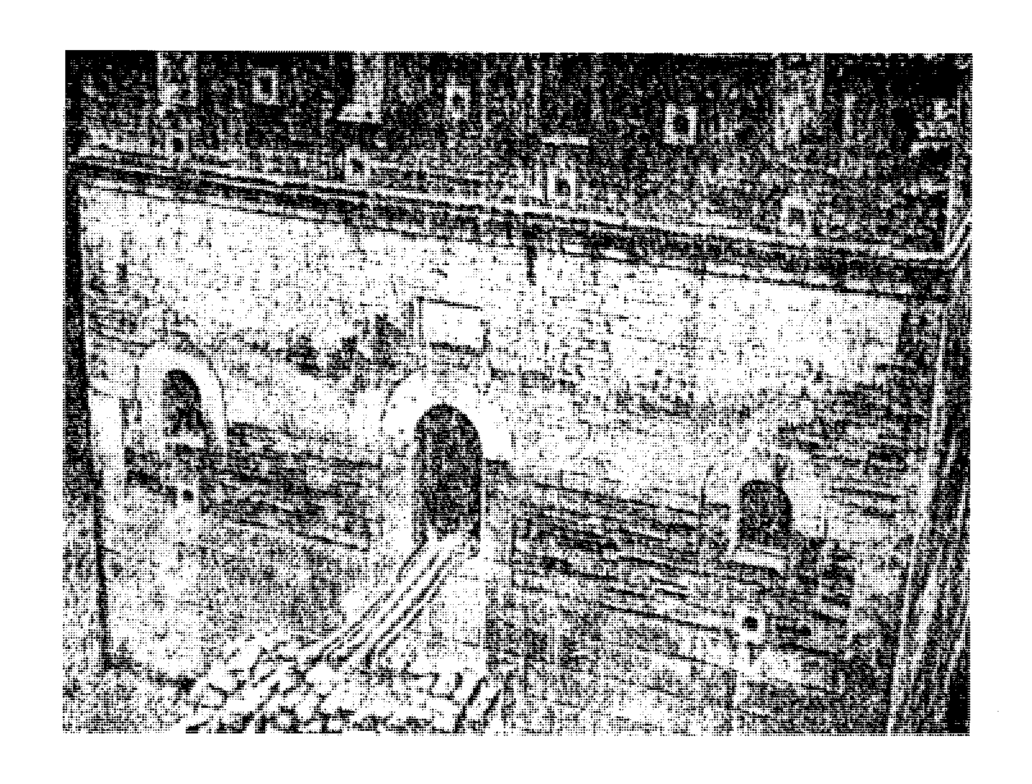
حصن للمراقبة في السور لا يزال ماثلاً أمام عاديات الزمن، وهو مثال حيّ على ضخامة هذه الأبراج، التي بلغ عددها فيما مضى ثمانية عشر ألفاً، ولكن تَخرب أكثرها، ويتَراوح ارتفاعها بين الأربعين والخمسين قدماً، وبعض هذه الأبراج عريق في القدم، شُيد في القرن الرابع قبل الميلاد، وقد بنيت قبل السور نفسه! وكانت ملجأً للحاميات المْحلية ومراكز للمقاومة والدفاع، وكانت تنصب في أغلب هذه المرتفعات والأبراج منائر أو معالِم توقد بها النيْران طلباً للمعونة والنجدات عند الْحاجة.



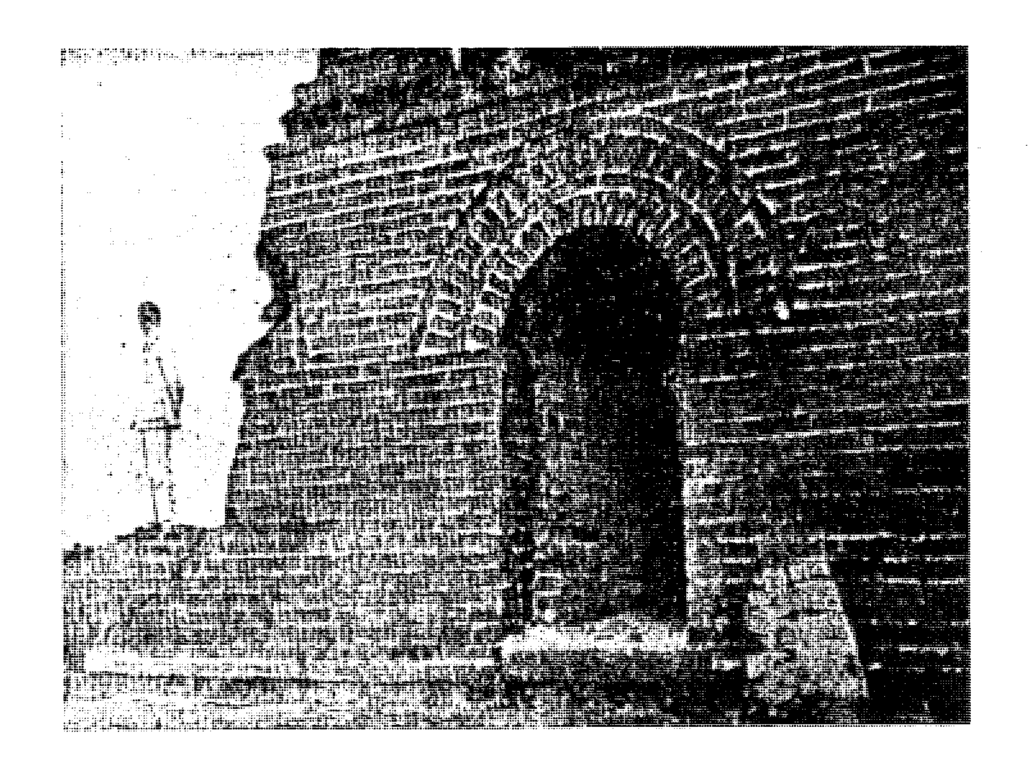
جزء من السور عند (شانهاي كوان)، بالقرب من البحر المْحيط، ويشاهد بعض الخراب الذي اعتَرى هذه الأسوار، وإن كان أكثرها لا يزال سليماً، ويَمتد أميالاً كثْيرة من الآجر والبناء الصلب.



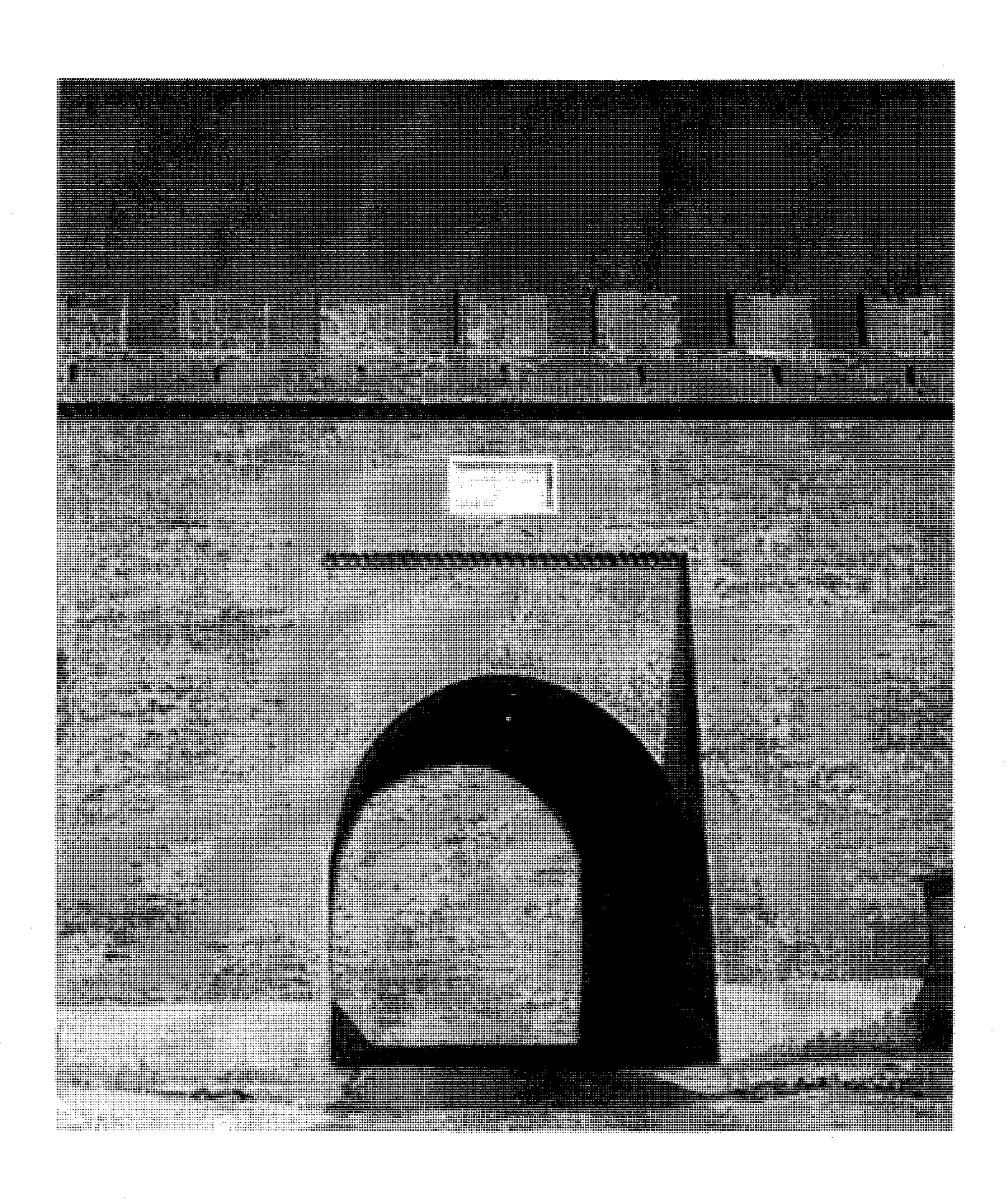
«سور العشرة آلاف ميل» -كما يسميه الصينيون- الدال على عظمة الصين المثبتة في الْحجر، وليس أبلغ دلالة على ذلك مِما يشاهد في هذه الصورة عند مَمر نانكو، حيث ظل سليماً حتى الآن، ولا يزال أمامنا سر غامض، ألا وهو: كيف فكر العاهل العظيم ملك الصين بالدفاع عن هذا السور الْمُتَرامي الأطراف، أكان ذلك افتخاراً منه بالقوة والسلطان أم لإظهار براعة جنوده وصناعه؟



لا يزال هذا البُرج بعد مرور ألفي سنة في حالة قوية سليمة، وكان ثمة جسر غيْر ثابت يُفتح ويُقفل، فأصبح المْرور الآن عليه بأخشاب تتصل بالبُرج وتوضع بغيْر انتظام.



الواجهة الْخارجية لقنطرة مبنية بالآجر، ويبدو أن السور لَم يُبْنَ على وتيرة واحدة من أوله إلَى آخره، بل شيد في نقاط مُختلفة، وفِي المعايير الهامة التِي تقاطع طرق المواصلات، ثم مُدّد ما بينها بالأسوار والأبراج، فأصبح سداً واحداً، وإن اختلفت أشكال البناء من الآجر والبنيان.



باب (بالالينغ) Pa-La-Ling، وهو من أبواب السور العظيمة التي كانت تَحول دون مرور برابرة الشمال، وإن كانت بعض القبائل قد تَمكنت أحياناً من اجتيازه، ولكن الحاميات التي أقامتها الحكومة الصينية عند المراكز الهامة مثل هذا الباب، كانت ترد المغيرين دائماً، وتعيدهم من حيث أتوا.

الفصل التاسع

في مبدأ فتح السد

في «صحيح البخاري» في (أحاديث الأنبياء)[١] بسنده إلى زَينب بنت جَحش -رضي الله عنها-:

«إنّ النّبي ﷺ دخل عليها فَزِعاً يقول: «**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شَرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم مِن رَدم يأجوج ومأجوجَ مثل هذه**» وحلّق بأصبعيه[٢] الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أنهلِك وفينا الصَّالحون؟ قال: «**نعم؛ إذا كثر الخبث**»».

وفيه -أيضاً- في (كتاب الفتن) تحت عنوان (باب قول النبي ﷺ: «ويلٌ للعرب من شرٍّ قَد اقْترَب»)[٣] بسنده إلى زينب بنت جحش، أنها قالت:

«استيقظ النّبي ﷺ من النَّوم مُحمراً وجههُ يقول: **لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من رَدْم يأجوجَ ومأجوجَ مثل هذه**» وعقد سفيان[٤] (أحد رواة الحديث) تسعين أو مئة، قيل: أنَهلِك وفينا الصّالحون؟ قال: «**نعم؛ إذا**

---

(١) باب قصة يأجوج ومأجوج (رقم ٣٣٤٦).

(٢) أي: جعل الإصبع السبابة في أصل الإبهام وضمّها، حتى لا يبقى بينهما إلا خلل يسير، وكذا وقعت في الأصل: «بإصبعيه» بالتثنية، وهي في «صحيح البخاري» بالإفراد: «بإصبعه»، وهي كذلك بالإفراد في الطبعة اليونينية منه (٤/ ١١٠).

(٣) برقم (٧٠٥٩).

(٤) هو ابن عيينة.

كثر الخبث»».

وأخرج حديث زينب -أيضاً-: مسلم[١]، وأبو داود[٢]، والترمذي[٣]، والنسائي[٤]، وابن ماجه[٥] في كتاب الفتن، وذكر الحديث الأول -أيضاً- في آخر (كتاب الفتن) مُترجماً له: (باب يأجوج ومأجوج)[٦].

قال الحافظ ابن حجر[٧] في شرحه لهذا الحديث (ج ١٣ ص ٨٧):

«خصَّ العرب بذلك؛ لأنهم كانوا حينئذٍ معظمَ مَن أسلم، والمراد بالشَّر: ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالت الفتن، حتى صارتِ العربُ بين الأمم كالقصعة بين الأكَلَة؛ كما وقع في الحديث الآخَر[٨]...» إلخ.

---

(١) في «صحيحه» في كتاب الفتن وأشراط الساعة (باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج) (رقم ٢٨٨٠).

(٢) لم يعزه له صاحب «تحفة الأشراف» (١١/ ٣٢٢ رقم ١٥٨٨٠).

(٣) برقم (٢١٨٧).

(٤) في «السنن الكبرى» في كتاب التفسير (رقم ١١٢٤٩، ١١٢٧٠)، ومن طريقه عبدالغني بن سعيد في «الرباعي» (رقم ٣)، وقال: «اجتمع في هذا الحديث زوجتان من أزواج النّبي ﷺ؛ وهما: أمُّ حبيبة وزينبُ بنتُ جحش، وربيبتان من ربائب رسول الله ﷺ؛ إحداهما: زينبُ بنتُ أم سلمة، وهي بنت أبي سلمة عبدالله بن عبد الأسد المخزومي، والأخرى: حبيبة بنت أم حبيبة، وهي بنت عبيد الله بن جحش الذي تنصَّر بأرض الحبشة».

(٥) برقم (٣٩٥٣)، وأخرجه -أيضاً- الحميدي (٣٠٨) وأحمد (٦/ ٤٢٨، ٤٢٩) وإسحاق بن راهويه (٥/ ٢٥٦-٢٥٨ رقم ٢٠٨١) في «مسانيدهم»، وغيرهم.

(٦) برقم (٧١٣٥).

(٧) في «فتح الباري» (١٣/ ١٠٧).

(٨) يشير إلى ما أخرجه أبو داود في «السنن» (رقم ٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨) والروياني (٦٥٤) في «مسنديهما»، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (رقم ٥)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٤٥٢) و«مسند الشاميين» (٦٠٠)، وابن الأعرابي في «معجم الشيوخ» (رقم ٢٢٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٨٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٥٣٤)، والبغوي في «شرح السنّة» (رقم ٤٢٢٤)، وابن عساكر في «تاريخ=

وقال[1] في شرحه للحديث الثاني (ج ١٣ ص ٨):

«إنما خصَّ العرب بالذِّكر؛ لأنهم أول من دخل [في][2] الإسلام، وللإنذار بأنّ الفتنَ إذا وقعت كان الهلاكُ أسرع إليهم».

وقال العيني[3] في شرحه لهذا الحديث (ج ٢٤ ص ١٨١ في الطبعة المنيرية):

«أراد بالعرب: أهلَ دينِ الإسلام، وإنما خص بذكرهم؛ لأنّ معظمَ شرّهم راجعٌ إليهم».

وقال[4] في شرحه للحديث الأول (ج ١٥ ص ٢٣٨):

«وإنما خصَّ العرب؛ لاحتمال أنه أراد ما وقعَ من قتلِ عثمانَ بينهم، وقيل: يحتملُ أنه أراد ما سيقعُ مِنْ مفسدةِ يأجوجَ ومأجوجَ، ويحتمل أنه أراد ما وقع من التُّرك من المفاسد العظيمة في بلاد المسلمين من نسل يأجوج ومأجوج» اهـ.

=دمشق» (٨/ ١٩٣) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يوشِكُ أن تَداعى عليكمُ الأمم مِنْ كُلِّ أفُق كما تَداعى الأَكَلَةُ على قصْعَتِها»، قال: قلنا: يا رسول الله! أمِن قلَّةٍ بنا يومَئِذٍ؟ قال: «أنتم يومئِذٍ كثيرٌ، ولكنْ تكونون غُثاءً كغُثاء السَّيل، تُنتَزعُ المهابَةُ مِنْ قُلوبِ عدوِّكم، ويُجعلُ في قُلُوبكم الوهْنُ»، قال: قُلنا: وما الوهْن؟ قال: «حبُّ الحياةِ، وكراهيَةُ الموتِ».

وهو صحيح. انظر: «السلسلة الصحيحة» (رقم ٩٥٨)، وفيها:

«ولبعضه شاهد جيد موقوف، رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٣/ ٢/ ٣٤٦-٣٤٧) عن شرحبيل بن مسلم عن ثوبان، وهو في حكم المرفوع».

قال أبو عبيدة: وأخرج الموقوف من طريق آخر: الطيالسي في «المسند» (٩٢٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥/ ٥٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٣٥٢)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٠٣٧٢).

(١) في «فتح الباري» (١٣/ ١١).

(٢) سقط من الأصل، وأثبتّه من «الفتح».

(٣) في «عمدة القاري» (٢٤/ ١٨١- مصورة دار الفكر).

(٤) في «عمدة القاري» (١٥/ ٢٣٨ - مصورة دار الفكر).

فقول الحافظ ابنِ حجرَ: «المراد بالشر: ما وقع بعدَه من قَتلِ عثمان»، وقول العيني: «يحتمل أنه أراد ما وقَع من قتل عثمان»؛ هذا بعيدٌ من الصواب، لا يفهم من هذه الأحاديث البتة، لا منطوقاً ولا مفهوماً، والذي يُفهمُ منها: أنّ الويلَ الذي سيحصلُ للعرب مبنيٌّ على فتح ردم يأجوجَ ومأجوجَ، وأنه اليوم فُتحَ منه هذا المقدار، وحلَّق بأصبعيه، فتكون الجملة الثانية -وهي قوله: «فُتحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ»- بياناً للجملة الأولى -وهي: «ويلٌ للعرب...» إلخ-، ويكون الفتح فتحاً على حقيقته لا مجازاً ولا كناية، فالاحتمال الثاني والثالث اللذان ذكَرَهما العيني هما الصَّواب، على أنَّ الثالث يرجع في الحقيقة إلى الثاني؛ بدلالة قوله: «إن الترك هم من نسل يأجوج ومأجوج...» إلخ، وقد قدمنا ما يفيد ذلك.

وقال العيني[1] في شرحه للحديث الثاني (ج ٢٤ ص ١٨١):

«قال الكرماني[2]: يقال: إن يأجوج ومأجوج هم التُّرك، وجرى ما جرى ببغدادَ منهم! قلت: هذا القول غير صحيح؛ لأن الترك ما لهم ردم، والردم بيننا وبين يأجوج ومأجوج، وهما من بني آدم من أولاد يافثَ بنِ نوح -عليه السلام-، والذي جرى ببغداد كان من (هلاكو) من أولاد (جنكيز خان) فإنه هو الذي قتل الخليفة المستعصم بالله العباسي، وأخرب بغداد في سنة ست وخمسين وست مئة» اهـ.

فقول العيني: «هذا القول غير صحيح»، هو غير صحيح، وهُوَ قَدْ ناقضَ نفسَه حيثُ قال في شرحه للحديث الأول -كما تقدم-: «إن الترك هم من نسل يأجوج ومأجوج، والجميعُ عنصرٌ واحد، وهم من أولاد يافث بن نوح»، فيكون ما قاله الكرماني من أنّ يأجوجَ ومأجوجَ هم الترك، وقد جرى ما جرى ببغداد منهم هو الصَّواب والصحيح[3].

---

(١) في «عمدة القاري» (٢٤/ ١٨١)، وأعاد نحوه في (٢٤/ ٢٢٠).

(٢) في شرحه لـ«صحيح البخاري» المسمّى «الكواكب الدراري» (١٤/ ٩)، وعبارته: «وقد وقعَ بعضُ ما أخبرَ به ﷺ حيثُ يُقال: إن يأجوج هم الترك، وقد أهلكوا الخليفةَ المستعصمَ، وجرى ما جرى ببغداد».

(٣) رأي المصنف هذا وافقه عليه: طنطاوي جوهري في تفسيره «الجواهر» (٩/ ٢٠٣)،=

=وسيد قطب في «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٢٩٤)، وقرره طارق سويدان في أشرطته «قصة النهاية» (الشريط الرابع: وجه ١)، ومال إليه وقوّاه محمد رشيد رضا في مجلة «المنار» (م ١١/ ٢٧٤-٢٧٧) الصادر يوم السبت (٢٩/ ربيع الآخر/ ١٣٢٦هـ - ٣٠/ أيار/ ١٩٠٨)، وهو في «الفتاوى» له (٢/ ٦٥٠-٦٥٣)، ونسوق كلام الأخير لأهميته، ذاكرين السؤال والجواب، لما في السؤال من تكرار يكثرُ دورانه في المجالس، وعلى ألسنة الناس، وهذا نصّه بتمامهِ وحروفه:

«فضيلة الأستاذ المرشد صاحب مجلة «المنار» الغراء

كنا في منزل يتلى فيه القرآن الكريم، فلما جاء ذكر ذي القرنين ويأجوج ومأجوج والسدّ، قال أحدُ إخواني: إن هذه القصةَ لم يظهرْ لها أثرٌ تاريخيٌّ للآن، مع أنه صار اكتشاف ما على الأرض من قبل ذلك العهد وبعده.

قلت له: يا أخي! لعلّ هذا الأثرَ التاريخيَّ يظهرُ فيما بعدُ، ليكونَ معجزةً للقرآن على ممرّ الأيام كما حصل في قصة فرعون، فإنه وعد بأن ينجيَه ليكونَ لمن بعده آية، وقد تحقق ذلك في هذه الأيام.

فقال: يا أخي إن كلامك هذا هو جواب عليك؛ إذ أن فرعون وخلافه آثار صغيرة جداً مدفونة تحت الأرض وظهرت، والسد ليس كذلك، وهذا وجه استغرابي؛ لأن سياق الآية يدلنا على أنه بين جبلين كبيرين من حديد ونحاس ومن دونه أمة كبيرة، لو فتح لها ذلك السد لدوّخت العالم بأسره؟ فأين هي تلك الأمة وذلك السد، ورسم الكرة الأرضية أمام نظري أقلب فيه فلا أجد تلك الأمة ولا ذلك السد.

قلت: يا أخي! إني أظن أن هذه الأمة هي أمة التتار، والسد هو سد الصين المشهور، وقد خرجت واخترقت آسيا والهند ومصر وأوربا، وأخذت الملك من المسلمين، وأتذكر أني رأيت حديثاً في بعض الكتب لا أعرف صحته جاء فيه ما معناه: أن النبي ﷺ كان جالساً مع أصحابه ففزع، فلما سألوه عن السبب قال: «ويلٌ لأمتي من السيل المنهمر»، يشير إلى قرب خروج يأجوج ومأجوج، فلما خرجوا وأخذوا الملك من المسلمين في عهد التتر فسر علماء ذلك الوقت هذا الحديث بذلك.

وبعد جدال كبير حصل بيننا، وعدته بأن أفيده عن يد فضيلتكم بالجواب القطعي، فرجائي أن تفيدوا على صفحات «المنار» الأغر حتى يقتنع المشاغب، كما هو المشهور في فضيلتكم من إيضاح الحقائق، ولفضيلتكم الشكر».

وأجاب العلاّمة محمد رشيد رضا بما صورته:

«سألنا هذا السؤال غير واحد من مصر وروسيا وغيرهما من الأقطار، ونقول قبل كل شيء: إن دعوى معرفة جميع بقاع الأرض باطلة، فإن بقعة كل من القطبين لا سيما القطب الجنوبي لا تزال مجهولة، وقد استدل بعض العلماء على أن السد بني في جهة أحد القطبين بذكر بلوغ ذي القرنين إلى موضعه بعد بلوغ مغرب الشمس ومطلعها، وليس ذلك إلا من جهة الشمال أو جهة الجنوب، ولا يعترض على هذا=

....

=القول بصعوبة الوسائل الموصلة إلى أحد القطبين، فإن حالة مدنية ذلك العصر وحالة الأرض فيها غير معروفة لنا الآن، فنبني عليها اعتراضاً كهذا، فما يدرينا أن الاستطراق إلى أحد القطبين أو كليهما كان في زمن ذي القرنين سهلاً، فكم من أرض يابسة فاضت عليها البحار فغمرتها بطول الزمان، وكم من أرض انحسر عنها الماء فصارت أرضاً عامرة متصلة بغيرها أو منفردة (جزيرة)، وكم من مدينة طمست حتى لا يعلم عنها شيء.

ومن المعلوم الآن من شؤون المدنيات القديمة بالمشاهدة أو الاستدلال ما يجهل بعض أسبابه؛ كالأنوار والنقوش والألوان وجرّ الأثقال عند المصريين القدماء، فالقرآن يقول في ذي القرنين: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً حَتَى إذا بَلَغَ﴾ [الكهف: ٨٥]، كذا في مطلع الشمس ومغربها وبين السدين، فما هي تلك الأسباب: هل هي هوائية أو كهربائية؟ الله أعلم بذلك.

هذا ما يقال بالإيجاز في رد دعوى معرفة جميع أجزاء الأرض التي بني عليها الاعتراض، ثم إن ما بُنيَ على هذه الدعوى باطل، وإن فرضنا أنها هي مسلّمة؛ وذلك أنه يوجد في الأرض موضعان معروفان يحتمل أن السّدّ كان فيهما:

أحدهما: الموضع الذي يسمى الآن (دربند) بروسيا ومعناه السدّ، وفيه موضع يسمى (دمرقبو)؛ أي: باب الحديد، وهو أثر سد قديم بين جبلين يقال: إنه من صنع بعض ملوك الفرس، ويحتمل أن يكون موضع السد، وقد ذكره ملطبرون في جغرافيته بما يدل على ذلك (راجع ص ١٥ و١٦ ج ٣)، وأخبرني مختار باشا الغازي أنه رأى خريطة جغرافية قديمة لتلك الجهات، وفيها رسم ذلك المكان وبيان أن وراءه قبيلتين؛ اسم إحداهما: (آقوق)، واسم الثانية: (ماقوق)، وتعريب هذين اللفظين بيأجوج ومأجوج ظاهر جلي.

وأما الموضع الثاني: فإننا نترجم ما جاء عن بعض (التواريخ الفارسية) على غرابته؛ وهو:

«في الشمال الشرقي من مدينة صنعاء التي هي عاصمة اليمن بعشرين مرحلة (مئة وبضعة فراسخ)، مدينة قديمة تسمى الطُوَيْلة، وفي شرقي هذه المدينة واد عميق جداً يحيط به من ثلاث جهات جبال شامخة منتصبة ليس فيها مسالك معبّدة، فالمتوغّل فيها على خطر السقوط والهويّ، وفي الجهة الرابعة منه سهول فيحاء، يستطرق منها إلى الوادي ومنه إليها، وفجوة الوادي من هذه الجهة تبلغ خمسة آلاف ذراع فارسي (الذراع الفارسي متر وأربعة سنتيمات)، وفي الفجوة سد صناعي يمتد من أحد طرفي الجبلين إلى الآخر، وهو من زُبَر الحديد المتساوية المقدار، فطول هذا السد خمسة آلاف ذراع، فأما سمكه فخمسة عشر شبراً، وأما ارتفاعه فيختلف باختلاف انخفاض أساسه وارتفاعه؛ لأن أرضه غير مستوية.

في القرن العاشر للهجرة لما فتح سنان باشا القائد العثماني اليَمن، وصل إلى قلعة تسمى تسام واقعة بجوار السد، فأمر بعَدِّ زُبَر الحديد المبني بها السد، فقصارى ما تيسّر لهم عدّه منها تسعة آلاف، في طرفي هذا السد قلعتان عظيمتان محكمتا البناء قديمتان تسمى إحداهما (قلعة العرصة)، والثانية (قلعة=

....

=الباحثة)» اهـ.

فهذا الوصف ينطبق على ما جاء في القرآن من وصف السد، وبلاد اليمن هي فيما يظهر بلاد ذي القرنين؛ لأن هذا اللقب من ألقاب ملوك العرب الحِميريين في حضرموت واليمن المعروفين بالأذواء (كذي يزن وذي الكلاع وذي نواس)، ولكن إن صح وجود السد فأين يأجوج ومأجوج منه؟ وهم التتر، كما ورد في تاريخ السوريين قبل الإسلام، أو السكيثيين الذين وصفهم حزقيال النبي بما ينطبق على وصفهم في تواريخ اليونان، ويعدهم النصارى رمزاً لأعداء الكنيسة.

ثم إن لم يكن السد المذكور في القرآن هذا ولا ذاك، ولم يكن فيما بقي مجهولاً من الأرض، فلم لا يجوز أن يكون قد اندك وذهب أثره من الوجود؟ إن قيل: يمنع من ذلك أن اندكاكه وخروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة، أجبنا بجوابين:

أحدهما: أن قرب الساعة يمتد ألوفاً من السنين؛ بدليل: أن نبينا نبي الساعة، وقرب الساعة نسبي؛ أي: هو قرب بالنسبة إلى ما مضى من عمر الأرض، وما يدرينا أنه ملايين من السنين.

وثانيهما: أن هناك ساعة عامة وساعة خاصة؛ أي: ساعة هلاك أمة معينة، كما ورد في شرح بعض الأحاديث الواردة في الساعة، وربما عدنا إلى التفصيل في هذه المسألة» انتهى.

قال أبو عبيدة: هنا ملاحظات مهمّة، لا بد من ذكرها، تخصُّ كلام السيد رشيد السابق من جهة، وكلام المصنف من جهة أخرى، وفيها (إفاضات) و(إضافات) و(تفريعات) حول (يأجوج ومأجوج) من جهة ثالثة، فأقول وبالله -سبحانه- أصُول وأجُول:

أولاً: يأجوج ومأجوج قبيلان من خلق الله، من ولد نوح، وجاءت القراءة فيهما بهمز وبغير همز، وهما اسمان، قيل: أعجميّان، واشتقاق مثلهما من كلام العرب يخرج من (أجَّتِ النار) ومن (الماء الأُجاج)؛ وهو: الشديد الملوحة والمرارة، ويكون التقدير في (يأجوج): (يَفْعُول)، وفي (مأجوج): (مفعول)، ويجوز أن يكون (يأجوج): (فَاعُولاً)، وكذلك (مأجوج)، هذا لو كان الاسمان عربيَّين؛ لكان هذا اشتقاقُهما، فأما العَجَميّة؛ فلا تُشْتَقُّ من العربيّة. أفاده الأزهري في «تهذيب اللغة» (١١/ ٢٣٤ - ٢٣٥).

وانظر: «معجم مقاييس اللغة» (١/ ٨-٩) لابن فارس، و«المعرب» للجواليقي (ص ٦٤٧-٦٤٨ - ط. ف. عبدالرحيم).

ثانياً: ورد ذكر لـ(يأجوج) و(مأجوج) في كتب النصارى، ففي «سفر التكوين» (١٠/ ١-٢) تسمية بنين (يافث بن نوح) هكذا على التوالي: (جومر، ومأجوج، ومادي، وياوان، وتوبال، وماشك، وتيراس)، وذِكرُهُما يظهر بصورة (ماجوج) و(جومر)، كما في «سفر التكوين» (١٠/ ٢)، وبصورة (ياجوج) و(جوج) في (سفر حزقيال) (٣٨/ ١-٢)، وفي (رؤيا يوحنا) (٢٠/ ٧-٨)، وأقتصر على نقل ما في (سفر حزقيال):

فها هو حزقيال يتنبأ بخروج أبناء يأجوج ومأجوج بمجموعهم الهادرة من أقاصي الشمال، وفي=

....

=زمان ليس بعيداً عن زمانه ناشرين الرعب والفزع والخراب والفساد في الأرض، إلى أن يصلوا في زحفهم الطويل إلى أرض فلسطين، فيقضي الله -تعالى- عليهم، فيقول حاكياً عن الحق -عزَّ وجلَّ-:

«وكان إليّ كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم! اجعل وجهك على (جوج) أرض (مأجوج) رئيس روش ماشك وتوبال وتَنَبأ عليه، وَقُلْ: هكذا قال السيد الرب، ها أنذا عليك (يأجوج) رئيس روش ماشك وتوبال، وأرجعك وأضع شكائم في فكيك، وأخرجك أنتَ وكلَّ جيشِكَ خيلاً وفرساناً كلّهم لابسين أفخر لباس جماعة عظيمة مع أتراس ومجانّ، كلهم ممسكين السيوف، فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجنّ وخوذة، و(جومر) وكل جيوشه وبيت توجرمة من أقاصي الشمال مع كل جيشه شعوباً كثيرين معك، استعد وهيّء نفسك أنت وكل جماعاتك المجتمعة إليك فصرت لهم موقراً، بعد أيام كثيرة تفتقد، في السنين الأخيرة تأتي إلى الأرض المستردة من السيف، المجموعة من شعوب كثيرة على جبال إسرائيل التي كانت دائمة خربة للذين أخرجوا من الشعوب وسكنوا آمنين كلهم، وتصعد وتأتي كزوبعة، وتكون كسحابة تغشى الأرض أنت وكل جيوشك وشعوب كثيرون معك.

هكذا قال السيد الرب، ويكون في ذلك اليوم أن أموراً تخطر ببالك فتفكر فكراً رديئاً، وتقول: إني أصعد على أرض أعراء، آتي الهادئين الساكنين في أمن كلهم ساكنون بغير سور وليس لهم عارضة ولا مصاريع، لسلب السلب ولغنم الغنيمة، لرد يدك على خرب معمورة وعلى شعب مجموع من الأمم المقتني ماشية وقنية الساكن في أعالي الأرض، شبا وددان وتجار ترشيش وكل أشبالها يقولون لك: هل لسَلْبِ سَلَبٍ أنت جاءٍ، هل لغنم غنيمة جمعت جماعتك لحمل الفضة والذهب لأخذ الماشية والقنية لنهب نهب عظيم؟

لذلك تنبأ يا ابن آدم، وقل (لجوج): هكذا قال السيد الرب، في ذلك اليوم عند سكنى شعبي إسرائيل آمنين أفلا تعلم، وتأتي من موضعك من أقاصي الشمال أنت وشعوب كثيرون معك كلهم راكبون خيلاً جماعة عظيمة وجيش كثير، وتصعد على شعبي إسرائيل كسحابة تغشى الأرض، في الأيام الأخيرة يكون، وآتي بك على أرضي لكي تعرفني الأمم حين أتقدس فيك أمام أعينهم (يأجوج).

هكذا قال السيد الرب، هل أنت الذي تكلمت عنه في الأيام القديمة عن يد عبيدي أنبياء إسرائيل الذين تنبأوا في تلك الأيام سنيناً أن آتي بك عليهم، ويكون في ذلك اليوم يوم مجيء (جوج) على أرض إسرائيل يقول السيد الرب: إن غضبي يصعد في أنفي، وفي غيرتي في نار سخطي، تكلمت إنه في ذلك اليوم يكون رعش عظيم في أرض إسرائيل، فترعش أمامي سمك البحر وطيور السماء ووحوش الحقل والدابات التي تدب على الأرض، وكل الناس الذين على وجه الأرض، وتندك الجبال وتسقط المعاقل وتسقط كل الأسوار إلى الأرض، واستدعى السيف عليه في كل جبالي يقول السيد الرب، فيكون سيف كل واحد على أخيه، وأعاقبه بالوباء وبالدم، وأمطر عليه وعلى جيشه وعلى الشعوب الذين معه مطراً جازماً وحجارة برد عظيمة وناراً وكبريتاً، فأتعظّم وأتقدّس وأعرف في عيون أمم كثيرة، فيعلمون أني أنا الرب». =

= قال أبو عبيدة: حمّل بعض المعاصرين هذا الكلام ما لا يحتمل؛ فزعم أن (يأجوج) و(مأجوج) هم اليهود الذين في فلسطين الآن! وسيأتي بيان ذلك في (سابعاً).

ثالثاً: ومثل القول الذي قبله في الشذوذ والخطأ: قول من قال: إن يأجوج ومأجوج ما هم إلا أمم الكفار، على اختلاف أجناسهم وأوطانهم من الروس والصين والأمريكان واليابان وغيرهم، وذهب إلى هذا: الشيخ السّعدي في رسالتين مفردتين، وتمسك به الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود، نوّه به في كتابه «لا مهدي ينتظر» (ص ٧٥ -٧٩)!! وقرر أن يأجوج ومأجوج قد خرجوا -اليوم- على المسلمين حين استدعاهم (استنشاق رائحة البترول) في بلدان العرب المسلمين!

وهذا القول والذي قبله (أنهم أهل الصين خاصة) تأويلان باطلان، مخالفان للكتاب والسنة، ولما درج عليه سلف الأمّة وخلفها.

ومن اللطيف بالذكر هنا أن يقال: «قد أنكر كبار العلماء في البلاد النجدية ما قرره الشيخ السعدي في رسالته في أمر (يأجوج) و(مأجوج) غاية الإنكار، واستدعاه الملكُ عبدالعزيز إلى الرياض بسببها، وتهدده وتوعده» قاله الشيخ حمود التويجري -رحمه الله- في كتابه «الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر» (ص ٣٢٧)، وزاد: «وبعد ذلك لم نسمع عنه أنه تكلم في يأجوج ومأجوج بشيء حتى طبع «تفسيره»، فإذا كلامه فيه على خلاف ما قرره في رسالته التي أنكرها كبارُ العلماء، ولم يخرجْ في تفسير الآيات من سورة الكهف ومن سورة الأنبياء عما ذكره المفسرون في أمر يأجوج ومأجوج، فيُحتمل أنه قد رجع عما قرره في رسالته، وإن لم يكن رجع عن ذلك، فكلامُه في يأجوج ومأجوج متناقض؛ فيؤخذ بما كانَ منه موافقاً لأقوال المفسرين من الصحابة والتابعين، ويُرَدّ ما خالفهم فيه» انتهى كلامه.

رابعاً: بطلانُ القولين السابقين ظاهرٌ من وجوهٍ عديدة، وقد اعتنى جَمعٌ من العلماء بتفنيدهما، ومن أشهرهم: العلاّمة الشيخ حمود التويجري -رحمه الله تعالى- ، فقد رد على ابن محمود، وبيَّن خطأه، وأورد أدلةً عديدةً تلحق -أيضاً- بمن قال: إنهم أهل الصين -كما هو اختيار المصنّف-، وأفرد ذلك في كتابٍ سمّاه «الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر»، واعتنى بترتيب كلامه وتهذيبه الشيخ عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد في كتابه «الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة» (ص ٢٤٨-٢٥٦)، وأحمد بن عبدالعزيز التويجري في كتابه «الإيضاح والبيان في أخطاء طارق سويدان» (٢/ ٦-٣٥).

وللشيخ حمود -رحمه الله- كلام مهمٌّ مفيد في كتابه «إتحاف الجماعة» (٢/ ١٦٨-١٧٤) في الرد على من زعم أنهم (التتار)، أو أنهم قد خرجوا، وانتهى أمرُهم، كما يقول -مثلاً- الشيخ محمد محمود حجازي في «التفسير الواضح» (١٥/ ٨)، قال:

«وليس لنا أن نقول: أين هذا السد الآن؟ وأين مكانه؟ فتلك أزمان بعيدة موغلة في البُعْد، وقد قال الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الكهف: ٩٨]: أرضاً مستوية، فعدم وجوده دليل على أن الوعد=

....

=جاء، ولم يعد للسد وجود والله أعلم بكتابه».

وذهب إلى هذا أمين ذياب المعتزلي في مقالة له نشِرَت في جريدة «اللواء» الأردنية بعنوان «علامات الساعة» من ٨/٢٧ إلى ١٠/ ١٢/ ١٩٩٧م، وزعم أنّ معنى قوله: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ [الكهف: ٩٨]؛ يعني: وحصل وعدُ ربي حقّاً؛ أي: إنّ (كان) هنا تامّة وليست ناقصة، وقال: «إن (حقّاً) لا تصلح خبراً لكان».

وردّ عليه الدكتور إبراهيم هلال في «يأجوج ومأجوج» (ص٤١) بقوله:

«ولم أر من اللُّغويِّين من وافقه على هذا الرأي، ولعلّ الذي دفعه إلى ذلك هو محاولته إلغاء علاماتِ الساعة بما فيها خروج يأجوج ومأجوج، ولعلّه هنا قد اعتسف القول، وجانبَ الصواب».

قلت: وعلى الرغم من ذلك فقد رشّحَ الدكتور إبراهيم هلال عدم وجود السد الآن، وأن المراد بيأجوج ومأجوج هم اليهود في فلسطين الآن!! وهو قول بعيدٌ جدّاً عن الصواب.

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى كلام الشيخ حمود، وهذا هو بنصه وفصه:

«وقد اختلفَتْ أقوالُ العصريِّين في يأجوج ومأجوج: فبعضهم ينكرون وجودَهم بالكلية، وينكرون وجود السد الذي جعله ذو القرنين بينهم وبين الناس!

ومستندهم في ذلك ما يزعمه بعض الدول في هذه الأزمان: أنّ السائحين منهم قد اكتشفوا الأرضَ كلها، فلم يروا يأجوج ومأجوج، ولم يروا سد ذي القرنين.

وهذا في الحقيقة تكذيب بما أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، عن السد ويأجوج ومأجوج، والتكذيب بما أخبر الله به في كتابه كفر وظلم، والدليل على ذلك:

قوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنا إلاَّ الكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وقوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنا إلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

والتكذيب بما أخبر به رسول الله ﷺ في الأحاديث الصحيحة كفر -أيضاً-؛ لأنّ تكذيبَه فيما أخبر به ينافي الشهادة بأنه رسول الله، ويلزمُ عليه تكذيبُ قول الله -تعالى-:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوى . إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣-٤].

قال القاضي عياض في كتابه «الشفاء»: «اعلم أنّ من استخفّ بالقرآن أو المصحف، أو بشيء منه، أو سبَّهُما، أو جحده، أو حرفاً منه أو آية، أو كذب به، أو بشيءٍ مما صرح به فيه من حكم أو خبر، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبته؛ على علم منه بذلك، أو شكَّ في شيءٍ من ذلك؛ فهو كافرٌ عند أهل العلم بإجماع.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيْزٌ . لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيهِ ولاَ مِن خَلْفِهِ تَنْزِيْلٌ مِن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]» انتهى.
=

....

= وقال الشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي في كتابه «المسائل الكافية في بيان وجوب صدق خبر رب البريّة» ما نصه:

«السدّ حقّ ثابتٌ، ولا ينفتح ليأجوج ومأجوج إلا قرب الساعة، فمن قال بعدم وجود سدّ على وجه الأرض، ومستنده في ذلك قول الكشافين من النصارى، وأنهم لم يعثروا عليه؛ يكفر، وقد وقع للشيخ عبدالرحمن قاضي المرج مع متصرف بني غازي؛ فإنه قال في جمع عظيم: إنه لا سَدَّ في الأرض موجودٌ؛ لإخبار السائحين في الأرض من النصارى، فقام الشيخ عبدالرحمن إليه أمام الحاضرين، وقال: كفرت؛ تُصدِّقُ الكشّافين وتكذبُ ربَّ العالمين! ثم تدارك المتصرفُ نفْسَه، وقال: إنما قلت ذلك على طريق الحكاية عنهم، ولست معتقداً ذلك».

قال الكافي: «ولا يكون قول الكشافين شبهةً تنفي عنه الكفر؛ لأنه لو كان إيمانه ثابتاً؛ لما ترك قول الله -تعالى- وقولَ رسوله ﷺ المستحيل عليهما الكذب، وتَبع قولَ من لا دين له» انتهى.

وبعض العصريين يزعمون أن يأجوج ومأجوج هم جميع دول الكفر المتفوقين في الصناعات الحديثة، وقد رأيت هذا القولَ الباطل في بعض مؤلفات المتكلفين من العصريين، وهذا القول قريب من القول الأول، وقد صرح الشيخ محمد بن يوسف الكافي بتكفير من قال به؛ كما سيأتي في كلامه قريباً -إن شاء الله تعالى-.

ووجه القول بتكفير من قال به، أنه يلزم عليه تكذيب ما أخبر الله به في كتابه عن السد، وأنه قد حال بين يأجوج ومأجوج وبين الخروج على الناس، وأن يأجوج ومأجوج ما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً، وأنه إذا جاء وعد الرب -تبارك وتعالى-أي: في آخر الزمان، إذا دنا قيام الساعة-؛ جعله دكّاء، فخرجوا على الناس، وذلك بعد ما ينزل عيسى ابن مريم -عليهما الصلاة والسلام- إلى الأرض، ويقتلُ الدجالَ، وقد جاء ذلك صريحاً في عدة أحاديث صحيحة تقدم ذكرها.

وقد قال الله -تعالى-: ﴿حَتَّى إذا فُتِحَتْ يَأجُوجُ وَمَأجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . واقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإذا هِيَ شَاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذينَ كَفَروا يَا وَيلَنَا قَدْ كُنَّا في غَفْلَةٍ مِنْ هَذا بَلْ كُنَّا ظَالِمينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧].

وفي هاتين الآيتين أبلغُ ردٍّ على من زعم أنّ يأجوج ومأجوج هم دول الإفرنج أو غيرهم من دول المشرق والمغرب، الذين لم يزالوا مختلطين بغيرهم من الناس، ولم يُجْعلْ بينهم وبين النّاس سدّ منيع يحول بينهم وبين الخروج على النّاس.

وقد قال الشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي في كتابه «المسائل الكافية في بيان وجوب صدق خبر رب البريّة» ما نصه:

«المسألة الثانية والثلاثون: يأجوج ومأجوج هم أناس بالِغُون في الكثرة عدداً لا يعلمه إلا=

....

=الله -تعالى-، ولا يستطيع أحدٌ مقاومَتَهم عند خروجهم من السد لكثرتهم، وهم مفسدون في الأرض كما أخبر الله -تعالى- عنهم، وهم الآن محازون عن غيرهم بالسد الذي بناه ذو القرنين، وخروجهم علامة على قيام الساعة، فمن قال واعتقد أنّ يأجوج ومأجوج هم أوربا؛ يكفر؛ لتكذيبه اللهَ -تعالى- في خبره: ﴿حَتَّى إذا فُتِحَتْ يَأجُوجُ وَمَأجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإذا هِيَ شَاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيلَنَا قَدْ كُنَّا في غَفْلَةٍ مِنْ هَذا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧].

قال حبر هذه الأمّة عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير قوله -تعالى-: ﴿حَتَّى إذا فُتِحَتْ يَأجُوجُ وَمَأجُوجُ﴾ [الأنبياء: ٩٦]: فحينئذ يخرجون، ﴿وَهُمْ﴾؛ يعني: يأجوج ومأجوج، ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾: من كل أكَمَةٍ ومكانٍ مرتفع، ﴿يَنْسِلُونَ﴾: يخرجون، ﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾: دنا قيام الساعة عند خروجهم من السد.

وأخرج ابن جرير عن حذيفة -رضي الله عنه-، قال:

«لو أن رجلاً اقتنى فلوّاً بعد خروج يأجوج ومأجوج؛ لم يركبه حتى تقوم الساعة»» انتهى.

وقد تقدم حديث الحسن عن سمرة بن جندب -رضي الله عنه- عن النّبي ﷺ في خروج الدجال، وفيه:

«ثم يجيء عيسى ابن مريم -عليهما السلام- من قبَل المغرب مصدقاً بمحمد ﷺ وعلى مِلّته، فيقتل الدّجال، ثم إنما هو قيام الساعة».

رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والطبراني.

قال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح».

وتقدم -أيضاً- حديث حذيفة -رضي الله عنه-، وفيه:

«قلت: يا رسول الله! فما بعد الدجال؟ قال: «**عيسى ابن مريم**»، قلت: فما بعد عيسى ابن مريم؟ قال: «**لو أن رجلاً أنتج فرساً؛ لم يركبْ مُهرَها حتى تقوم الساعة**».

رواه ابن أبي شيبة.

وتقدم -أيضاً- حديث النّواس بن سمعان -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ، وفيه:

«أن يأجوج ومأجوج يخرجون بعد نزول عيسى -عليه الصلاة والسلام- وقتل الدجال، وأن عيسى وأصحابه يدعون عليهم، فيهلكهم الله -تعالى-».

رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

وتقدم -أيضاً- حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- عن النّبي ﷺ، وفيه: =

= «أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- يدعو على يأجوج ومأجوج، فيهلكهم الله».

رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، وابن جرير، والحاكم، وصححه هو والذهبي.

وتقدم -أيضاً- حديث حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما- عن النّبي ﷺ، وفيه:

«أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- يدعو على يأجوج ومأجوج، فيهلكهم الله -تعالى-».

رواه الحاكم، وابن منده، وابن عساكر، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، وأقره الذهبي.

وفي هذه الأحاديث دليل على أن خروج يأجوج ومأجوج يكون قريباً من قيام الساعة؛ كما هو منصوص عليه في قوله -تعالى-: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧]، ومن قال بخلاف هذا؛ فقوله باطل مردود.

ومِنْ أغْربِ أقوال العصريين، ما زعمه طنطاوي جوهري في «تفسيره»: أن يأجوج ومأجوج هم التتار الذين خرجوا على المسلمين في أثناء القرن السابع من الهجرة وما بعده، ولو كان الأمر على ما زعمه هذا المتخرص المتأول لكتاب الله -تعالى- على غير تأويله؛ لكان الدجال قد خرج في أول القرن السابع من الهجرة قبل خروج التتار على المسلمين، ولكان عيسى ابن مريم -عليهما الصلاة والسلام- قد نزل من السماء وقتل الدجال قبل خروج التتار، ولكان سد ذي القرنين قد دُكَّ في ذلك الزمان، ولكان أوائل التتار قد شربوا بحيرة طبرية، وآخرهم لم يجدوا فيها ماءً، ولكانوا قد حصروا نبي الله عيسى وأصحابه حتى دعا عليهم، فأرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم، فأصبحوا فَرْسى كموت نفْسٍ واحدة، ولكانت الساعة قد قامت منذ سبعة قرون؛ لِمَا تقدم في حديث الحسن عن سمرة بن جندب -رضي الله عنه- عن النّبي ﷺ أنه قال:

«ثم يجيء عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، ثم إنما هو قيام الساعة...».

وتقدم في حديث عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«لقيتُ ليلةَ أسريَ بي إبراهيمَ وموسى وعيسى، فتذاكروا أمرَ الساعة...» (فذكر الحديث في خروج الدجال وقتْلِه، وخروج يأجوج ومأجوج، ودعاء عيسى عليهم فيهلكهم الله)، ثم ذكر عن عيسى -عليه الصلاة والسلام- أنه قال: «ففيما عهد إليَّ ربي -عزَّ وجلَّ- أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتِمِّ لا يدري أهلُها متى تفاجئُهم بولادها ليلاً أو نهاراً».

وتقدم في حديث حذيفة -رضي الله عنه- أنه قال:

«قلت: يا رسول الله! فما بعد الدجال؟ قال: «عيسى ابن مريم»، قلت: فما بعد عيسى ابن مريم؟ قال: «لو أن رجلاً أنتجَ فرساً؛ لم يركبْ مُهرَها حتى تقوم الساعة».

وإذا لم يقع شيء من الأمور العظام التي ذكرنا؛ فمِنْ أبطل الباطل وأقبح الجهل والتخرص واتّباع=

....

=الظنّ ما جزم به طنطاوي جوهري في قوله: «إن يأجوج ومأجوج هم التتار الذين خرجوا على المسلمين في أثناء القرن السابع وما بعده».

وقد تبعه على باطله وجهله صاحب «دليل المستفيد على كل مستحدث جديد»، فزعم أن التتار هم أوائل يأجوج ومأجوج، وزعم في موضع آخر من كتابه أن يأجوج ومأجوج قد تفرقوا في الأرض وصاروا دُوَلاً في آسيا وأوربا وأمريكا.

وقد تقدم عن الشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي أنه صرّح بتكفير من قال بهذا القول.

ومن المعلوم أن دولَ آسيا وأوربا وأمريكا لم تزل في أماكنها منذ زمان طويل، وأنه ليس بينهم وبين غيرهم سدّ من حديد يمنعهم من الخروج والاختلاط بغيرهم من الناس! فصفة يأجوج ومأجوج لا تنطبق على شيء من الدول المعروفة الآن.

وقد تقدم في عدة أحاديثَ صحيحةٍ أنّ يأجوج ومأجوج إنما يخرجون بعد نزول عيسى -عليه الصلاة والسلام- وقتْل الدجال، وأنهم لا يمكثون بعد خروجهم على الناس إلا مدة يسيرة، ثم يدعو عليهم نبي الله عيسى، فيهلكُهم الله جميعاً كموت نفْسٍ واحدة؛ فهم بلا شك أمّة عظيمة، قد حيل بينهم وبين الخروج على الناس بالسد الذي بناه ذو القرنين، وهذا السد لا يندَكُّ إلا إذا دنا قيامُ الساعة؛ كما أخبر الله بذلك في كتابه العزيز.

وأما كون السائحين في الأرض لم يَروْا يأجوج ومأجوج ولا سدَّ ذي القرنين؛ فلا يلزم منه عدمُ السد ويأجوجَ ومأجوجَ؛ فقد يصرف الله السائحين عن رؤيتهم ورؤية السد، وقد يجعل الله بينهم وبين الناس بحراً لا يطاق اجتيازه، أو غير ذلك من الموانع التي تمنع من رؤيتهم ورؤية السد، والله على كل شيء قدير.

والواجب على المسلم الإيمان بما أخبر الله به في كتابه عن السد ويأجوج ومأجوج وما صح عن النّبي ﷺ في ذلك، ولا يجوز للمسلم أن يتكلف ما لا علم له به، ولا يقول بشيء من أقوال المتكلفين المتخرصين، بل ينبذها وراء ظهره، ولا يعبأ بشيء منها» انتهى كلامه.

وذكر الأستاذ عبدالله بن العباس الجراري في كتابه «التأليف ونهضته بالمغرب» (ص ٩٥) ضمن مؤلفات العلاّمة محمد بن أحمد الزرهوني: «تمهيد الحجة وتنطيق المحجة من دنس تمويه بعض المتطرفين من سياح الفرنجة»، وعرّفَ به بقوله:

«وموضوع التقييد تحقيقُ وجودِ سد ذي القرنين المنصوص عليه في كتاب الله -تعالى-، وأنه لا يزال قائماً حتى يجيءَ وعد الله، وذلك وقت إذنِ الله -تعالى- في خروج يأجوج ومأجوج الذي يكون بعد نزول سيدنا عيسى -عليه السلام-».

وقد رد ابن حزم في كتابه «الفِصَل» (١/ ١٢٠) على هؤلاء، فقال ما نصه: =

....

= «فإن قيل: في القرآن ذكر سد يأجوج ومأجوج ولا يُدرَى مكانه ولا مكانهم.

قلنا: مكانه معروف في أقصى الشمال في آخر المعمور منه، وقد ذكِر أمرُ يأجوجَ ومأجوجَ في كتب اليهود التي يؤمنون بها ويؤمن بها النصارى، وقد ذكَرَ يأجوجَ ومأجوجَ والسدَّ أرسطاطاليس في كتابه في «الحيوان» عند كلامه على الغرانيق، وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج بطليموسُ في كتابه المسمى «جغرافيا»، وذكَر طولَ بلادِهِم وعرضَها، وقد بعث إليه الواثقُ أميرُ المؤمنين سلام الترجمان في جماعة معه حتى وقفوا عليه، ذكر ذلك أحمد بن الطيب السرخسي وغيرُه، وقد ذكره قدامةُ بن جعفر والناس [وممن ذكره بتفصيل -أيضاً- ابن فضل الله العمراني في «مسالك الأبصار» (١/ ق ٣٠-٣١، ٣٤، ٥٧، ٢٩٢-٢٩٣، ٣٠٤ و٣/ ق ١٠)]، فهيهات خبرٌ من خبرٍ، وحتى لو خَفِي مكانُ يأجوج ومأجوج والسد؛ فلم يُعرفْ في شيءٍ من المعمور مكانه؛ لما ضرَّ ذلك خبرَنا شيئاً؛ لأنه كان يكون مكانه حينئذٍ خلف خط الاستواء، حيث يكون ميل الشمس ورجوعها وبعدها، كما هو في الجهة الشمالية بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المسكونة، والهواء كهواء بعض البلاد التي يوجد فيها النبات والتناسل.

واعلموا أن كل ما كان في عنصر الإمكان، فأدخلَه مُدخِلٌ في عنصر الامتناع بلا برهان؛ فهو كاذب مبطل جاهل أو مجاهل، لا سيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره، وإنما الشأن في المُحَال الممتنع، التي تكذبُه الحواسّ والعَيان أو بديهةُ العقل، فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهانٍ قاطعٍ على أنه كذابٌ مُفْترٍ، ونعوذ بالله من البلاء».

ونستطيعُ أن نجمِل الحجج في الرد على الأقوال السابقة من وجوهٍ عديدةٍ:

أحدها: أنه مخالف لما ثبت في النصوص من أن خروج يأجوج ومأجوج لا يكون إلا بعد نزول عيسى -عليه السلام- وقتل الدجال.

والثاني: أنه ثبت في النصوص أنهم لا يمكثون بعد خروجهم إلا فترة يسيرة من الزمان، وأممُ الكفر موجودون على هذه الحال من أزمان طويلة.

والثالث: أنه ثبت في القرآن والسنّة أن السَّد الذي هم منحازون وراءه، لا يَندكُّ إلاّ إذا دنا قيامُ الساعة.

الرابع: أنّ هذا القولَ يخالفُ ما أخبر به عن ذي القرنين، أنّه جعل بين الناس وبين يأجوج ومأجوج سدّاً كبيراً من حديد، وأنهم لا يستطيعون نقبه إلا عند اقتراب الساعة.

الخامس: أنه ثبت في النصوص، أنه إذا خرجت إحدى الآيات العظام، تتابعت على إثرها باقي الآيات كما يتتابع الخرز في النظام، وأمم الكفر لهم أمدٌ طويلة على هذه الحال، ومع ذلك لم يخرج شيء من الآيات العظام.

السادس: أنّ أممَ الكفر على اختلاف أجناسهم وأوطانهم كانوا موجودين في جميع الجهات في=

....

=زمان الرسول ﷺ وقبل زمانه وبعد زمانه، ولم يُؤثرْ عنه أنه قال: إنهم هم يأجوج ومأجوج، ولم يؤثرْ ذلك عن أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا مَنْ جاء بعدهم من العلماء المتقدمين.

السابع: أنه ثبت عن النّبي ﷺ أن يأجوج ومأجوج إذا خرجوا يمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، وأمم الكفر المياه عندهم متوفرة فضلاً عن أن يشربوا بحيرة طبرية.

هذه بعض الأوجه التي يتبين بها بطلانُ قولِ من قال: إن يأجوج ومأجوج هم دول الكفر الموجودة الآن، أو أنّ المراد بهم أهلُ الصين، أو أن المراد من السد هو الحواجز الطبيعية من البحار وغيرها.

وفيما يلي أعرض جملة من أدلة القائلين بهذا القول مع بيان عدم دِلالتها على ما ذهبوا إليه.

فمن أدلتهم قولهم:

إن يأجوج ومأجوج من بني آدم وليسوا من الجن ولا من عالم غيبيّ آخر، وهم على سطح الأرض، ومع ذلك لم يرَهُم أحدٌ من السائحين في الأرض؟

والجواب عن ذلك أن يقال: لا شك أن يأجوج ومأجوج من بني آدم، وأنهم على سطح الأرض كما دل على ذلك الكتاب والسنّة، ولكنْ لا يلزمُ مِنْ كونهم كذلك أن يراهم أحد؛ لأن الله -سبحانه- قادر على كل شيء، ومن ذلك أن يمنع الناس من رؤيتهم ويحجب أبصارهم عن مشاهدتهم.

وقد أجاب عن هذه الشبهة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في كتابه «أضواء البيان» (٤/ ١٨٦) بعد أن ذكر أن هذه الشبهة هي عمدة القائلين بهذا القول:

فقال: «فقولكم: لو كانوا موجودين وراء السد إلى الآن لاطّلَع عليهم الناس، غير صحيح؛ لإمكان أن يكونوا موجودين والله يخفي مكانهم على عامة الناس، حتى يأتي الوقت المحدد لإخراجهم على الناس.

ومما يؤيد إمكان هذا، ما ذكره الله -تعالى- في سورة المائدة من أنه جعل بني إسرائيل يتيهون في الأرض أربعين سنة، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِم أَربَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ...﴾ [المائدة: ٢٦] الآية.

وهم في فراسخ قليلة من الأرض يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمد التيه؛ لأنهم لو اجتمعوا بالنّاس لبينوا لهم الطريق، وعلى كل حال فربك فعّال لما يريد».

وقال الشيخ حمود التويجري في كتابه «الاحتجاج بالأثر» (ص ٣١٥):

«وأما كون السائحين في الأرض لم يروا يأجوج ومأجوج ولا سد ذي القرنين؛ فلا يلزم منه عدمُ السَّد ويأجوج ومأجوج، فقد يصرف الله السائحين عن رؤيتهم ورؤية السد، وقد يجعل الله فوق السَّد ثلوجاً متراكمة بحيث لا تمكن رؤية السد معها، أو يجعل الله غير ذلك من الموانع التي تمنع من رؤية=

....

=يأجوج ومأجوج ورؤية السد، والواجب على المسلم الإيمان بما أخبر الله به في كتابه عن السد ويأجوج ومأجوج وما صح عن النبي ﷺ في ذلك، ولا يجوز للمسلم أن يتكلف ما لا علم له بـه، ولا يقـول بشيء من أقوال المتكلفين المتخرصين، بل ينبذها وراء ظهره ولا يعبأ بشيء منه».

ويقال -أيضاً-: جاء في حديث الجساسة أن بعض الصحابة رأوا الدجال مقيّداً في إحدى الجزر، وأخبروا الرسو ل ﷺ بذلك، فلم يُنكرْ عليهم ذلك، فهو بلا شك موجود في الجزيرة التي رُؤيَ فيها إلى أن يأذن الله له بالخروج، فهل يُنكَر وجودُه لعدم رؤيته من قِبَل السائحين؟

الواجب على المسلم أن يصدقَ بجميع الأخبار الواردة عن الصادق المصدوق؛ فيؤمن بوجود الدجال ويأجوج ومأجوج، سواء رآهم الناس أم لم يرهم.

وللشيخ عبدالله بن علي بن يابس النجدي الحنبلي (ت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م) كلمة جيدة حول (يأجوج ومأجوج) في كتابه القيم «إعلام الأنام بمخالفة شيخ الأزهر شلتوت للإسلام» (ص ١٢٢-١٢٩ - ط. الأولى)، تعرَّضَ في آخرها إلى تفنيد هذه الشبهة من وجوهٍ عدة، قال -رحمه الله تعالى- بعد كلام:

«وأخبر ذو القرنين أن هذا السد لِفَتْحِهِ موعدٌ محدد، ولخُروج مَنْ وراءَهُ مِن يأجوج ومأجوج ميقات معلوم، فإذا جاء ذلك الموعد وحضر ذلك الميقات؛ دكَّه الله دكاً؛ أي: هدّه هدّاً، وحينئذٍ يموج بعضهم في بعض؛ أي: يموج يأجوجُ ومأجوجُ في عالم الأرض، أو يموج بعض يأجوج ومأجوج في بعضهم، وأخبر -تعالى- أن فتح السد وخروجَ يأجوجَ ومأجوج ودخولَهم على أهل الأرض دخول الموج المندفع، يعقبُه هلاكُ العالم وقيامُ الساعة والنفخُ في الصور.

فهذه الآيات تبيِّن أن يأجوجَ ومأجوجَ -بصريح العبارة- موجودون كما تثبت أن بينهم وبين أهل الأرض سدّاً بناه ذو القرنين بالحديد والقِطر، وأن بناء هذا السد رحمةٌ من الله لأهل الأرض، وأنه سَيُدكُّ ويزول في موعد محدد، وأن يأجوج ومأجوج حينئذ سيخرجون إلى أهل الأرض كالموج المندفع، وأنه عند ذلك تقوم الساعة ويُنفَخ في الصور، هذا ما يُستَخْلص من هذه الآيات بصريح التعبير الذي لا يحتمل التأويل.

أما مَنْ طمسَ الله على قلوبهم ولم يوفقْهم إلى فهم كتابه ولا إلى قبول سنة رسوله، فإنهم راحوا يُؤوِّلون الآيات بأنها كناية، وينبذون ما صح عن النّبي في ذلك، والشيخ شلتوت يدَّعِي أنها أخبارُ آحادٍ ظنيةِ المتن والدِّلالة، فلا يقبلها ويؤوِّلُ آيات القرآن من أجل هذا المبدأ الباطل.

وهناك الآية الأخرى، وهي قوله -تعالى- في سورة الأنبياء [٩٦-٩٧]: ﴿حَتَّى إذا فُتِحَتْ يَأجُوجُ وَمَأجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإذا هِيَ شَاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذينَ كَفَروا يا وَيلَنَا قَدْ كُنَّا في غَفْلَةٍ مِنْ هَذا بَلْ كُنَّا ظَالِمينَ﴾، وفتحُ يأجوج ومأجوج في هذه الآية هو دكُّ السدّ المذكور في آية الكهف، فالقصة واحدة والقرآن يفسر بعضُه بعضاً، وموج بعضِهم في بعض المذكور في آية الكهف هو=

....

=نسلهم من كل حدب، وإذا ماجوا ونسلوا من كل حدب، فهم من الطريق السوي السهل أشدُّ انْدِفاعاً وازْدِحاماً، وهذا يدل على كثرتهم كما ورد في الحديث: «**إن الله يُوحي إلى عيسى -عليه السلام-: إني مخرجٌ عباداً لي لا يدانِ لأحَدٍ بقتالهم**».

وأخبَرَتْ هذه الآيةُ بأنّ ذلك قُربَ الوعد الحق، وهو قيام الساعة، وأخبرَتِ الآية بأنهم إذا خرجوا فإن المكذبين بآيات القرآن والمكذبين بخروجهم والقائلين أن خبرهم كنايةٌ؛ تشْخَصُ أبصارُهم مِنَ الهول، ويندمون على تكذيبهم وكفرهم قائلين: يا ويلنا! قد كنا في غفلة من هذا، فلم نُعِرْ آياتِ القرآن تفهماً وتصديقاً، ولا سُنّةَ رسول الله ﷺ قَبولاً واعتقاداً وعملاً، فكنا ظالمين لأنفسنا بذلك.

وقد اعترض الذين جعلوا آيات القرآن كناية وكذبوا الأحاديث، فقالوا: لماذا لم يعثر الإفرنجُ على أرض يأجوج ومأجوج، وهم قد مسحوا الأرض وطاروا في الفضاء؟ فلو كان هناك حقيقةٌ اسمُها يأجوج ومأجوج غير البشر المعروفين لنا؛ لرأوهم وعرفوهم كما فَهِمْتُم بأنه صريحُ القرآن والمرويُّ من السنّة الصحيحة.

وجوابنا على ذلك من وجوه:

الأول: أنه لا يلزمُ من وجودِ الشيءِ في مكان أن يُعرَف ذلك الشيءُ ويُعثرَ على مكانه عقلاً، فالعقل لا يحتم ذلك؛ بدليلِ: أنّ الأنْفُس التي بين جنبي الإنسانِ لا يعرفونها ولا يدرون من أيِّ شيءٍ هي، ومن جَهِلَ نفسَه التي بين جنبيه؛ فهو أجهلُ بما في زوايا الأرض وخباياها التي بينهم وبينها سدودٌ من الجبال الشامخاتِ والظواهر التي أودعها الله في الكون، وإذا كان وجودُ الشيءِ في مكان لا يستلزمُ العلمَ به ولا بمكانه عقلاً، فدعواكم أنهمُ اطّلَعوا على كلِّ شيءٍ دعوى باطلةٌ بلا دليل، والعقلُ يأباها.

الوجه الثاني: أننا نسمعُ في كلِّ حين من إذاعات الغربِ أنفُسِهم وما تنشُرُه الجرائِدُ، أنهمُ اكتَشَفوا جزيرةً في موقعِ كذا، وتحَدُّ بمكانِ كذا في يوم كذا، وهذا برهانٌ على جهلهم بالأرض القريبة لهم، ودليلٌ على بطلانِ دعواكم.

الوجه الثالث: أن جهلَ الإفرنجِ واضحٌ جليٌّ، فأرضُهم مملوءةٌ بالمعادن والخيرات، وهم أحرص الناس على تحصيلها والعثور على ذلك، وفي كلِّ حينٍ يظهرُ جهلُهُم بما يكتشفون في أرضهم، فلو كانوا كما تدَّعون فيهم؛ لما كان في كل حين اكتشافاتُ منجمٍ أو مَعدِنٍ أو بترولٍ أو غير ذلك.

الوجه الرابع: إنّ جهلَهُم بالبديهياتِ أمرٌ ظاهرٌ مفروغ منه؛ وذلك في الاجتماعيات والقوميات وعاداتهم وطباعهم وأخلاقهم، واللهُ يُظهر كلَّ حين جهلَهم بما يُعلِنون أنهم اكتشفوه وعثروا عليه:

كل يومٍ تُبدي صُروفُ الليالي خُلُقاً مِنْ أبي سَعيدٍ غَريبا

الوجه السادس: إنّ مِنَ البديهي في هذه الدنيا عندَ كل أحدٍ: إنَّ كل صنعة لا بد لها من صانع، وهذا الكون أرضه وسماؤه وما فيهما أعظم صنعة، ومع ذلك فإن أكثر الإفرنج أيها الأفراخ! لا يعترفون بصانعٍ=

....

=هذا الكَون القويّ العزيز الحكيم العليم الخبير، فهل من يجهل أكبر البديهيات يستحقُّ أنْ يُدعَى في عِلمِه الإحاطةُ والتَّمامُ؟

الوجه السابع: إنّ كتابَ اللهِ وسنةَ رسول الله أصدقُ مِنْ كلّ أحدٍ، وإنّ كلَّ مسلم يعتزُّ بإيمانه، لا يمكنُ أنْ يكذبَ اللهَ ورسولَه في أخبارِهما ويصدقَ أعداءَهما الذين جَهْلُهم من أوضحِ الواضحات.

الوجه الثامن: إنّ في بعضِ الكتبِ الإسلاميةِ -كَكُتُبِ التفاسير والتواريخ-: إن بعض الملوك أرسل بعَثات لمشاهدةِ السد وأنهم رأوْه ووصفُوه، وقد جاء إلى النّبي ﷺ رجل، وزعم أنه رآه، فقال له النّبي ﷺ: «صفه لي»، فوصفه فصدقه -عليه السلام-.

هذا وفي كل حين يُظهر الله آياته لعبادِه معجزاتٍ على صدق كتابه ورسوله ﷺ، وجهلِ الملحدين وأذنابهم: ﴿سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّه الحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

أما الأحاديثُ الواردةُ في شأنِ يأجوج ومأجوج فهي كثيرةٌ في جميع كتبِ الحديثِ؛ منها: حديثُ زينب بنت جحش...» وساقه.

ثم قال: «وورَدَ ذكرُ يأجوجَ ومأجوجَ من حديث النواس بن سمعان في «الصحيح» -أيضاً-.

والخلاصة: أن الأحاديث في هذا الباب كثيرةٌ، وهي شارحةٌ للقرآن، مبينةٌ له، نافيةٌ عند التفسير بالكناية والمجاز، وقد نقلها المسلمون واعتقدوها ودانوا بها، أما من ألهَبَتْ ظهورَهُم أسْواطُ الملاحدة فراحوا ينكرون ويحرِّفون فلا عبرة بما فعلوا» انتهى كلامه.

وقال الشيخ صالح الفوزان في كتابه «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» (ص ٢٣٨):

«وقد أنكر بعض الكتّاب العصريين وجودَ يأجوج ومأجوج ووجودَ السد، وبعضُهم يقول: إن يأجوجَ ومأجوجَ هم جميع دول الكفر المتفوقة في الصناعة!

ولا شك أنّ هذا تكذيب لما جاء في القرآن، وتكذيبٌ لما صح عن رسول الله ﷺ، أو تأويلٌ له بما لا يحتمِلُه، ولا شك أنّ من كذب بما جاء في القرآن أو صحّ عن رسول الله ﷺ، فهو كافر، وكذلك من أوَّلَه بما لا يحتمِلُه؛ فإنه ضالّ، ويُخشَى عليه من الكفر.

وليس لهؤلاء شبهةٌ يستَندون إليها؛ إلا قولهَم: إن الأرضَ قدِ اكتُشِفَت كلُّها، فلم يوجَدْ ليأجوج ومأجوج ولا للسد مكانٌ فيها.

والجواب عن ذلك: إنّ كونَ المكتشفين لم يعثروا على يأجوج ومأجوج وسدهم، لا يدلُّ ذلك على عدم وجودِهم، بل يدلُّ على عجز البشر عن الإحاطة بملكوت الله -عزَّ وجلَّ-، وقد يكون الله -عزَّ وجلَّ- صرف أبصارَهم عن رؤيتهم، أو جعل أشياء تمنعُ مِن الوصول إليهم، والله قادرٌ على كل شيء، وكلُّ شيء له أجَل؛ كما قال -تعالى-: ﴿وكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ قُل لَسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦-٦٧]، وما الذي أعمى أبصار الأوائل وأعجز قدراتهم عن كنوز=

=الأرض التي اكتشفها المعاصرون كالبترول وغيره، إلاّ أن الله -عزَّ وجلَّ- جعل لذلك أجلاً ووقتاً؟! فالله المستعان» انتهى.

قال أبو عبيدة:

لعب المجددون -أو المجردون- في عصرنا الذي نحيَى فيه بنصوصِ الوحيَيْن الشريفَين قبلَ انقضاءِ الحياةِ الدنيا، بالتأويلِ المُنطوِي على الإنكار تارةً، وبالإنكار الصريحِ أخرى، ذلك أنهم -في حقيقة أمرهم- لا يؤمنون بالغيب، أو لا يكادون يؤمنون، وخروجُ (يأجوج ومأجوج) يُعلَم من كتاب ربّنا، وحديثِ نبيّنا ﷺ، فلا يُجدِي هؤلاء الإنكارُ أو التأويلُ على غير وجهه، وإني أرى أنّ كلَّ من يمُاري في هذا الأمر فإنه مبتَدِعٌ ضالٌّ، وليستِ المسالةُ مسألةَ خلافٍ، بل هي مسألةُ إجماعٍ، وأنها من جنس الأخبار التي لا مجال فيها للرأي والاجتهاد.

خامساً: اعتمد مصَنِّفُنا -رحمه الله- على عدةِ أقوال لمفسِّرين ومؤرِّخين، ونقل كلامَهم -بتأملٍ وتدبُّر-، وربطَه بما ورد في (المَعْلَماتِ) العالَمية، والكتب الأَجنبية عن الصين -بطريقة فيها نباهةٌ وذكاءٌ- أوْهَمَتْ بصحةِ ما ذهب إليه! وكم كُنْتُ أتمنّى لو أنّه أورَدَ أدلةً علميةً يقينيةً -وهيهات- على صحةِ ما ذهب إليه، فالجزمُ الحاسم في هذه المسائلِ ينبغي أنْ يعتمِدَ صاحبه على أدلةٍ فيها عصمةٌ إنْ كانت نقلية، أو مشهورةٍ مستفيضةٍ لا تخالفُ الحقائِقَ العلميةَ إنْ كانتْ شفَهية، أما نقلُ كلام المؤرخين والمفسرين فحسب، وإسقاطُه بقدحِ فِكْرٍ، وإعْمالِ نظر على مكان معيَّن، أو شخص معيَّن، فهذا لا يُقبلُ في البحث العلمي المنهجي اليقيني، وإنما يبقى قولاً كسائر الأقوال، يحتملُ الخطأَ والصَّوابَ.

ومثل هذا ما أورده المصنف من خبر (سلاّم التَّرْجُمان) الطويل، فهو خبر غريب من مجهول، لا يَعدُّه أحدٌ من أهلِ العلم حجةً في مسألةٍ علمية، كيف وهو مضطَرِب، أوردَتْه الكتبُ على وجوهٍ وألوان متعددة، ولو كان صحيحاً لاعتنوا به، وجعلوه فَيْصلاً في مثل مسألتنا هذه، ولجعلوا لذلك المكان شأناً يُشتَهر به، ولدوّنوا خبرَه في كتب التاريخ، ولم يوجدْ شيءٌ من ذلك إلا على سبيل التندُّر والطُّرْفة، على أنه لو وُجدَ بهذا التطويل والتفصيل لما كان حجةً في موضوعِنا لجواز أنْ يكونَ سببُه أسطورةً أو إشاعةً، تناقلتْها بعضُ الكتب التي تعتني بالإغراب للإعجاب فحسب، قال الآلوسي في «روح المعاني»: «ثقات المؤرِّخين على تضعيف هذا الخبر، وعندي أنه كذب»، فتنبه ولا تكن من الغافلين!

سادساً: لقد تعددتْ أقوالُ المفسرين والرواياتُ في صدد القصة ومدلول عباراتِها، سواءٌ أكان في صدد شخصية ذي القرنين، أم في ماهية يأجوج ومأجوج، أم في مكان السد، أم في البلاد التي وصل إليها ذو القرنين، أم في العين الحمئة، وأكثره لا يستند إلى إسناد وثيق أو صحيح، ومنه ما هو أدخلُ في الخيال منه في الحقيقة، كما أنّ منه ما ينقضُ بعضُه بعضاً، وسبق أنْ أشرنا إلى ذلك، فلا داعيَ للإعادة.

وفي «تفسير القاسمي» (١١/ ١٠٠) -وهو من التفاسير الحديثة- عزوٌ إلى بعض المحققين بأنه كان يوجدُ وراء جبلٍ من جبال القوقاز -القفقاس- المعروف عند العرب بجبل قاف؛ في إقليم طاغستان=

....

=قبيلتان؛ إحداهما: اسمها (آقوق)، وثانيهما: (ماقوق)، عربهما العرب بيأجوج ومأجوج، وهما معروفتان عند كثير من الأمم، وورد ذكرُهما في كتب أهل الكتاب، وتناسلَ منهما كثيرٌ من أمم الشمال والشرق في روسية وآسية، وأن السد كان بين مدينتي (دربند) و(خوازار) في إقليم الطاغستان، حيث يوجد مضيقٌ بين المدينتين يسمى الآن بباب الحديد وبالسد، وفيه أثر سد حديدي قديم بين جبلين، وذكَر نقلاً عن «صفوة الأخبار» أنّ السورَ الذي وصلَتْ إليه سريةُ الواثقِ العباسي: هُو سورُ الصين الذي يبلغ طوله نحو (١٢٥٠) ميلاً، وسمكه من الأسفل نحو خمسة وعشرين قَدماً، ومن أعلاه نحو خمسة عشر قدماً، وارتفاعه ما بين خمسَة عشرَ إلى عشرين قدماً، وفي أماكنَ منه حصونٌ يبلغ ارتفاعُ بعضِها إلى أربعين قدماً، وهذا السور لم يبْنِه إسكندر؛ وإنما الذي بناه الإسكندر هو سد (دربند).

وكلام هذا المفسر يفيد أنّ ذا القرنين هو الإسكندر المكدوني المشهور، وقد حاولَ المفسرُ أنْ يوفّقَ بين ما هو معروف من عقيدة الإسكندر المكدوني الوثنية، وبين مقتضى الآيات القرآنية، وقال: إنه لا يقتضي من عقيدة اليونان الوثنية أن يكون هو وثنيّاً، وأنّ أساتذته أرسطاطاليس وفيثاغوروس إلهيّون، ولا تبلغُ محاولتُه حدَّ الإقناع -وسبقَ أن ذكرنا تعقُّب محمد أبو اليسر عابدين عليه-، وظاهرٌ من كلامِه أنّـهُ بَنى السّدَّ لمنع زَحْفِ قبائلِ (ماقوق) و(آقوق)...

وهناك عالمان هنديان مسلمان مشهوران عصريان، وهما: شبلي النعماني وأبو الكلام آزاد، بحَثا في موضوعِ ما جاء في الفصْل القرآني بحثاً يتّسِمُ بسِمَة العلم والتّروّي، ويستَنِدُ إلى مصادرَ عديدةٍ ووثائقَ أثريةٍ هامّة، وقد أدّى البحث عندَ الأولِ إلى ترجيحِ كون ذي القرنين هو (دارا الكبير) ملك الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد، وأن اليأجوج والمأجوج من قبائلِ (الإسكيت) التّترية التي كانت تُقيم في الشرق من جبال القوقاز، وأن السّدّ الذي بناه هو السّد المعروف بسد دربند القريبِ من مدينة دربند الواقعةِ غربيّ بحر الخزَر.

وأدى البحثُ عند الثاني إلى ترجيح كون ذي القرنين هو الملك (كورش) ملك الفرس في القرن السادس قبل الميلاد، والذي حكم قبل دارا الكبير، والذي قوّضَ مملكةَ بابل الكلدانية، وأذِنَ لليهود المسبيِّين في مملكة بابل بالعودة إلى فلسطين وتجديد أورشليم (بيت المقدس) ومعبدها سنة (٥٨٣ ق. م)، وأن السدّ هو غير سدِّ دربند، وإنما هو بين طَرَفي جبلٍ مِنْ جبال القوقاز بين مدينتي (ويلادي كيوكز) و(تفليس)، ويعرف باسم مضيق كورش فيما يعرف به من أسماء، وأنه لا يزال موجوداً، وهو خليط بالحديد والنحاس، وأن يأجوج ومأجوج هم قبائلُ (منغولية) كانت تعيث فساداً في البلاد، فأنشأ كورشُ السدَّ لِمَنْعِهم، وحاولَ كلٌّ من العالِمَين إثباتَ أنّ كلاً من رَجُلَيْهما أنه ذو القرنين بما كان من كثرة فتوحاته وسعة سلطانه، وإثباتَ أنّ الزرادشتية التي كان يدينُ بها كلٌّ من المَلِكين تَقولُ بوحدَةِ الله وتأمرُ بالخير وتَدينُ بالآخرة! ومن الجديرِ بالذكر أن أبا الكلام آزاد نقّبَ عن السد بنفسِه، وذهب إلى إيرانَ وعايَنَ منطقَةَ السدّ، وكتبَ خلاصةَ رحلته وبحثه، ونشرها في مجلة «ترجمان القرآن» التي كان يصدرها أبو الأعلى المودودي=

....

=في الهند، ثم في الباكستان.

وفي عام (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م)، أخذ الشيخ أحمد حسن باقوري مقال آزاد في المجلة المذكورة، وكتب له مقدمة طويلة، معظمها حديث عن نفسه وعن رحلاته وعن صلته بالزعيم (جمال عبدالناصر)، وعن زيارته للباكستان والهند وأندونيسيا والصين، وصدَر الكتابُ عن (دار الشعب) في مصر بعنوان «ويسألونك عن ذي القرنين».

وجُهدُ أبي الكلام آزاد متميزٌ وقيّم، والجيد أنه يعرضُ أدلّته باستقصاء، ويستَشْهدُ بالتاريخ والجغرافية والاكتشافات الأثرية والأمور التي عاينها، وانتصر القاسمي -فيما سبق- لرأيه، وبيَّنَ الدكتور عبدالعليم خضر في كتابه «مفاهيم جغرافية في القصص القرآني» (ص ٢٢٥-٣٣٣) صحةَ هذا القول وزيّفَ ما عداه، وتكلم عن جبال (القوقاز) التي بُني عليها السد -على حد زعمه-، وأنها تُشكِّلُ سلاسلَ عظيمةِ الامتداد، كثيرةِ الارتفاع، صعبةِ الاجتياز، معدومة الممرات؛ إلا في ممر واحد، هو مضيق (داريال) في الوسط، وهو الذي يجري فيه أحدُ روافدِ نهر (ترك) العليا، والجبالُ تمتد حتى تكادَ ترتَطِم بأمواجِ بحر قزوين من الشرق، وتمسّ مياهَ البحر الأسود من الغرب، طول امتدادها يبلغ (١٢٠٠) كم، وهي أعلى جبال أوروبا قاطبة، ولا يمكن عبورُها على الإطلاق، إلا من ممر (داريال).

ويرجح أبو الكلام آزاد ومعه الدكتور عبدالعليم أن (ذا القرنين) هو (كورش)؛ لأنه وحّدَ مملكتي (ميديا) و(فارس) في مملكة واحدة! ويُقدِّمان دليلاً -هو من أقوى الأدلة عندهما- بكشفٍ أثريٍّ هامٍّ، وهو تمثال حجري لكورش وجدوه منصوباً في مكان يبعد عن عاصمة إيران القديمة (إصْطخَر)، نحو خمسين ميلاً على شاطئ النهر (مرغاب)، وقد سبق (جيمس موريز) فأخبر بوجوده، ثم جاء بعد سنواتٍ (رابرت كير بورتر)، فقاس المكان وفحَصَه فحصاً دقيقاً، ونشَر رسماً للتمثال بقلم الرصاص، وذلك في كتابه «رحلتي إلى إيران وجورجيا»، وقد تكلم (القس فورستر) سنة ١٨٥١هـ على التمثال -واستدل به على نصوص «التوراة»، وكذلك نشر صورة للتمثال أوضح من الأولى-.

ثم لما ألّف الكاتبُ الفرنسيُّ الشهير (دي لافواي) كتابه عن الآثار القديمة في إيران، نشر فيه صورةً عكسية للتمثال، فعرفه الناسُ معرفةً تامّةً! وأثبت الدكتور عبدالعليم صورتَه عنه! وقام الأستاذ امتياز عرشي بالرد على الأستاذ عبدالعليم من ناحية تاريخية في كتاب سماه «تأملات في شخصية ذي القرنين»، نشِر عن مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٨٩م.

ومع أنّ مِن واجبنا أنْ ننوه بجهديهما؛ فإن من الحقِّ أن نقولَ: إن كلامَهُما لا يَصِلُ في رأينا إلى مبلغِ الإقناع، وإنه يدور على الأكثر في نطاق التأويل والتخريج والتخمين والتوفيق.

ومن الجدير بالذكر أن الاثنين استندا فيما استندا إليه إلى (سفر نبوءة دانيال) من أسفار «العهد القديم»، الذي احتوى رؤيا رآها هذا النّبي اليهودي الذي شهد غزو نبوخذ نصر ملك بابل لبيت المقدس وتدميره لها وللمعبد وسبي بني إسرائيل منها إلى بابل، وكان هو من الجملة. =

....

= ومما ذكره من رؤياه أنه رأى كبشاً ذا قرنين ينطح بهما غرباً وشمالاً وجنوباً فلم يقف حيوان قُدّامَه، وإذا بتَيْسٍ من المعزِ جاء من المغرب له قرن واحد بين عينيه، تقدم إلى الكبش وضربه وكسر قرنيه، وأن جبريل فسر له رؤياه بأمر الله -في الرؤيا أيضاً- بأن الكبش هو مَلِك فارس ومادى، وأن التيس هو ملك اليونان.

وقد ذكرَتْ بعضُ المصادر اليهودية التاريخية القديمة أنّ أحبارَ اليهودِ تقدموا إلى الإسكندر المكدوني حينما جاء إلى أورشليم، وأوردوا على مسامعه رؤيا دانيال، وقالوا له إنه هو المقصود من تيس المعز الذي ضرب بقرنه ذا القرنين ملك فارس وكسر قرنه بسبيل التقرب إليه والحظوة لديه، ولا يبعد أن يكون السِّفرُ قد دُوِّنَ بعدَ مدّةٍ ما مِنْ حياة دانيال، وأنه دخل عليه زياداتٌ ونقصٌ.

وعلى كلِّ حال؛ فنحن لا نرى طائلاً من أيّةِ محاولةٍ في كشف شخصيةِ ذي القرنين؛ لأنها لن تستندَ فيما نعتقد إلى علمٍ وثيقٍ يمكن أن يكون فيه توفيق بينها وبين ما جاء في القصة القرآنية، ونرى الأَوْلَى أن يوقَفَ عند ما وقفَ عنده القرآنُ، ونكتفي بالقول: إن الإشارات التي احتوتها الآيات لا بد من أن تكون عنَتْ شخصيةً معروفة باسم ذي القرنين في عصر النّبي ﷺ عن طريقٍ ما، وكانت جواباً شافياً للسامعين والسائلين.

ولا يفوتُنا أن ننبِّه على أنَّ المفسِّرين أوردوا أخباراً عن شخصية ذي القرنين وأسفاره التي أشير إليها في آياتِ القصة إشارة خاطفة، وما عَزَوْه مما أورَدُوه إلى بعض أصحاب رسول الله والتابعين هو بدون إسناد، أو بإسناد ضعيف جدّاً، ولم يَرِدْ شيءٌ منه في كتب الأحاديث الصحيحة، وقد سبق أن أورَدْتُ بعض هذه الأخبار، وهي طويلة طويلة.

وننبه على أمر هام في صددهم، وهو ذِكْرُهم في أسفار العهد القديم والعهد الجديد، فقد ذكر في (الإصحاح العاشر) من «سفر التكوين» اسم (ماجوج) كولد من أولاد يافث بن نوح مع جومر وماداي وياوان وتوبل وماشك وتيراس، وقد ذكرت كلمة جوج كأرض ماجوج رئيس روش وماشك وتوبل بإسهاب في (الإصحاحَين: الثامن والثلاثين، والتاسع والثلاثين) من (سفر نبوءة حزقيال)، وهو من سبي اليهود إلى بابل وتنبأ وهو في السبي، وفي (الإصحاحين) ما يفيد أن الله سيبعث في آخر الزمان من المشرق ماجوج وجموعاً كثيرة أخرى من أرض جوج وغيرها نحو فلسطين، زحف عظيم كأثر من آثار غضبه، فيكونُ اضطرابٌ عظيمٌ وبلاءٌ كبيرٌ على البشر الذين هم على وجه الأرض، وتندكُّ الجبال وتسقط المعاقلُ والأسوار، ثم ينتهي أمرُهم بالموت في أرض فلسطين، ويكونون مأكلاً للجوارح والعصافير وكل ذي جناح ولوحش الصحراء، وقد ورد اسم جوج وماجوج في (الإصحاح العشرين) من (سفر رؤيا القديس يوحنا) من أسفار «العهد القديم» بما يفيد أنهم أمة عظيمة في زوايا الأرض الأربع في عدد كرمل البحر، يخرجون في آخر الزمن ويحيطون بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة، ثم تهبط نار من السماء فتأكلهم.

ومما ينبَغي ذكرُه بهذا الصدد -أيضاً-: =

....

= سابعاً: أن جهوداً قامت لغير واحد من المعاصرين في الكلام على شخصية (ذي القرنين) اعتماداً على ما في «العهد القديم» وغيره من تراث الأمم الأخرى، ومن أهمها:

ما ذهب إليه محمد أمير يكن في كتابه «يهوذا الإسخريوطي على الصّليب» قال في (ص ٣٣٥-٣٣٧) ما نصه:

«يذكر «العهد القديم» في (نبوءة حزقيال) (٣٨ و ٣٩) أن فلسطين سوف تتعرض لهجوم مسلح بقيادة يأجوج ومأجوج ومن قبائل أقاصي الشمال، ويتزعمهم جومر الذي يتفرع منه اشكناز وآل توجرمة، وهم قبائل الخزر التي دخلت في اليهود في القرن السابع الميلادي، واستوطنوا شرق أوروبا وشمالها... وأنهم سيهاجمون إسرائيل...

وقد كانت نبوءة حزقيال في القرن السادس قبل الميلاد، وكلمة بني إسرائيل في ذلك الزمان كانت تطلق على الشعب المؤمن بالله والمطيع لشريعته، وبناءً على هذه الملاحظة فإن كلمة بني إسرائيل الواردةُ في النبوءة ترمز إلى المسلمين (!!) أما اليهود الغازون اليوم لفلسطين فليسوا تاريخياً وعرقياً من بني إسرائيل، وهم الذين عَبَّر عنهم حزقيال بيأجوج ومأجوج... فجومر ومأجوج أخوان، وأولاد جومر هم اشكناز وتوجرمة، واسم يهود أوربا المهاجرين إلى فلسطين اشكناز... وتذكر النبوءة أن يأجوج ومأجوج سيأتون إلى فلسطين من زوايا الأرض الأربع، وهذه هي صفة الهجرة اليهودية، ولكنّ الزَّعامة هي دائماً لأهالي الشمال؛ أي: للأوروبيين.

وتذكرُ النبوءة أنَّ هذا الحدَثَ سيتمُّ بعدَ أيام كثيرة وفي آخر السنين، وقد مضى على هذه النبوءة ستة وعشرون قرناً ولم يحدث خلال هذا التاريخ الطويل أن جاء إلى فلسطين محاربون من جهات الأرض الأربعة في وقت واحد، إلا في هذه الهجرة الأخيرة» انتهى كلامه.

يرى يكن في كتابه هذا أن الخروج الثاني ليأجوج ومأجوج هو الغزو اليهودي الحالي لفلسطين، فاليهود الحاليُّون هم اليهود (الخزر) القادمون من مناطقِ يأجوجَ ومأجوجَ، والمتحدِّرون منهم سُلالِيّاً، وإفسادُهم هو الغايةُ التاريخيةُ الكبرى.

ووافقه على هذا الدكتور محمد إبراهيم هلال في كتاب «الإسراء وإسرائيل»، ثم فصل ذلك في كتابه «يأجوج ومأجوج... الخزر... إسرائيل» المنشور عن مؤسسة الرسالة، ودار البشير، وكذلك فعل فهد سالم في كتابه المنشور بعنوان «كشف السر التاريخي: يهود اليوم، هم يأجوج ومأجوج»، واعتمد خصوصاً د. هلال على نبوءات أهل الكتاب، وأورد جميع ما ورد عن يأجوج ومأجوج، بحيثُ من الممكنِ القولُ أن كتابه غنيّ جدّاً بما ورد عندهم، وخرج بهذه النتيجة بعد استقصاءٍ ودراسةٍ للجهودِ التي سبقته في هذا المضمار!

وفي الحقيقة لم يبقَ إلا القرآنُ وصحيحُ الحديثِ في الاعتماد؛ على وجه يقينيّ بشأنهم، وهما=

....

=المصدران الوحيدان اللذان حُفِظا من التحريف والتبديل، والتوراةُ أحيطت بأساطيرَ، وشُحِنَتْ برواياتٍ لا شكَّ أنها فريدةٌ على الأصلِ المُوحى به من الله، فلم تعُد مصدراً علمياً يقينياً لما ورد فيها! وبالتالي لا يجوز الاعتماد عليها.

وقد سقنا -فيما مضى- ما يُثبتُ أنَّ يأجوج ومأجوج سيخرجون آخرَ الزمان، وأن السد موجود، وذكرنا خطأ من زعم عدم وجوده، وأن ذلك من الضعف بالإيمان بالغيب، وهذا القول قائم على ذلك الزعم!

ثامناً: حصل تعديلٌ وزيادةٌ على ما ذهب إليه أبو الكلام آزاد من قِبَل بعض المعاصرين، فها هو الدكتور الشفيع الماحي أحمد يتبنى نظريةَ أبي الكلام، ولكنه يرى أن المغول سيكون لهم خروجٌ أخير هو خروج يأجوج ومأجوج الموعود في سورة الأنبياء، فهو يرى أن صفة التأجج ملازمة للمغول كعرق، ولا تخمد حتى تبدأ في التأجج من جديد، يقول:

«إن الله خلق يأجوج ومأجوج على هيئة ميَّزتْهم عن إخوانهم، وركَّبَ فيهم من الصفات والخصائص ما لا يصدر عنه إلا كل ما يتسم بالشدة والاضطراب والسرعة، وجعل كل ذلك قواماً لتكوينهم النفسي والروحي، ومبنى لنظام أجسامهم وملامحهم، فخرجوا وقد اصطبغوا بصبغة التأجج والأجيج؛ منها انتُزِع اسمُهم، فكانوا اسماً على مسمّى، وغُرزَ فيهم ذرةُ التأجج في أصلابهم، فظلت تنتقل من السلف إلى الخلف، وستبقى كامنة فيهم، ومتوارثة في أجيالهم إلى آخر الزمان».

وقد كان الشيخ طنطاوي جوهري صاحب «تفسير الجواهر» قد رأى -ما رآه مصنِّفُنَا- أنّ الصينيينَ هم يأجوج ومأجوج، يقول: «الصين ثلث العالم، وهي أمة واحدة وقد ارتفعت، أفلا يقال: إنهم يعيدون الكرة مرة أخرى، ويقلبون وجه الأرض؟! أفلا يكون هناك خروج لهم مرة أخرى؟ أليس ذلك هو الذي أخبر به غليوم ملك الألمان إذ قال: (ويل لأوروبا من الصين) وسماه الخطر الأصفر... إلخ»!

ومثله: (فتوى مفسر عصريّ)، صدرت في مجلة «صباح الخير» (!!) القاهرية، بتأريخ ٩/ ٤/ ١٩٧٠م، فيها ربط حوار بين الماريشال (مونتجومري) و(ماوتسي تونج) عن تكاثر أهل الصين، واحتمال غزوها للعالم، برؤيا يوحنا اللاهوتي. انظر رداً قوياً عليه لعائشة عبدالرحمن في كتابها «القرآن وقضايا الإنسان» (٣٦٢-٣٦٤).

وفي الواقع؛ فإذا كان تفسير الشيخ الطنطاوي يفتقِدُ الدقة التاريخية حيث لم يكن للصينيين خروج أول؛ فإن تفسير د. الشفيع أحمد لا يأخذ بعين الاعتبار ما آل إليه أمر المغول اليوم، حيث أصبح عددُهم لا يتجاوز البضعةَ ملايين، مقسّمين بين منغوليا الخارجية المستقلة اسمياً، ومنغوليا الداخلية التابعة للصين، وقد خضعوا دينياً للبوذية التيبيتية (اللامية)، ولم يعد لديهم أيُّ تأجج يذكر.

هذا وقد دخل الإسلام شعوبُ القوقاز وتركستان الشرقية والغربية والصين، ولو استمرَّ المدُّ الإسلاميُّ لدخلَتْ هذه الشعوب في دين الله أفواجاً، ولو قام المسلمون اليوم بعمل دعوي جادٍّ بينهم لدخل فريقٌ كبيرٌ منهم في الإسلام، وأنه لمن التَّحكم الظنُّ بأن شعوباً قد خُلِقت وطابعها الغريزي هو الإفساد والتأجج، وهجرات قبائل البدو من المناطق القاحلة إلى المناطق الزراعية والحضرية في أطرافها لها ما يقابلها في كل مكان تحدث في ظروف طبيعية متشابهة، ولنا في ما يسمى بالهجرات السامية من جزيرة العرب إلى أطرافها مثال شبيه. =

....

= وعليه؛ فإننا نصلُ إلى المأزق الذي وقعت فيه نظريةُ آزاد وتفرعاتها، والتي تقوم على نوع من التجميع التحكمي لخروجات ظنية، وحقيقيةٍ لأعراق مختلفة داخلَ منطقةٍ واسعةٍ جداً من الأرض. أفادَه الدكتور محمد إبراهيم هلال.

ونَنوِّه هنا بأن كلام المؤرخين عن المغول كثيرٌ وشهيرٌ، ومن لطيف ما وقفت عليه مفرداً: «الغزو المغولي: أحداث وأشعار» للأستاذ مأمون فريز جرار، منشور في عمان، سنة ١٤٠٤هـ.

تاسعاً: من أبعد الآراء عن الحقيقة والصواب، ما ذكره صاحب «المعلقة العربية الأولى» أو «عند جذور التاريخ» (١/ ١٣٨-١٤٨) من أن (ذا القرنين) هو موسى المذكور في الآيات قَبْلُ في قصة الخضر ليس هو موسى النّبي -عليه السلام-، وإنما هو موسى بن ميشا، وانتصر لقول نوف البكالي ابنِ امرأةِ كعب، الذي قال عنه ابنُ عباس -كما هو ثابت في «صحيح البخاري» (٢١٢٢، ٣٢٧٨، ٣٤٠١، ٤٧٢٥، ٤٧٢٧، ٦٦٧٢)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٠)-: «كذب عدوّ الله».

وجاء بشيء لم يُسبَقْ إليه، ولا تساعدُ اللغةُ عليه، فكيف وقد أنكره من دعا إليه النّبي ﷺ بأن يعلّمه الله التأويل، ويفقهه في الدين؟!

وعالج ما ذهب إليه بالتبادل مع الأحداث الأسطورية لملحمة (جلجامش) بحسبانه هو هو، وأنه فتح الدنيا، واكتشف أمريكا واستراليا، ودار حول العالم، مع إرجاعه إلى أصول يمنية، وذلك في مجلدين يتّسمان بالضخامة والجهد.

ومما ينبغي ذكرُه أنه يلتَقي في بعضِ تقريراته مع المصنِّف، وأن نفَسَه في بيان أنّ كولومبسَ مسبوق باكتشاف أمريكا مفيدٌ غاية، وهو مهم.

عاشراً: لا بدَّ من كلمةٍ تخص الأقوال السابقة جميعاً، فنقول: من الغريب والعجيب أن يفسِّر بعضُ الناس -مهما أوتوا من قوةِ إدراك، وحسنِ فهم، وكثرةِ بحث، ودقةِ نظر، وطول تتبع وبحث وتمحيص- شأناً غيبياً من شؤون الله الخاصة، لم يَنْزِلْ بتفصيله وحيٌ، ولم يُطْلِع اللهُ على حقيقته أحداً من خلقه، ببعض الظواهر الحاضرة، أو الأحداث التاريخية الغابرة، التي اكتشفها العِلم، واهتدى إليها بنو الإنسان، فيهجمون على الغيب بما لم يأذنْ به الله، ويجدون من العلماء من يؤيدُهم ويشجعهُم ويزكيهم، ويتمنى أن يُكثّر اللهُ أمثالهم!

إن هؤلاء في عصرنا الحديث لَمِنْ بقايا قومٍ سالفين فكّروا مثلَ هذا التفكير، ولكنْ على حسب ما كانت توحي به إليهم أحوال زمانهم، فحاولوا أن يُخضِعُوا القرآن لما كان عندهم من نظريات أو معلومات.

وهذه النظرةُ للقرآن خاطئةٌ من غير شك؛ لأنَّ الله لم ينزل القرآنَ ليكونَ كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن هذا، وهي خاطئةٌ من غير شك؛ لأنها تحمل أصحابَها والمغرمين بها على تأويلِ القرآن تأويلاً متكلّفاً، وهي خاطئة؛ لأنها تُعرِّض القرآنَ للدوران مع المسائلِ في كل زمان ومكان، وهذه المعارفُ لا تعرف=

=الثباتَ والاستقرارَ، ولا الرأيَ الأخيرَ، فقد يصحُّ اليومَ في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات.

فلو طبَّقْنا القرآن على هذه المسائل المتقلِّبةِ، لعرَّضْنَاه للتقلّبِ معها، وتحمُّل تبعاتِ الخطأ فيها، ولأوقَفْنا أنفُسَنا بذلك موقفاً حَرِجاً في الدفاع عنه.

وأخيراً... يعجبُني كلام للعلاّمة القاسمي -رحمه الله تعالى- في تفسيره «محاسن التأويل» (١١/ ٨٧ -٩٠) يلتقي معَ ما قررناه، وفيه بيان الدروس والعظات المستنبطة من قصته في القرآن، مع الإيعاز إلى أنه رشَّحَ كونه (الإسكندر)، وسبق أن نقلنَا الردَّ عليه، وهذا نص كلامه -رحمه الله تعالى- تحت عنوان (تنبيهات):

«قدمنا أنه ليس في القرآن شيءٌ من التاريخ من حيثُ هو قَصصٌ وأخبار، وإنما هي الآياتُ والعِبَر والأحكامُ والآدابُ تجلَّت في سِياق الوقائع، ولذا يجب صرفُ العنايةِ إلى وُجوهِ تلك الفوائدِ والثمرات، وما يُستنبَطُ من تلك الآيات، وقد أشار نبأُ ذي القرنين الإسكندر إلى فوائدَ شتّى، نذكرُ ما فُتِح علينا منها، ونكِلُ ما لم نحط به علماً إلى العليم الخبير.

فمن فوائِدها: الاعتبارُ برفع الله بعضَ الناس درجات على بعض، ورزقِه من يشاء بغيرِ حساب مُلكاً ومالاً، لما له من خفيّ الحِكَم وباهرِ القدرة، فلا إله سواه.

ومنها: الإشارةُ إلى القيام بالأسباب، والجري وراءَ سنةِ الله في الكون من الجد والعَمل، وأنَّ على قدر بَذل الجهد يكون الفوز والظَّفْر، فإن ما قُصَّ عن الإسكندر من ضَربِهِ في الأرض إلى مغرب الشمس، ومَطلِعِها وشمالها، وعدم فُتوره، ووجدانِه اللّذةَ في مواصَلة الأسفار وتجشُّمِ الأخطار، وركوبِ الأوعار والبحار، ثم إحرازه ذلكَ الفخَار، الذي لا يُشَقُّ له غبار، أكبرُ عبرةٍ لأولي الأبصار.

ومنها: تنشيط الهممِ لرفعِ العوائقِ، وأنّه ما تَيسّرتِ الأسبابُ، فلا ينبغي أن يَعُدَّ ركوبَ البحر ولا اجتياز القَفْر، عذراً في الخمول والرضاء بالدون، بل ينبغي أن ينشَطَ ويمثلَ في مرارته حلاوةَ عقباهُ من الراحة والهناء، كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظَّفْر ولذة الانتصار؛ إذا لم يكن من الذين تُقعِدُهم المصاعب عن نيل ما يبتغون.

ومنها: وجوبُ المبادرة لمعالي الأمور من الحداثة؛ إذ من الخطأ التسويفُ فيه إلى الاكتهال، فإن الإسكندَر لما تبوَّأ مُلكَ أبيه كان في حدود العشرين من عمره، وأتى ما أتى وهو في ريعان الشباب وقوة الفِتاء، فهاجم أعظمَ ملوكِ عصره وأكبر جيوشهم، كأنه القضاءُ المبرم، ولم يقِف في وجهِهِ عددٌ ولا عُدد، وخاضَ غمراتِ الرَّدى غير هيّاب ولا وَجِل، وأضافَ كلَّ العالمَ الشرقيَّ إلى المملكة اليونانية وهو شاب، وقضى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، كما دوَّنه محققو المؤرخين.

ومنها: أن مَنْ قَدَر على أعدائه وتمكَّنَ منهم، فلا ينبغي له أنْ تُسكِرهُ لذةُ السلطة بسَوقِهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غُصَص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته، فإن ما=

....

=حكي عن الإسكندر من قوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [الكهف: ٨٧] إلى آخره، نهايةٌ في العدل وغايةُ الإنصاف.

ومنها: أن على الملك، إذا اشتُكي إليه جورُ مجاورين، أن يبذلَ وسعَه في الراحة والأمْن؛ دفاعاً عن الوطن العزيز، وصيانةً للحرِّيَّةِ والتمدن من مخالبِ التَّوحش والخراب؛ قياماً بفريضةِ دفع المعتدين، وإمضاء العدل بين العالَمِين، كما لبَّى الإسكندرُ دعوةَ الشاكِين في بناء السد، وقد أطبَق المؤرخون على أنه بنى عدةَ حصونٍ وأسوار لردِّ غاراتِ البرابرة، وصد هجَمَاتهم.

ومنها: أنّ على الملك التعفُّفَ عن أموال رعيته، والزهدَ في أخذِ أجرة، في مقابلة عمل يأتيه، ما أغناه الله عنه، ففي ذلك حفظ كرامته، وزيادة الشغف بمحبته، كما تأبّى الإسكندر تَفضُّلاً وتكرُّماً.

ومنها: التحدث بنعمة الله -تعالى- إذا اقتضاه المقام؛ كقول الإسكندر في مقام تعفُّفِه عن أموالهم، والشفقة عليهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]؛ كقول سليمان: ﴿فَمَا ءَاتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّآ ءَاتَاكُم﴾ [النمل: ٣٩]، وقد قيل: إنَّ دخْلَ الإسكندر من البلاد التي فتحها، كان نحو ستين مليون ليرة إنكليزية!!

ومنها: تدعيمُ الأسوار والحصونِ في الثغور، وتقويتها بذوب الرصاص، وبوضعِ صفائح النحاس خلال الصخور الصُّم، صدقاً في العمل ونَصحاً فيه؛ لينتفع به على تطاول الأجيال، فإنّ البناءَ غيرَ الرصين لا ثمرةَ فيه.

ومنها: مشاطرةُ المَلِك العمّالَ في الأعمال ومشاركَتُهم بنفسِه إذا اقتضى الحال؛ تنشيطاً لهمتهم، وتجرئة لهم، وترويحاً لقلوبهم، وقد كان الإسكندرُ يقاسم الرجالَ الأتعاب، ويدير العمل بنفسه، كما بينه الذكرُ الحكيم في قوله: ﴿ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ [الكهف: ٩٨].

ومنها: تعريفُ الغيرِ ثمرةَ العمل المهم؛ ليعرفوا قدْرَه فيُظهِرُوا شكرَه، ولذا قال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

ومنها: الإعلام بالدور الأخروي، وانقضاء هذا الطَّوْر الأوَّليّ؛ لتبقى النفوسُ طامحةً إلى ذلك العالم الباقي والنعيم السّرمدي، ولذا قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

ومنها: الاعتبار بتخليد جميل الثناء، وجليل الآثار، فإن من أنعم النظر فيما قُصَّ عنه في هذه الآيات الكريمة، يتضحُ له جليّاً حسنُ سجاياه وسمُوُّ مزاياه، من الشجاعة وعلوّ الهمّة والعفّة والعدل، ودأبهِ على توطيد الأمن، وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين، والإحسانِ إلى النوع البشريّ، لا سيما في زمانٍ كان فيه أكثرُ عوائدِ وأخلاقِ الأمم المتمدنة وغير المتمدنة وحشيةً فاسدةً.

ومنها: الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة، كما كان يرمي إليه سعي الإسكندر، فإنه دأبَ على توحيد الكلمة بين الشعوب، ومزجِ تلك الأمم المختلفة ليربطَها بصلاتِ الحبِّ والعوائد، وقد=

....

=حكا أنه كان يجيّشُ من كل أمة استولى عليها جيشاً عرمرماً، يضيفه إلى جيشه المكدوني اليوناني، ويأمر رجاله أن يتزوجوا من بناتهم؛ لتوثيق عرى المحبة والارتباط، وإزالة البغض والشحناء.

ومنها: الاعتبارُ بما يبلغه الإنسانُ، وما فيه من بليغ الاستعداد، يقضي على المرء أن يعيشَ أولاً طِفلاً مرضعاً، لا يعلم ما حوله ولا يطلب غيرَ ما تحتاج إليه طبيعتُه الضعيفة، قياماً بما تقتضيه أسبابُ الحياة، وهو مُلقًى إذ ذاك لا إرادةَ له، وعرضَةَ الأسقام تذيقُه الآلامَ، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يَرى ويدركَ شيئاً من هذا النظام، فإذا استظهرت فيه عواملُ الحياة على دواعي الممات، وسرت بجسمه قوى الشبيبة، وصرف ما أنعم الله عليه إلى ما خُلِقَ لأجله، ترعرعَ إنساناً عظيماً ظافراً بمنتهى أمله» انتهى.

حادي عشر: وأخيراً... أفردَ غيرُ واحد من العلماء والمطّلعين شخصية (ذي القرنين) بالتّصنيف، وقد جَهَدت في حصر المؤلفات والنظر فيها، وسَبَق ذِكرُ عددٍ غيرِ قليلٍ منها (وانظر فهرس الفوائد: الكتب: ما ألف في ترجمة ذي القرنين)، وهاك ما وقفْتُ على عنوانه دون النظر في مضمونه ومادته:

١- «قرّة العينين في بعض ما يتعلّق بذي القرنين» لحسن الأبطحي المالكي، مخطوط في المكتبة الظاهرية.

٢- «سيرة الإسكندر ذي القرنين» لأبي إسحاق الصوري، مخطوط في مكتبة برنستون.

٣- «ضياء النيرين في سيرة ذي القرنين» لزكي محمد أبو سريع، مطبوع بمصر في (٨٠) صفحة، سنة ١٩٩٧م.

٤- «قورش لا يمتّ لذي القرنين بصلة» للطير، مطبوع بمصر، سنة ١٣٨١هـ في (٣٠١) صفحة.

٥- «أخبار ذي القرنين» لإبراهيم بن سليمان بن عبد الله النهمي الشيعي، ذكره له كحالة في «معجم المؤلفين» (١/ ٣٥).

٦- «إزالة الغين عن قصة ذي القرنين» لأحمد خان الدهلوي، ذكره له عبدالحي الحسني في «الثقافة الإسلامية» (ص ١٧١).

وأما (سد ذي القرنين) فقد صنف فيه جمع، وهذا ما وقفت عليه مما لم يقع له ذكر فيما سبق:

٧- «أخبار السد، للإمام الذهبي»، ذكره له الصفدي في «نكت الهميان» (ص ٢٤٣)، و«الوافي» (٢/ ١٦٤)، وابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات» (٢/ ١٨٣).

٨- «جواب الاعتراض عن مسألة السد الأعظم» للفيضي آبادي، مخطوط في مكتبة لينينغراد.

٩- «المصباح واللاجوج الكاشف عن سد يأجوج ومأجوج» لمحمد بن عبدالسلام السائح الرباطي (ت ١٣٤٧هـ)، ذكره له عبدالله بن العباس الجراري في كتابه «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين» (ص ١٧٦). =

....

= وينظر غير مأمور: «معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي» (١/ ٥٣٩، ٦١٤).

ومن نافلة القول، أن هذا الباب مطروق رائج، والكتابة فيه مطلوبة من القارئين والناشرين، وهنالك عدةُ رسائلَ مطبوعةٍ مفردةٍ لا جديد فيها، فالجمع ناقص، والتحقيق مفقود، والمعلومات التي حَوَتْها هي الموجودة في كتب أشراط الساعة بعامة، ولكنَّ عناوينَها برّاقةٌ جذابة، وبعضُها لا يصلح أنْ يوضَعَ على كتاب!

وانظر: «يأجوج ومأجوج» لحسن زكريا فليفل، نشر مكتبة ابن سينا، مصر، و«يأجوج ومأجوج» ديوان شعر زجلي نفساني مصور لمنير إلياس وهيبة، و«الساعة الخامسة والعشرون: المسيح الدجال، يأجوج ومأجوج، المهدي المنتظر» لكامل سعفان، و«يأجوج ومأجوج» لحمزة مصطفى الفقير، و«يأجوج ومأجوج: صفاتهم وعددهم ومكانهم وقصة ذي القرنين معهم» لعكاشة عبدالمنان، وغيرها.

الفصل العاشر

في الفتح الثاني للسد وهو الويل العظيم الأول للعرب من يأجوج ومأجوج

ثم إن هذا الفتح الذي أخبر به الحديث النبوي، لما كان قليلاً كما هو صريح الحديث، وكان عبارةً عن مقدار لا تتمكن الجيوشُ الجرارةُ من المرور منه، لم يكن له شيءٌ من التأثير؛ إلاّ أنَّ تلك (الأممَ اليأجوجيةِ) -وهي: المغل[1]- ظلت تعالج فيه السنين الطوال حتى أواخر القرنِ السادس الهجري، أو أوائل القرن السابع، فهدمَتْ فيه قسماً كبيراً عريضاً تتمكن الجيوش العظيمة من المرور منه آمنة مطمئنة، وبعد أن تمّ لها ذلك في ذلك التاريخ عادت إلى ما كانت عليه من التخريب والإفساد في الأرض، فانقضت من شمالي بلاد الصين إلى جنوبها تحتَ قيادةِ جبّارها جنكيز خان فاستولت عليها، واتخذ الطاغيةُ بلدةَ كراكوردم من بلادِ الصين عاصمةً له، ثم توجّهَ إلى تركستان الشرقية فافتتَحها، ثم توجَّهَ نحو البلادِ الإسلاميةِ ففعل بها أفاعيلَه المشهورةَ المبسوطة في كتب التاريخ، كابن الأثير وغيره، وكانَت وفاته سنة (٦٢٤)، ثمّ لمَا آل المُلْكُ إلى ولدِ ولدِهِ هولاكو جاء بعسكره الجرار إلى بغدادَ سنة (٦٥٦)، وفعل بها تلك العظائمَ، وأزال دولةَ بني العباسِ، فهذا هو الويلُ الأولُ للعرب، وإن شئتَ فقُلْ: للأمةِ الإسلاميةِ، وإليكَ خُلاصَةً عن هذه (الأمّة اليأجوجية) وأعمالِها الفظيعةِ الوَحْشية:

قال في «النخبة الأزهرية» في الكلام على بلاد الصين (ص ٥٤٠):

«الصين أقدمُ ممالكِ الأرضِ، مضى على تاريخها نحوُ أربعةِ آلافِ عام،

(١) كذا في الأصل، وصوابها: «المغول».

حكَمَتْها فيها (٢٢) دولة، أشهرها دولـة (تشـاو) التـي ظهـر فـي عهدهـا الفيلسـوف الحكيم (كونفوشيوس)[١]، المتَّبعةُ تعاليمُه الدينيَّةُ في الصين للآن[٢]، ثم دولة (تشن)

---

(١) لحسن شحاته سعفان: «كونفوشيوس النّبي الصيني»، منشور عن مكتبة النهضة، مصر، وترجم محمد مكين كتاب «الحوار» لكونفوشـيوس، فيلسـوف الصيـن الأكـبر، ونشـر عـن المطبعـة السـلفية سـنة ١٣٤٥هـ ولمحمد سيد كيلاني كلمة عنه في «ذيله على الملل والنحل للشهرستاني» (ص ١٩).

(٢) (الكونفوشيوسية) ليست ديناً سماوياً معروفاً، وقد تتضمن بعض تعاليمها دعوة إلى خلق حميد أو رأي سليم أو سلوك قويم، ولكنها ليست مما يتقرب إلى الله به: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيرَ الإِسْلامِ دِيْناً فَلَـن يُقْبَـلَ مِنهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٩]، وهي تماثل البوذية والهندوسية وغيرها مـن الأديـان الباطلة.

وعموماً فقد جَبَّ الإسلام ما قبله من الأديان: ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْـدَ اللـهِ الإِسْـلامُ﴾ [آل عمـران: ٨٥]، وللحق فليس هناك ما ينفي أو يثبت ابتعاث رسول معيّن إلى الشعوب الأخرى، ودعوى ذلك لا تخلـو مـن الحدس والتخمين، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصنَا عَلَيْكَ وَمِنهُمْ مَن لَم نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وقد كان المزج المحكم بين الفلسفة الخُلُقية والتعاليم الدينية على أتمِّ وضوحٍ في الكونفوشيوسية، وصاحبها كونفوشيوس الذي لم يكن رسولاً مبعوثاً ولا مدعياً لرسالة.

ترجع الكونفوشيوسية إلى معتقدات الصينيين القدماء، تلك المعتقـدات التـي ترجـع إلـى (٢٦٠٠) سنة قبل الميلاد، وقد قَبلَها كونفوشيوس أولاً، والكونفوشيوسيون ثانياً، دون مناقشة أو جدال أو تمحيص.

في القرن الرابع قبل الميلاد حدثَتْ إضافةٌ جديدة؛ وهي: عبـادة النَّجمـة القُطبيـة؛ لاعتقـادهم بأنهـا المحورُ الذي تدورُ السماءُ حولَه، ويعتقدُ الباحثون بأنّ هذه النَّزْعَةَ قد وفَدَت إليهم مـن ديانـةِ بعـضِ سـكان حوض البحر المتوسط.

تغلبت الكونفوشيوسية على النزعة الشيوعية والنزعة الاشـتراكية، اللتـان طرأتـا عليهـا فـي القرنيـن السابقين للميلاد وانتصرَتْ عليهما، كما أنها استطاعت أن تصهر البوذيةَ بالقَـالَب الكونفوشيوسـي الصينـي، وتنتج بوذيةً صينيةً خاصةً متميزةً عن البوذيةِ الهنديةِ الأصليةِ.

لا تزال المعتقداتُ الكونفوشيوسية موجودةٌ في عقيدة أكثر الصينيين المعاصرين، علـى الرغـم مـن السيطرةِ السياسيّة للشيوعيِّين.

منذ عام ١٩٤٩ أبعِدَت الكونفوشيوسية عن المسرحَين السياسيِّ والدِّيني، لكنها ما تـزالُ كامنـةً فـي رُوحِ الشعب الصيني.

=

التي بُنِيَ في عهدها السور العظيم السابق ذِكْرُه، ليقي البلاد من هجمات المغول، ثم دولة هان (خان) التي قضت أيام حكمها في قتال مع المغول، لكنهم لم يلبثوا أن استَوْلوا على جزء عظيم من الصين في سنة ١٢١٠ ميلادية تحت قيادة جنكيز خان، واستخلصَتْ منهم الصين» اهـ.

وهذا التاريخ يوافق أولَ القرنِ السابعِ للهجرة الذي كان فيه مُعظمُ فتوحاتِ جنكيز خان لبلاد الصين، ثم هجَمَاته على البلاد الإسلامية كما سيأتيك.

وقال قبلَ ذلك في (ص ٥٣٩):

«٤- بلاد المغول، ومن مدُنِها الشهيرة (كامي) و(باركول) في سفح جبال (تيان شان)، ثم (أورجا)، وسكانها (٥٠) ألفاً على مقربة من الحدود السيبيرية، وأهمية هذه المدن قليلةٌ، وهي في قتالٍ مستمرٍّ معَ سكانِ الصحراء، حتى إنَّ كثيراً من شَبيهاتها من المدن انقرضَ من جرَّاء ذلك، ولا تزالَ خرائبها قائمةً لليوم، ومن ضمنها مدينةُ (كراكوردم) التي كانت عاصِمةً لجنكيز خان ملك المغول» اهـ.

وفي «شذرات الذهب» للعماد الحنبلي (ج ٥ ص ١١٣ في حوادث سنة ٦٢٤):

«وفيها في رمضان مات[1] جنكيز خان طاغيةُ التتار وسلطانهم الأعظمُ الذي خرَّبَ البلاد وأباد الأمم، وهو الذي جيّشَ الجيوشَ، وخرَجَ بهم من باديَةِ الصين،

= ما تزال الكونفوشيوسية ماثلةً في النظم الاجتماعية في فرموزا أو (الصين الوطنية).

انتشرت كذلك في كوريا وفي اليابان حيث دُرِّسَتْ في الجامعات اليابانية، وهي من الأسُسِ الرئيسية التي تشكِّلُ الأخلاق في معظمِ دولِ شرق آسيا وجنوبها الشرقي في العصرين الوسيط والحديث.

حَظِيَتْ الكونفوشيوسيةُ بتقديرِ بعضِ الفلاسفة الغربيِّين كالفيلسوف ليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦م) وبيتر نويل الذي نشر كتاب «كلاسيكيات كونفوشيوس» سنة ١٧١١م، كما تُرجمَتْ كُتُبُ الكونفوشيوسية إلى معظم اللغات الأوروبية.

انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (٢/ ٧٥٨-٧٦٧).

(١) في مطبوع «الشذرات»: «في رمضان قبل المصاف بأيام اتفق موت...».

فدانَتْ له المغول، وعقدوا له عليهم، وأطاعوه -ولا طاعة الأبرار للملك القهّار-، واسمه قبل الملك تمرحين (هكذا)، ومات على الكفر، وكان من دهاة العالم، وأفراد الدهر، وعقلاء الترك، وهو جد ابني العَمِّ بركة وهولاكو».

قال الجلال السيوطي في «تاريخ الخلفاء»[(١)] في الكلام على خلافة المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين:

«أرضُ التتار بأطراف بلاد الصين، وهم سكان براري، ومشهورون بالشَّر والغدر، وسببُ ظهورهم أنّ إقليم الصين متسع، دَورُه ستةُ أشهر، وهو ستٌّ[(٢)] ممالك، ولهم ملك حاكم على الممالك الست، هو القان الأكبر المقيم بطمغاج، وهو كالخليفة للمسلمين، وكان سلطانُ إحدى الممالِك السِّت -وهو دوش خان- قد تزوجَ بعمَّةِ جنكيز خان، فحضر زائراً لعمته، وقد مات زوجُها، وكان قد حضر مع جنكيز خان كشلوخان، فأعلمَتْهُما أن الملك لم يخلف ولداً، وأشارت على ابن أخيها أن يقوم مقامه، [فقام][(٣)] وانضمَّ إليه خلقٌ من المغول، ثم سير التقادم إلى القان الأكبر، فاستشاط غيظاً، وأمر بقطْعِ أذناب الخيل التي أهدِيَتْ، وطردها، وقتْل الرسل؛ لكون التتار لم يتقدَّمْ لهم سابقةٌ بتملُّك، إنما هم بادية الصين، فلما سمع جنكيز خان وصاحبُه كشلوخان تحالفا على التعاضد، وأظهرا الخلاف للقان، وأتَتْهُما أممٌ كثيرة منَ التتار، وعلمَ القانُ قوَّتَهم وشرَّهم، فأرسل يؤانِسُهُم ويُظْهِرُ مع ذلك أنه ينذرُهُم ويهدِّدُهم، فلمْ يُغْن ذلك شيئاً، ثم قَصَدَهُم وقصدوه، فوقع بينهم ملحمةٌ عظيمةٌ، فكَسرُوا القانَ الأعظَم وملكوا بلاده، واستَفْحَل شرُّهم، واستمر الملك بين جنكيز خان وكشلوخان على المشاركة.

---

(١) (ص ٥٣٥-٥٣٧ - ط. دار القلم، بعناية قاسم الشماعي ومحمد العثماني)، وذكر قبله خبراً عن الموفق عبداللطيف، ثم قال: «وقال غيره: ...» وساق المذكور.

(٢) في الأصل: «ستة»، والمثبت هو الموجود في «تاريخ الخلفاء».

(٣) سقط من الأصل، وأثبته من «تاريخ الخلفاء».

ثم سارا إلى بلاد شاقون من نواحي الصين فمَلَكَاها[١]، فمات كشلوخان، فقام مقامه ولده، فاستضعفه جنكيز خان، فوثب عليه وظفر به، واستقلَّ جنكيزُ خان، ودانَتْ له التتارُ، وانقادتْ له، واعتقدوا فيه الألوهية، وبالغوا في طاعته.

ثم كان أولُ خروجهم في سنةِ ستٍّ وستٍّ مِئَةٍ من بلادهم إلى نواحي الترك وفرغانة، فأرسلَ خوارزمُ شاه محمدُ بنُ تكش صاحب خراسان الذي أبادَ الملوكَ، وأخذ الممالِكَ، وعزمَ على قصدِ الخليفة، فلمْ يتهيّأْ له[٢]، فأمرَ أهلَ فرغانة والشاش وكاسان وتلكَ البلاد النّزِهَة العامرةِ بالجلاء والجَفَلَى إلى سَمَرْقند وغيرِها، ثم خرَّبها جميعاً خوفاً من التتار أنْ يملِكُوها؛ لعلمه[٣] أنه لا طاقة له بهم.

ثم صارت التتار يتخطفون ويتنقلون[٤] إلى سنةِ خمسَ عشْرةَ، فأرسل فيها جنكيزُ خان إلى السلطان خوارزم شاه رُسلاً وهدايا، وقال الرسول: إن القان الأعظم يسلِّمُ عليك، ويقول لك: ليسَ يَخْفَى عليَّ عِظَمُ شأنِك، وما بلغْتَ من سلطانك، ونفوذِ حُكمِك على الأقاليم، وأنا أرى مسالمَتَك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثلُ أعزّ أولادي، وغيرُ خافٍ عليك أنني تملَّكتُ الصينَ، وأنتَ أخبرُ الناس ببلادي، وأنها مثاراتُ العساكرِ والخيول، ومعادنِ الذهبِ والفضةِ، وفيها كفايةٌ عن غيرها،

---

(١) بلاد شاقون: إما سنجان أو نانكين، عاصمة الصين القديمة، وعلى كلٍّ فهي جنوبي السَّد، وفي ذلك دِلالَةٌ ظاهرةٌ على أنهم خرّبوا من السّدّ ما يَتَمكَّنُون به من المرور بالجيوش العظيمة، وخرجوا إلى جنوب بلاد الصين التي اشتكت إلى ذي القرنين منهم، فعادوا إلى ما كانوا عليه من الإفساد والتخريب والاستيلاء على البلاد، ولما تمّ لهم ما أرادوا، كرّوا راجعين إلى جهة الشمال، ومنها ساروا غرباً إلى نواحي الترك وفرغانة، ومنها إلى خوارزم شاه، ثم توسعوا في الفتح والتخريب في غربي آسيا شمالاً وجنوباً، إلى أنْ وَصَلوا إلى البلاد السورية، وكان من أمرهم ما سجَّلَه التاريخُ. (منه).

(٢) بعدها في مطبوع «تاريخ الخلفاء»: «كما تقدم».

(٣) في الأصل: «أمامه»!!

(٤) في الأصل: «وينتقلون» بالياء آخر الحروف، ثم النون، ثم التاء، والمثبت من «تاريخ الخلفاء».

فإن رأيتَ أن تعقد بيننا المودَّة، وتأمُرَ التجّار بالسفر لتعمَّ[١] المصلحتين فعلت.

فأجابه خوارزمُ [شاه][٢] إلى مُلتَمَسه، وبشَّر جنكيز خان بذلك، واستمرَّ الحالُ على المهادنة إلى أنْ وصل من بلاده تجّار.

وكان [خال][٣] خوارزم شاه ينوب على بـلاد مـا وراء النهـر، ومعـه عشـرون ألف فارس، فشرَهَتْ نفسُه إلى أمـوال التّجـار، وكـاتَب السـلطانَ يقـول: إن هـؤلاء [القومِ قدْ][٤] جاءوا بزيّ التجار، وما قَصْدُهُم إلاّ التجسُّس، فـإنْ أذِنْـتَ لـي فيهـم، فأذِنَ له بالاحتياط عليهم، فقبَضَ عليهم وأخذَ أموالهَم[٥]، فرَدَّتْ رسل جنكـيز خـان إلى خوارزم شاه تقولُ: إنك أعطَيْتَ أمانَكَ التجارَ فَغدَرْتَ، والغدرُ قبيح، وهـو مـن سلطان الإسلام أقبَحْ، فإن زعمتَ أنّ الذي فعله خالُكَ بغيرِ أمركَ فسـلِّمْه إلينـا، وإلا سَوف تشاهدُ مِني ما تَعرِفُني به، فحصلَ عند خوارزم شاه من الرعبِ ما خَامَر عقْلَه، فتجلّد وأمر بقتل الرسل، فقتِلوا.

فيا لها من حركة لما هَدَرَتْ[٦] من دماءِ المسلمين، أجرَتْ[٧] بكلٍّ نقطةٍ سـيلاً من الدم.

ثم سار جنكيز خان إليه، فانجفل خوارزم شاه عن جيحون إلـى نيسـابور، ثـم سار إلى برج همذان رعباً من التتار، فأحدق به العدو، فقتل كل من معـه، ونجـا هـو

---

(١) كذا في الأصل، وهو الصواب، وفي مطبوع «تاريخ الخلفاء»: «لتعلم»!

(٢) سقطت من الأصل، وأثبتها من مطبوع «تاريخ الخلفاء».

(٣) سقطت من الأصل، وأثبتها من مطبوع «تاريخ الخلفاء».

(٤) سقطت من الأصل، وأثبتها من مطبوع «تاريخ الخلفاء».

(٥) يا له من تدبير سيئ وقلة بصر بعواقب الأمور؛ حيث اتخذ جنكيز خان من ذلـك حجـة يطـرق بها هذه البلاد، ويأتي بأفعاله الفظيعة الهمجية. (منه).

(٦) كذا في الأصل! وفي مطبوع «تاريخ الخلفاء»: «أهدرت».

(٧) كذا في الأصل! وفي مطبوع «تاريخ الخلفاء»: «وأجرت».

بنفسه، فخاضَ الماءَ إلى جزيرة، ولحِقَته علّة ذات الجنب، فمات بها وحيداً فريداً، وكُفِّن في شاش فراش كان معه، وذلك في سنة (سبع عشرة وست مئة)، وملكوا جميع مملكة خوارزم شاه».

وذكر ابن الأثير في «كامله»(١) ما كان من أمر التتار إلى سنة (٦٢٨)، وأبو الفدا(٢) ما كان منهم إلى حين وفاته.

ثم قال الجلال السيوطي(٣):

«ولما دخلت سنةَ ستٍّ وخمسين وصل التتار إلى بغداد، وهم مئتا ألف ويقدمهم هولاكو(٤)، فخرج إليهم عسكر الخليفة، فهزم العسكر، ودخلوا بغداد يوم

---

(١) في أحداث سنة (سبع عشرة وست مئة) (١٢/ ٣٥٨ - ط. دار صادر): (ذكر خورج التتر إلى بلاد الإسلام)، وفي أحداث سنة (ثمان وعشرين وست مئة) (١٢/ ٤٩٥): (ذكر خروج التتر إلى أذربيجان وما كان منهم)، وفي (١٢/ ٤٩٩): (ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في البلاد من الفساد)، وأخربوا سنة ثمان وخمسين مدينة حلب وغيرها.

وانظر: «شفاء القلوب» (٢٦٨-٢٩٦)، «العبر» (٥/ ٢٤٥)، «الروضتين في أخبار الدولتين» (٢/ ٤٧٧ و٤/ ٤١١)، واستولوا على بغداد في أول سنة ست وخمسين وست مئة.

انظر: «الروضتين» (٤/ ٦٦)، ولابن عربشاه «عمدة السير في دولة الترك والتتر» كذا في «هدية العارفين» (١/ ١٣)، ولأسعد أفندي «السبع السيار في أحوال التتار»، ومن الكتب المطبوعة: «تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان وبلغار وملوك التتار»، وفي الخزانة العامة بالرباط: «نزهة المقلتين في أخبار الدولتين العلائية والجلالية وما كان فيهما من الوقائع التاتارية»، وعنه مصورة على شريط (رقم ٦٧٧) في (مركز الوثائق والمخطوطات) في الجامعة الأردنية.

(٢) في «تاريخه» (٢/ ٢١٦، ٢٤٦-٢٥١، ٣٠٨-٣١٣، ٣١٤-٣٢٠، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤٧-٣٤٩، ٣٦٨، ٣٨١-٣٨٥، ٣٨٧-٣٨٩).

(٣) في «تاريخ الخلفاء» (ص ٥٣٩-٥٤٠).

(٤) هولاكو هو ابن طلو، وفي «طبقات الشافعية» [(٨/ ٢٦٨)]: «ابن تولى»، وفي «شذرات الذهب» [(٥/ ٣١٦)]: «ابن قولى» بن جنكيز خان، وكانت وفاته سنة (٦٦٤) كما في «الشذرات» للعماد الحنبلي. (منه).

عاشوراء، فأشار الوزير -لعنه الله- على المستعصم بمصانعتهم، وقال: أخرج إليهم أنا في تقرير الصلح، فخرج وتوثق بنفسه منهم، وورد إلى الخليفة، وقال: إن الملك قد رغب في أن يزوّج ابنته بابنك الأمير أبي بكر، ويبقيك في منصب الخلافة، كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يريد إلا أن تكون الطاعة كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف عنك بجيوشه، فليُجب مولانا إلى هذا فإن فيه حقن دماء المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، والرأي أن تخرج إليه، فخرج إليه في جمع من الأعيان.

فأُنزِل في خيمةٍ، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضُروا العَقْد، فخرجوا من بغداد فَضُرِبَتْ أعناقُهم، وصار كذلك: تخرجُ طائفةٌ بعد طائفة، فتضربُ أعناقُهم، حتى قَتَل جميع من هُناك من العُلماء والأمراءِ والحُجّاب والكبار[1]، ثم مُدَّ الجسرُ، وبُذل السيف في بغداد، واستمر القتلُ فيها نحوَ أربعين يوماً، فبلغَ القتلى أكثر من ألف ألف نَسمة، ولم يسلَم إلا مَن اختفى في بئرٍ أو قناة، وقتل الخليفة رفساً، قال الذهبي[2]: وما أظنه دُفن، وقُتل معه جماعةٌ من أولادِه وأعمامِه، وأسر بعضُهم، وكانَت بليةٌ لم يصَب الإسلامُ بمثلها، ولم يتمَّ للوزير ما أراد، وذاق من التتار الذلَّ والهوان، ولم تطُل أيامُه بعد [ذلك][3]».

ثم قال[4]:

«ولما فرغ هلاكو من قتل الخليفة وأهل بغداد وأقامَ على العراق نوّابَه، وكان ابنُ العلقميّ حسّن لهم أن يقيموا خليفةً علويّاً، فلم يوافقوه وطرحوه، وصار معهم في صورة بعض الغلمان، ومات كمداً -لا رحمه الله ولا عفا عنه-» اهـ.

---

(١) في الأصل: «والحجاب الكبار»، والمثبت: «والكبار» بزيادة الواو من مطبوع «تاريخ الخلفاء».

(٢) ما زال النقل بواسطة السيوطي، وكلام الذهبي في «تاريخ الإسلام».

(٣) سقط من الأصل، وأثبته من «تاريخ الخلفاء».

(٤) في «تاريخ الخلفاء» (ص ٥٤١).

فلا ريبَ أنّ تلك المصائب العظمى التي أزالَت الدولةَ العباسيَّة، وقتلَت من المسلمين ما يَرْبو عن أربعين مليوناً، وخرّبت تلك البلاد الزّاهيةَ العامِرة، هي الشّرُّ الكبير، والويلُ للعرب وللمسلمين العظيمُ، وكلُّ ذلك كان مِن قِبَل تلك الأمة: أمة التتار التي أتَتْنا من بلاد المغول الواقعة شمالي السد، فلا ريبَ في أنها أمة يأجوجَ ومأجوجَ، التي أخْبر الرسولُ الأعظم ﷺ أنَّ الويلَ القريب سيأتي للإسلام من قِبَلها، فكان الأمرُ كما أخبر، وكان ذلك من جملة معجزاته ﷺ[١].

واعلم أنه ليس من الضروري أنْ تأتِيَنا المغولُ من جنوبيِّ السدِّ بعد تخريبهم له من طريق بلاد التُّبَّت، بل المدار في الحديث على أنّ فتح هذا السد هو علامةٌ على قرب وقوعِ الشر للعرب، ومنذرٌ بهجمات تلك الأمم الواقعة في شرقيِّ آسيا على غربيها، والفتك الذَّريع فيها، وقد كان منها ما كان في البلاد المجاورة لها من حين خروجها في أولِ القرن السابع إلى أنْ كان منها ما كان في بغداد سنة (٦٥٦)، ثم أتَت إلى حلب ودمشق سنة (٦٥٨) وفعلت تلك الأفاعيل، مما هو مبسوطٌ في بطون التواريخ[٢]، ثم تتابعت غزوات التتار الذين أسَّسوا منهم عدةَ ممالك في بلاد الهند وبلْخ وبخارى وغزنة والعراق، وصار منهم عدة ملوكٍ فيها، ثم كان منهم ذلك الطاغيةُ الجبار (تيمر لنك بن أيتمش) الذي ولد سنة ٧٢٨ بقرية تسمى (خواجا أبغار) من عمل (كش) إحدى مدائن (ما وراء النهر)، وهي تبعد عن سَمَرْقند يومٌ واحد، وأمُّه من ذرية جنكيز خان اللعين، وكان منه ما كان في طروقه لبلاد العراق وبلاد الدولة العثمانية، ثم البلاد السورية، وكان منه فيها ما كان، وذلك في سنة (٨٠٣) كما بَسَطَهُ العلاّمة ابن الشحنة[٣] وغيره، ثم هلك في سنة (٨٠٧) كما في

---

(١) يشير إلى حديث مضى (ص ٢٤٧)، وسبق بيان ما في جزم المؤلف من أن التتار هم يأجوج ومأجوج، فارجع إليه غير مأمور.

(٢) انظر: ما علقناه قريباً.

(٣) لم يذكره المصنف في كتابه الماتع «الثقافة الإسلامية» (ص ٣٤٩-٣٥٠) ضمن (أشهر المؤلفين في الطبقات)، وابن الشحنة هذا هو مجد الدين أبو الوليد محمد بن محمد بن الشحنة (ت ٨١٥هـ)، ترجمه=

ترجمته في «شذرات الذهب» في (الجزء السابع)[١].

الويل العظيم الثاني للعرب من يأجوج ومأجوج

وإذا لم نَعدَّ تلك الغارات التي شَنَّها المغوليون بعد سنة (٦٥٨) إلى أواخر القرن الثامن شيئاً مذكوراً، فمِمّا لا ريب فيه: يجبُ أن تُعدَّ تلك الغارات التي حَصَلَتْ سنة (٨٠٣)، وقبل ذلك بقليل أخت الغارات التي كانت (٦٥٦) وسنة (٦٥٨) وما قبل ذلك، فتكونُ -أيضاً- هي الوَيل العظيم الثاني للعرب والإسلام؛ لأنها أتمَّت تخريب هذه البلاد وتقويضَ عِمرانها والقضاء على مدَنيّتِها الزاهرة والمدارس والعلوم التي كانت مُشيَّدةً وزاخرة فيها[٢].

=المصنف في «إعلام النبلاء» (٥/ ١٥٨-١٦١)، وذكر من تصانيفه: «اختصار تاريخ المؤيد»، وقال: «مع التذييل عليه إلى زمنه على طريقة الاختصار»، وترجم له السخاوي في «الضوء اللامع» (١٠/ ٣)، و«الذيل على رفع الإصر» (ص ٤٠٦).

(١) (ص ٦٢-٦٧).

(٢) ذكر الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي في كتابه «نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان» (٢/ ٧١-٧٢) تحت (فصل: فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة بعد الثمان مئة) تفصيلاً لما وقع ببلاد المسلمين آنذاك من قبل (تيمورلنك)، أسوقه على طوله، وفيه تفصيلٌ وشرح لما أبهمه المصنف، وهو لا يَقِلُّ كما أورده سابقاً من أمر (التتار)، وفي عباراته تألّمٌ وتوجّع واستشهاد بأشعار، وبعرضه على ما سمعنا ورأينا في بعض ديار المسلمين، نقول: (التاريخ يعيد نفسه)! ولا قوة إلاّ بالله، وإليه المشتكى.

وهذا نص كلامه، مقتصراً على ما وقع بالمسلمين في اختلاف أمصارهم، قال:

«وفي يوم الإثنين التاسع منه، حضر طغيتمر مقدم البريدية من الشام، وأخبر بأنّ تمرلنك قد أخذ سِيواسَ في آخِرِ السَّنةِ الماضية، وأنّه قاصدٌ مملكة الشّام، وكان تمرلنك قد جاء على سيواس من ناحية تبريز وأقامَ عليها وحاصَرها أشدَّ المحاصرة، وأذاقَ أهلها أشد العذاب، وفيها نائبٌ من جهة ابن عثمان يُسمَّى: أمير مصطفى، ومعه من العساكر ما يزيدُ على عشْرةِ آلاف نفر، ولم يُفد هؤلاء شيئاً، فآخر الأمر مُسِكَ نائبُها، واستَوْلى تمرلنك عليها، وقتل من أهلها ما ينوفُ على ثلاثة آلاف نفْس، وأخرب أسوارها، وحرقَ بقاعها، وأزالَ بهجَتَها، وبدَّد جمعها، وفرَّق شملها، وأفسدَ عسْكَرُه فيها مفاسد عظيمةً، من نهبِ الأموالِ، وسفْكِ الدماء، وسبي الحريم، وأسر الأطفال، فأقاموا عليها نحوَ شهر أو فوقه وهم يفسدون، وفي أرجائها يعيثون.

=

....

= ثم رحلوا منها وجاءوا على لارندة والبلستين، وأفسدوا فيها فساداً لا يُعدُّ ولا يُحْصَى.

ثم توجهوا إلى مَلْطية، ودخلوا فيها وأفسدوا فيها وعتَوْا عُتُوّاً كبيراً، بعد أن أقاموا عليها فوق عشرة أيام.

ثم رجعوا منها وتوجهوا إلى بهسنا، وهم يفسدون في كل موضع ينزلون فيه، وفي أطراف كل بقعة وأرجائها، وأثناء كلِّ طريق وأنحائها، بحيث لم يَسلمْ منهم مقيم من أهل الحضر، ولا مسافرٌ من أهل الخبَا والوبَر، إلى أن نزلوا على بهسنا وأطرافها وأذاقوا أهلها العذاب من أوضاعِها وأشرافِها، وأفسدوا فيها فساداً عظيماً، وبغَوْا على أهلها بغْياً جَسيماً.

ثم رحلوا عنها بعد أن أقاموا عليها عشرين يوماً متوجهين إلى مدينة عينتاب، موصلين إلى أهل تلك البلاد من أنواع العذاب، فقدِمُوا عليها وأخرَبوا دُورها، وأحرقُوا أسواقها، وهدّوا أبراج قلعتها.

ثم رحلوا منها -بعد أن أقاموا عليها أربعة أيام- متوجهين إلى حلب، طالبين لأهلها جميع الشر والنصب، وكل ذلك في أوائل السنة».

وقال في (٢/ ٧٤-٧٧) تحت عنوان (ذكرُ مجيء تمرلنك على حلب وأخذها):

«بتاريخ الحادي والعشرين من ربيع الأول، وصل بَريديٌّ من الشام إلى الأبواب الشريفة، وأخبر بأنَّ تمرلنك حضر إلى حلب، واحتاط بها يوم الخميس الحادي عشر من ربيع الأول، معه العساكر ما لا يحصيهم إلا الله -عزَّ وجلَّ- من سائر الطوائف: من الخراسانية، والسَّمْرَقندية، والقحطانية، والمغل، والتراكمين، وغيرهم من المفسدين والكفار ما لا يَعرفون اللهَ -تعالى- ولا رسوله، فنزلوا على حلبَ وأرجائِها، واشْتملُوا على أطرافها وأنحائها، بحيثُ صارَت بقعةُ حلبَ الشهباء مظلمةً كالليلة الدهماء، فَخرَجَتْ من العساكر المنصورة طائفةٌ بمثلها مقرونة، وتقاتلوا مع طلائعهم المفسدة، فتحاربوا وتشاجروا، وتخابطوا وتعابطوا، وترامَوا بالحجارة والنبال، وتقابلت النساءُ والرجالُ، وارتفعت الأصواتُ كما يلبي العُمّار والحجيج، وجُرحَتْ ناسٌ كثيرون، وسُفكت دماءٌ غزيرة، فافترقوا على ذلك، وخواطِرُ المسلمين في همٍّ وغمٍّ من ذلك.

ولما كان يوم السبت الثالثَ عشَر من ربيع الأول، ركبَتْ عساكرُ تمرلنك وتكردسوا على المسلمين وركسوا، وصبرَ المسلمون على ذلك صبراً عظيماً، وابتُلُوا بلاءً مبيناً، ثم ضعُفَت قلوبُهم وبالُهم، وتشتّت شملهم وتلاشَت أحوالهُم، إلى أن ولَّوا مدبرين، وطلبوا أبواب المدينة هاربين، فتزاحموا على الدخول في الأبواب، حتى هلكَ خلقٌ كثيرٌ على الأعتاب، ووقع في المدينة الهرجُ والمرج، وارتفعتْ أصواتُهم بالنَّوح والضجّ، واجتمعت نساؤهم في الجامع الكبير، وتزاحم الكبير على الصغير؛ فكأنهم وقد نفخ فيهم الصور، وحُشروا إلى يوم النشور، فبينما هم في هذه الداهية الدهماء، وإذا هم بالتمرلنكية لحقوهم بالسيوف السود، وركبوا أقْفِيتهم إلى أنْ دخلوا مدينتهم، فتفرقوا في أزقّتها وهم ينهبون، وشرعوا يقتلون ويأسرون،=

....

=ويخربون ويحرقون، فأذاقوا أهل الشهباء من أنواع العذاب، من القتل والعصر والكي والعقاب، ولله درُّ من قال:

علـى حلـبَ الشـهباء حلّـتْ مصـائب ... بـأيدي تمرلنـكَ ومغـلَ وجقطـاي

مِـنْ آل هـلاوز وبـاطو وجنكـز ... وإلغـاز وقـازان وبيـد وطقطـاي

وطوسـى وخربنـدا وننجـى وكتبغـا ... نويـس وصمغـار وقيـدو وبـولاي

وروس ونكـداد وبلطـد وطلسـبا ... وطولـوا وسـور وزيخـى ونوغـاي

ولم يزالوا في أزقّتها جاثمين، وفي دماء المسلمين عـائمين، فقتلـوا خَلقـاً لا يحُصى عددُهُـم مـن الصغار والكبار، غيرَ من ماتَ من الأطفال تحت سنَابك الخيول من الدوس والعثار، وغير مـن مـات مـن النساء في أبواب الجوامع وسوق البلاط، ومن مات من شدة الرعب وكثرة الصياح والعياط.

ثم اشتغلوا بنقْبِ القلعة وتخريبها، وصَرفَ المياه عنها وسيِّبها، وذلك بعـد أن تحصّـن بهـا أمراؤُهـا ونائبها، ونوابُ القلاع الشامية ممّن ذكَرناهم سالفاً، ونزل تمرلنك في السلطانية التي تجاه باب القلعة، ثم إنه أرسل للأمراء وغيرهم وغَشَّهُم، إلى أن اطمأنّوا إليه وأقبلوا عليـه، فـنزلوا واحـداً بعـد واحـد، فـأخلع علـى بعضهم خلعاً ظاهُرها رضى وصفا، وباطنُها مكرٌ وجورٌ وجَفا، فلما تمثلوا كلُّهم بين يديه، أقبل يخاطبُ كـل واحد بما لَديه، ثم أشار بمسك الجميع، بعد التهديد والتقريع، وأخذ جميـع مـا فـي القلعـة مـن الحواصِـل والأموال من الذهب والفضـة والقمـاش والسـلاح والأثقـال، ومسـك أعيـان الشـهباء وقضاتِهـا وكبراءَهـا وولاتها، واستخلَص منهم أموالاً تعجز عن حصرها العقولُ والأفهام، ويكلُّ عن ضبطها الحِساب بالأقلام، وأقام عليها عشرين يوماً يسـقيهم عذابـاً أليمـاً، ويعـاقِبهم عقابـاً عظيمـاً، فصـارت الشـهباءُ عـبرةً للنّـاظرين، وموعظةً للمتذكرين، فكأنها وقد صاح بها صائح فإذا أهلُها خامدون، ولسان حالهـا يقـول: يـا حسـرة علـى العباد الذين كانوا بالأمس في أمن راغدين، فـ:﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِليهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

فصار أغنياؤها فقراءَ يسألون، وتجارها لابسـين الأجـلال الأعـدال يـدورون، ومخدّراتهـا عاريـاتٍ مأسورات، ثكْلى على أولادهن مكسورات، وجوامعُها ومساجدها عـن الأذان والصـلاة والخُطب خاليـةً، ودورُها على أرضها خاويةً، ولسانُ حالها يقول: ﴿مَا أغنى عَنّي مَاليه . هَلَكَ عَنّي سُلطانية﴾ [الحاقـة: ٢٨-٢٩].

وقال في (٢/ ٨٢-٨٦) تحت عنوان: (ذكر دخول السلطان دمشق وخروجه منها ومـا جـرى عليـه وعلى عسكره وعلى المسلمين) ما نصه:

«ولما كان بتاريخ يوم الخميس السادس من جمادى الأولى، دخل السلطان الملك الناصر وصحبته العساكر المنصورة المصريون إلى دمشق، واستقرّ ركابُه في القلعة، وكان تمرلنك قد أتـى إلـى تحت جبـل الثلج. =

= وفي يوم السبت جاءت من عند تمرلنك طائفة زهاءَ عشرة آلاف فارس، ومقدّمتهم رجلٌ يقال له السلطان حسين، فتقدم إليهم من عسكر السلطان جماعة، فتقابلوا وقتلوا منهم خلقاً، فولّوا منهزمين، ولم يتحرّك تمرلنك من منزله ذلك مدة أيام، وكان كلَّ يوم يخرج من عسكره شِرذمة إليهم ويقرّبُون منهم، ثم يرجعون، ثم أرسل تمرلنك إلى السلطان فطلب منه شخصاً يقال له أطلمش، وكان الملكُ الظاهرُ قد مَسَكه وحبَسَه، واستمرَّ محبوساً بقلعة الجبل من مدَّة سنينَ، وقال: «أرسلوا إليّ هذا وأنا أرحل!»، وذلك مكرٌ وخديعةٌ وكذِب.

ثم بعد أيام قلائل حضر للسلطان الملك الناصر حسينٌ المذكور طائعاً، وعلى رأسه تاج مرصع بالجوهر والفصوص، وهو شاب ذو صورة جميلة وقامة حسنة، فخلع عليه السلطان قباء بطرز زركش، وأنعمَ عليه بفرس بسرج ذهب وكنبوش زركش، وذكر عن تمرلنك أنه في التلاشي والهوان، ثم إنه تواخَى مع الأمير بشبك الدوادار، وقد قيل إنّ مجيئه كان بطريق النصيحة للمسلمين، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وكان المذكورُ عند تمرلنك من الأمراء الكبار ومعه حاشيته فوق ألف نفس، وكانوا كلُّهم ينتهزون الفرصة للهروب والمجيء عند السلطان لأجل مخدومهم حسين، وكان ما تهيّأ لهم ذلك بسبب هروب العسكر المصري.

ثم بعد أيامٍ قلائل رحل تمرلنكَ من منزلته تلك وأخذ ناحية شُقحب من فوق جبل الكسوة، فلما رأت العساكرُ المصريةُ ذلك طمعوا فيهم وقالوا إنه يريدُ الهرب، فقام جماعةٌ من الأمراء وبرزوا إليهم حتى عدوا جسر الكسوة، وكان تمرلنك قد أكمن جماعة كثيرة وراء الجبل، ولم يظهر للمصريين منهم إلا أناسٌ قلائل، فهزت أنفسهم أريحيَة الشجاعة، فحملوا عليهم، فعند ذلك ظهرت أناسٌ مثلُ قطع الليل المظلم، كردوساً بعد كردوس، وصفّاً بعد صف، إلى أن هجموا على المسلمين، فلما رأى المصريون ذلك شرَعوا في تولي الأدبار، ونوَوا الهروب والفرار، فرجعوا وهم يقاتلون مدافعةً عن أنفسهم، ولم يزالوا على ذلك إلى أن تفرقوا كلُّهم شغر بغَر، ودخلوا المدينة متفرقين، وقد أخذ منهم بعض ناسٍ من ورائهم ممن كان فرسُه ضعيفاً، وقتل من عسكر تمرلنك جماعة، ولم يزل عسكر تمرلنك في السوق وراءهم إلى أن وصلوا قريباً من قبّة يلبغا الخاصكي، فنزلوا تحت جبال الكسوة مد البصر، فلما أظلم الليل أوقدوا نيراناً عظيمة، بحيث أوقعوا في قلوب الناس رعباً عظيماً.

فلما أصبحوا اصطفَّ الفريقان وتجهزوا للقتال، وكان ذلك يوم الخميس العشرين من جمادى الأول، فقام تمرلنك وصفّف عسكره مدَّ البصر فوق سبعين صفّاً، واصطفت المصريون كذلك، وجعل الأمير نوروز الحافظي رأس الميمنة، ويشبك الدوادار رأس الميسرة، والسلطان واقف في القلب، فوقع بينهم بعضُ القتال من أطراف الطرفين، ولم يزالوا على ذلك إلى آخر النهار.

ثم وقع بين المصريين هرْج عظيم؛ لما قيل: إن بعض الأمراء الخاصكية قد هربوا من دمشق طالبين الديار المصرية، وكثر الكلامُ والقيل والقال، حتى وقع في قلوب الناس رعبٌ عظيم وخوف جسيم. =

....

= ولما كان نصف الليل -ليلة الجمعة الحادي والعشرين من جمادى الأولى- خرج السلطان وصحبته بعضُ المماليك، ويشبك الدوادار والأمير أقباي وقطلوبغا الكركي، فأخذوا طريق بعلبك، وساقوا من فوق جبل الثلج على طريق عكا، ولم يلتفتوا وراءهم، فعند ذلك وقع الجفل بين الأمراء المصريين، فلما تواترت الأخبار بذلك نهض كل منهم وساق، ولم يتخلف أحد من الأمراء الكبار والصغار إلا أربعةُ أنفس من العشرات؛ وهم: سودون البجاسي، وألطنبغا الحبشي، وآقبغا رأس نوبة، ومصطفى بن تكا.

ثم حضروا بعد أيام كثيرة ما خلا مصطفى المذكور، فإنه لحق بتمرلنك، وتخلفت غالب المماليك السلطانية هناك متفرقين، ولم يجيءْ في صحبته غير مقدار خمس مئة نفس من مماليكه ومماليك الأمراء، والجميع تركوا الخيول والهجن والجمَال والأسلحةَ والأثقال والخيام والبغال وسائر الأصناف من الذهب والفضة والدروع وغير ذلك، حتى ذكِر أنّ جملة ما خلفوه من الخيول ما يقاربُ ثلاثين ألفَ رأس، ومن البغال ما يقارب عشرين ألف رأس، ومن الجمال ما يقارب خمسين ألف رأس، ومن الهجن ما يقارب عشرة آلاف رأس، ثم إنهم قاسوا في الطريق من التعب والنصب والخوف والجوع والبرد ما لا يوصف، حتى ذكر أن منهم من أصبح صائماً ثلاثة أيام ولا يجد غير الماء، ومنهم من كان يأكلُ العشب والكلأ، ومنهم من مشى حافياً عارياً حتى تورمت قدماه، وغالبُهم قلعُوا دروعهم ورموها حتى أخذها العشير، وذكر أن منهم من حل سيفه ورمى به، ثم كلُّ من سمع من المماليك المتخلفة أن السلطان أخلى دمشق وطلب الديار المصرية ترك ثقله وخرج طالباً متوجهاً إليهم، فمنهم من أسِر ومنهم من عُرِّي، وما عُرِّيَ أكثرهم إلا العشير من جبال صفد واللجون وقاقول وغير ذلك.

واختلفت طرقُهم؛ فمنهم من جاء من عقبة دمر، ومنهم من جاء من عكّا، ومنهم من جاء من وادي التيم، ومنهم من ركب البحر المالح من طرابلس، ومنهم من ذهب إلى ناحية حلب، ومنهم من ذهب إلى ناحية السواحل، ومنهم الأمير آقبغا الجمالي والأمير دمرداش نائب حلب، وتفرقت العساكر شَغَرَ بَغَرَ.

ولم يزل كلُّ يومٍ كان يدخل القاهرة جماعة من المماليك المسلحين بعد أخرى إلى أكثر من شهرين؛ فمنهم من جاء ماشياً وقد ورمت رجلاه، ومنهم من جاء راكباً على حمار، ومنهم من جاء على الجمال وعلى رؤوسهم الزموط الدنسة العتيقة، وعلى أكتافهم اللبابيد الدنسة المهرية، والبُسُط العُتُق، وكلٌّ من المذكُورين يذكر عن أفعال العشير أنها أنجس من أفعال تمرلنك في حق المسلمين، فإن عسكر تمرلنك -مع ما فعله قاتله الله- كانوا يشفقون على أسراهم بشيء من القُوت والكِسوة، بخلاف العَشير، ولا سيما في تلك الأيام الباردة، أيام الثلج والمطر والصقعة، مع الجوع والخوف الزائد».

وقال في (٢/ ٨٧-٩٤) تحت عنوان: (**ذكر استيلاء تمرلنك على دمشق وما أفسده فيها لعنه الله**) ما نصه:

«لما أخْلت العساكرُ المصريَّة مدينة دمشق في التاريخ الذي ذكرناه، استولى تمرلنك بعسكره عليها، ونزلوا في حواليها. =

....

= وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين صبيحة الليلة التي رحل فيها السلطان، نهض الشاميون وقاتلوا مع عسكر تمرلنك قتالاً عظيماً، فقُتل منهم ناسٌ كثير، فلما كان يوم الاثنين الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ملَك تمرلنك دمشق وفتحوا الأبواب، وولى على كلِّ باب شحنة، ونادى بين الناس بالأمان والاطمئنان حتى سكن أهل المدينة، وكلُّ ذلك مكر منه وحيلة وخبث وخديعة، ثم شرَع في حصار القلعة، ونصب عليها مناجيق من نواحيها، فنصبوا منجيقاً في وسط جامع بني أمية وقفلوا أبواب الجامع، ولم يُصَلِّ فيه الجمعةُ بعد دخول تمرلنك الشام إلا مرة واحدة، ونصبوا منجنيقاً آخر في ناحية حكر السماق، وآخر في ناحية الصالحية، وآخر في ناحية العقَبة، وآخر من ناحية التربة، ورسم بالنُّقوب، وصرف ماء الخندق، فنقبوا إلى أن علقوا البرج الذي عليه الطارمة وهدوه، وزحفوا زحفاً عظيماً، فقُتل من جماعة تمرلنك خلق كثير تحت الردم، ثم لم يزل أهل القلعة في رمي المكاحل والمدافع والحجارةِ والقتال ليلاً ونهاراً مدة شهر، ثم لما تعبوا وضجروا وخافوا على أنفسهم لعدم من يساعدهم سلموا، فتسلمَّها تمرلنك يوم الجمعة الحادي والعشرين من رجب، فولى فيها شحنةً من جهتِه، ومسَك جميعَ مَن فيها ونائِبَهم معهم، وهو الأمير يزدار، وقيّدهم ولم يقتل أحداً منهم.

ثم شرع في أخذ أموال الناس، فحوّل من القلعة أموالاً لا تُعدُّ ولا تحُصى ولا تحُصر، ما بين ذهب وفضة وقماش وسلاح وأثاث، وغير ذلك من أموال الشاميين والمصريين.

ثم إنه باع دمشق لأهلها ثلاث مرات، في كل مرة بجملة مستكثرة من الذهب والفضة، ...»، قال:

«ثم إنه رسم بهدِّ القلعة فهُدمَتْ وهدُّوا معها جامعَها، الذي تحيَّرت العقول في تكْوينه وكُنْهه وحُسنه، الذي لم يكن فيه عَيبٌ سوى أنه لم تَقَع العيونُ على نظيره، ولله درُّ مادِحه، فقد أجادَ في المقال:

دمشقُ لها مَنْظرٌ فائقٌ وكلٌّ إلى وصْلِهَا مائِقُ

وكيفَ تُقَاسُ بها بلدةٌ أبى اللهُ والجامِعِ الفارقُ»

ثم فصَّل في ذكر محاسنِ جامع دمشق، وما قيل فيه، وقال بعد ذلك:

«فبينما المدينة بجامعها على هذه الصفة البهية، إذ وردت عليها الطغاة من التمرلنكية، فأزالوا بهجَتها بالهدّ والنيران، وغيّروا رسومها وآثارها من العمران، فصارت النيران كأنها قد نشرت في مدد الطعام ومعصفرات عصائبها، وصعدت إلى عنان السماء عذباتُ ذوائبها.

ذوائبُ لجتْ في عُلُوٍّ كأنمَّا تحُاولُ ثأراً عِند بعضِ الكَواكب

وعلَتْ في الجوِّ كأنّها أعلامُ ملائكة النّصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي ترمي بشَرَر كالقصر، فكَم زخر لذلك الدخان جاثيةٌ، وكم نفسٌ كانت في النزعات وهي تتلو: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، ولم تزل النارُ تأكلُ ما يليها، وتُفْني ما يُشعِلُها ويقليها، إلى أن شملَت على دُورها ومدارسها، وعلَتْ على أسواقها ومجالسها، فكادت تكون كنار القيامة، وقودُها الناسُ والحِجارة، وأصبح=

....

=بابُ الساعات وهو من آيات الساعة، وخلت مصاطب الشهود من السُّنَّةِ والجماعة، وأصبحَت الدَّهشَة وقد آل أمرُها إلى الوَحْشَة، كأن لم يكن بها شهيد ولا شهود، من ثيابها وقماشها جبة وحرير، وأصبحت الميادين وقد صارت كالعِهن المنفوش، ومحُيِّتْ بأيدي النار سطورُ كلِّ جامٍ منقوش، وأصبح أصحابها كالحمام ينوح على أقفاصها، وتودُّ اللآلىء أنها لم تخرج إليهم من مغائصها، فما منهم إلا ربُّ نعمة سُلبت، وأصبح بعد الجديد في خلَق، وغنيٌّ أمسى فقيراً يكدى في الخلق، ولله در الشاعر الماهر:

حريقُ دمشقَ قَدْ بدا لعَيانِ ... لِيُظهِرَ لي عِنْدَ البيانِ معاني

غدَتْ نارُهُ في الجوِّ تعلُو وَتَرْتَقي ... كأنَّ لها عندَ النُّجوم أمَاني

ولو لَمْ تكُنْ نارُ الأعَادِي لما غَدَتْ ... وخَبآتُها بادٍ لكلِّ بنَانِ

ولا صبَغَتْ بالزعفران قميصَها ... سروراً بها ولا طارَتْ بكلِّ لسانِ

فيا لَسيوف المكفن كيف باد، وفتت به الأكباد، وأين بأسُه الشديد، ومنافعه التي لا تبيد، وبالسيوف الخيم كيف ذهب، وعدم النصر على الكافرين فتبَّتْ يدا أبي لهب، لقد تمسكت النارُ بأطْنابه وتجلَّدَ بها، والنار تحت ثيابه وياما حصل لها ولأهلها، من ضرْبٍ بسِياط كَشَطَ غِلَظَ جلدِهم، وأوْهى قُوى شجاعتهم وجلَدهم، كم فيه من أسودِ اللحية فتَق جلده الشيبُ، وخُطَّ على جنبه ما كان مخبوءاً له في الغيب، وكم من عالم في الذل بالهزء واليد، وكم من تاجر يقاد وهو في قيد، وكم من شاب يستَغيبُ وهو ينقلُ التراب، وكم من شيخ يصيح وهو في العِقَاب، وكم من صغير تحت سنابك الخيل طريحٌ، وكم من فقير من الجوع يصيح، وكم من بِكر قد أزيلَت عذرَتُها، وكم من مخدَّرة قد هُتك سِترها، وكم من غنيٍّ كان يُطعم الناسَ ويعطيهم، فصار اليوم يسألُ الناسَ ويسْتَعطيهم، وكم من عزيز وصاحبِ رفْعَة وشأن، صار اليوم في قهرٍ وخذلان، فصار أهلُها ما بين كسير وطريح، وأسير وجريح، فصاروا كبني إسرائيل في القضايا، سُلِّطَ عليهم أنواعُ البلايا، قهرَ تمرلنك وأسره وخراب الدور والبقاع، ووقوع الحريق في الأصقاع، وسبْي الحريم والأطفال، واستِعباد النساء والرجال، والغلاء المفرطِ الشامل، والبرد والثلج والمطر النازل.

ثم بعد ذلك كلِّه جرادٌ منتشر وموت ذريع، وخوف مستمر وضَنْكٌ منيع، آيات بينات فيها عبر وتنبيه، ولم تزل دمشقُ ترى أموراً عجاباً، ولسان حالها يقول: ﴿يا لَيْتَني كُنتُ تُرَاباً﴾ [النبأ: ٤٠]، فَلَعِبَتْ فيها التمرلنكية يميناً وشمالاً، في أرضها: وهاداً وجبالاً، ولم يزل خيلُهم ورَجلُهم تركض من باب الشَّهباء، إلى جسر الحديد، ومن جسر الحديد إلى جسر الشريعة الزهراء، إلى أن خرجوا في أوائل شعبان، بعد أن أخربوا العمران، وهدُّوا البنيان، فصارت أسوارُها كيماناً سوداً، ينعِق عليها غربانها جُرْداً.

ولما رحلوا أخذوا معهم غالب النساء الجميلة والجواري والعبيد والطواشية والصناع الحذاق من كل طائفة، وذهب معهم قاضي القضاة محيي الدين محمود ابن القاضي نجم الدين الحنفي وأخوه بهاء الدين محمد الشهيران بابني الكشك. =

....

= فلما قربوا من حلب جاء إليهم من كان تمرلنك خَلَفَهُم فيها لحماية الأموال التي أخذوها، وهم ثلاثة آلاف نفس أو يزيدون، وذلك بعد أن أخربوا قلعة حلب، فأرموا أبراجها وأسوارها في الخندق.

ثم اجتمعوا وعدّوا من جسر البيرة، ولم يتعرضوا لنائبها وهو الأمير ناصر الدين محمد بن شهرى يُعرَفُ بصرق سيدي، وذلك لإظهار الطاعة إليهم، فقرره على أنه نائب غزة.

ثم ذهبوا وأخذوا طريق ماردين، فلما وصلوا إليها نازلوها واستنزلوا صاحبها وهو الملك الظاهر مجد الدين عيسى، وكان قد تحصن بقلعتها، فلم يسمع منهم ولا أصغى إليهم، فأقاموا مدة عشرين يوماً.

ثم لما رحلوا، أمرهم تمرلنك بتخريب المدينة فأخربوها كلها وطمّوا آبارها، وقلعوا أشجارها، وجعلوا أعاليها أسافِلَها، ولقد أخبر من الثقات جماعةٌ أنّ تمرلنك لما وصل إلى حلب وقرر رجوعه، أرسل شرذمة وراء طائفة من التركمان يقال لهم ابن كُبُك -بكافين أولاهما مضمومة، بينهما باء موحدة ساكنة-، وكانوا نازلين عند عينتاب من ناحية الشمال فناجزوهم بالكبس، وأخذوا أموالهم وحريمهم وأغنامهم وجمالهم، وخلّوهم على الأرض السوداء.

ثمّ لما رجعوا دخلوا عينتاب مرة أخرى، وأخذوا كل امرأة جميلة فيها، وما ظفروا به من الأموال والأطفال، بل أخذوا مثل الزبيب ومثل الدبس ومثل الأرز، ونهبوا الأسواق، ثم لحقوا بتمرلنك، فعند ذلك وصلت غرارة القمح في دمشق إلى ثلاثة آلاف درهم فضة، والغرار ثلاثة أردَابٍ مصرية، ووصلت كلُّ عَلِيقَةٍ إلى نصف دينار أو عشرين درهماً.

وأما أهل القرى فماتوا من الجوع والعري والبرد، وكانت التمرلنكية يأخذون لحوم الكلاب يطعمونها للجمال.

ولقد خربت في هذه السنة على أيدي التمرلنكية من البلاد الشمالية: ملطية، وأبلستين، ودرنده، وزبطرا، وكختا، وكركر، وحصن منصور، وبهسنا، وقلعة الروم، وعينتاب، وتل باشر، وكلت، وأعزاز، وحلب الشهباء، والباب، والرها، ومعرة النعمان، وحماة، وبعلبك، وأعظمها دمشق التي لم يكن مثلها في البلاد من زمن إرم ذات العماد.

وأما التي أخذ منها الأموال، ووقع فيها الشتات والنكال: صفد وصيدا وبيروت وخحمي وإلبيرة.

وأما التي وقع فيها الحوادث وأخلي أهلها منها: رواندان وتبريز وبيسة وحارم وسرمين وشيزر وكرك نوح وطرابلس، وكل ذلك بمقدور الله -تعالى- وصغر سن المقام الشريف، ورأي يشبك الدوادار ومن وافقه على ذلك، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إذا أراد أمراً بلغه.

فمن جملة ما قيل في وصف هذه السنة؛ أعني: سنة ثلاث وثمان مئة المشهورة بأمور الشواطية:

سنةٌ بها أبصَرْتُ ما لا أبْصَرَتْ عينٌ ولا سَمِعَتْ به أذنان=

....

= مِنْ نهْبِ أموالٍ وسَفْكِ دِمَا، ومن　　　تسليطِ شَيْطَانٍ على السُّلْطانِ

وقال آخر:

لا يَشربُونَ سوى الدِّماءِ مَدامَةً　　　أو ينشُقُونَ من الأسِنَّة سَوسَنا

وقال غيره:

وخوّفني ذكْرُ الأسِيرِ لوَصْفِهِم　　　فلمّا رأيتُ القومَ زدْتُ تخوّفا

وقال آخر غيره:

عساكرُ كظَلامِ الليلِ مُقْبَلَةٌ　　　فيها الأَسِنَّةُ مثلُ الشُّهب قد لمَعَتْ

الخيلُ قد صَهَلَتْ والسُّمْرُ قدْ نهَلَتْ　　　والهامُ قَدْ سَجَدت والبيضُ قد رَكَعَتْ

فتذكْرتُ قولَ من قال، فضمَمْتُه إلى هذا المقال:

بذا قَضَت الأيام ما بين أهلِهَا　　　مصائبُ قومٍ عنْد قومٍ فوائدُ

ووجدتُ بيتين لبعض الشعراء أنشدهما كبيرٌ من كبراء حلب عندما طافت الشوطية ببلده، ثم فرَّ خارجاً منها، وكان مُتَرْجماً بالشجاعة والبسالة، لما عوتب على الهروب وهما في هذا المصراع الذي سيذكر؛ أعني: معناهما: «أعاير بذلك ولا أقتلا».

فأما الرملة فإن العشير أخربوها، وأفسدوا فيها وأخذوا أموالها، وزادوا في الطغيان أكثر من التمرلنكية، نعوذ بالله من ذلك».

وينظر -أيضاً-: «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ٢٧١).

الفصل الحادي عشر

في الويل العظيم الأخير للعرب والإسلام من يأجوج ومأجوج والأحاديث الواردة في ذلك

قال الله -تعالى- في كتابه العزيز في آخر سورة الأنبياء: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ . حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٥-٩٧].

قال البيضاوي[١]: «﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بحرامٍ أو بمحذوف دَلَّ الكلامُ عليه، أو بـ﴿لاَ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: يَستمرُّ الامتناع، أو الهلاكُ، أو عدم الرُّجوع إلى قيام الساعة، وظهور أماراتها، وهو فتح سد يأجوج ومأجوج».

وفي «تفسير النسفي»[٢]: «﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾؛ أي: فتح سدُّهما، فحذف المضاف كما حذف المضاف إلى قرية».

وفي «الفخر الرازي»[٣]: «﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ﴾، قيل: السد يفتحه الله -تعالى- ابتداءً...، والحدَب: النَّشْز من الأرض (أي: الارتفاع)، ثم قال: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ لا[٤] شبهة أن الوعد المذكور هو يوم القيامة»، وكذلك في

(١) أي: في تفسيره المسمى «أنوار التنزيل» (٢/ ٧٩).

(٢) المسمّى «مدارك التنزيل» (٢/ ٤١٩).

(٣) أي: في تفسيره المسمى «مفاتيح الغيب» (٢٢/ ١٩٢).

(٤) في مطبوع «تفسير الرازي»: «فلا».

«البيضاوي»[١] و«النسفي»[٢].

فالآيةُ صريحةٌ في أنّ فتحَ السد من جملة أمارات قيــام الســاعة، وانتهـاءِ هـذا العالم، وقد جاءَ في عِدَّةِ أحاديث:

ففي «سنن أبي داود»[٣] في (كتـاب الملاحـم) بسـنده إلـى حذيفـة بـن أَسِـيد الغِفَاريِّ، قال:

«كُنّا قعوداً نتَحَدّث فـي ظـلِّ غُرْفَـة لرسـول اللـه ﷺ، فذكرنـا السَّـاعة، فـارتَفَعتْ أصواتُنا، فقال رسول الله ﷺ: **«لن تكونَ -أو لن تقوم- [الساعة] حتى يكون قبلَها عشْرُ آيات: طلوعُ الشمس من مغربها، وخروج الدَّابة، وخروجُ يـأجوج ومـأجوج، والدّجـال، وعيسى ابن مريم، والدُّخان، [وثلاثُ خسوفٍ: خسـفٌ بـالمغرب، وخسـفٌ بالمشـرق، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ منَ اليَمــن مـن قَعْـر عـدَن] تسوق النـاس إلـى المحشر»**.

ورواه مسلم[٤]، والترمذي[٥]، وابن ماجه[٦] في (كتاب الفتن).

---

(١) (٢/ ٧٩).

(٢) (٢/ ٤١٩).

(٣) (رقم ٤٣١١) (باب أمارات الساعة)، وما بين معقوفتيـن سـقط مـن الأصـل، واسـتدركتُه مـن مطبوع «سنن أبي داود».

(٤) في «صحيحه» (رقم ٢٩٠١)، ومن طريقه البغوي في «شرح السنة» (٤٢٥٠).

(٥) في «جامعه» (رقم ٢١٨٣).

(٦) في «سننه» (رقم ٤٠٤١، ٤٠٥٥).

وأخرجه النسائي في «الكبرى» (رقم ١١٣٨٠، ١١٤٨٢) في كتاب (التفسير) منه -وهـو فيـه برقـم (٤٠٠، ٥٠٢)-، والحميدي (٨٢٧) -ومـن طريقـه الطـبراني (٣٠٣٣)- والطيالسـي (١٠٦٧) وأحمـد (٤/ ٨٥٦ و٦/ ١٠) في «مسانيدهم»، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥/ ١٣٠، ١٦٣)، وابـن أبـي عـاصم في «الآحاد والمثاني» (١٠١٢، ١٠١٣)، وابن حبان (٦٨٤٣ - «الإحسان»)، والطبراني (٣٠٢٨-٣٠٣٤)، وعزاه ابن حجر في «إتحاف المهرة» (٤/ ٢١٢-٢١٣) إلى ابي عوانة في «المسند».

وفي «جامع الترمذي»[١] في (كتاب التفسير) في (تفسير سورة الكهف):

حدثنا محمدُ بن بشار وغيرُ واحدٍ -المعنى واحد، واللفظُ لمحمد بن بشار-، قالوا[٢]: نا هشامُ بنُ عبدالملك، نا أبو عَوَانة، عن قتادة، عن أبي رافع من حديث أبي هريرة عن النّبي ﷺ في السَّد، قال:

«يَحفرُونه كلَّ يوم، حتى إذا كادُوا يخرِقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فستَخرِقُونه غداً[٣]، قال: فيعيدُهُ الله كأمثَل[٤] ما كان، حتّى إذا بلغ مُدَّتُهم، وأرادَ اللهُ أنْ يَبْعَثَهمْ على النّاس، قال الذي عَليهم: ارجعُوا فستخرقُونه غداً -إنْ شاءَ اللهُ- واستَثنى، قال: فَيرجعون فيجدونه كهيئته حينَ تركوه فيَخرِقُونه، ويخرجُون[٥] على النّاس، فَيَسْتقُون المياهَ، ويفِرُّ النّاسُ منهم، فَيرمُون بسِهَامِهِم إلى السَّماء[٦]، فترجعُ مخضبَةً بالدّماء، فيقولون: قَهَرنا مَنْ في الأرض، وعلَوْنا مَنْ في السَّماء، قَسْوةً وعُلُوّاً، فيبعثُ اللهُ عليهم نَغَفاً -دودٌ يكونُ في أنوفِ الإبل والغَنَم، جمْعُ نَغَفَة- في أقْفائِهم، فَيُهلكون، قال[٧]: فوالذي نفسُ محمدٍ بيده! إنَّ دوابَّ الأرْض تسمَنُ وتَبطَرُ وتَشكَرُ شكَراً من لحُومِهم»[٨].

---

(١) برقم (٣١٥٣).

(٢) في مطبوع «الجامع»: «وغير واحد، واللفظ لابن بشار: قالوا».

(٣) لا وجود لها في مطبوع «الجامع».

(٤) في مطبوع «الجامع»: «كأشد».

(٥) في مطبوع «الجامع»: «فيخرجون».

(٦) في مطبوع «الجامع»: «في السّماء».

(٧) لا وجود لها في مطبوع «الجامع».

(٨) أخرجه الترمذي في «جامعه» (رقم ٣١٥٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٨٨) من طريق هشام بن عبدالملك أبي داود الطيالسي، به.

ورواه عن قتادة غيرُ أبي عوانة الوضاح اليشكري، وهذا ما وقفت عليه:

أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٥١٠-٥١١): حدثنا رَوح، وابن ماجه في «سننه» (رقم ٤٠٨٠)=

....

=من طريق عبدالأعلى بن عبدالأعلى السامي، وابن جرير في «التفسير» (١٦/ ٢١) من طريق يزيد بن هارون، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦٨) من طريق عبدالوهاب، وأبو الليث السمرقندي في «بحر العلوم» (٢/ ٣١٣) من طريق أبي حفص، ويحيى بن سلام في «تفسيره» (ق ١٩٩-٢٠٠ - نسخة القرويين بفاس) -ومن طريقه أبو عمرو الداني في «الفتن» (٦/ ١٢٠٥-١٢٠٦ رقم ٦٦٦)-؛ جميعهم عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، به.

وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٥١١) من طريق سفيان، عن قتادة، به.

وأخرجه أبو يعلى في «المسند» (١١/ ٣٢١-٣٢٢ رقم ٦٤٣٦) -ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٢٣٣-٢٣٤)-: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت أبي يحدث عن قتادة، به.

وفي مطبوع «تاريخ ابن عساكر»: «... أبو يعلى الموصلي، قال: سمعت أبي يحدث عن قتادة»، فسقط منه شيخ أبي يعلى وشيخ شيخه، فتنبه لذاك، تولى الله هداك.

وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٨٢٩ - «الإحسان») -أيضاً- من طريق سليمان بن طرخان عن قتادة.

وأخرجه العقيلي «في الضعفاء الكبير» (٢/ ٢٨٥) من طريق حماد بن سلمة، عن قتادة، به.

والمحفوظ عن حماد بن سلمة غير هذا الطريق!

أخرجه العقيلي (٢/ ٢٨٥) من طريق حجاج: حدثنا حماد، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قوله، ثم ذكر طريق حماد عن قتادة مرفوعاً، وقال: «حديث حجاج أولى».

وكان -قَبْلُ- قد أخرجه من طريق عبدالله بن عصمة، عن حماد، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رفعه، وقال: «وقال -أي: ابن عصمة-: حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن أنس بنحوه».

قال العقيلي: «وليس لقتادة عن أنس أصل».

وقال: «عبدالله بن عصمة الجزري عن حماد، يرفع الأحاديث، ويزيد في الحديث»، وابن عصمة هذا أحد المجاهيل كما في «الميزان» (٢/ ٤٦١).

وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» -كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (١٠/ ٣٢٣ رقم ١٠٠١٨)، و«المطالب العالية» (١٨/ ٤٦٤ رقم ٤٥٢٨)، وهو عنده من رواية ابن المقرئ غير المطبوعة، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٢٣٥)-: أنبأنا عبدالله بن معاوية، أنبأنا حماد، به موقوفاً على أبي هريرة، بلفظ: «يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم أبواب».

وأخرجه عبد بن حميد -كما في «فتح الباري» (١٣/ ١٠٩)- من طريق عاصم بن بهدلة عن أبي=

....

=صالح، عن أبي هريرة موقوفاً.

وعلى أيٍّ؛ فالطريق الأولى ظاهرها الصِّحة، إذ رواتها ثقات، بل صرح غير واحد من المخرّجين المعاصرين أنها على «شرط الشيخين»! كما تراه في التعليق على «مسند أحمد» (١٦/ ٣٧٠ ط. مؤسسة الرسالة) وغيره، خلافاً لصنيعه في التعليق على «الإحسان» (١٥/ ٢٤٣)؛ إذ قال: «في رفعه نكارة»، وأورد كلام ابن كثير الآتي.

وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي في «التلخيص»، وقال شيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٣٥): «وهو كما قالا»، وقال: «وله شاهد من حديث أبي سعيد، سيأتي تخريجه برقم (١٧٩٣)، ولطرفه الأخير منه شاهد في حديث الدجال الطويل من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً».

قلت: سيأتي لفظه قريباً، وليس فيه ولا في حديث أبي سعيد المومأ إليه: الحفر كل يوم، مع نقبه، بل عدّ ابن كثير أن ذلك نكرة في الحديث، فقال في «تفسيره» (٥/ ١٩٤):

«وهذا إسناد جيد قويّ، ولكن في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية -أي: قوله -تعالى-: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف: ٩٧]- يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه؛ لإحكام بنائه وصلابته وشدته، ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحه، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان فيلحسونه، ويقولون: غداً نفتحه، ويلهمون أن يقولوا: إن شاء الله، فيصبحون وهو كما فارقوه، فيفتحونه.

وهذا متجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب، فإنه كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، والله أعلم.

ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه، ولا نقب شيء منه، ومن نكارة هذا المرفوع...» وأورد حديث زينب بنت جحش السابق، وفيه: «**فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج**».

قلت: لي هنا ملاحظات:

الأولى: أثر كعب الأحبار، أخرجه نعيم بن حماد في كتاب «الفتن» (٢/ ٥٨٩-٥٩٠ رقم ١٦٤١): حدثنا عبدالرزاق -وهو في «تفسيره» (٢/ ٢٨-سورة الأنبياء)-، عن معمر، عن أيوب، عن أبي الضيف، عن كعب، وفيه:

«فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم... فتمر الزمرة الأولى منهم بالبحيرة الطبرية فيشربون ماءها، ثم الزمرة الثانية فيلحسون طينها...».

وأخرجه الطبري (١٧/ ٨٩)، وابن أبي حاتم في «التفسير» -كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٦)-=

....

=من طريق معمر عن غير واحد، ويحيى بن سلام في «تفسيره» -ومن طريقه أبو عمرو الداني في «الفتن» (رقم ٦٧٩)- من طريق أبي أمية، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٣) من طريق سليمان بن المغيرة؛ كلهم عن حميد بن هلال، عن أبي الضيف، به. وفيه: «يحفرونه بالفؤوس».

وأبو الضيف مجهول، **فإسناده ضعيف.**

الثانية: لا يلزم من ورود الحديث عن كعب أنه من صُنعِه! وينبغي التفريق بين الثابت في الحديث بالأسانيد المستقلة الصحيحة وبين ما ورد في الإسرائيليات مما يشابهها، إذ هي في أصلها سماوية، وفيها أخبار تتطابق مع ما جاء في شريعتنا، فخبر كعب السابق فيه نحو ما في حديث النواس الثابت في «صحيح مسلم»، فلا يجوز رده بمجرد وروده عن كعب! وهذا مثله، وأحسنَ ابنُ كثير لما قال في «تفسيره» (٣/ ١٩٧) عن خبر كعب: «وهذا من أحسن سياقات كعب الأحبار؛ لما شهد له في صحيح الأخبار».

الثالثة: لابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٦٤ - ط. دار أبي حيان) كلام فيه رد الإشكالات التي أوردها في «التفسير»، وهذا نص كلامه:

«فإن قيل: فما الجمع بين قوله -تعالى-: ﴿فَمَا اسْطَاعوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف: ٩٧]، وبين الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش...».

وذكر الحديث السابق، ثم قال:

«وأخرجاه في «الصحيحين» من حديث وهيب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُتحَ اليومَ من رَدْم يأجوجَ ومأجوج مثلَ هذا**» وعقَدَ تسعين.

فالجواب: أما على قول من ذهب إلى أنّ هذا إشارةٌ إلى فتح أبواب الشر والفتن، وأن هذا استعارةٌ محضةٌ وضربُ مثلٍ فلا إشكال.

وأما على قول مَنْ جعلَ ذلك إخباراً عن أمر محسوس -كما هو الظاهر المتبادر- فلا إشكال -أيضاً-؛ لأن قوله: ﴿فَمَا اسْطَاعوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف: ٩٧]؛ أي: في ذلك الزمان؛ لأن هذه صيغة خبر ماضٍ فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قَدراً وتسليطهم عليه بالتدريج قليلاً قليلاً، حتى يتم الأجل وينقضي الأمر المقدور، فيخرجون كما قال الله -تعالى-: ﴿وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]...».

ثم أورد حديثنا هذا، وذكر من أخرجه وما قاله الترمذي، ثم قال:

«فإن لم يكن رفْعُ هذا الحديث محفوظاً، وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار -كما قاله بعضهم- فقد استرحنا من المؤنة، وإن كان محفوظاً فيكون محمولاً على أنّ صنيعهم هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم... وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في «الصحيحين» عن أبي هريرة...».

ولخّصَ شيخنا الألباني -رحمه الله تعالى- كلام ابن كثير في «البداية» بعد أن ساق كلامه في=

....

=«التفسير» وتعقبه، وهذا نص كلامه في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٣١٤ رقم ١٧٣٥):

«(تنبيه): أورد الحافظ ابن كثير هذا الحديث من رواية الإمام أحمد -رحمه الله- تحت تفسير آيات قصة ذي القرنين وبنائه السد، وقوله -تعالى- في يأجوج ومأجوج فيه: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف: ٩٧]، ثم قال عقبه:

«وإسناده جيد قوي، ولكن متنه في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه؛ لإحكام بنائه وصلابته وشدته».

قلت: نعم، ولكن الآية لا تدل من قريب ولا من بعيد أنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً، فالآية تتحدث عن الماضي، والحديث عن المستقبل الآتي، فلا تنافي ولا نكارة، بل الحديث يتمشى تماماً مع القرآن في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] .

وبعد كتابة هذا رجعت إلى القصة في كتابه «البداية والنهاية»، فإذا به أجاب بنحو هذا الذي ذكرته، مع بعض ملاحظات أخرى لنا عليه، يطول بنا الكلام لو أننا توجهنا لبيانها، فليرجع إليه من شاء الوقوع عليه».

الرابعة: يعجبني حكم الترمذي على الحديث، قال: «حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه».

وحكَمَ بغرابته لأن مداره على قتادة.

* شبهة قوية: وهنالك شبهة تعرض لها المصنِّف؛ وهي: سماع قتادة من أبي رافع! وتدور هذه الشبهة على أمرين:

الأول: هل أدرك قتادة أبا رافع، والتقى به، وسمع منه، أم لا؟

قال أحمد بن حنبل في «العلل ومعرفة الرجال» (١/ ١٨٨ رقم ١١٥٩): «قال شعبة: لم يسمع قتادة من أبي رافع شيئاً. قال أحمد: أدخل بينه وبين أبي رافع خلاساً والحسن»، ونقله عنه ابن أبي حاتم في «المراسيل» (ص ١٦٩-١٧٠)، والعلائي في «جامع التحصيل» (ص ٣١٢)، ووَليُّ الدين العراقي في «تحفة التحصيل» (ص ٢٦٣)، ونقل عدم السماع: إسحاق بن منصور عن ابن معين، كما في «جامع التحصيل» (٣١٢-٣١٣).

وقال أبو داود في «سننه» في حديث قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة:

«إذا دُعِيَ أحدُكم إلى طعام، فجاءَ مع الرسول، فإنَّ ذلك إذنه».

قال: «قتادة لم يسمع من أبي رافع».

قلت: رواية قتادة عن أبي رافع عند البخاري، وأبي داود، والترمذي، وابن ماجه؛ كما في=

....

=«تهذيب الكمال» (٢٣/ ٥٠٣) للمزي، وقال في «تحفة الأشراف» (١٠/ ٣٩٢) بعد مقولة أبي داود: «وقال غيره: سمع منه».

وفي «صحيح البخاري» في كتاب التوحيد (باب قول الله -تعالى-: ﴿بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١]) (١٣/ ٥٢٢ رقم ٧٥٥٤) من حديث سليمان التيمي عن قتادة: سمعت أبا رافع، عن أبي هريرة حديث: «إن رحمتي غلَبت غضبي».

فالسماع ثابت صحيح، ولكن:

الآخر: هل سمع قتادة من أبي رافع هذا الحديث أم بينهما واسطة؟ وإن كانت؛ فمن هي؟ أجاب على هذا ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ١٠٩)، بقوله:

«قلت: أخرجه الترمذي والحاكم من رواية أبي عوانة، وعبدُ بن حميد من رواية حماد بن سلمة، وابن حبان من رواية سليمان التيمي؛ كلهم عن قتادة، ورجاله رجال الصحيح إلاّ أن قتادة مدلس، وقد رواه بعضهم عنه فأدخل بينهما واسطة، أخرجه ابن مردويه، لكنْ وقع التصريح في رواية سليمان التيمي عن قتادة، بأن أبا رافع حدثه، وهو في «صحيح ابن حبان»، وأخرجه ابن ماجه من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، قال: «حدث أبو رافع»، وله طريق آخر عن أبي هريرة، أخرجه عبدُ بن حميد من طريق عاصم عن أبي صالح عنه، لكنه موقوف.

قال ابن العربي: في هذا الحديث ثلاث آيات:

الأولى: أن الله منعهم أن يوالوا الحفر ليلاً ونهاراً.

الثانية: منعهم أن يحاولوا الرقي على السد بسلم أو آلة، فلم يلهمهم ذلك ولا علمهم إياه، ويحتمل أن تكون أرضهم لا خشب فيها ولا آلات تصلح لذلك.

قلت: وهو مردود؛ فإن في خبرهم عند وهب في «المبتدأ» أن لهم أشجاراً وزروعاً وغير ذلك من الآلات، فالأول أولى.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ابن عمرو بن أوس عن جده رفعه:

«أنّ يأجوجَ ومأجوجَ لهم نساءٌ يجامعون ما شاءوا، وشجرٌ يلقحون ما شاءوا» الحديث.

الثالثة: أنه صدهم عن أنْ يقولوا: إن شاء الله، حتى يجيء الوقت المحدود.

قلت: وفيه أنّ فيهم أهل صناعةٍ وأهل ولايةٍ وسلاطةٍ ورعيةً تطيعُ من فَوقَها، وأن فيهم من يعرف الله ويقر بقدرته ومشيئته، ويحتمل أن تكون تلك الكلمة تجري على لسان ذلك الوالي من غير أن يعرف معناها، فيحصل المقصود ببركتها.

وقد أخرج عبد بن حميد من طريق كعب الأحبار نحو حديث أبي هريرة، وقال فيه: =

هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، إنما نعرفُه من هذا الوجه مثلَ هذا. اهـ.

وفي «سنن ابن ماجه»[١] في (باب فتنة الدجال [وخروج عيسى ابن مريم] وخروج يأجوج ومأجوج):

حدثنا أزهر بن مروان، ثنا عبدالأعلى، ثنا سعيد -هو: ابنُ أبي عَرُوبَة-، عن قتادة، قال: حدثنا[٢] أبو رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ يأجوجَ ومأجوجَ يحفِرُون كلَّ يومٍ، حتى إذا كادوا يَروْنَ شعاعَ الشَّمسِ، قال الذي عَليهم: ارْجِعوا...» وذكَر نحو ما هنا.

وفي «البداية والنهاية»[٣] للحافظ ابن كثير (ج ٢ ص ١١٢):

«ورواه الإمام أحمد في..

= «فإذا بلغَ الأمرُ؛ ألْقي على بَعضِ ألسنَتهم: نأتي -إن شاءَ اللهُ- غداً فنفرغ منه».

وأخرج ابن مردويه [والطبري (١٧/ ٨٧)] من حديث حذيفة نحو حديث أبي هريرة، وفيه:

«فيصبحون وهُو أقْوى منه بالأمس، حتى يُسلِم رجلٌ منهم حينَ يريدُ اللهُ أنْ يبلغَ أمره، فيقولُ المؤمن: غداً نفتَحُه -إن شاءَ الله-، فيَصبحون، ثم يَغدون عليه فيَفتح» الحديث، وسنده ضعيف جدّاً».

قال أبو عبيدة: تبيّن لنا مما مضى، أن قتادة صرح بالسماع من أبي رافع، والموجود في نسختنا من «سنن ابن ماجه» قوله: «حدثنا أبو رافع»، والصواب ما قاله ابن حجر في كلامه السابق، وهو يوافق ما في «صحيح ابن حبان»، فَأَمِنّا تدليسَه، والحمدُ لله.

وأما طريق ابن مردويه فذكرها ابن حجر نفسه في «النكت الظراف» (١٠/ ٣٩٢)، قال: «أخرجه ابن مردويه عن أبي بكر الشافعي، عن محمد بن يونس، عن هشام بن عبدالملك، عن أبي عوانة، عن قتادة، عن خلاس، عن أبي رافع -أدخل بينهما خلاساً-، وأخرجه من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، فقال: عن صاحبٍ له، عن أبي سعيد الخدري».

(١) برقم (٤٠٨٠)، وتقدم تخريجه في الذي قبله.

(٢) كذا في مطبوع «سنن ابن ماجه»، ونقل ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ١٠٩) -ومضى كلامه- أن الذي فيه: «حدث أبو رافع»، وكذا قال خليفة في «أطرافه» على ما في «تحفة الأشراف» (١٠/ ٣٩٢).

(٣) (٢/ ١٦٤ - ط. دار أبي حيان).

«مسنده»[١] قائلاً:

حدثنا رَوح، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال:

«إنّ يأجوجَ ومأجوجَ لَيَحفِرون السَّدَّ كلَّ يوم...».

وذكر نحو ما جاء في «جامع الترمذي»[٢]، (ثم قال): ورواه أحمد[٣] -أيضاً- عن حسن بن موسى، عن سفيان[٤]، عن قتادة، به».

فهذا الحديث على تَعدُّدِ طُرقِه -كما تَرى- يدورُ على قتادة، ويرجعُ إليه، وقد انفرد بروايته عن أبي رافع، ولكنه لما كان قتادةُ ثقةً، قال الإمام الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه مثل هذا».

وفي «طبقات الحفّاظ» للذهبي في ترجمة (قتادة) (ج ١ ص ١١٦): «قال شعبة: لا يعرف أن قتادة سمع من أبي رافع»[٥].

وهذا الحديثُ يُفيد أن السَّد لم يُفتَحْ منه شيءٌ، وإنهم كلَّ يوم يلحَسونه حتى كادوا ينظرون[٦] به شعاع الشمس من ورائه لرقّته... إلخ ما جاء فيه، وهو يعارض حديث زينب بنتِ جحش المرويِّ في «الصحيحين»[٧] وغيرهما كما ذكرنا في أول

---

(١) (٢/ ٥١٠-٥١١ - ط. الميمنية، و١٦/ ٣٦٩-٣٧٠ - ط. مؤسسة الرسالة)، ورواية رَوح عن سعيد قبل اختلاطه، وتقدم الكلام عليه مفصلاً، ولله الحمد.

(٢) (رقم ٣١٥٣).

(٣) في «المسند» (٢/ ٥١١ - ط. الميمنية، و ١٦/ ٣٧١ - ط. مؤسسة الرسالة).

(٤) كذا في «البداية والنهاية»، وهو الصواب، وفي طبعتي «المسند»: «شيبان»، وهو خطأ، ووقع على الصواب في «إتحاف المهرة» (١٥/ ٦٥٢ رقم ٢٠٠٧٤)، و«أطراف المسند» (٨/ ١١٨ رقم ١٠٥٨١)، و«جامع المسانيد» (ق ٢١٥/أ - أحاديث أبي هريرة).

(٥) انظر: ما قدمناه في تخريج الحديث.

(٦) في الأصل: «ينذرون»، وصوابه المثبت.

(٧) مضى تخريجه.

(مبدأ فتح السد) الذي يفيد أنه: «**فُتِح اليومَ من رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثل هذه، وحلقَ بأصبعيه الإبهام والتي يليها**»، إلاّ أنهُ لانْفراد قتادةَ به؛ حتى صار الحديث بذلك غريباً، كما قال الإمام الترمذي، ولقول شعبةَ: إن قتادةَ لم يسمعْ من أبي رافع، أصبح هذا الحديثُ لا يقاومُ الحديث المرويَّ في «الصحيحين» وغيرِهما، ويكونُ ذاكَ الحديثُ مقدَّماً على هذا[1].

ويؤَيِّدُ ذلك بما ذكره الحافظُ ابن كثير في «البداية والنهاية»[2] (ج ٢ ص ١١٢) حيث قال:

«ورواه الترمذيُّ من حديث أبي عَوانة، عن قتادة، به. ثم قال: غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه، فقد أخبر في هذا الحديث: أنهم[3] كلَّ يوم يلحَسُونه حتى كادوا ينظرون[4] شعاعَ الشمس [من ورائه][5] لرقَّتِه، فإنْ لم يكن رَفعُ هذا الحديثِ محفوظاً، وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار، كما قاله بعضُهم، فقد استرحنا من المؤنة، وإن كان محفوظاً[6]؛ فيكون محمولاً على أنّ صنيعَهُم هذا يكون في آخرِ

---

(١) سبق وأن قدمنا الجمع بينهما، وأثبتنا سماع قتادة من أبي رافع، فانظر التخريج، والجمع مقدَّم على الترجيح.

(٢) (٢/ ١٦٤ - ط. دار أبي حيان).

(٣) في الأصل: «أنه»، والمثبت من «البداية والنهاية».

(٤) في الأصل: «ينذرون»، وصوابه المثبت.

(٥) سقط من الأصل، والمثبت من «البداية».

(٦) المحفوظ في اصطلاح علم الحديث هو: الراجحُ من متنٍ أو سَنَدٍ، قال في «التقريب» و«شرحه»: «فإن كان الثقةُ بتَفَرُّدِه مخالفاً أحفظَ منه وأضبطَ؛ كان ما انفرد به شاذّاً مردوداً، ومقابلُه يقالُ له المحفوظ».

وهنا ترى الحافظَ ابنَ كثير يشير إلى الضعيف في هذا الحديث، بل الشاذ؛ هو قضية: «أنهم كلَّ يومٍ يلحسونه...» إلخ، لا كُلَّ الحديث؛ لأنّ بقيةَ ما جاء فيه من قضية خروجهم وشُربهم المياه وفسادِهم في الأرض عند قرب الساعة لم ينفرد بها قتادةُ، بل وردت في الأحاديث الصحيحة كما سيأتيك.

وهذه الجملةُ من الحديث تُبطِلُها المشاهدَة والعقلُ؛ وذلك أن ارتفاع هذا السد وعرضَه وطولَه=

الزمان عندَ اقتراب خُروجِهم، كما هو المرويُّ عن كعب الأحبار» اهـ.

وقد علمتَ ما فيه ممّا يُفيد أنه غيرُ محفوظٍ، فيكون ما في «الصحيحين» وغيرهِما مما يُفيدُ أنه فُتِحَ، هو الصحيح.

وهذا الفَتْح من ذلك الحين هو من علاماتِ قرْب الساعة على حدِّ قوله -تعالى-: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، فقد جعل انشقاق القمر من علاماتها.

وفي الحديث كما في «جامع الترمذي»: «**بُعثتُ أنا والسَّاعَة كَهاتَين**»[(١)].

وخروجُ يأجوج ومأجوج للمرةِ الأولى والثانية، وإيصالهم الشَّرَّ العظيم للعرب والمسلمين؛ لا يمنع مِنْ أنه سيكونُ لهم بعدَ ذلك هجمةٌ أخرى عظيمةٌ على غربيِّ البلاد الآسَيَوية، وأنها ستلاقي منهم أفظعَ الأمور، وأشدَّ المُنكَرات، والأحاديثُ النبويةُ التي جاءتْ في كتاب الفِتن تدلُّ على هذا:

ففي آخر «صحيح مسلم»[(٢)] في (باب ذكر الدّجال ونزول عيسى -عليه

=معلومٌ كما سبق بيانه، فبناءٌ في هذه الضخامةِ؛ كيف يُلحَسُ بالألسنة كلُّه أو بعضُه أو جزءٌ قليل منه؟! ولو فُرِض أنه كان في ثخن أصبعٍ لما أمكنَ لحسُه، ولمَا تمكنَت الشمسُ من أن ينفذ ضَوْءُها إلى الطرف الآخر؛ لأَن المشاهد أن الشمسَ يحجُبُها أدنى شيء، ثم إذا بلغ هذا الحد من الرِّقَّة وهو في هذا الارتفاع؛ فلا بد له من أن ينهار، ثم بقاؤُه ورجوعُه إلى أمثل ما كان عليه كما جاء في أول الحديث الذي نقلناه عن «جامع الترمذي» مخالفٌ لسنةِ الكَوْنِ، وهذا يؤيد ما قاله بعضُهم من أن الحديث منقولٌ عن كعب الأحبار. (منه).

قلت: انظر: ما قدمناه في التخريج.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب الرقاق (باب قول النّبي ﷺ: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين») (رقم ٦٥٠٤)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب الفتن وأشراط الساعة (باب قرب الساعة) (رقم ٢٩٥١)، والترمذي في «الجامع» في أبواب الفتن (باب ما جاء في قول النّبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين») (رقم ٢٢١٤) -وقال: «هذا حديث حسن صحيح»- من حديث أنس بن مالك، وفي اقتصار عزو المصنف له على الترمذي قصور.

(٢) (رقم ٢١٣٧).

السلام-) في حديث طويل عن النّواس بن سمعان جاء فيه:

«ثم يأتي عيسى إلى قومٍ[١] قد عَصَمهم الله منه -من الدجال-، فيمسحُ عن وُجوهِهم، ويحدثهم بدرَجاتِهم في الجنّة، فبيما هو كذلك إذ أوحى اللهُ إلى عيسى -عليه السلام-: إنّي قد أخْرَجتُ عِباداً لي لا يَدَانِ لأحدٍ بقِتَالهم، فَحَرِّزْ عِبَادي إلى الطّور، ويبعثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ وهُم مِنْ كُلِّ حَدبٍ يَنْسِلون، فيمرُّ أوائلُهم على بحيرة طبرية، فَيَشْرَبُونَ ما فيها، ويَمُرُّ آخرُهم فيقولون: لَقَد كان بهذه مرّةً ماءٌ، ويُحصَرُ نبيُّ الله عيسى -عليه السلام- وأصحابُه، حتّى يكون رأسُ الثور لأحَدِهِم خيراً من مِئَة دينار لأحدِكم اليومَ، فيَرغبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه فيُرسلُ الله فيهم النَّغَفَ في رقابهم، فيُصبحونَ فَرْسَى كَموتِ نَفسٍ واحدة، ثم يَهبطُ نبيُّ الله عيسى -عليه السلام- وأصحابُه إلى الأرض، فلا يجدونَ في الأرضِ موضِعَ شِبرٍ إلاّ مَلأهُ زَهمُهُم ونَتنُهُم، فيرغبُ نبيُّ الله عيسى -عليه السلام- وأصحابُه إلى الله، فيُرسلُ الله طيراً كأعناق[٢] البُخت، فَتحمِلُهم فَتطرَحُهُم حيثُ شاء الله، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ مَطَراً لا يَكُنُّ منه بيتُ مَدَر ولا وبَر، فيَغسلُ الأرضَ حَتى يَترُكَها كَالزَّلَقَةِ، ثمَّ يُقال للأرضِ: أنبتي ثَمرتَكِ ورُدّي بَركَتَكِ، فَيومَئذٍ تأكُلُ العِصابةُ من الرُّمانة، ويسْتَظلّون بقِحفِها، ويُبارَكُ في الرِّسْلِ حتى أنَّ اللّقحة[٣] مِن الإبل لَتكفي الفِئامَ مِن النَّاس، واللّقحةَ مِن البَقرِ لَتَكفي القَبيلَةَ من النّاس، واللّقحةَ من الغَنم لتكفي الفَخِذ من النَّاسِ.

فَبينما هم كذلك؛ إذ بَعَث الله ريحاً طَيّبةً، فتأخُذهُم تحت آباطِهم، فتقبضُ رُوحَ كلِّ مؤمنٍ وكلِّ مسلم، ويبقى شِرارُ النَّاس يَتَهارَجُونَ فيها تهارُج الحُمُر، فَعليهم تقومُ السَّاعة».

(حدثنا)[٤] علي بن حُجر [السَّعدي]، (نا) عبدالله بنُ عبدالرحمن بن يزيد بن

(١) في مطبوع «صحيح مسلم»: «ثم يأتي عيسى ابنَ مريم قومٌ».

(٢) في الأصل: «أعناق»، والمثبت من «صحيح مسلم».

(٣) في الأصل: «اللحقة»، وكذا في هامشه الآتي في تفسير الغريب!!

(٤) القائل: مسلم في «صحيحه» (٢١٣٧ بعد ١١١)، وما بين المعقوفتين منه، وسقط من الأصل.

جابر والوليد بن مسلم -قال ابن حُجْر: دخل حديثُ أحدهما في حديث الآخر-، عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر بهذا الإسناد نحو ما ذكرنا. وزاد بعد قوله: «لقد كان بهذه مرَّةً ماء»:

«ثُمَّ يسيرون حتى يَنتَهوا إلى جبل الخَمَر، وهو جبلُ بيت المقدِس، فيقولون: لقد قَتَلنا مَنْ في الأرض، هَلُمَّ فلنقتُلْ مَن في السَّماء، فيرمون بنُشَّابهم إلى السَّماء، فَيَرُدُّ اللهُ عليهم نُشّابَهُم مخضوبةً دَماً».

وفي رواية ابن حُجر: «فإني قد أنزَلتُ عباداً لي لا يَدَيْ لأحدٍ بقِتَالهم» اهـ ما في «صحيح مسلم»[1].

---

(١) شرح ما في هذا الحديث من الغريب: قولُه: (لا يَدَان): تثنية (يد)؛ ومعناه: لا قدرة ولا طاقة، يقال: ما لي بهذا الأمر (يد)، وما لي به (يدان)؛ لأن المباشرة والدَّفع إنما يكون باليد.

ومعنى (فحرِّزهم إلى الطور)؛ أي: ضمّهم واجعله لهم حِرزاً.

و(النَّغف): دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

و(الفَرْسَى) -بفتح الفاء مقصور-؛ أي: قتلى، واحدهم: فريس.

و(زهَمُهُم)؛ أي: دسمهم.

(لا يَكُنُّ منه بيت مَدَر)؛ أي: لا يمنع من نزول الماء بيت المدر، وهو الطين الصلب.

و(الزَّلَفَة)؛ معناه: كالمرآة، وقيل: (الزلفة).

(الرِّسْل) -بكسر الرّاء وسكون السين-؛ هو: اللَّبَن.

و(اللِّقحة) -بكسر اللام وفتحها-: القريبة العهد بالولادة.

و(الفئام): الجماعة الكثيرة.

(الفخِذ من الناس): الجماعة من الأقارب، وهم دون البطن، والبطن دون القبيلة.

وقوله: (يتهارَجون تهارج الحُمر) -في الأصل: «الحمير»-؛ أي: يجامع الرجالُ النساءَ بحضرة الناس كما يفعل الحميرُ، ولا يكترِثون لذلك.

و(الخَمَر) -بفتح الخاء والميم-: الشَّجر الملتفّ الذي يستر مَن فيه. اهـ من «شرح النووي على صحيح مسلم» [١٨/ ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤ - ط. قرطبة]. (منه).

وروى الحديث ابنُ ماجه في أواخر «سننه»[١] في هذا الباب -أيضاً- عن النَّواس بن سَمْعَان.

ورواه الترمذي[٢] في (كتاب الفتن) في (باب ما جاء في فتنة الدجال) عنه -أيضاً-، وقال في آخره: «هذا حديثٌ غريبٌ حَسَنٌ صحيحٌ، لا نعرفه إلاّ من حديث عبدالرحمن بن يزيد بن جابر» قاله شارحه المباركفوري[٣]: «وأخرجه أحمد»[٤].

وفي «صحيح البخاري»[٥] في (كتاب الحج) في (باب ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّ

(١) (رقم ٤٠٧٥، ٤٠٧٦).

(٢) برقم (٢٢٤٠)، وأخرجه -أيضاً- أبو داود (٤٣٢١)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٢٤) وفي «عمل اليوم والليلة» (٩٤٧)، والحاكم (٤/ ٤٩٢)، وابن حبان (٦٨١٥ - «الإحسان»)، وأبو عوانة -كما في «إتحاف المهرة» (١٣/ ٦٠٣ رقم ١٧٢١٠)-، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٣/ ١٦٣-١٦٤ - ط. الغرباء، أو ١٤/ ٥١٦٤ رقم ٢٠٦٥ - ط. الباز)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٤٩٤، ١٤٩٥)، وغيرهم.

(٣) في «تحفة الأحوذي» (٦/ ٥٠٨).

(٤) في «مسنده» (٤/ ١٨١-١٨٢).

(٥) (رقم ١٥٩٣)، وهو في الباب الذي يلي الباب الذي ذكره المصنف، وكذا في الطبعة اليونينية منه (٢/ ١٢٤)، وما بين المعقوفتين سقط من الأصل، واستدركْتُه منه.

وأخرجه -أيضاً- من طرق عن قتادة: ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٥/ ١٦٣)، وأحمد في «المسند» (٣/ ٢٧، ٢٨، ٤٨، ٦٤)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٩١٤) -وزاد: «ويغرسون النخل»- ورواته ثقات؛ كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (١٠/ ٣٢٣)-، وابن خزيمة في «الصحيح» (٢٥٠٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٦).

وأسقط يحيى بن سلام في «تفسيره» (ق ٩١/ ب) -ومن طريقه أبو عمرو الداني في «الفتن» (رقم ٦٨١)- (عبدالله بن أبي عتبة)! وقتادة لم يسمع من أبي سعيد.

وأخرجه عبدالرزاق في «التفسير» (٢/ ٢٧-٢٨): أنا معمر، عن قتادة، أن أبا سعيد، به موقوفاً.

هذا، وقد روى شعبة عن قتادة، قال: «سمعت عبدالله بن أبي عتبة يحدث عن أبي سعيد الخدري، عن النَّبي ﷺ قال: «لا تَقومُ السّاعَةُ حتى لا يُحَجُّ البَيْتُ».

أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤/ ٤٥٣)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه=

اجْعَلْ هَذا البَلَدَ آمِناً...﴾ إلخ [إبراهيم: ٣٥]):

حدثنا أحمد، حدثنا أبي -هو: حفص بن عبدالله بن راشد السلمي-، حدّثنا إبراهيم، عن الحجاج بن حجاج، عن قتادة، عن عبدالله بن أبي عُتبة، عن أبي سعيد الخُدْري -رضي الله عنه-، عن النّبي ﷺ قال:

«لَيُحَجَّنَّ البيتُ، ولَيُعتَمَرَنَّ بعد [خروج] يأجوج ومأجوج».

وفي أواخر «سنن ابن ماجه»[1] في (باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج):

حدثنا أبو كُرَيب، ثنا يُونس بن بُكير، عن محمد بن إسحاق، حدثني عاصم ابن عمر بن قتادة، عن محمود بن لَبيد، عن أبي سعيد الخُدْري، أن رسول الله ﷺ قال:

«تُفتَحُ يأجوجُ ومأجوجُ، فَيَخْرُجُون كما قال الله -تعالى-: ﴿وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، فَيَعُمّون الأرْضَ، ويَنْحازُ منهم المسلمونَ، حتى

=الذهبي، وهو يتعارض في الظاهر مع حديث الباب؛ لأنّ مفهومَه أنّ البيت يُحجُّ بعدَ أشراطِ السّاعة، بينما يَدُلُّ حديثُ شعبة على أنه لا يُحجُّ بعدها.

وقد أشار إليه البخاري، وذهب إلى تقديم حديث الباب، فقال: «والأول أكثر»؛ أي: لاتفاق أكثر الرواة على هذا اللفظ، وانفراد شعبة بما يخالفهم، وذهب غيره من العلماء إلى الجمع بينهما، فقال الحافظ ابن حجر: «لا يلزم من حج الناس بعد خروج يأجوج ومأجوج أنْ يمتنعَ الحجُّ في وقتٍ ما عند قرب ظهور الساعة».

ويظهر -والله أعلم- أن المراد بقوله: «لَيُحَجَّنّ البيت»؛ أي: مكان البيت، وجمع الحافظ ابن كثير بين الحديثين؛ فذكر أن الحج يمتنع عند خراب الكعبة، وذلك يقعُ على يديْ ذي السويقتين، ويكون ظهوره بعد هلاك يأجوج ومأجوج، وبنحوه جمع الحاكم -أيضاً-.

انظر: «فتح الباري» (٣/ ٤٥٥)، و«النهاية» لابن كثير (١/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ورسالة علي القاري «البينات في بيان بعض الآيات»، وقد فرغتُ من التعليق عليها، يسر الله نشرها.

(١) (رقم ٤٠٧٩).

تصيرَ بقيَّةُ المسلمين في مدائِنِهم وحصونِهم، ويَضُمّون إليهم مواشيَهُم، حتّى أنّهم ليمُرّونَ بالنَّهر فيشرَبُونَه، حتّى ما يَذرون فيه شيْئاً، فَيَمُرُّ آخِرُهم على أثرهم، فيقول قائلُهم: لقد كان بهذا المكان مرّةً ماءٌ، ويظهرون على الأرض، فيقول قائِلهم: هؤلاء أهلُ الأرض، قد فرَغْنا منهم ولَنُنَازلَنَّ أهلَ السَّماء، حتّى إنَّ أحدَهم لَيَهُزُّ حِربَتَه إلى السَّماء، فترجعُ مخضبَّة بالدَّم، فيقولون: قد قَتَلنا أهلَ السَّماء، فبينما هم كذلك، إذ بَعَث الله دوابَّ كَنَغف الجَراد، فتأخذُ بأعناقِهم، فيموتون مَوتَ الجراد، ويركَبُ[1] بعضُهم بعضاً، فيُصْبحُ المسلمون لا يسمعون لهم حِسّاً فيقولون: مَن رَجلٌ يشري نفسه وينظرَ ما فعلوا؟ فينزلُ منهم رجلٌ قد وطَّنَ نفسه على أن يَقتُلوه، فيجدُهم موتَى، فيناديهم! ألا أبشِروا! فقد هلَكَ عدوُّكم، فيَخرجُ النَّاس ويُخلُّونَ سبيلَ مواشيهم، فما يكون لهم رَعيٌ إلاّ لحومُهُم، فَتَشكَرُ[2] عليها، كأحسنَ ما شَكِرت من نبات أصابَتْه قط»[3] اهـ.

وقال[4] بعد حديث:

حدثنا مُحمّد بن بشّار، ثنا يزيد بن هارون، ثنا العَوَّام بن حَوْشَب، حدَّثني جَبَلَةُ بن سُحيم، عن مُؤْثِر بن عَفازَة، عن عبدالله بن مسعود، قال:

«لمّا كان ليلة أسرِيَ برسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا

(١) في مطبوع «سنن ابن ماجه»: «يركب» دون واو في أوله.

(٢) أي: تسمن وتمتلئ شحماً.

(٣) قال الشارح محمد بن عبد الهادي السندي: «وفي «الزوائد»: «إسناده صحيح، رجاله ثقات، ورواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم». (منه).

قال أبو عبيدة: أخرجه أحمد (٣/ ٧٧) وأبو يعلى (١١٤٤، ١٣٥١) في «مسنديهما»، وابن حبان في «صحيحه» (٦٨٣٠ - «الإحسان»)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢١ و١٧/ ٩٠)، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ٢٤٥ و٤/ ٤٨٩-٤٩٠) من طرق عن ابن إسحاق، وقد صرح بالتحديث هنا، وعند أحمد، فانتفت شبهة تدليسه، وإسناده حسن من أجله.

(٤) أي: ابن ماجه في «سننه» (٤٠٨١).

السَّاعة، فبدأوا بإبراهيم، فسَألُوه عنها، فلم يكن عنده منها عِلمٌ، ثم سألوا موسى، فلم يكن عنده منها عِلمٌ، فرُدَّ الحديثُ إلى عيسى ابن مريم، فقال: قد عُهد إليَّ فيما دُون وَجْبَتها (قيامها)، فأما وَجْبَتُها فلم[1] يعلمْها إلا الله، فذكر خروج الدَّجال، قال: فأنزل فأقتُلُه، فيرجع الناس إلا بلادهم، فَيَسْتَقْبِلُهم يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كل حَدَبٍ ينسلون، فلا يمُرّون بماء إلاّ شَرِبُوهُ، ولا بشيء إلاّ أفسدوه، فيجْأَرُونَ إلى الله، فأدْعُو الله أنْ يُميتَهم، فَتُنتِنُ الأَرضُ من ريحهم، فيجْأَرون إلى الله، فأدعُو الله فيُرسلُ السَّماءَ بالماء، فيحمِلُهم فيُلقيهم في البحر، ثم تُنسَفُ الجبالُ، وتُمَد الأرضُ مدَّ الأديم، فعُهِدَ إليّ: متى كان ذلك، كانتِ السّاعةُ من النّاس كالحامِلِ التي لا يَدري أهلُها متى تَفجؤُهم بوِلادتها»[2].

---

(١) كذا في الأصل، وفي مطبوع «سنن ابن ماجه»: «فلا».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥/ ١٥٧-١٥٨)، وأبو يعلى (٥٢٩٤) والهيثم بن كليب الشاشي (٢/ ٢٧١-٢٧٢، ٢٧٣ رقم ٨٤٥، ٨٤٧، ٨٤٨) في «مسنديهما»، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٨٤ و٤/ ٤٨٨-٤٨٩، ٥٤٥-٥٤٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (١/ ٣٤٠ رقم ٢١٨ - تحقيق الصاعدي) -ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٢٣٤-٢٣٥)-، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (٥/ ٩٨٧-٩٨٨ رقم ٥٢٩ و ٦/ ١٢١٢-١٢١٣ رقم ٢٦٧١) من طرُق عن يزيد بن هارون، به. من قول ابن مسعود، كما عند المصنف.

وأخرجه أحمد (١/ ٣٧٥) والشاشي (٢/ ٢٧٢-٢٧٣ رقم ٨٤٦ رقم ٨٤٦) في «مسنديهما»، وابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٧٢ - سورة الأنبياء)، والبيهقي في «البعث والنشور» (١/ ٣٤٢ رقم ٢١٩) من طريق هشيم عن العوام، به. وفيه: «عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيتُ ليلةَ الإسراءِ إبراهيم وموسى...» وهذا لفظ الشاشي.

ولفظ أحمد: «لقيت ليلة أسري به: إبراهيم وموسى وعيسى...» وساقوه بنحوه.

وأخرجه الطبري (١٧/ ٩١) -أيضاً- من طريق أصبغ بن زيد عن العوّام، به مرفوعاً، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد»! وقال مثله في الموطن الأول، وزاد: «فأما مؤثر فليس بمجهول، وقد روى عن ابن مسعود والبراء بن عازب، روى عنه جماعة من التابعين» ووافقه الذهبي.

وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٣١٢ رقم ١٤٤٠): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، ومؤثر بن عفازةَ، ذكره ابن حبان في «الثقات» [(٥/ ٤٦٣)]، وباقي رجال الإسناد ثقات»، وصححه العلاّمة=

....

=أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (٥/ ١٨٩-١٩٠).

قال أبو عبيدة: ليس كذلك، فمؤثر بن عَفَازةَ لم يوثقه غير ابن حبان والعجلي، وفي توثيقهما تساهل، ومُؤثِر -الميم مضمومة والثاء مكسورة منقوطة بثلاث- ابن عَفَازَةَ -العين مفتوحة غير معجمة، وبعدها فاء، والزاي منقوطة- يكنى أبا المثنى، شيباني، روى عنه جَبلة بن سُحيم. قاله العسكري في «تصحيفات المحدثين» (٢/ ١١٢٠).

ولم أجد مَنْ سمّى في الرواة عنه غيرَ (جَبلةَ بن سُحيم)، فلم أظفَرْ له في «تحفة الأشراف»، ولا في «إتحاف المهرة» (١٠/ ٤٩٥) في ترجمته عن ابن مسعود غير هذا الأثر، ولا ذكْرَ له فيهما في (مسند البراء)!

ولم أظفَرْ بمن وافق قولَ الحاكم: «روى عنه جماعة»! وإن نقلها عنه ابن حجر في «التهذيب» (١٠/ ٣٣١) في زياداته على المزي.

وكذلك مغلطاي في «إكمال تهذيب الكمال»، وزاد: «وذكره ابن سعد [(٦/ ٢٠٣)] في الطبقة الأولى من أهل الكوفة»، وقال العجلي [(١٨٠٨)]: من أصحاب عبدالله ثقة».

ولم يورد المزيُّ في «تهذيب الكمال» (٢٩/ ١٥) ممن روى عنه غير (جَبَلة).

ومع هذا فلم يذكرْه الذهبيُّ في «الميزان» ولا في «المغني» ولا في «ديوان الضعفاء» ولا في «ذيله»، ولعلَّ سبب ذلك تقدُّم طبقته، فهو كما عند ابن سعد (٦/ ٢٠٣)، ومسلم في «الطبقات» (رقم ١٢٧٨ - بتحقيقي) من (الطبقة الأولى من تابعي أهل الكوفة)، وقد قال الإمام الذهبي في آخر «ديوان الضعفاء» (ص ٤٧٨): «وأما المجهولون من الرواة، فإنْ كان الرجلُ من كبار التابعين أو أوساطهم؛ احتُمل حديثه وتُلُقّي بحسن الظَّنِّ إذا سَلِم من مخالفَة الأصول وركاكةِ الألفاظ، وإنْ كان الرجل منهم من صِغار التابعين؛ فيُتأنّى في روايةِ خبره، ويختلفُ ذلك باختلاف جلالة الرواي عنه وتحرِّيه، وعدم ذلك» انتهى.

ومما يقوِّي كلامَ الحاكم: إغفالُه من قَبل مَنْ صنَّف في المنفردات؛ مثل: مسلم، والنسائي، وأبي الفتح الأزدي في كتابه «المخزون».

ويُنظر له غيرَ ما تقدّم: «التاريخ» لابن معين (٢/ ٥٩١ و٣/ ٤٣٣)، و«التاريخ الكبير» (٤/ ٢/ ٦٣)، و«الجرح والتعديل» (٨/ ٤٢٩)، و«طبقات الأسماء المفردة» (ص ١٠٣ رقم ١٨٢ - ط. كوشك)، و«ذكر اسم كل صحابي روى عن رسول الله ﷺ أمراً أو نهياً ومن بعده من التابعين» (ص ٢٥٥رقم ٤٩٣) لأبي الفتح الأزدي، و«سؤالات ابن الجنيد ليحيى بن معين» (رقم ٤٥)، و«الكنى» (٢/ ٧٨١ رقم ٣١٨١) لمسلم و(٢/ ١٠٥) للدولابي و(رقم ٥٥٩٨) للذهبي، و«الكاشف» (٣/ ١٨٠) -وفيه -على عادته فيما انفرد بتوثيقه ابن حبان-: «وثق»-، و«خلاصة تذهيب تهذيب الكمال» (٣/ ٨٦)، و«التقريب» (٢/ ٢٨٠) -وفيه: «مقبول»؛ أي: إذا توبع، وإلا فليِّن-.

والحديث في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٨٨٥) لشيخنا الألباني -رحمه الله تعالى-، وحكم=

قال العَوّامُ: ووجد تصديق ذلك في كتاب الله -تعالى-: ﴿حَتَّى إذا فُتِحَتْ يَأجوجُ ومَأجُوجُ وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . [وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ]﴾[1] [الأنبياء: ٩٦-٩٧].

=بضعفه جمع من المشتغلين في التعليق على الكتب من أعيان أهل العصر، بسبب (مؤثر) هـذا، ولـو صحّ كلام الحاكم فهو على قواعد شيخنا الألباني حَسَن، على ما بينه في مقدمات «تمام المنّة» وغيرها.

(١) ما بين المعقوفتين من أواخر «مختصر تذكرة القرطبي» بعد قوله: ﴿يَنْسِلُونَ﴾. (منه).

قلت: هذه الزيادة موجودة عند الشاشي (٨٤٥)، والحاكم (٢/ ٣٨٤)، والبيهقي، وابن عساكر.

الخاتمة

فهذه الأحاديثُ النَّبويَّةُ تُنْبِئُ بأنه لا بُدَّ ليأجوجَ ومأجوجَ تلك الأمةِ المغوليةِ ولِمَنْ هنالك من سكان الشرق الأقصى الذين يربو عددُهم على (٦٠٠) ستٍّ مِئَة مليون مِنْ كَرَّةٍ أخرى، وهجمةٍ كبرى، الله أعلم بوقتها، على غربيِّ البلاد الآسيوية الشاملِ لهذه البلاد السورية، تحرقُ فيها الأخضَرَ واليابسَ، وتُهلِكُ فيها الحرثَ والنَّسل، ونرى الآن طلائعَ ذلكَ قد بَدت[1]، وأماراته قد ظَهرت للعيان.

هذه أمَّةُ اليابان التي هي من جملة سكان الشرق الأقصى، الذين نعتَبرُهم كلَّهم يأجوجَ ومأجوجَ[2]؛ لأنهم جميعَهُم من نسْلِ يافثَ بن نوح، ومن عُنصُرٍ واحدٍ نراها منذ سبعين أو ثمانين سنةً بدأت بالنهوضِ، ونـزعِ رداء الكَسَل والخُمول، وفي وَجيز من المدَّة جَعَلَتْ لها عند الدول الكبرى وبين جميع سكان الأرض مكانةً كُبرى، خصوصاً بعد حربها مع الدولة الروسية، وانتصارها عليها، واكتساحها بلادَ كوريةَ، وغيرَها من البلاد والجُزُر المجاورة لها، ولم يقِفْ بها الجشَعُ عند هذا الحَدِّ، بل وجَّهَتْ وجهَتها نحو بلاد الصين، ورَمت بنظرِها للاستيلاء عليها، وجعْلِها تحتَ سُلطانها، وأخذت منذ ثلاث سنين: من سنة (١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م) في محاربتها، ونثر عقدها حبَّةً حَبَّةً، وهي في هذه السنين الثلاث استولتْ على نحو نصفِ بلادها، ويبلغُ عددُ سكان ما استولَتْ عليه نحو مئتي مليون، غير مكترِثة باحتجاجات الدول الغربية: انكلترة وفرنسا وأميركا وغيرها من الدول، التي لها مصالح ومستعمرات في تلك البلاد الواسعة، وهي إلى اليوم لا تزالُ في توَغُّلٍ مستمرٍ، غير حاسبة حساباً لأحد، وساعدها على ذلك انشغال الدُّول

(١) لم يتحقق ما ظنَّه المصنف، وقد مضى ما يزيدُ على الستين سنة من كلامه هذا.

(٢) سبق تعقب ذلك بتطويل، فارجع إليه.

الأوروبية بحروبها الطاحنة مع بعضِها، وإن دامَ الحالُ معها على هذا المنوال، فهي عما قريبٍ ستبسُطُ سلطانها على جميع بلاد الصين، وترفعُ عليها لواءَها، وانتهزَتْ فرصة هذه الحروب بين الدول الأوروبية فنادَتْ بأعلى صوتها كما ذكرته الصُّحُف في هذا الشهر -وهو جمادى الثانية سنة ١٣٥٩هـ - وتموز سنة ١٩٤٠- أن آسيا للآسيويين كلمة معسولة وافقت أمزجتنا معشَر سكان آسيا الغربية، ولكنْ ما يُدرينا إنْ كان قصدُها وفي نيّتَها أنْ الآسيويين هم عبارة عن نفسِها، وأن آسيا جميعَها من أقصاها إلى أدناها ستجعلُها تحت سيطرتها ونفوذِها، وهي اليومَ أقوى الدُّول الشرقية، وأعظمُها سلطاناً، وستشُنُّ الغارةَ عليها، وتزحَفُ بجيوشٍ جرَّارةٍ من سكان بلادها وسكان بلاد الصين الواسعة خصوصاً، وقد تمهَّدت السبلُ بالجملة، ووُجدَت الخطوطُ الحديدية والسياراتُ والدباباتُ والغواصات، وغيرُ ذلك من الاختراعات المهلكة الجَهنَّمية التي تزهق أرواحَ كثيرٍ من البشر بأسرع من لمح البصر، فمتى حصل ذلك ونسأل الله أن يكون أمدُه بعيداً، فهناك الواقعة العظمى والطامة الكبرى، التي أخبرت بها الأحاديثُ النبويَّةُ، ويكون ذلك من جملة علامات الساعة واقتراب الوعد الحق[1].

---

(١) خابَ ظنُّ المصنف -رحمه الله تعالى- ، ولم يقَع ما توقَّعه، واليابان اليوم لا يوجد عندها جيشٌ البتة، إلا جيش دفاعٍ، وتنزيلُ ما يجري في الواقع على أحاديثِ أشراط الساعة ليس من منهج السلف، وقد أخطأ في هذا المسلكُ من صنَّف في «عُمْرِ أمّة الإسلام»، وتجلّى ذلك واضحاً في كتابه الآخر «هرمجيدون»! فقد حشاه بالأباطيل والتُّرَّهات، وفيه إسقاطاتٌ في غير محالِّها، ونقل من مصادر لا تعتَني بالصحيح، وفيه لعبٌ بعقول السُّذج من الناس، وعباراتٌ فيها إثارة تصلُح لأصحاب الصُّحف والمجلات، أو قُل: لأهل (السيناريو) من أهل الخلاعة في (الأفلام) و(المسلسلات)!! فهذا الكتاب هو -بحدِّ ذاته- من الفتن (العاصفات)! وإلى الله المشتكى من أهل هذا الزمان.

قال العلاّمة المتفنن الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في محاضرته القيّمة «الضوابط الشرعية لموقف المسلم من الفتن» (ص ٥٢/ ٥٣) في آخر (ضابط) ما نصه:

«وآخر تلك الضوابط والقواعد: أنْ لا تطبِّق -أيها المسلم- أحاديثَ الفِتن على الواقع الذي تعيش فيه؛ فإنه يحلُو للنّاس عند ظهور الفتن مُراجعة أحاديث النّبي ﷺ في الفتن، ويكثر في مجالسهم: قال النّبي ﷺ كذا؛ هذا وقتها، هذه هي الفتنة! ونحو ذلك.

والسَّلف علّمونا أن أحاديث الفتن لا تنزّل على واقع حاضر، وإنما يظهر صدق النّبي ﷺ بما=

نسأل الله -تعالى- اللُّطف بعباده والسلامةَ والعافية في ديننا ودنيانا، إنه على ما يشاءُ[1] قدير، وهو اللطيف الخبير.

=أخبر به من حدوث الفتن بعد حدوثها وانقضائها، مع الحذر من الفتن جميعاً.

فمثلاً: بعضهم فسَّر قول النّبي ﷺ:

«إن الفتنةَ في آخر الزَّمان تكونُ مِنْ تحت رجلٍ من أهْلِ بيتي»:

بأنه فلان ابن فلان، أو أن قول النّبي ﷺ:

«حتّى يصطلح الناسُ على رجُلٍ كوَرْك على ضلع»:

بأن المقصود به فلان ابن فلان، أو أن قول النّبي ﷺ:

«يكون بينكم وبين الروم صلح آمن...»:

إلى آخر الحديث وما يحصل بعد ذلك، أنه في هذا الوقت.

وهذا التطبيقُ لأحاديث الفتن على الواقع، وبثُّ ذلك في المسلمين، ليس من منهج أهل السنّة والجماعة.

وإنما أهلِ السنّة والجماعة يذكُرُون الفتن وأحاديث الفتن؛ محذرين منها، مباعدين للمسلمين عن غشيانها أو عن القُرب منها؛ لأجل أن لا يحصل بالمسلمين فتنة، ولأجل أن يعتقدوا صحة ما أخبر به النّبي ﷺ» انتهى كلامه.

قال أبو عبيدة: يُغْنينا على ظنِّ المصنف ما قاله الآلوسي -رحمه الله تعالى-:

«ومن وقف على الكتب المؤلَّفة في هذا الشأن، واطَّلع على أحوال الزمان؛ رأى أنّ أكثر هذه العلامات قد برزَت للعيان، وامتلأَت بها البلدان، ومع هذا كله، فأمرُ الساعة مجهول، ورداءُ الخفاء عليها مسدول، ما ينبغي أن يقالَ: إن ما بقي من عمر الدنيا أقلُّ بالنسبة إلى ما مضى».

(١) قال صاحب «عنوان المجد» (٢/ ٢٧):

« هذه الكلمةُ اشتهرَت على الألسُن من غير قصد، وهي قولُ الكثير إذا سأل الله -تعالى-: (وهو القادر على ما يشاء)، وهذه الكلمة يقصِدُ بها أهلُ البدع شرّاً، وكلُّ ما في القرآن: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وليس في القرآن والسنة ما يخالف ذلك أصلاً؛ لأن القدرة شاملة كاملة، وهي والعلم: صفتان شاملتان تتعلقان بالموجودات والمعدومات، وإنما قصد أهل البدع بقولهم: (وهو القادر على ما يشاء): أن القدرة لا تتعلق إلا بما تعلقت به المشيئة».

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم في «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٠٧-٢٠٨): =

تمَّ في ١٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٩ و٢٣ تموز سنة ١٩٤٠.

بعد التاريخ المتقدم بتسع سنوات

هذا ونحن الآن في أوائل سنة ١٣٦٨هـ ومطلع عام ١٩٤٩م، وقد حصلت بعد التاريخ المتقدم تلكَ الحرب العالميةُ الثانية، وكانت النتيجة: أن انكسرَتْ دولةُ الألمان وإيطاليا وحليفتُهما في الشرق الأقصى اليابان، لتألُّب الدول الثلاث الكبرى (إنكلترة وروسية وأميركا) عليها، واستسلمت اليابان بعد تلك القنبلة الذَّرّية التي ألقيت على (هيروشيما ونازاكي)، فأفنتْ مَن هنالك من السكان، وذلك في ٥ آب سنة ١٩٤٥، وكانت اليابان قد اكتَسَحت جنودُها نحو نصف بلاد الصين ووصلَت إلى حدود بلاد الهند الشرقية.

= «الأولى أن لا يطلق ويقال: إن الله على كل شيءٍ قدير؛ لشموله قدرة الله -عزَّ وجلَّ- لما يشاؤه ولما لا يشاؤه».

وقد جاء إطلاق هذه اللفظة في حديث ابن مسعود الطويل الذي أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٨٧) بعد (٣١٠) جاء في آخره:

«قالوا ممّ تضحك يا رسول الله؟ قال: «من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مِنّي وأنتَ ربُّ العالمين، فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قدير».

وأخرجه ابن منده في «الإيمان» (رقم ٨٤١) بلفظ: «ولكن على ما أشاء قادر»».

قال الشيخ بكر أبو زيد في «معجم المناهي اللفظية» (ص ٣٣١):

«لكنّ هذا الإطلاق مقيدٌ بأفعال معينة كهذا الحديث، وكذلك في الآية: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] معلقةً بالجمع، وعليه؛ فإنّ إطلاق هذا اللفظ له حالتان:

الأولى: على وجه العموم؛ فهذا ممتنع لثلاثة وجوه:

الأول: لأن فيها تقييداً لما أطلقه الله.

الثاني: لأنه موهم بأن ما لا يشاؤه لا يقدر عليه.

الثالث: لأنه موح بمذهب القدرية.

والحالة الثانية: على وجه التقييد كما ذكره».

ولم تقِف روسيةُ بعد هذا عند هذا الحدِّ، بل جدت في إدخال الشيوعية إلى بلاد الصين وإلى غيرها من بلاد الشرق والغرب، وآخر ما قرأناه من عهدٍ قريب أنّ مليون صيني من جنود الحكومة يقاتِلُون بضراوةٍ نصفَ مليون من الشيوعيين على مقربةٍ من عاصمة الصين (تانكلين)، ثم قرأنا أنهم حاصروها، ثم إنهم قدِ احتلّوها، أو كادوا، وإن مَلِكها قد استنجد بالولايات المتحدة الأميركية، وإنّ هذه قد عزمَت على مساعَدتِها، لإبعاد الشيوعيين عن مملكة الصين، ولا ندري على ماذا تستقر الحالة هناك، وما يكون من أمرهم جميعِهم.

وكيفما كان، فإنّ الصين سواءٌ اعتنقت مبادئ الشيوعية -التي هي الخطر الأكبرُ على البشر- فإن بوادر اليقظَة قد دبَّت في عروقها، ولا بدَّ لها بعدَ أن تضَعَ هذه الحربُ أوزارها من أنْ تنهض لتنظيم شؤونها الاقتصادية والسياسية، حتى إذا رأتْ نفسها أنها أصبحت في قوةٍ كافية، واستعداد تام، أخذتْ تتطلعُ إلى ما يليها من بلاد آسيا الغربية، واللهُ أعلم بما يكون منهم عند ذلك، على أنه لا ينبغي لممَالك آسيا الغربية أنْ تظلَّ على حالتها الحاضرة راقدةً في مِهاد الخمول، قابعة في زوايا الغَفْلة، قانعةً بمصَّة الوشْلِ، مترنمّة بمجد الآباء، وعزِّ الأجداد، بل عليها أنْ تزيلَ عنها نقابَ الاستكانة والجهل، وتنفُض عنها غبارَ العجز والكسَل، وتأخذ حِذرها مما يحوكُه لها الشرق والغربُ، وتنهضَ لاتخاذ الأسباب التي تقيها وتبقيها، وتعِدَّ العُدَّة الكافية للحادثات والكارثات؛ عملاً بقوله -تعالى-: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ﴾[1] [الأنفال: ٦٠]، على أن نَبني القوة الأولى على أساس الأخلاق

(١) التحريضُ على الرمي كان في الزمن الماضي بالنشّاب والقوس، وأما اليوم؛ فينبغي أن يكون على تعلم استعمال الآلات التي شاعت في زماننا.

ومن الغباوة الجمودُ على ظاهر النصوص التي فيها الرميُ بالقوس؛ فإنّ التحريض عليه ليس إلا للجهاد، وليس فيه معنى وراءه، ولما لم يبق الجهاد بالنشاب والأقواس؛ لم يبق فيها معنى مقصود، فلا تحريض فيها.

«ومن هذه الغباوة ذهبتْ سلطَنة (بخارى)، حيث استفتى السلطانُ من علماء زمانه بشراء بعض=

الفاضلة، والمبادئ القويمة، فلا قوةَ تجدينا إذا لم نتحلّ بها، ولا مكانة إذا لم تتحد كلمتُنا، وتتوثقُ ألفتنا، ولا عصمة إذا لم نعتَصم بحبل الله جميعاً، ولا إصلاح إذا لم نوجّه الهمَمَ إلى إصْلاح شؤوننا في ديننَا ودنيانا، إلى هذا يرشدنا النّبي ﷺ وأن ندعوا بأمثال هذا الدعاء[1]:

«اللهم أصلِحْ لي ديني الذي هو عصمةُ أمري، وأصلِح لي دُنيايَ التي فيها مَعاشي، وأصلِح لي آخرتي التي فيها مَعادي، واجعل الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خير».

وقد أمرَنا اللهُ -تعالى- في كتابه أن نقول مبتهلين إليه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

اللهم هيِّئ لنا من أمرِنا رشَداً، واهدنا إلى الصِّراط السَّوي، ووفّقنا إلى صلاح ديننا وتنظيم دنيانا، إنك أنت العزيز الحكيم، وأنت على كلِّ شيءٍ قدير[2].

=الآلات الكائنة في زمنه، فمنعوه، وقالو: إنها بدعة!! فلم يدَعُوه أن يشتريها، حتى كانت عاقبة أمرهم أنهم انهزموا، وتسلّط عليهم الروس، ونعوذ بالله من الجهل».

قاله الكشميري في «فيض الباري» (٣/ ٤٣٥)، ونحوه عند المطيعي في «تكملة المجموع» (١٥/ ٢٠٣)، وعند الساعاتي في «الفتح الرباني» (١٣/ ١٣٠).

(١) الدعاء المذكور، أخرجه مسلم في «صحيحه» في كتاب الذكر والدعاء (باب التعوّذ من شر ما عُمل ومن شر ما لم يعمل) (رقم ٢٧٢٠) عن أبي هريرة، قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: فذكره، وفي آخره زيادة: «واجعل الموت راحةً لي مِنْ كلِّ شرّ».

(٢) فرغت من التعليق عليه، وتخريج أحاديثه بعد ظهر يوم السبت، السادس عشر من جمادى الثانية، سنة ١٤٢٣هـ وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.

ملحق (١) تابع لهامش (٦) في صفحة (١٣١)

ثم وقفت على مستند ذلك وهو خبر منكر.

أخرج أحمد في «المسند» (٥/ ٣٥٧) -ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٣٠٨-٣٠٩) وفي «مناقب أحمد» (ص ٣٧)-، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ١٢٤)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٤٨)، والطبراني في «الأوسط» (٨٢١١)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٤٠١، ٤٠٢)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٤٧٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣٣٢) من طرق عن أوس بن عبدالله بن بريدة، عن أبيه، عن جده -ولم يذكر الطبراني في إسناده سهل بن عبدالله بن بريدة، ووقع عند أبي نعيم: «عن سهل، عن جده» بإسقاط عبدالله بن بريدة-، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ستكون بعدي بعوث كثيرة، فكونوا في بعث خراسان، ثم انزلوا مدينة مرو؛ فإنه بناها ذو القرنين، ودعا لها بالبركة، ولا يضر أهلها سوء».

وإسناده ضعيف جداً شبه موضوع؛ من أجل أوس بن عبدالله بن بريدة، فهو متروك الحديث، وكذا أخوه سهل، وتابع سهلاً حسامُ بن مِصَك، وهو متروك -أيضاً-، ونوح بن أبي مريم أبو عصمة، وقد رماه غير واحد من الأئمة بوضع الحديث، وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» عن هذا الخبر: إنه منكر، وقال في موضع آخر: خبر باطل.

ومع ذلك فقد تساهل الحافظ ابن حجر جداً، فحسنه في «القول المسدد» (ص ١٣٣)، وتبعه السيوطي في «النكت البديعات» (رقم ٣٢٨ - بتحقيقي).

وأخرجه ابن عدي (٧/ ٢٥٠٧)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٣٠٩) من طريق نوح بن أبي مريم، والطبراني في «الكبير» (١١٥١)، وابن عدي (٢/ ٨٤٠)، وابن الجوزي في «العلل» (١/ ٣١٠) من طريق حسام بن مصك؛ كلاهما عن عبدالله بن بريدة، به.

ولفظ حديث حسام بن مِصَك عند ابن عدي وابن الجوزي: «مكة أم القرى، ومرو أم خراسان»، وليس في حديث نوح بن أبي مريم قوله: «فإنه بناها ذو القرنين، ودعا لها بالبركة».

وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢/ ٥١):

«قلت: هذا الحديث والتعقيب عليه نقلتهما من «النكت البديعات» وليس في «اللآلئ المصنوعة»، ورأيت بهامش «الموضوعات» استدرك هذا الحديث بخط الشيخ تقي الدين القلقشندي، وكتب عقبه: لم يذكر المؤلف هذا، وقد ذكر أحسن حالاً منه».

الفهارس

* فهرس الآيات على ترتيب المصحف.
* فهرس الأحاديث.
* فهرس الآثار على القائلين.
* فهرس الأعلام.
* فهرس الغريب.
* فهرس الجرح والتعديل.
* فهرس الفرق والأديان والقبائل والشعوب.
* فهرس الأماكن والبلدان.
* فهرس الأشعار.
* فهرس الكتب.
* فهرس الفوائد العلمية.
* الموضوعات والمحتويات.

فهرس الآيات على ترتيب المصحف

سورة الأنبياء

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الأحزاب

سورة الصافات

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة النجم

سورة القمر

سورة الرحمن

❊ ❊ ❊

فهرس الأحاديث الإلهية

* * *

فهرس الأحاديث على الحروف

* * *

فهرس الآثار على القائلين

آدم

أبو الزاهرية

أبو العالية

أبو بكرة

أبو هريرة

أحد الخطباء

أحمد بن حنبل

إبراهيم الخليل (عليه السلام)

إبراهيم بن علي

إسحاق بن راهويه

ابن الأنباري

ابن الكواء

ابن جريج

ابن عباس

ابن عمر

ابن عمرو

ابن مسعود

البخاري

بعض الصحابة

بكر بن مضر

جبير بن نفير

جعفر

ذو القرنين

رجل

الزهري

شعبة

عبدالرحمن بن زيد بن أسلم

عبدالله بن سلام

عطاء

عكرمة

علي

عمر

قتادة

قس بن ساعدة

كعب الأحبار

الكلبي

مجاهد

محمد بن علي بن الحسين

الواثق بالله

وهب بن جابر

وهب بن منبه

يوسف بن أبي مريم

* * *

فهرس الأعلام

(١) انظر: ذو القرنين أبو كرب شمس ابن عبير بن إفريقيش.

(٢) انظر: ذو القرنين سمي بن عمير ابن إفريقيس.

* أعلام النساء

* * *

فهرس الغريب

* * *

فهرس الجرح والتعديل

* * *

فهرس الفرق والأديان والقبائل والشعوب

❊ ❊ ❊

فهرس الأماكن والبلدان

❊ ❊ ❊

فهرس الأشعار

صدر البيت	القافية	القائل	الصفحة
أزال عن المصانع ذا رياشٍ	والجبالا	امرؤ القيس	٨٧
ألا أين ذو القرنين؟ أين جموعه؟	ثم قلت	الربيع بن ضبيع	٨٤
ألا يا لقومي قد تبدد إخواني	وأخداني	الربيع بن ضبيع	٨٤
ألم تر لقمان بن عادٍ تتابعت	كواكبه	طرفة بن العبد	٨٦
ألم تعلموا ما حاول الصعب مُدّة	رزاح	الربيع بن ضبيع	٨٥
ألم يخبرك أن الدهر غولٌ	الرجالا	امرؤ القيس	٨٦
أين الذي بلغ المشارق كلها	تعمر؟	علقمة بن ذي جدن	٨٧
أيها الهادم سوراً	المنون	شاعر	١٣٢
إذا الصعب ذو القرنين أزجى لواءه	نوادبه	طرفة بن العبد	٨٦
إن جاوزت من شرفات جو	رحرحان	المقعقع الحميري	٨١
اسمع ذا القرنين لما علا	الشامله	المحمود بن زيد	٨٢
بحنو قراقر أمسى رهيناً	الهجان	المقعقع الحميري	٨١
بذا قضت الأيام ما بين أهلها	فوائد	شاعر	٢٩٤ت
بلغ المشارق والمغارب يبتغي	سيد	أحد الشعراء	٤٠ت، ٥٣
تولى شباب كنت فيه منعماً	الفرحات	ابن لنكك	١٣٣، ١٥١
حريق دمشق قد بدا لعيان	معاني	شاعر	٢٩٢ت
حنانيك يا أوس بن حجر، فإنه	ويهلك	أوس بن حجر	٨٦
الخيل قد صهلت والسمر قد نهلت	ركعت	شاعر	٢٩٤ت
دمشق لها منظر فائق	مائقُ	قائل	٢٩١ت
ذوائب لجت في علو كأنما	الكواكب	قائل	٢٩١ت
رأيت قروناً بعد قرن تقدمت	ولت	الربيع بن ضبيع	٨٤

* * *

* * *

فهرس الكتب*

* ذكرتُ ما في الهوامش -أيضاً-، وهو يغني عن المصادر والمراجع.

❊ أبحاث

❊ الرسائل والقصص والسماعات

❊ المجلات والجرائد

* مقالات

* * *

فهرس الفوائد العلمية

* فوائد تتعلق بذي القرنين

* فوائد تتعلق بيأجوج ومأجوج

* فوائد تتعلق بالسد

* فوائد تتعلق بالخضر

* فوائد تتعلق بالإسكندر

* فوائد تتعلق بمناقب العرب والمسلمين في العلوم العامة

* فوائد تتعلق بالجغرافيا

تعريف ببلاد المغول: ١٩٠ت.

* فوائد تتعلق بكولمبوس وأميركا واكتشافها

* فوائد تتعلق بالصين وبسورها العظيم

* فوائد تتعلق بالتتار وغزوهم لبلاد المسلمين

* تنبيهات وتوضيحات وتعريفات ومفاهيم

* فوائد عامة تتعلق بالكتب والمؤلفات

* مصادر ومؤلفات في مواضيع معينة

* فوائد تتعلق بالحديث وأصوله

* تعقبات وردود وإنكارات

* * *

الموضوعات والمحتويات

* * *